تأليف
ابراهيم حركات

المغرب عبر التاريخ

عرض لأحداث المغرب وتطوراته في الميادين السياسية والدينية والاجتماعية والعمرانية والفكرية منذ ما قبل الاسلام إلى العصر الحاضر (ق ١٤ هـ و ٢٠ م)

من بدايـــة المرينيين الى نهايـــة السعديين

النـاشر
دار الرشـاد الحديثـة
40 شارع فيكتور هيجو
الدار البيضـــاء

المغرب عبر التاريخ

عرض لأحداث المغرب وتطوراته في الميادين السياسية والدينية والاجتماعية والعمرانية والفكرية

منذ ما قبل الاسلام إلى العصر الحاضر (ق ١٤هـ و ٢٠م)

تأليف

ابراهيم حركات

المجلد الثاني

من بداية المرينيين إلى

نهاية السعديين

الناشر

دار الرشاد الحديثة

40 شارع فيكتور هيجو

الدار البيضاء

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الاولى

المغرب بلد يصنع التاريخ ولكن أهله لم يكتبوه بعد . نعم ، لم يلم أحد بعد شتات هذا التاريخ ليصل بـــه إلى أحداث القرن الرابع عشر (أو العشرين) وتطوراته العظيمة ، ولم يجمع أحد بين التاريخ السياسي والحضاري لهـذا البلد الذي لعب دوراً بطولياً في الماضي والحاضر .

والمغرب بلد يصنع المؤرخين ، ولكن ظروف الحياة وخوف بطش الحاكمين وتعاقب الدول رمى بهم في زوايا الإهمـــال والنسيان . فماذا نعرف عن حياة عبد الواحد المراكشي وابن عذاري وصاحب روض القرطاس والحلـل الموشية وعشرات غيرهم ممن ساهموا في تسجيل تطورات التاريخ المغربي بقليل أو كثير ؟

إن أهميــة المغرب في تاريخ حوض البحر المتوسط تتجلى في نشره للحضارة بين مجموعة من أقطاره ، كما نقـــل حضارة الأندلس إلى أهله ، وأقام علاقات ثقافية وسياسية مع مختلف دوله وإن للمغرب في تاريخ الدبلوماسية لشأناً دونه شأن كثير من دول العالم ، ولعل الله عز وجل يعينني على إبراز هـذه الحقيقة في كتاب خاص ، بل في مجلد حافل يسجل نشاط هذه الدبلوماسية المجهولة .

ولقد كانت نيتي تتجه إلى وضع كتاب ضخم يشمل عـدة مجلدات لتسجيل كل ما يبلغ إليه جهدي الضعيف من تطور المغرب السياسي والفكري والعمراني والاجتماعي والاقتصادي لولا أن ذلك يحتاج إلى تفرغ ومواصلة للبحث وتيسر المراجع ، والتمكن من زيارة عدة خزائن وآثار لدراسة شيء من هـذا التطور

عن كتب . ثم كم عدد هؤلاء الذين يستطيعون أن يدرسوا أو يطالعوا على الأقل كتاباً ضخماً يتطلب نفقات مرتفعة ومستوى يفترض أن يفوق مستوى القارىء العادي ؟ وأين هي المطبعة التي يمكنها أن تخرج مجموعة من المجلدات في زمن معقول ؟ وأين هو الناشر الذي سيتحمل نفقات هذا المشروع ؟

وإذاً ، فقد ارتأيت أن أقتصر على تاريخ وسط للمغرب ، لا هو بالوجيز المخل ولا بالطويل الممل ، فيستفيد منه من بدأ يتلمس خطواته نحو البحث والاطلاع ، كما يرجع إليه الأستاذ الذي يقدم دروساً هي بين التعمق والتبسط . ولا يصعب تناوله مع ذلك ، على القارىء المتنور . وهكذا لن يكون هذا الكتاب هو نهاية الجودة والاستقصاء، وإنما هو نقطة انطلاق تفتح آفاق الطالب على أشياء من تاريخ المغرب مجهولة لديه ، ثم يرتكز عليها الباحث ليسير في طريق التعمق والتفصيل .

وهذا الكتاب يحاول به صاحبه أن يضع حقائق التاريخ المغربي في نطاق العلم المجرد ، وليت ثمت ولله المنة ، من عصبية تحدو مؤلفه إلى الاتجاه بالتاريخ عكس الحقيقة . وإن بعض المؤرخين الأجانب المعروفين بتدليسهم ودسهم على التاريخ قد يصادفون أحياناً وجه الحق ولو كانوا من وراء ذلك مغرضين،فيجب أن نقبل الحق فيما كتب عن تاريخنا ولو كان من خصومنا فتاريخ أي دولة في العالم ليس مجرد أنوار ساطعة وحياة سعيدة على مر الأيام . وثمت نقط سوداء في كل تاريخ وأحياناً في كل فترة من التاريخ فيجب أن تسجل هذه النقط السوداء كما تسجل الصفحات النقية جنباً لجنب ، وإننا لنظلم التاريخ إذا نوهنا بالباطل وهو باطل ، ولشد ما أكره موقف الذين يرون أن لا يسجل من التاريخ إلا الصفحات الناصعة ، مع أن الأخطاء والجرائم ترتكبها الدول كما يرتكبها الأشخاص ، وإن في مصائر الدول بسبب هذه الجرائم والأخطاء ، لعبرة لو كانوا يعلمون .

ولقد حظيت افريقيا الشمالية من لدن المؤرخين الفرنسيين والاسبان بما لم تحظ به من لدن أبنائها أنفسهم طيلة أيام الاحتلال الأجنبي للمغرب العربي .

وإذا كنت قد خصصت المغرب الأقصى وحده بالدراسة في هذا الكتاب فليس ذلك من باب التعصب السياسي، وإنما لضرورة حاجة أبناء المغرب الأقصى إلى أن يعرفوا من حقائق تاريخ وطنهم الأصغر، ما يتخذونه سبيلاً إلى معرفة المغرب الأكبر، والدراسة الحقيقية تبتديء من البيئة المحلية ثم يتوسع نطاقها شيئاً فشيئاً.

أما طريقة العرض في هذا الكتاب فقد بدأته بالفترات الغامضة من عصوره أي ما قبل دخول الإسلام ثم الفتح الإسلامي وآثاره، فالادارسة وحضارتهم، فالزناتيين، فالمرابطين وحضارتهم، وهكذا إلى أن أنتهى بالأحداث والتطورات المعاصرة، وقد عملت على أن يكون الكتاب في ثلاثة مجلدات أولها ينتهي بنهاية دولة الموحدين وحضارتهم، والثاني يؤرخ للمغرب من دولة المرينيين إلى نهاية السعديين، والثالث يؤرخ لدولة العلويين.

وقد قسمت تاريخ كل دولة إلى ثلاث مراحل: دور النشأة، ودور العظمة، ثم دور الضعف الذي يتلوه فصل يبين أسباب سقوط الدولة ومراحله فأهمية أعمال الدولة بوجه عام، ثم علاقات المغرب بالخارج في عهد الدولة وأخيراً يأتي الحديث عن الحياة الدينية التي تمثل تطوراتها قسماً كبيراً من الحياة السياسية نفسها، وبعد ذلك استعرض الحضارة في عهد الدولة بما يدخل في ذلك من نظم الحكم والادارة والحياة الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والفكرية.

وإذا كان ثمت من نقص يلاحظ في هذا الكتاب فلعلني أول من شعر به لما يحيط بكثير من فترات التاريخ المغربي من الغموض، ولسكوت المصادر عن عرض الميادين الحضارية التي هي معظم ما نقيس به أهمية هذه الدولة أو تلك، حتى إنني قد اضطررت أحياناً إلى اختصار العرض السياسي عن الدولة لصالح العرض الحضاري، لأن الأحداث هي كل ما اهتمت به المراجع السابقة، ثم إن المصادر العربية أعطت للفتن والثورات نصيباً كبيراً على حساب كثير من أنواع النشاط القومي والحكومي، فأخذنا من تاريخنا من المساوىء ما لا تعتبر المحاسن إلا شيئاً تافهاً دونه. ولقد قلت سابقاً أن النقط السوداء يجب أن تسجل جنباً لجنب مع الصفحات النقية.

ويجب أن أسجل بكثير من التقدير جهود الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله في إبراز كثير من مظاهر الحضارة المغربية التي قدم إلينا فيها أبحاثاً عميقة إلى جانب الجهود التي بذلها الأستاذ محمد الفاسي عن النشاط الفكري المغربي ، والأستاذ عبد الهادي المنوني عن الحركة العلمية في عهد الموحدين ، والأستاذ عبد الله كنون في سلسلته الجديرة بالتنويه .

أما الجهد الكريم الذي قدمه الناشر ، فيكفي أن أقول انه أول من شجع فكرة وضع هذا الكتاب وانه سهر شخصياً على تتبع طبعه واخراجه من أول صفحة ، ولكن هنات فنية لم يخل منها الكتاب ولم يكن للناشر فيها من حول فهي هنات شبه معتادة في مطابعنا التي تشكو نقصاً لا يكاد يسد ، في اطاراتها .

وقد قامت الدار [redacted] بإخراج سلسلة لا بأس بها من الكتب القيمة وهي ما تزال ماضية في خطواتها الموفقة ، أعاننا الله جميعاً على إتمام هـــذا العمل وهو نعم المولى ونعم النصير .

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

بنو مرين

1 - العالم في هذا العصر

1 - العالم الغربي :

عرف عصر بني مرين دولاً اوروبية تكونت أو سارت في طريق الوحـدة السياسية حيث بدأت تسودها مظاهر الحضارة التي تأثر بها الافرنج عن طريق الاحتكاك بأهـــل الأندلس أو بالمسلمين في الشرق وخلال الحروب الصليبية ، وهكذا ظهر خلال نشأة الدولة المرينية أو قبلها بقليل ملوك مشهورون كالقديس لويس بفرنسا (1226 - 1270) وريشار قلب الأسد بإنجلترا (1133 - 1157) وتشكلت مملكة القبطيين وبينهم القديس المذكور وفليب الجسور (1270 - 1285) وظهرت بعد ذلك دولة الفاليين (des Valois) التي امتد ملكها في فرنسا من (1328 - 1483) وأثناء ذلك ظهرت على مسرح السياســـة الوطنية الفرنسية شخصيـــة جان دارك التي حاربت الانجليز بعد استيلائهم على فرنسا سنة 1420 ولكنهم قبضوا عليها أخيراً وأحرقوها سنة 1431 ، وفي القرن الرابع عشر بدأ تنظيم البرلمان الفرنسي على يد فليب الرابع وأخـذت فرنسا تعرف الطريق إلى الحضارة بواسطة التقدم الفلاحي وتقليد الفن الغوطي وظهور الآثار الأدبيـــة المتمثلة في أغاني رولان، وأنشأت فرنسا لأول مرة أسطولاً في أيام لويس الحادي عشر وظهر بعض المؤرخين الفرنسيين كجوان فيل مؤرخ القديس لويس وساعد إنشاء المطبعة الفرنسية على رواج الآثار الفكرية .

أما انجلترا فقد عرفت تقدماً سياسياً عظيماً خلال القرن الرابع عشر حيث أعطي برلمانها صلاحيات واسعة كحق التصويت على الضرائب وتغيير القوانين وكانت الطبقة الشعبية الفقيرة قد بدأ يسودها الوعي السياسي ، فاستعدت لمقاومة ظلم الطبقة الارستقراطية ، ولكن الملكية المطلقة التي فرضت على البلاد فيما بين (1485 – 1603) أوقفت إلى حين هذا الوعي الديموقراطي لتسير البلاد بعد ذلك حثيثاً نحو الديموقراطية الحقة .

2 – العالم الاسلامي :

لم يَخلُ الشرق الإسلامي في هذا العصر من دول تحمي ظهره وترد عنه كيد الغاصبين ، فقد نشأت دول المماليك البحرية بمصر على أنقاض الأيوبيين وقام الظاهر بيبرس بصد هجوم المغول في معركة عين جالوت سنة 1253 ولولا هذه الهزيمة التي لقيها المغول في هذه المعركة لكانت مصر ولا شك طعمة لطغيانهم ، ولكنه لم يوفّق في انتزاع بغداد منهم ، ثم نشأت دولة المماليك البرجية على يد القائد قلاوون سنة 1273 م وجعل ابنه برقوق مقر قيادته في أبراج القاهرة ، وفي أيامهما كان ابن خلدون قد استوطن مصر ولعب دوره السياسي المعروف أثناء استيلاء تيمورلنك على الشام وقد عاصر كل من الفقيه خليل الصفدي وابن تيمية ، المؤرخ ابن خلدون مع تفاوت بينهم في السن .

وفي أواسط عهد الدولة المرينية تأسست الدولة العثمانية بالأناضول واتخذت بروسة في البداية عاصمة لها وظهر بينها كثير من الملوك العظام الذين عاصروا بني مرين كأورخان الذي كان أول من نظم الجيش العثماني ، وبايزيد الذي قضى على النفوذ البيزنطي في آسيا الصغرى وجابه في آن واحد خطر الصليبيين الذين تجمعوا من دول اوروبا الغربية وبلاد البلقان تحت رعاية ملك المجر سنة 1336 فسحق جيوشهم بايزيد ؛ ثم خطر المغول الذين تمكنوا في الأخير من اقتحام بلاده واعتقاله بقيادة تيمور لنك وكانت دولة بني مرين يومئذ قد بدأت تدب نحو الضعف ثم الاضمحلال ، حتى إذا اقتربت من نهايتها بنحو عقدين من السنين كان محمد الثاني قد تمكن من اقتحام القسطنطينية سنة 1433 ليقضي نهائياً على

دولة بيزنطة التي كانت امتداداً لدولة الرومان العتيقة ، والحق ان البيزنطيين قد تركوا آثاراً رائعة في القسطنطينية هي ثمرة من ثمرات مدنيتهم .

ويمثل عصر بني مرين بداية فـترة تحول النفوذ الإسلامي من غرب البحر المتوسط إلى شرقيه حيث أضحت الدولة العثمانيـة تتحكم في مصير العالم ومع ذلك فلم تتمكن مطلقاً من بسط نفوذها المباشر على المغرب مما يسر لدولة بني مرين وخلفائها أن يرْعوا إلى حدٍّ كبير الحركة العلمية وما يتصل منها بالدين الإسلامي على الخصوص ، فيما كانت دول الشرق الإسلامي تعـاني من ضغط العثمانيين محنة عظيمة بالإضافـة إلى أن هؤلاء كانوا دولة عسكرية قليلة الاهتمام بتخليد الثقافة العربية

أما في افريقية فإن جيوش الصليبيين التي تحاشت المغرب لتحط بأثقالها في التراب التونسي بقيادة القديس لويس لم تلبث أن وقعت فريسة وباء فتك بقسم عظيم منها وكان الجوع والعطش وشدة الحر من أكبر عوامل هـذا الوباء الذي مات منه الملك المذكور نفسه وبذلك أتيح للمستنصر الحفصي أن يعقد صلحاً مع الصليبيين سنة 1270 م يتعهد الفريقان بموجبه بالمحافظة على حقوق رعايا كل فريق لدى الآخر ويؤدي المستنصر جزية لشارل دانجو .

وفي الأندلس ظهر منذ أواخر عهد الموحدين محمد بن هود الذي ينتسب إلى المستعين بن هود وكان ظهوره في نواحي مرسيه سنة 625 هـ بينما كانت قشتالة وليون قـــد اتحدتا بقصد مضايقة مسلمي الأندلس ورغم هذا الاتحاد الذي كان من آثاره هزيمة ابن هود في شريش فإنه تمكن من رد هجوم آخر بناحية وادي آش حيث قضى على جنود العدو وتمكن ابن هود مع هذا من بسط نفوذه على مرسيه والمرية ومالقه وغرناطة واشبيلية وقرطبة ، ولكن سرعان ما ظهر منافس جديد هو محمد بن يوسف بن أحمد بن نصر الملقب بابن الاحمر ، والحق أن أعقابه لم يتمكنوا من المحافظة على النفوذ الإسلامي لهذه البلاد كما أنهم لم يتعاونوا بإخلاص مع بني مرين شأن كثير من ثوار الأندلس مع المرابطين والموحدين قبلهم .

2 - نشأة الدولـة

بنو مرين - أصلهم - مواطنهم - عوامل تأسيس دولتهم - الأمراء الأولون - يعقوب المنصور

أصل بني مرين ومواطنهم :

عالج صاحب الذخيرة السنية نسب بني مرين معتمداً على مصادر سابقـــة فأرجعهم إلى قيس عَيلان بن مضر ، والجدير بالذكر أن عبد المؤمن بن علي كان ينتسب إلى قيس بن مضر ربما ليبرر صحة خلافته ونفس السبب قد يكون دعا بني مرين إلى انتحال الأصل العربي . ومهما يكن من شيء فإن بني مرين قد أجمعت المراجع على أنهم من زناته التي عدد صاحب الكتاب المذكور منها قبائل عديدة أرى أن أنقل أسماءها هنا لما لهذا التعداد نفسه من أهمية تاريخية .

قال صاحب الذخيرة :

« ومن زانات ابن يحيى بن جانا تفرقت قبائل زناته كلها وهم أمم كثيرة وقبائل جمـة منهم مغراوة وبنو يفرن إخوتهم وزواغة وجديجة وبنو فانن ومغيلة ومطغرة ومديونة وكشانة وملزوزة ومطماطة وولهاصة ولواته ومريسة وبنو دمّر ونفوسة وبنو يصوات وبنو يَخفش وبَطّوية وكزناية وبنو ورتطغير وبنو يزونت وملكيشه وعشاشة وسدريكة ونفزه وجراوة ولماية وبنو مسارت وسدراته وبنو واسين وزحيله وسوماته وورسيفة وبنو تاجرة وبنو مرين وبنو عبد الواد واخوتهم بنو توجين »

ونقل ابن خلدون في المجلد الأخير من تاريخه آراء كثيرة في نسب زناتة على

العموم وردهم في النهاية إلى أصـل بربري وبالتالي إلى كنمان[1] ، وتبرّر بعض الروايات[2] التي ترد زناته إلى أصل عربي صحة هذا الانتساب بما أخبر عن حسان ابن النعمان ان جيشه كان أكثره من قيس فلما حل بجبال الأوراس وجد زناته قد اجتمعت لقتاله فعاتبهم على ذلك قائلاً : لم تخالفوننا وتعينون علينا أعداءها ؟ أليس أبوكم قيس بن عَيلان ؟ قالوا بـلى ، ولكنكم تنكرون علينـا ذلك فإذا أقررتم بالحق فاشهدوا به على أنفسكم، ثم اجتمعت أشراف قيس وزناته ورؤساء البربر والروم و كتبوا وثيقة نسب زناته إلى قيس عَيلان وقد جاء فيها [3] :

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أشهد به أنجاد قيس عيلان لاخوانهم زناته بن بُر بن قيس عَيْلان : انا اقررنا لكم وشهدنا على أنفسنا وعلى آبائنا وأجدادنا انكم معشر زناته من ولد بر بن قيس عيلان فلكم ما لنا وعليكم ما علينا [4] الخ..»

وإذا صحت هذه الوثيقة التي لا يعرف من أين نقلها راويها ، فتكون إثباتاً لعروبة زناته لما يعرف عن قدماء العرب من حرصهم الشديد على حفظ الانساب أباً عن جد .

وقـد قسم ابن خلدون زناته إلى طبقتين : أولاهما يدخـل فيها بنو يفرن ومغراوة ، والثانية يدخل فيها بنو مرين وبنو عبد الواد وتوجين ، والفخذتان الأخيرتان من قبائل المغرب الأوسط .

أما مرين ، فهو أحد جدود القبائل التي تفرعت عن زناته ، ومنه تفرعت فخذات كثيرة تجتمع كلها في ورتاجن بن مرين . ومن هذه الفخذات بنو نعمان وبنو مزال وبنو زنطار ، الخ ...

وكانت رياسة بني مرين في أول أيام الموحدين لبني عسكر ، وكانوا يقطنون الزاب إلى تلمسان ، وعندما بدأ عبد المؤمن يكتسح المغرب الأوسط ، استعان على بني مرين بإخوانهم بني عبد الواد الذين بددوا جموعهم سنة 540 هـ فنزلوا

---

(1) ابن خلدون مجلد 7 ، الصفحات من 1 إلى 8 . (2) الذخيرة السنية ص 13 .
(3) الذخيرة ص 14 . (4) الذخيرة السنية ص 13 - 14 .

جنوباً إلى الصحراء يعيشون عيشة البداوة والترحل ، وينتقلون خلال الربيع والصيف إلى أعالي ملوية حتى ناحية تازا وكرسيف، فيتزودون بالحبوب الزراعية التي يقتاتون بها شتاء في صحرائهم .

وقد أبلى المرينيون بزعامة أميرهم محيو بن أبي بكر بن حمامة بلاء حسناً في وقعة الأرك التي انتصرت فيها جيوش المنصور الموحدي سنة 591 هـ ، وأصيب محيو بجراح قاتلة في هذه المعركة ، حيث توفي سنة 591 ، وهو جد ملوك بني مرين جميعاً.

عوامل تأسيس الدولة

تختلف العوامل التي أدت إلى تأسيس دولة بني مرين عنها في تأسيس الدُّوَلَ المغربية السابقة ، فإذا كانت هناك عوامل دينية أو مذهبية حَدَتْ بهذه الدول إلى إقامة حكومة ملكية ، إلى جانب عوامل إقتصادية وسياسية ، فإن العامل الديني والمذهبي لم يكن له أثر في تكوين دولة بني مرين فلم يكن ثمت من إقامة مذهب جديد أو عقائد مستحدثة ، حيث أن مذهب مالك قد تركز عن المغرب منذ المرابطين وفشلت جهود الموحدين بعدهم في إرغام الناس على اعتناق مبادىء المهدي بن تومرت بصورة نهائية ، فعوامل قيام الدولة المرينية هي:

١ – العامل الاقتصادي :

فالمرينيون قد لاقوا كسائر زناته الرحل مشاكل المجاعة والجدب في الأراضي الصحراوية منذ أواسط القرن السادس هـ ولم يكن عدد بني مرين قليلاً كما يزعم طيراس فقد انتشروا في سباسب وصحارى الشمال الافريقي من القيروان إلى بلاد السودان (1) منذ أوائل دولة الموحدين ولم تكن مواردهم المحدودة مما يساعدهم على أداء الأتاوات والضرائب الباهظة التي أثقل بها الموحدون كاهل الشعب المغربي وكانت ولا شك من الأسباب التي عجلت بخراب دولتهم ، وما كاد ضعف الموحدين يتجلى منذ هزيمة العقاب حتى بدأ بنو مرين يستقرون بالشمال الشرقي من المغرب مستأنسين ببقايا زناته من مكناسة وغيرهم ، وكان

(1) الذخيرة السنية ص 23

أول ما جاهروا به الموحدون من العداء أن بدأوا يتعرضون لقوافل التجـار ويتسلطون على القرى والمزارع ويصدون كل قوة اعترضت سبيلهم .

٢ – العامل السياسي .

من الطبيعي أن يكون ضعف الموحدين السياسي بعـد هزيمة العقاب 610 واندحاراتهم المتوالية أمام بني مرين مشجعاً كبيراً لهؤلاء على إقامة دولتهم ، كما أن العناية بتقوية الجيش ضعفت كثيراً بعد موت الناصر الموحدي .

٣ – العامل القبلي :

من العبث إنكار العامل القبلي في معاداة بني مرين لدولة الموحدين وإنشـاء دولة جديدة ، فإذا كان الموحدون ضرّبوا المرينيين بإخوانهـم بني عبد الواد فإن زناته المغرب الأوسط وبينها مغراوة وبنو مرين وبنو بادين لم تنس هزيمتهـا الساحقة أمام عبد المؤمن أثناء مطاردته لتاشفين ابن علي . وبنو مرين لم يحاربوا الموحدين كدولة بل حاربوهم ككتلة قبلية ضمن المجموعة ولا ينكر مع هذا أن حِلْفاً هاماً قد انعقد بين قبيلة رياح العربية وبين مرين سنة 613 وكان لهـذا الحِلْف الذي امتد مفعوله لأجل طويل أثر في انتصارات بني مرين على الموحدين .

عبد الحق بن محيو (592 - 614 / 1195 - 1217)

(بداية المناوشات)

هو أكبر أبنـاء محيو الذي تقدم ذكره وفي أيام امارته على بني مرين بـدأ ضعف الموحدين وزحف المرينيين نحو الشمال فتصدى لهم أبو علي بن وانودين فدحروا جيوشه بوادي النكور سنة 613 وتقدموا إلى رباط تازا حيث اعترضهم عاملها الذي قتلوه واستولوا على أسلاب جيشه ، وأحدثت هـذه الانتصارات حقداً في نفوس بني عسكر على بني عمهم حمامة ، مما أدى بالأولين إلى محالفـة عرب رياح ، فالتحمت الحرب بين الفريقين قرب تافرطاست عند وادي سبو وهلك خلالها الأمير عبد الحق سنة 614 ، وأثناء ذلك كانت الأوضاع الاقتصادية

والسياسية تسير إلى الانهيار حيث اعتصم العمال بنواحيهم واندلعت الثورات في مختلف الجهات كما سادت روح التمرد لدى عامة السكان ضد الدولة فيما يخص أداء الضرائب ومن ثم ضعف أهم مورد للدولة الحاكمة .

وكان عبد الحق بن محيو من أتقياء بني مرين وزهادهم كثير الصدقة عطوفاً على المساكين عفاً في أخلاقه وسلوكه .

أبو سعيد عثمان بن عبد الحق (614 - 638 / 1217 - 1240)

(خضوع بعض القبائل)

دامت إمارته حوالي 25 سنة وكان ينهج سيرة والده في العطف على الفقراء وملازمة الصوم وتعظيم العلماء ، أمه بربرية زناتيـــة هي النـوّار بنت تاصليت الورتـاجنـتي . وكان أول عمل بدأ به بعد ترشيحـه رئيساً على بني مرين أن حارب عرب رياح وطاردهم في بلاد الغرب حتى أذعنوا لطاعته وظلوا بعد ذلك أوفياء لخلفائه يؤدون لهم ضريبة سنوية ويناصرونهم في حروبهم . وقد استطاع أبو سعيد أن يضمن إلى ذلك طاعـة عدة قبائـل أخرى كمكناسة وهوارة ، وفشنالةوبهلولة وزكارة وبطوية وتسول ومديونه وسدراته؛ وعَيَّن على النواحي الخاضعة لسلطته عمالاً وفرض عليها ضرائب معلومة ولكنه اغتيل على يد علج كان تحت كفالته سنة 638 وذلك بوادي ردات .

أبو معروف محمد بن عبد الحق (638 - 642 / 1240 - 1244)

(الزحف نحو فاس)

شقيق عثمان بن عبد الحق ، كان على سنن والده وأخيـه في التخلق بالكرم ومحامد الأخلاق ، كما سار على نهجهما في إضعاف قوة الموحدين بواسطة الحرب الاقتصادية وفي سنة 638 تلقى بَيْعة جماعة من عرب سفيان برئاسة جرمون بن رياح ، ثم زحف إلى مكناسة التي دافع عنها ابن واندين بمساعدة قوةمن النصارى دفاعاً يائساً حتى طرده أهلها ، وتمكن بنو مرين من استخلاص مغارم باهظـة

فرضوها على سكان مكناس حتى وفاة الرشيد الموحدي سنة 640 ، وتولى أخوه السعيد فهيأ جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل لحرب بني مرين وكان اللقاء بأغلان قرب فاس ومريوم على نشوب المعركة ثم عاجل نصراني أبا مُعَرَّف بطعنة قاتلة توفي على أثرها مباشرة وانسحب بنو مرين في الظلام نحو الشمال ، وتقول رواية صاحب الاستقصا[1] أن جيش الموحدين كان يبلغ عشرين ألف مقاتل وأن اللقاء كان بموضع يعرف بصخرة أبي بياش قرب فاس سنة 642 .

أبو بكر بن عبد الحق (642 - 656 / 1244 - 1258)

(الاستيلاء على فاس واسترجاع مكناس والحرب ضد يَغمُراسن)

هو ثالث أبناء عبد الحق بن محيو من الذين تولوا رئاسة بني مرين ويكنيه ابن خلدون بأبي يحيى . أمه بربرية تدعى عرونت وكان كما وصفه صاحب الذخيرة أبيض اللون مشرباً بحمرة تام القد بسط الجسم حسن الوجه والعينين مطلق اليدين يقاتل بكلتا يديه وكان شجاعاً كريماً موصوفاً بالحلم والشهامة وقد دشن عهده بتوزيع الأراضي المفتوحة على بني مرين فأخذ كل فريق منهم ما استولى عليه ، وأثر ذلك في نفوس بني عسكر تأثيراً سيئاً فحالفوا ضده السعيد الموحدي ثم استصرخوا بيغمراسن أمير بن عبد الواد الذي حالف السعيد ثم غدر به وقتله فعاد بنو عسكر يحالفون مرة أخرى بني عمهم . وقبل موت السعيد تقدمت جيوش بني مرين تغزو مكناسة وتوسط يعقوب المنصور لدى شيخها علي بن أبي العافية الذي سلم المدينة إلى أبي بكر سنة 643 ولما كانت سنة 645 تقدم السعيد لاسترجاع فاس في حشد هائل فانسحب أمامه بنو مرين إلى تازا والريف واعتذر إليه أهل مكناسة عن إسلامهم المدينة إلى المرينيين ، ثم سار يقصد بني مرين فلم يسع أبا بكر إلا أن يعلن بيعته للسعيد وتعهد بالقضاء على يغمراسن لقاء امدادات من الموحدين ، ولكن أشياخ الموحدين نصحوه برفض هذه المساعدة وتقدم بنفسه إلى تلمسان بصحبة جيش فيه خمسمائة من بني مرين إلى جانب فرق

(1) ج 3 ص 11 .

الموحدين إلا أن الأقدار لم تمهل السعيد الذي قتل غدراً أمام حصن اعتصم به يغمراسن ، وكان مقتله سنة 646 .

وسنحت الفرصة لأبي بكر بن عبد الحق حيث تقدم إلى مكناسة ليسترجعها بعد أن استولى على حصون ملوية ، ثم زحف إلى فاس واستولى عليها سنة 646 وألزم أهلها بمبايعة بني أبي حفص الذين انقاد المرينيون في البداية لخلافتهم ثم عين أخاه يعقوب عاملاً على تازا ونواحيها واستقر هو بفاس بعد أن أمن عاملها الموحدي وأرسله مكرماً إلى أهله ، ثم نهض لفتح مواطن زناته واستخلف مولاه السعود بن خرباش في جماعة من الحشم ، وسرعان ما انقلب أهل فاس ضد بني مرين ورجعوا إلى طاعة الموحدين بواسطة بقايا من حامية الموحدين النصارى بها . وانتهى الأمر بقتل السعود وتنصيب شريد الفرنجي عاملاً مؤقتاً على فاس ، واستنجد الفاسيون بالمرتضى الذي استصرخ بدوره بيغمراسن . وفي ايسلي قرب وجدة التحم القتال بين جيوش يغمراسن وأبي بكر وكانت الهزيمة على الأول وعاد الثاني إلى فاس يشدد عليها الحصار حتى طلب أهلها الأمان وسلموا إليه المدينة سنة 648 هـ وفي سنة 649 هـ تقدم للاستيلاء على سلا والرباط فاعترضه جيش الموحدين فهزمهم واستولى على المدينتين وعين عليهما ابن أخيه يعقوب ابن عبد الله بن عبد الحق .

وأعدّ المرتضى جيشاً قوامه 80 ألف مقاتل وكان اللقاء عند جبال بهلولة قرب فاس وانهزم المرتضى تاركاً لبني مرين غنائم عظيمة . وكان هذا اللقاء سنة 653 هـ وهو يمثل إحدى المعارك الفاصلة بين الموحدين وبني مرين وإثره زحف أبو بكر إلى بلاد تادلا ثم سجلماسة ودرعة اللتين سقطتا في يده سنة 655 وكان يغمراسن يطمع في ضمها إلى ملكه فسبقه إليها أبو بكر وعين عليهما يوسف بن يزكاسن ، كما استعمل على الجباية عبد السلام الأوربي وعلى قيادة الجيش المحلي أبا يحيى القطراني ، وأصيب أبو بكر بعد ذلك بمرض مات على إثره سنة 656 حيث دفن بباب الفتوح بفاس وتولى الأمر بعده ولده عمر ، ولكن أشياخ بني مرين فضلوا تولية يعقوب أخي أبي بكر ، ونشبت الحرب بين العم وابن أخيه فانهزم عمر ثم قتله بعض عشيرته ، فسلم الأمر ليعقوب .

يعقوب بن عبد الحق (656 - 685 / 1258 - 1286)

(شخصيته – الاصطدام بيغمراسن – محاربة الاسبان بسلا – مشكلة العرش – فتح مراكش – توليه أبي مالك العهد – محاولة فتح تلمسان – فتح ما بقي من المغرب – أعمال يعقوب بالأندلس – جوازه أربع مرات – وفاته)

شخصيته : يعقوب بن عبد الحق بن محيو من أم حرّة اسمها زاكيه مباركة بنت محلى البطيوي الزناتي . ولد سنة 607 وكان معتدل القامة جميل الصورة أبيض اللون كريماً محباً للعلماء والفقراء متواضعاً ، وكان شديد التدين كثير الصوم ، بويع له بالخلافة بفاس سنة 656 وتابع طريق أسلافه في الاستيلاء على مناطق المغرب شيئاً فشيئاً من يد الموحدين . ويعتبر المنصور أول ملوك بني مرين حيث تمكن من إخضاع مجموع التراب المغربي والاستيلاء على عاصمة الموحدين .

أعماله في المغرب :

الاصطدام بيغمراسن : بعد وفاة أبي بكر بن عبد الحق انتهز يغمراسن الفرصة ليتوغل في المغرب واستعان في ذلك بمغراوة وبني توجين . ولكن يعقوب المنصور تصدى له في كلدامان ، فرجع إلى تلمسان بعد أن أحرق في طريقه المزارع التي صادفها .

محاربة الاسبان في سلا سنة 658 /1260 :

في شوال 658 حدثت ثورة اسبانية بسلا ، وتفصيل الحادث أن يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق كان قد عينه أبو بكر عاملاً عليها وكان ينوي الخروج على عمه يعقوب عن طريق تملك الرباط وسلا التي تمكن المرتضى من استرجاعها وتعيين ابن أبي يعلى عليها ، وكان في سلا عدد كبير من أبناء الجالية الاسبانية أكثرهم تجار ، فتآمر يعقوب بن عبد الله معهم حيث كان أهل سلا يحتفلون بعيد الفطر ، فوضعوا السيف في رقاب أهلها ، ثم هب المنصور لنجدتها واستمر محاصراً لها أربعة وعشرين يوماً ، وأخيراً استولى عليها ، وبنى بها السور المقابل للوادي ، أما الاسبان فقد غادروها في سفنهم .

ثم توجه يعقوب إلى أنفا (الدار البيضاء) فاستولى عليها كما ضم إليه تامسنا ، وأمام هذه الانتصارات المتتالية لم يجد المرتضى بدأ من مهادنة يعقوب وطلب منه الوقوف عند أم الربيع كحد يفصل بين ممتلكاتهما وقبل يعقوب عن رضى ولكن الجو توتر بينهما من جديد سنة 659 فنشب القتال بينهما في وادي أم الربيع حيث التحم الجيشان في معركة أم الرجلين التي استعان فيهما المرتضى بالروم والأغزاز وقبائل مختلفة من العرب ولكن جيشه انهزم شر هزيمة .

مشكلة العرش 660 - 668 (1261 — 1269) :

بعد الاستيلاء على سلا ، خرج يعقوب بن عبد الله إلى غمارة ، فبعث يعقوب المنصور جيشاً لقتاله ، ثم ظل يتنقل بين مناطق المغرب حتى اغتاله أحد شيعة السلطان سنة 668 وقد حاول هذا الثائر الخطير أن يستولي على الملك بمساعدة بني عمه أبناء ادريس بن عبد الحق ولكن أبا يوسف استمالهم وبعث ببعضهم إلى الأندلس على رأس جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل فشغلوا بالحرب هنا وكانوا أول جيش وجه إلى الأندلس في دولة بني مرين سنة 662 بقيادة محمد وعامر ابني ادريس بن عبد الحق وقد تمكنا من استرجاع كثير من المعاقل كشريش وغيرها .

وبينما كان يعقوب أبو يوسف في خضم هذه الأحداث كان يعمل في نفس الوقت على مهاجمة الموحدين في عقر دارهم بمراكش .

فتح مراكش سنة 668 / 1269 :

بدأت أول محاولة لفتح مراكش سنة 663 حيث بلغ يعقوب أحواز مراكش دون أن يلقى مقاومة تذكر ، وكان يحطم في طريقه الزروع وينهب ويسفك الدماء[1] ولأمر ما عاد إلى فاس من غير اقتحام مراكش ، والظاهر أن « غزوته » هذه كانت استطلاعية أكثر منها هجوماً يقصد به الاستيلاء على عاصمة الموحدين ، وما كاد يستقر بفاس حتى زاره أبو دبوس يستنصره على المرتضى ويعده بمشاطرته ملك مراكش ! وكان أبو دبوس يعجل بذلك بنهاية

(1) ابن خلدون ، العبر ، 7 ، 375 .

دولة الموحدين عن قصـد أو غير قصد ، فأمده يعقوب بخمسة آلاف مقاتـل بـِعُدَدهم ومؤونتهم وتمكن أبو دبوس بذلك من طرد المرتضى الذي التجـأ إلى صهره ابن عطوش والي أزمور ، ولكن هذا غدر به وقتله ، أو أسلمه إلى أبي دبوس على رواية الذخيرة .

على أن أبا دبوس لم يف بما وعد به يعقوب ، فهب أبو يوسف إلى مراكش يحاصرها بينما استنجد أبو دبوس بيغمراسن ، وارتأى أبو يوسف أن يبدأ بصد هجوم يغمراسن وإرغامه على الانسحاب ، وفي وادي تلاغ قرب وادي ملويه التقى الجمعان وكانت الدائرة على يغمراسن حيث فر منهزماً بعد أن قتل جماعة من حاشيته كما قتل ولي عهده عمر ، وكانت وقعة تلاغ هذه سنة 666 ولم يكن يغمراسن يقصد من وراء مساعدة أبي دبوس أكثر من البحث عن فرصـة يصير فيها ملك المغرب إليه دون بني عمومته المرينيين .

ثم عاد أبو يوسف يهلك الحرث والنسل في أحواز مراكش حتى اضطر أبو دبوس إلى الخروج من الحصار الذي ضربه على نفسه وسار للقاء أبي يوسف الذي أظهر الانهزام أمامه ليبعده عن العاصمة مركز امداداته حتى استدرجـه إلى وادي غفو حيث كرّ عليـه في هجوم مباغت وبادر أبو دبوس بالفرار ولكـن الرماح تقاذفته فقتل في ميدان الحرب ، وانتهت به دولة الموحدين سنة 668 .

ثم دخل يعقوب مراكش وقتل فيها جماعـة من وجوه الموحدين على عادة الفاتحين عند محاولة إقامة دولة جديدة ، واتخذ على الفور لقب أمـير المسلمين وكان بنو مرين في بداية أمرهم يدعون للحفصيين حتى يتألـّفوا بذلك قلوب أهل المغرب حيث كان الحفصيون كما يقول الناصري يعتقدون أنهـم أحق بتملك المغرب من الموحدين لأن أصلهم من هنتاتة التي هي من صميم المصامدة ، ويبدو أن الحفصيين قـد اكتسبوا من العطف والتقدير لدى سكان المغرب أكثر مما اكتسبه الموحدون في أواخر دولتهم .

وقد أوفد يعقوب إلى المستنصر الحفصي وفداً برئاسة ابن أخيـه عامر بن

ادريس يبلغه بيعته ، فسر المستنصر بذلك وبعث إليه بهدية سنية ، ولكن أبا يوسف سرعان ما قطع الدعوة للحفصيين بعد أن ملك زمام الأمر بالمغرب وأصبح الحفصيون أنفسهم يحسبون له حسابه ويهادونه ومع ذلك فقد ظلت العلاقات طيبة بين أبي يوسف والحفصيين .

توليه أبي مالك العهد 669 / 1270 :

في سنة 669 قام يعقوب المريني بحملة قوية في منطقة درعة التي تحصن العرب ببعض حصونها فأخضعهم يعقوب لطاعة الدولة ، وبعد شهرين من المقام بمراكش أخذ البيعة لولده أبي مالك عبد الواحد وهو أكبر أولاده وأكثرهم استحقاقاً لولاية العهد ، وبينما يذكر صاحب الذخيرة أن البيعة كانت بالرباط يثبت ابن خلدون والناصري أنها كانت بسلا . بيد أن جماعة من أولاد عبد الحق بن محيو وعلى رأسهم عبد الله وادريس تأخروا عن البيعة وثاروا بجبل علوان من غمارة وهي ثاني ثورة تقوم ضد عرش أبي يوسف من طرف قرابته ، ولكن أبا يوسف جرد إليهم جيشاً بقيادة ولديه يوسف وأبي مالك ، يساعدهما مسعود بن كانون شيخ سفيان وانهزم الثوار أمام جيش يعقوب ثم عفا السلطان عنهم والتحق بعضهم بالأندلس وبقي عامر بن ادريس بتلمسان ، ويذكر صاحب الذخيرة السنية أن المعركة كانت بجبل أمركو 669 .

محاولة فتح تلمسان وموقعة ايسلي 670 / 1271 :

بعد أن صفت جل المناطق المغربية لأبي يوسف هم بالقضاء على يغمراسن في عقر داره بتلمسان ، وفي الواقع كان يغمراسن على جانب عظيم من الفطنة والخبرة بشؤون الحرب ، وقد أعد أبو يوسف جيشاً عظيماً سنة 670 اشتركت فيه عناصر مختلفة من بني مرين وأغزاز وعرب وصفهاجة ومصامدة وغيرهم ، وخرج هذا الحشد من فاس ثم التحقت به وحدات أخرى بقيادة أبي مالك عند وادي ملوية وبلغ مجموع الجيش حوالي 30 ألفاً ، وفي أنكاد وفدت عليه سفارة من ابن الأحمر تطلب إليه التدخل في حرب الأندلس ورأى أبو يوسف أن يتجهز للقتال بالأندلس ويستميل يغمراسن بواسطة صلح طويل الأمد ولكن يغمراسن

رفض بكل شدة صارخاً بالانتقام لولده عمر وتم اللقاء بين الجيشين في وادي ايسلي ، وكانت الهزيمة مرة أخرى على يغمراسن الذي قتل ولده فارس أثناء هذه المعركة العنيفة التي لم تكن في صالحه ، ثم سار أبو يوسف يحاصر تلمسان بعد أن ترك مدينة وجدة قاعاً صفصفاً ، ويبدو أنها كانت إلى ذلك الوقت تابعة ليغمراسن، وأثناء حصار تلمسان وردت على أبي يوسف قوات من بني توجين أصحاب ونشريس بقيادة أميرهم أبي زياد بن عبد القوي الذي شفى غيظه بتحطيم المزارع والقرى المجاورة لتلمسان ! وبعد مقام استغرق ثلاثة أشهر لم يتمكن أبو يوسف من اقتحام تلمسان ، فانسحب إلى فاس بعد أن انسحبت قوات بني توجين إلى ونشريس في مطلع سنة 671 حيث توفي أبو مالك عن سن الثانية والثلاثين فأخذ أبو يوسف البيعة لولده أبي يعقوب .

فتح ما بقي من المغرب 672 – 673 / 1273 – 1274 :

بعد أن تم الاستيلاء على معظم أجزاء المغرب وبقيت سبتة وطنجة وسجلماسة خارجة عن حكم أبي يوسف عزم على تصفية حسابها قبل الإقدام على الجهاد في الأندلس حتى لا تمتد الثورة من هذه المعاقل إلى باقي المغرب الذي قضى أبو يوسف وقتاً طويلاً في إخضاعه .

وكان في سبتة أيام المرتضى الموحدي أسرة العزفي التي سنتتبع نشاطها خلال الأحداث المقبلة . وجدّ هذه الأسرة أبو القاسم العزفي الفقيه المشهور وأحد أعيان المدينة ، خرج عن طاعة الموحدين بعد أن رأى ما وصلوا إليه من ضعف ثم ضم إليه طنجة التي كان عليها أبو الحجاج الهمذاني المعروف بابن الأمير وكان تابعاً له ثم انشق عنه واستقل بنفسه ودعا لابن حفص ثم للخليفة العباسي وأخيراً لنفسه ، ثم دخلت طنجة في طاعة العزفي سنة 565 ، وبعد أن رجع أبو يوسف من حصار تلمسان نهض يحاصر طنجة سنة 672 وساعده على فتحها سهولة مسلكها ومساعدة بعض جنودها . أما سبته فقد صمدت للحصار ثم وقع الصلح بين أبي العباس العزفي ويعقوب المريني على أن يحتفظ الأول بحكم المدينة لقاء خراج سنوي يؤديه الثاني ، وبعد بضعة أشهر من نفس السنة توجه للاستيلاء

على سجلماسة التي كانت تحت حكم بني عبد الواد بعد أن خضعت زمناً لأبي بكر ابن عبد الحق على يد أبي يحيى القطراني كما تقدم . وكان دخولها في طاعة يغمراسن بمساعدة عرب المنيات من ذوي عبيد الله إحدى فرق بني معقل ، وقد استعمل المرينيون هذه المرة في حصار سبتة البارود[1] الذي يبدو أنه استعمل قبلهم أو في أيامهم على أقل تقدير ، وكان اقتحام سجلماسة في صفر 673 وبالإستيلاء على سجلماسة أصبح المغرب كله خاضعاً لسلطة الدولة المرينية بعد صراع عنيف استغرق ما لا يقل عن نصف قرن وقد بدأ في شكل مناوشات ثم تطور إلى حرب منظمة .

أعمال أبي يوسف في الأندلس :

بعد أن فرغ أبو يوسف من تصفية شؤون المغرب التي استغرقت منه كذلك حوالي سبع عشرة سنة رغب في التدخل لصالح مسلمي الأندلس ، ولم يكن هذا التدخل لطموح شخصي أو رغبة في توسيع امبراطوريته وإنما كان لأسباب اقتضتها الحالة السياسية بالأندلس نفسها ، حتى إن موقف المرينيين بالأندلس في جملته موقف دفاعي أكثر منه هجومياً ، ولسوء الحظ فإن الفترة الطويلة التي استغرقتها الإنحطاط الموحدي بعد هزيمة العقاب ، والتي تجاوزت نصف قرن لم تترك فرصة طيبة ليعقوب المريني وخلفائه ، حتى يستعيد المجد الإسلامي بالأندلس فإذا كان للمغرب مسؤولية ما في تدهور الأحوال بالأندلس فليس المرينيون هم الذين يتحملونها ، وإنما يتحملها الموحدون الذين فشلت سياستهم بعد هزيمة العقاب كما يتحملها بنو الأحمر الذين كادوا مراراً لبني مرين حرصاً على نفوذهم حتى فقدوا في النهاية هذا النفوذ الفارغ .

وقد فقد المسلمون بين سنة 622 — 670 كثيراً من المدن والمراكز الهامة بالأندلس كقرطبة سنة 636 وجيان 644 واشبيليه 646 وبلنسية ، وتنازل ابن الأحمر للعدو عن كثير من المراكز التي كانت بيده عجزاً عن حمايتها واحتفظ من

---

(1) ابن خلدون ، العبر ، 7 ، 388 .

أرض الأندلس بالجنوب الغربي متخذاً غرناطة عاصمة له ، وأثناء ذلك كان يوفد الرســـل إلى بني مرين يطالبهم بحماية الأندلس ، وكان أبو يوسف منشغلاً بحرب الموحدين ويغمراسن ولم يصف له أمر بالمغرب إلا سنة 673 مع أنه كان يرى إنجاد بني الأحمر منذ أيام أخيه أبي يحيى وفي هذه السنة بالذات وردت بيعة ابن شقيولة وكتاب من ابن الأحمر يستصرخه على النصارى ، وكان ليعقوب أربعة جوازات إلى الأندلس وفي أثناء تفكيره في العبور إلى هـــذه البلاد ، ورد عليه رسول يغمراسن الذي عرض عليه الصلح فقبله عن رضى .

الجواز الأول 674 (1275) — غارات استطلاعية :

كان هذا الجواز إثر اتصال وفد ابن الأحمر بأبي يوسف الذي اشترط في مقابل عبوره إلى الأندلس التنازل له عن بعض الحصون في أقصى الجنوب من الأندلس كطريف ورندة ثم جهز جيشاً قوامه خمسة آلاف مقاتـل بقيادة منديل وأمده العزفي بعشرين قطعة من أسطوله ، وعبر الجيش في البداية من غير حضور أبي يوسف ، وقام بغارات بسيطة في أحواز شريش ثم عاد إلى الجزيرة الخضراء التي اتخذها مركزاً للتجمع ، ومن رواية ابن خلدون تفهم أن دخول هـــذا الجيش بقيادة منديل كان قبل توصل أبي يوسف بكتاب ابن الأحمر ، وعلى كل حال فإن أبا يوسف قد التحق بطلائعه سنة 674 وكان أبو محمد بن شقيولة صهر ابن الأحمر تابعاً له بمالقة ، ثم ساءت العلاقة بينهما فخطب ابن شقيولة ود أبي يوسف سنة 673 كما تقدم وقد التحقت امدادات ابن الأحمر وابن شقيولة بجيش أبي يوسف الذي اشتركت فيه عناصر من كل قبائل المغرب كغمارة وزناته ومصمودة وصنهاجة والعرب ، وكان مروره من طريق طنجـه حيث كان التجمع بساحـة طريف وكانت الحرب ضد النصارى في هـذه المرة تكتسب صيغة هجمات وغارات خاطفة حصل أبو يوسف خلالها على كثير من السبي والغنائم وكان أبو يوسف يهدف من ذلك إلى فتح الطريق نحو اشبيليه عبر استجة بينما تذهب قوات ابن الأحمر إلى جيان وبادر دننه (DonNuno) إلى مهاجمـة قوات أبي يوسف الاستطلاعية ولكنه اصطدم بها اصطداماً عنيفاً وقتل هو نفسه خلال المعركة

التي بلغ عدد القتلى فيها من النصارى ستة آلاف حسب رواية ابن خلدون و 500 على رواية غيره ، أما قتلى المسلمين فكانوا حوالي ثلاثين ، وقد بعث برأس دنّنه « Don Nuno » إلى ابن الأحمر الذي حفظه وبعث به إلى قومه ثم زحف يعقوب إلى أحواز اشبيليه حيث قام بغارة عابرة وقام ببناء مدينة البنية بجانب الجزيرة ، أما قوات ابن الأحمر فقد كانت بدورها تهدد قرطبة وإشبيليه، وأثناء هذه الغارات السريعة قتل أسقف طليطله ، وانهزمت النجدات القشتاليه أمام المسلمين ولكن هؤلاء وقفوا عند هذه المعارك الشبيهة بالمناوشات ، من غير أن يضربوا على المدن الكبرى حصاراً طويل الأمد وأن يحاولوا زحزحة العدو عن مراكزه، واستغرقت غيبة أبي يوسف هذه المرة حوالي ستة أشهر ثم عبر إلى قصر مصمودة وأمر بتسوير بادس ميناء غمارة .

وفي أثناء غيبة أبي يوسف اشتغل عامل مراكش محمد بن علي بن محلي بمحاربة بقايا الموحدين المعتصمين بتينمل وكانوا قد بايعوا إسحق أخ المرتضى سنة 669 فاعتقلهم العامل وضرب أعناقهم كما قتل خليفتهم .

وبمجرد استقرار أبي يوسف بفاس شرع في بناء المدينة البيضاء بها من شوال 674 ثم بناء قصبة مكناس واستوزر في هذه الأثناء فتح الله السدراتي وتوصل بهدية ثمينة من ابن عبد القوي أمير توجين .

الجواز الثاني 676 (1277) — عقد الصلح مع الفونس العاشر :

في سنة 676 توغلت جيوش أبي يوسف في منطقة السوس ثم قام السلطان بعد الشعب المغربي للجهاد بالأندلس ، وخرج من طريق القصر الصغير إلى طريف ثم الجزيرة الخضراء فرُنْدة حيث التحق به أبو محمد ابن شقيولة أمير مالقه ، وكان محمد الثاني ابن الأحمر قد حالف القشتاليين بعد انشغال أبي يوسف بحملته في منطقة السوس ، وأعد القشتاليون جيشاً بحرياً لحصار الجزيرة الخضراء(1)، حتى إذا عبر أبو يوسف للمرة الثانية حطّم أسطولهم ثم اصطدم بالمسلمين من جديد على ضفاف الوادي الكبير وسحق جيوشهم حتى أغرق كثيراً منهم في الوادي .

---

(1) طيراس ، 2 ، 37 ، أما الرواية الاسلامية فتثبت أن ابن الأحمر لم يلجأ الى الغدر إلا بعد أن تنازل بنوا شقيولة للمنصور المريني عن مالقة .

ثم احتل حصن جليانة وحصن القليعة وحصن قطنيانة وعــاد إلى الجزيرة الخضراء مثقلا بالسبي والغنائم وكان يقطع الأشجار والثار بيده ، وبعد استراحة قصيرة توجهت جيوش المرينيين إلى اشبيليه ولكن أبا يوسف فضل أن يحاصر قرطبة التي كانت مورداً اقتصادياً هاماً بالنسبة للمسيحيين ثم أقلع فجأة ليخرب نواحيها ، فلجأ هؤلاء إلى طلب الصلح ولكن أبا يوسف سلك طريقاً دبلوماسياً فأحالهم على ابن الأحمر ، وانتهى الأمر بعقد هدنة مع الفونس العاشر ، وما كاد أبو يوسف يعود إلى الجزيرة الخضراء حتى التحق به محمد بن اشقيولة يعرض عليه مالقه فتسلمها منه وولى عليها ابنه منديل ثم استبدله بعمر بن يحيى فقام يحالف مرة أخرى الفونس الذي نقضَ عهده ، وحاصر الجزيرة الخضراء ، بينما تنازل عمر بن يحيى عن مالقه لابن الأحمر وأرسل هذا إلى يغمراسن يطلب إليه الوقوف معه جبهة واحدة ضد يعقوب فقبل ، وكان أبو يوسف خلال ذلك بمراكش وحدثت ثورة ضده بتَفـّيس ، فحاول القضاء عليها ، ثم قصد جيشه الأندلس بمساعدة 45 قطعة من أسطول أبي القاسم العزفي ومتطوعة سبتة وطنجـــة وغيرهم ، واجتمع لدى يعقوب اثنتــان وسبعون قطعة ثم جاءته امدادات ابن الأحمر الذي خشي عاقبة تهوره . وكان المسيحيون قد بدأوا يفقدون أساطيلهم وفي مرسى جبل الفتح اصطدمت جيوشهم بالبوليس الإسلامية ، وكان يعقوب يتابع تطور القتال عن كثب وتمكن المسلمون من الظفر بخصومهم والاستيلاء على كثير من قطع أسطولهم رغم تفوقه في العدد على أسطولهم ، ثم التحق يعقوب بالمسلمين في الأندلس ، ورغب في توقيف القتال مدة فانعقدت بينه وبين الفونس هدنة جديدة كان يعقوب يهدف من ورائها إلى إتاحـــة الفرصة لمنازلة الفونس لغرناطة ، انتقاماً من ابن الأحمر . ومع أن هذه سياسة غير حكيمة فقــد كان يعقوب يرى أن عداوة ابن الأحمر ويغمراسن لن تشكل خطراً عظيماً عـــلى دولته ، وما كادَ يعود إلى فاس حتى انتهز الفونس الفرصة لينازل غرناطـــة ، فاضطر ابن الأحمر إلى مهادنته وتنازل له عن كثير من حصونه ثم التزم أن يؤدي إليه ثلث دخـــل مملكته وامتنع مع ذلك عن إعادة مالقه إلى أبي يوسف الذي

اضطر إلى رد عدوان يغمراسن قبل التفكير في تسوية خلافه مع ابن الأحمر . وهكـــذا قام من فاس في نهاية 679 هـ للقاء يغمراسن في ناحية تازة ثم تعقبه إلى تلمسان بعد عراك عنيف بأحوازها ولكنه لم يظفر بفتحها ، فعاد إلى فاس سنة 680 هـ .

الجواز الثالث 681 هـ (1282) – الحرب ضد سانشو وابن الأحمر :

في سنة 681 طلب الفونس العاشر تدخل يعقوب من أجل قمع ثورة قام بها ابنه دون سانشو الذي التجأ إلى ابن الأحمر ، وعبأ أبو يوسف جيوشـــه بينما دخل سانشو إلى قرطبة ، ولكن جيوش يعقوب وألفونس لم تستطـع اقتحام المدينة وإنما قامت بتخريب عدد من الأماكن شمـالاً حول طليطلة ومجريط ثم ورد الخبر بوفاة يغمراسن بينما كان يعقوب في طريقـه إلى الجزيرة الخضراء وقد خلفه ابنه عثمان .

أما ابن الأحمر فقد هب إليه أبو يوسف من الجزيرة الخضراء مَطْلَع 682 بعــد أن تأكدت صلته بسانشو ، وحاصر أبو يوسف مالقه فاستغاث ابن الأحمر بولي عهد أبي يوسف وهو يومئذ بالمغرب فعبر بنفسه إلى الأندلس وسعَى في الصلح بين الملكين ، وبعــد غزوات عابرة بنواحي طليطلة وجيان وابدة وغيرها عاد أبو يوسف في نفس السنة إلى بلاده ، وما كاد يدخــل مراكش في مطلع 683 حتى بلغته وفاة ألفونس العاشر بينما كان ولي العهد يقوم بإخضاع ثوار معقل والسوس .

الجواز الرابع 684 (1285) – معاهدة مع سانشو – وفاة أبي يوسف :

في 684 استفسر أبو يوسف سانشو ملك قشتالة الجديد عن سياسته تجـــاه المسلمين فرد عليه سانشو رداً قاسياً [1] ، وقام أبو يوسف يعبىء جيشاً لمحاربته وشارك في هـــذا الجيش متطوعة ومرتزقة ثم عبر إلى طريف فالتحقت به

(1) Terras Histoire du Maroc, 2,38

امدادات من سبتة وغيرها ، وقام بغارات على ناحية شريش وقرمونة واشبيليه ووزع الجيوش بين عدة مناطق لتشغل العدو في واجهات مختلفة ، وهكذا قاد محمد بن عطّو وابن عمران فِرْقة استطلاعية جهة حصن القناطر ، وقاد عمر ابن عبد الواحد فرقة من الفرسان لتخريب نواحي وادي لكّ ، كما قاد منصور ابن عبد الواحد فرقة اشترك فيها العرب والغُزْ وبنو مرين لغزو اشبيليه والتحق بهذه الفرقة كتيبة بقيادة ابنه أبي معرف نظراً لأهميـــة اشبيلية يومئذ ، ثم وردت امدادات عظيمة من المغرب بقيادة ولي العهد أبي يعقوب ، وبلغ عــدد الجيوش أزيد من عشرين ألفاً عهــد بقيادتها العامة لولي العهــد نفسه ، وبينما تمكن يعقوب من اقتحــام قرمونة والاستيلاء على حصن قريب منها فإنه لم يستطع فتح اشبيليه ولا شريش ، وقــد بعث بجواسيس من اليهود والنصارى يستطلعون له أخبار العدو[1] ، وفيما كان يحاصر شريش كان سانشو (شانجة) قد حاصر بحر الزُقاق (البحر الأبيض المتوسط) عند جبل طارق حتى يمنـع بذلك انسحاب يعقوب إلى المغرب ، وكانت الأقوات قد نفدت لدى الجيش المغربي ، وأمام هذه الحالة العصيبة لم يسع السلطان إلا أن يستنجد على التوّ بأسطوله بالمغرب ، فوردت عليه امدادات من موانىء الريف والرباط وطنجة وسبتة ، زيادة على امــدادات الجزيرة والمنكب وطريف ، وتمكن هــذا الأسطول البالغ عدده ستاً وثلاثين قطعة من ردّ أساطيل العدو ، ممّا مكّن السلطان من الرجوع إلى الجزيرة الخضراء ليستعرض أسطوله الذي قام بمناورات حربية أمامه[2] ، وأثناء مقام أبي يوسف بالجزيرة وردت عليه سفارة من سانشو يطلب إليه عقد هدنة ، فقبل بعد تلكؤ وبعث بترجمانه أبي محمد عبد الحق ليضع شروط أبي يوسف في اقرار السلم مع سانشو فعقد الصلح في اشبيلية على هذه الأسس :

1 – ترفع الضرائب عن المسلمين الذين يعايشون القشتاليين .

2 – يكف سانشو عن التدخل في علاقات أبي يوسف مع ابن الأحمر .

---

(1) ابن خلدون مجلد 7 ص 431 . (2) الاستقصا ج 3 – ص 62 .

3 – يعامل تجار المسلمين لدى المسيحيين معاملة تليق بكرامتهم .

4 تدفع إلى السلطان الكتب التي حصل عليها المسلمون منذ استيلائهم على مدن الأندلس ، وفيما يخص الشرط الأخير فإن يعقوب قد توصل بثلاثة عشر حمل من الكتب وهي بدون شك لا تشكل إلا قليلا جداً من الكتب التي تبقت بين أيدي المسيحيين .

أما ابن الأحمر فإن السلطان لم يتعرض له بشيء أثناء هذه الحملة رغم ان ابن الأحمر حاول أن يعقد مع سانشو حلفاً ثنائياً رفضه هذا .

وسعى سفير أبي يوسف حتى يتم لقاء الملكين في مكان وسط بين الجزيرة واشبيلية ، وتم اللقاء فعلاً قرب شريش حيث احتفل أبو يوسف بسانشو احتفالاً يليق بمقامه .

ثم رتب السلطان حاميات بقيادة ابنه منديل الذي استقر بذكوان قرب مالقة ، وفي الجزيرة الخضراء اعتل أمير المسلمين ، ثم لبى داعي ربه في أواخر سنة 685 .

والواقع أن عهد أبي يوسف يمثل في آن واحد الدور الأخير من نشأة الدولة المرينية ثم بداية عهد الازدهار والعظمة في عهد هذه الدولة .

وقد أخطأ جوليان وطيراس ومن تابعهما في التقليل من أهمية عمل يعقوب ، إن مجرد تدخل هذا السلطان في وقت فقد فيه مسلمو الأندلس كل قوة أو ثقة بأنفسهم حتى أصبحوا أذلاء بين أيدي ملوك قشتاله يتلاعبون بأمرائهم من بني الأحمر ، يكفي في حد ذاته ليبرهن عن خطورة العمل الذي قام به أبو يوسف .

ثم لا ننس أنه إذا لم يوفق أبو يوسف في استرداد المدن التي اغتصبها المسيحيون فذلك لأنه وقف في أغلب الأحيان وحده ضدهم من غير أن يحظى بعون يستحق الذكر من بني الأحمر إلا نادراً ، وكان القشتاليون قد بدأوا يقوون أساطيلهم وجيوشهم البرية بعد فترة من الزمن قلت فيها عنايتهم بتجديد الأسطول .

ثم أن أبا يوسف كان يجابهُ خطراً أضعف كثيراً من قوة جيشه وهو خطر يغمراسن خصمه العنيد ، بالاضافة إلى بعض الثورات الداخلية التي كانت تهدف إلى الإطاحة بعرشه ، فمجرد الحكم على عمل يعقوب المريني في الأندلس من غير نظر إلى الظروف والملابسات التي أحاطت به، فيه شيء كثير من التجني وعدم التدبر كما نرى .

ولم يكن أبو يوسف مشغولاً بالحرب فقط ، فقد بنى مارستانات ومدارس ، واهتم بطلبة العلم والفقراء ، كما بنى أساطيل وموانىء جديدة بالمغرب .

وقد نُقِل أبو يوسف بعد وفاته إلى الرباط حيث دفن بشالة ولكن قبره غير معروف بها .

3 – دور العظمة

أبو يعقوب

(685 — 706 ﻫ / 1307 — 1386 م)

شخصيته :

يوسف الناصر بن يعقوب من أم عربية الأصل شريفة النسب ، كان أبيض اللون كث اللحية والحاجبين معتدل القامة ، وكان فارساً بارعاً كا كان صارماً ، وفي أول عهده بالملك اشتهر بتعاطيه للملذات كا سنرى في عرض حياته السياسية ولكنه انصرف بعد ذلك إلى توطيد أركان ملكه وقد أجمع وزراء وأكابر الدولة على مبايعته بعد وفاة أبيه .

أعماله في المغرب

القضاء على الثورات :

قبل أن يلتحق يوسف الناصر بالمغرب استدعى ابن الأحمر للإجتماع بـه في مرْبالة ثم تنازل له عن الأراضي التي كانت تحت حكم والده في الأندلس باستثناء رنده والجزيرة وطريف ، وما كاد يوسف يدخل إلى المغرب حتى قام محمـد بن ادريس بن عبد الحق يدعو لنفسه وشايعه أخو السلطان أبو معرف ولكن أبا يعقوب حاربهم وطاردهم حتى اعتقلهم وقتلهم خارج باب الشريعـة والتحق جماعة من الناجين ببني ادريس بالأندلس في غرناطة .

وظهر ثائر آخر بقلعة قندلاوة هو عمر بن عثمان العسكري وبعد أن أوشك أن يقع في قبضة أبي يعقوب أمنه حتى التحق بتلمسان .

(1) ابن خلدون 438 ، ج 1 .

وفي نفس السنة خرج ثائر آخر بالسوس وهو طلحة بن مُحَلّي فبعث السلطان ابن أخيه منصور بن أبي مالك الذي قضى على ثورة بني معقل كما قتل طلحة المذكور سنة 686 ، ولم يكتف السلطان بهذا الانتصار على الثوار بل هب إليهم بنفسه من 12 ألف مقاتل فأثخن فيهم بالقتل والنهب والسبي ثم عين على مراكش عاملا هو محمد بن عطو الجاناتي وترك معه ابنه أبا عامر .

وفي سنة 687 تلقى السلطان زيارة أسرة بني اشقيلولة الذين استقروا نهائياً بالمغرب ومنحهم السلطان حق التصرف في ولاية القصر الكبير بينما سلمت ممتلكاتهم في الأندلس إلى ابن الأحمر ، ثم ثار بمراكش أبو عامر بمساعدة العامل ابن عطو ، ولكن أبا يعقوب حاصره بمراكش التي فر منها مع العامل إلى تلمسان مستجيراً بعثمان بن يغمراسن ولم يدم سخط الوالد على ابنه طويلا فقد أمنه وعاد اليه مكرماً ؛ أما ابن عطو فقد بقي في جوار عثمان وطالبه به أبو يعقوب فامتنع وحدثت من أجل ذلك أزمة بينهما .

حصار تلمسان :

تولى عثمان بن يغمراسن سنة 681 بعد وفاة والده وكان يغمراسن قد أوصاه في حياته أن لا يتحرش ببني مرين بعد أن قاسى هو نفسه الأمرين من عداوتهم ، إلا أنه بعد امتناعه عن تسليم ابن عطو إلى أبي يعقوب أصبح لا مناص له أن يتصدى لهجوم السلطان المريني الذي ارتحل اليه سنة 689 وظل يحاصر تلمسان أربعين يوماً من غير طائل ولكنه خرب مزارعها وضواحيها ثم رجع يقضي عيد الأضحى بتازة بعد أن ترك أخاه أبا بكر بوجدة يغير على قبائل بني زيان .

ثورة عمر بن يحيى الوطاسي 691 / 1291 :

كان بنو وطاس وعلى رأسهم بنو الوزير ينتمون إلى لمتونة وكانوا قد التحقوا بعد تغلب الموحدين على المغرب ببني مرين حتى أصبحت لهم كلمة مسموعة فيهم وظل المرينيون يرتابون في ولائهم وفي أيام يوسف كانوا مستقرين بحصن تازوطا في نواحي الريف وعين عليهم السلطان عاملا هو ابن أخيه

منصور بن عبد الواحد ، وعمر وعامر ابنا يحيى بن الوزير يومئذ رئيسان عليهم ، ثم ثار الأخوان على العامل وطرداه سنة 691 فتدخل السلطان بنفسه لوضع حد لهذه الثورة ، وبينما فر عمر إلى تلمسان قاد أخوه جماعة المتمردين من اخوانه ثم تنازل عن الحصن للسلطان بعد أن تشفع بأبي سعيد بن الأحمر والي مالقة الذي كان في مهمة خاصة بالمغرب ، واشترط عليه السلطان مغادرة المغرب إلى الأندلس فأظهر القبول وقصد ليلاً تلمسان فتبعه جماعة من جند السلطان فلم يلحقوه ولكن أدركوا ولده أبا الخيل الذي قبضوا عليه وقتل فداء لوالده بفاس . أما حصن تازوطا فقد احتله الجيش المريني سنة 692 وقتل كل من حاول الفرار أو الالتجاء إلى الأندلس .

وأثناء هذه الأحداث تحرك بنو أبي بكر بن عبد الحق للثورة ولما أدركوا ضعفهم التجأوا إلى تلمسان فأمنهم السلطان يوسف وفيما كانوا راجعين تعرض لهم أبو عامر وقتلهم عن آخرهم فأغضب هذا التصرف والده وعاش أبو عامر بقية حياته شريداً في نواحي الريف حتى توفي سنة 698 ونقل جثمانه إلى فاس .

الحصار الثاني لتلمسان 698 – 706 وهلك السلطان :

منذ الحصار الأول لتلمسان في عهد يوسف ترك السلطان أخاه أبا بكر يتولى مضايقة بني زيان فيما بين وجدة وتلمسان حتى تمكن من إخضاع ندرومة إلى الحكم المريني سنة 698 وفي ندرومة تشكل وفد إلى السلطان بطلب التدخل للقضاء على ابن يغمراسن ، والواقع أن يوسف غزا تلمسان عدة مرات حيث تردد عليها فيما بين سنة 689 – 693 ، ولكن مكثه لم يطل كما طال في حصاره الأخير وهكذا ارتحل من فاس نزل بجيوشه حول تلمسان وأحاط بها سوراً حفر وراءه خندقاً بعيد الغور وأثناء ذلك كانت عساكره تتردد على النواحي المجاورة حتى دخل في طاعته مدن كثيرة منها شرشال ومليانة ووانشريس ومستغانم والبطحاء وتافركينت والمدية والقصبات ومازونة ووهران وهنين والجزائر ، وخشي موحدو تونس على ملكهم فتقربوا إليه بالهدايا ووفد عليه أشراف مكة من بني أبي نمي ، وبنى لمقامه قصراً لسكناه ومنازل

بما رافقها من حمامات ومارستان ومسجد جامع وغير ذلك ممّا كوّن مدينة سماها المنصورة وذلك سنة 702 ، وقد تمكنت جيوش بنو مرين من إخضاع مغراوة الجزائر بعد معارك عنيفة ، وفي سنة 703 بعث ركب الحاج المغربي محملا بخطاب إلى ملك مصر محمد بن قلاوون مع هدية ثمينة ضمنها عِراب الخيل وغيرها . وقد أهداه ابن قلاوون بدوره سنة 706 طوقاً وهدايا مناسبة بينها حيوانات كالفيل والزرافة . وفي هذه السنة لقي أبو يعقوب حتفه على يد خصي من غلمانه وهو في حصار تلمسان ثم نقل شلوه إلى شالة حيث دفن هناك . وفيما كان السلطان يحاصر تلمسان كان بنو وقاصة وهم يهود من فاس قد تفاقم خطرهم على الدولة وكانوا ينادمون السلطان في صباه وظل على مخالطتهم حتى فاق نفوذهم لديه نفوذ وزرائه ولكن ابن أبي مَدْيَن كاتبه تمكن من اقناعه بضرورة وضع حدٍّ لسوء تصرفهم فاعتقلهم ثم قتلوا بمحضر السلطان وأبقى على أحدهم وهو خليفة الصغير وكان ذلك سنة 701 .

أعماله في الأندلس

مهاجمة القشتاليين سنة 690 / 1291 :

تقدم أن السلطان يوسف الناصر قد قابل في الاندلس بعد توليته بقليل ابن الأحمر خارج مربالة سنة 685 هـ . وفي سنة 690 (1291) نقض سانجة العهد وأغار على الحدود الإسلامية فتلقى القائد المريني علي بن يوسف بن يزكاسن الأمر برد العدوان القشتالي والهجوم على شريس ، وأثناء ذلك كان السلطان قد خرج من تازا إلى قصر المجاز لحشد الجنود وتجهيز أسطوله الذي اجتمعت قطع منه في طنجة وكان عددها 27 قطعة واختار القشتاليون أن يهاجموا المغاربة بقرب بلادهم فتعرض قائد أسطولهم الجنوي للأسطول المغربي في بحر الزقاق حيث انهزم المسلمون بالرغم من قلة بواخر العدو التي لم يكن عددها يتجاوز 12 باخرة ، إلا ان القشتاليين عادوا اثر ذلك إلى الأندلس بينما جهز الناصر أسطوله من جديد واعترض أسطول العدو في بحر الزقاق فاستولى عليه ثم نزل بطريف

وحاول الاستيلاء على حصن بحيرة « Nojn » فلم يتمكن من ذلك بعد حصار ثلاثة أشهر ، ثم عاد إلى المغرب في مطلع سنة 691 هـ .

استيلاء سانجة على طريف 691 هـ :

لم يكد يوسف الناصر يعود إلى المغرب حتى فاوض سانجة ابن الأحمر في منازلة طريف والاستيلاء عليها ، وكما اعتاد بنو الأحمر مع ملوك المغرب حيث كانوا يقابلون إحسانهم بالاساءة فقد وافق على منازلة هذا المعسكر الذي كان يحمي الواجهة المغربية ويقوي مملكة الاندلس بالامدادات ، وعمد سانجة إلى حصار طريف براً وبحراً حتى يقطع بذلك المدد على حاميتها ثم جاءته امدادات من السلاح والرجال من قبل ابن الاحمر الذي كان ينظر إلى مركزه الشخصي مجرداً عن كل روح تعاونية مع زميله المغربي ، وبعد أربعة أشهر من الحصار استسلمت المدينة إلى الجيش القشتالي ، وكان ابن الاحمر يظن ان سانجة سيسلم إليه طريف بدوره ولكن سانجة استأثر بإضافة ستة حصون كان ابن الاحمر قد سلمها اليه طمعاً في أن يتنازل له عن طريف . وقد علق الناصري على ذلك بقوله : « فخرج من يده الجميع ولم يحصل على طائل فكانت حاله كحال صاحب النعامة المضروب بها المثل عند العرب » .

مصافاة ابن الأحمر 662 – (1293) :

بعد أن يئس ابن الاحمر من استرجاع طريف بعث إلى الناصر وفداً يرأسه ابن عمه أبو سعيد فرج بن اسماعيل ومعه وزيره عزيز الداني ليعتذر باسمه عن الأخطاء السياسية التي ارتكبها ابن الاحمر ، وقد اتصل الوفد بالناصر في تازوطا فجدد معه عهداً بالمصالحة وأثناء ذلك توفي علي بن يزكاسن سنة 692 فخلفه أبو عامر ابن السلطان كقائد عسكري على الثغور المرينية بالأندلس .

وليكفر ابن الاحمر عن جريرته لم يكتف بالوفد الذي بعثه إلى الناصر بل توجه بنفسه لمقابلته بطنجة فاحتفل السلطان بمقدمه في ذي القعدة سنة 692 هـ ، وقدم اليه ابن الاحمر هدايا جليلة القدر منها مصحف من مصاحف عثمان الأربعة

ثم تنازل له عن عشرين حصناً وعن الجزيرة ورندة والغربية ، ووجه معه جيشاً لمنازلة طريف ولكنه أخفق في استردادها .

محاربة بني الأحمر بسبتة 703 (1304) :

استمر الوئام بين بني الاحمر المذكور وبين يوسف الناصر منذ اتصالها بطنجة إلى أن هلك الاول سنة 701 هـ فخلفه ابنه محمد المعروف بالمخلوع الذي ظـل محافظاً على عهده للناصر ، إلى أن تحول عنه إلى هرّاندة بن شانجة حيث عقـد معـه معاهدة سنة 703 هـ (1304 م) ، ولم يكتف بإثارة متاعب جديدة في الأندلس بل أمر عامله في مالقة أبا سعيد فرج بالاستيلاء على سبتة التي كان بها بنو العزفى فظفر بالمدينة ونقل بني العزفى إلى الاندلس . أما يوسف الناصر الذي غضب لهذه الاهانة فقد فشل جيشه الذي قاده ابنه أبو سالم في استردادها وقد بقيت في يد بني الاحمر إلى سنة 709 كما سيأتي ، وذلك بعـد مهلك أبي يعقوب بثلاث سنوات .

سيرة أبي يعقوب وعهده :

كان أبو يعقوب قوي العزيمة مرناً في سياسته ، وقد وجه همه من البداية للدفاع عن حوزة الاسلام في الاندلس ولكن بني الاحمر سلكوا نحوه سياسـة المراوغة والتقلب ، فيكونون معه إذا خشوا أمره وينقلبون عليـه إذا واتتهم الفرصة ، وكان مع ذلك كثير التسامـح نحوهم ، وكوالده رحمه الله لم يوفق في الاستيلاء على تلمسان ولكنه مع ذلك كان حازماً سريعاً إلى القضاء على اطماع الثوار ، وكانت الاحوال الاقتصادية في عهده حسنة بوجه عام ، وقد نسب اليه سن الاحتفال بعيد المولد النبوي في المغرب كله منذ سنة 691 هـ بعد أن سبقه إلى ذلك بنو العزفى بسبتة وملوك المشرق قبل قرن تقريباً .

أبو ثابت 706 – 708 (1307 – 1308)

شخصيته :

عامر أبو ثابت حفيد السلطان أبي يعقوب أمه بربرية تدعى بزو بنت عثمان ابن محمد بن عبد الحق ، بويع في ذي القعدة بتلمسان الجديد سنة 706 وكان كما وصفه صاحب روضة النسرين دري اللون تعلوه صفرة معتدل القامة عالي الأنف ضامر الخدين خفيف العارضين في رأســـه طول ، وكان فارساً شجاعاً محبوباً من لدن جده أبي يعقوب . على أن بيعته تمت على يد بني ورتاجن في بداية الأمر بينما بايع بعض رجال الدولة أبا سالم . وبعد أن عجز الأخير عن مقاومته ألقى القبض عليه ببندرومه ونفذ فيه القتل مع جماعـــة من قرابته الثائرين ثم أمر أبو ثابت بتسريح السجناء وتفريق المال على الضعفاء .

أعماله (القضاء على ثورة بن أبي عياد ومحاصرة سبتة) :

بعد القضاء على الثوار من قرابة أبي ثابت تمت بيعة السلطان باعتراف سائر أهل الحل والعقد الذين جمعهم أبو ثابت واستشارهم في شأن متابعة حصار تلمسان فأشاروا عليه بالرجوع إلى العاصمة التي كان يتوقع مهاجمتها من قبل عثمان بن أبي العلاء مما اضطره إلى عقد الصلح مع أبي زيان محمد بن عثمان بن يغمراسن وتخلى له عن المواقع التي كان يحتلها جده باستثناء المنصورة[2] التي اشترط عليه أن لا يتعرض لها بسوء ثم بعث بالقائد الحسن بن عامر لحماية فاس كما عقد لابن عمه يوسف بن محمد بن أبي عياد على مراكش ونواحيها فاستبد بها من فوره ودعا لنفسه فوجه اليه أبو ثابت جيشـــاً بقيادة يوسف الحكمي فانهزم ابن أبي عياد عند وادي أم الربيع والتجأ إلى هسكورة عند الشيخ مخلوف بن عبو[3] الذي لم يقبل حمايته وكبّله ثم قاده إلى السلطان فقتله مع مئات من اتباعـه وتابع السلطان نشر الأمن في ربوع المغرب فقضى على ثورة بجاحة في ناحية تامسنا، ثم التحق به عدد من عرب الخلط فأعدم كثيراً من شيوخهم ورجالهم بتهمة افساد أملاك الدولة وقطع الطريق .

(1) ابن الأحمر ، روضة النسرين ، ص 17 (2) روض القرطاس ، ترجمة بوميي

(3) في ترجمة روض القرطاس لبوميي ، ص 551 ذكر خلوف بن هنو

(4) روضة النسرين ، ص 17

وفي نهاية 707 استعد لحصار سبته التي كان عليها عثمان بن أبي العلاء ومكث ثلاثة أيام بقصر عبد الكريم لحشد جنود بني مرين والعرب واستولى على حصن علودان . وفي مطلع محرم 708 هـ قام الجيش بغارات على نواحي سبته والتضييق عليها وبعث الفقيه أبا يحيى بن أبي الجن إلى ابن الأحمر ليفاوضه في افراغ المدينة وأثناء ذلك كان أبو ثابت يختط مدينة تطاوين حيث يتخذ منها معسكراً ضخماً يهاجم منه سبته والظاهر أن أبا ثابت قد قلّد في ذلك جده الذي بنى المنصورة قرب تلمسان كما أنه كان يعلم جيداً الصعوبات التي تكبدها الفاتحون قبله من أجل الاستيلاء على سبته .

وفيما كان أبو ثابت ينتظر جواب ابن الأحمر مَرِضَ مَرَضَ موته في طنجة وقيل مات مسموماً سنة 708 . ولا ريب أنه لو طال عمر أبي ثابت لخلد أعمالاً جليلة في تاريخ الدولة المرينية ومع ذلك فقد كان من أحزم الملوك وأخبرهم بمقتضيات السياسة .

أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن يوسف

708 — 710 (1308 — 1310

عندما تولى أبو الربيع أخو أبي ثابت كان عمره لا يتجاوز تسع عشرة سنة . ويبدو أن بني مرين أجمعوا على بيعته إلا عمه ابن زريقاء الذي اعتقل وسجن بطنجه حيث هلك في سجنه سنة 710 وقام أبو الربيع بعد توليته بتوزيع الأموال على الفقراء والأجانب من عرب وبني مرين وحشم ونصارى[1] ثم توجه نحو فاس من طنجة التي تمت بها بيعته، وبينما كان في الطريق بلغه أن عسكر ابن أبي العلاء يريد مهاجمته فاستعد لحربه وانهزم عثمان بن أبي العلاء وكان سعى إلى المُلك والنفوذ فأيس منه أخيراً وقصد الأندلس يتولى مشيخة الغزاة حيث ساهم بدور بطولي رائع هناك .

ثم دخل أبو الربيع مدينة فاس التي احتفل فيها بعيد المولد وأثناء ذلك جدد معاهدة الصلح مع أبي حمو حفيد يغمراسن سنة 708 هـ .

(1) روض القرطاس ، ترجمة بوميي ، ص 554 .

القضاء على بني وقاصة وقتل الوزير ابن أبي مدين :

كان أبو مدين شعيب بن مخلوف من أهل كتامه أحد كبار رجال الدين من الذين التحقوا بصفوف المرينيين في عهد يعقوب بن عبد الحق، وقد حظي عندهم بشرف المقام وعظيم الاحترام حتى هلك فخلفه في هذه الحظوة ولده عبد الله الذي رقى إلى رتبة الوزارة منذ عهد يوسف وبقي مسموع الكلمة عزيز الجانب في عهد أبي ثابت وأبي الربيع، وكان ابن أبي مدين هو الذي عمل على نكبة بني وقاصة اليهود الذين استفحل شرهم في بلاط يوسف وترك منهم خليفة الأصغر الذي فكر في الانتقام لاخوانه من الوزير المذكور فأوعز إلى السلطان أن ابن أبي مدين يحدث الناس باعتداء الملك على عرض ابنته (أي ابنة الوزير) فأغضب ذلك السلطان ودس اليه قائد اللفيف الأجنبي الذي اغتاله بمقبرة الشيخ أبي بكر ابن العربي ، ثم تحقق السلطان انها حيلة من اليهودي فقتله واستأصل من كان في خدمته من اليهود وقد تعجل أبو الربيع قتل وزيره من غير اجراء تحقيق سابق.

استرداد سبتة سنة 709 / 1309 :

ضاق أهل سبتة بحكم بني الأحمر خصوصاً بعد ذهاب عثمان بن أبي العلاء إلى الأندلس فجهز السلطان أبو الربيع جيشاً قوياً بقيادة تاشفين الوطاسي للاستيلاء على سبتة الذي هب أهلها إلى الحامية الأندلسية فطردوهم سنة 709 ودخلوا في طاعة أبي الربيع من غـــير اكراه ، فخشي ابن الأحمر عواقب استرداد سبتة وبعث إلى أبي الربيع يسترضيه بالتنازل عن رندة والجزيرة ووطد السلطـان المريني صلته بابن الأحمر فتزوج من أخته وبعث جيشاً لمساعدة بني الأحمر بقيادة عثمان بن عيسى اليرنياني ، وأثناء ذلك انتقل بنو العزفي من الأندلس إلى فاس بإذن أبي الربيع .

أزمة ملكية :

أثناء اتصالات وفود ابن الأحمر بأبي الربيع بفاس جاهر أحدهم بمعاقرة الخمر، واستحضره القاضي أبو الحسن الزرويلي وتأكد من حاله فأمر بجلده ثم اتصـل

هذا الأندلسي بالوزير عبد الرحمن الوطاسي واحتج على ما لحقه من الأذى بوصفه مندوب دولته وهمّ الوزير بالفتك بالقاضي فقتل أبو الربيع الجنود الذين تعرضوا له فعدها الوزير اهانة لشخصه واتصل بالقائد الأفرنجي غنصالو وحرضه على الثورة ومبايعة عبد الحق بن عثمان ثم راسل السلطـان أبا حمو في شأن امداده فلم يسعفه وكادت تنشب الحرب بين الوزير وولي نعمته في ناحيـة سبو لولا أن قوات السلطان الشرعي كانت أكثر عدداً وأقوى سلاحاً فالتجأ الوزير عبد الحق ابن عثمان إلى الأندلس وأثخن السلطان قتـلا في اشياعهما ثم مرض بتازا حيث توفي ودفن سنة 710 بالجامع الأعظم .

وفي عهد أبي الربيع تطور شأن العمران وفن البناء بفاس واتخذت مظاهر الحياة الاجتماعية شكلاً راقياً بالعاصمة ، وندع ابن خلدون يصف لنا هذا التطور في السطور التالية :

« وفي أيامه (أي في أيام أبي الربيع) تغالى الناس في أثمان العقّار فبلغت قيمتها فوق المعتاد حتى لقد بيع كثير من الدور بفاس بألف دينار من الذهب العين وتنافس الناس في البناء فعالوا الصروح واتخذوا القصور المشيدة بالصخر والرخام وزخرفوها بالذليج والنقوش وتناغوا في لبس الحرير وركوب الفاره وأكل الطيب واقتناء الحلى من الذهب والفضة واستبْحَرَ العمران وظهرت الزينة والترف » .

أبو سعيد عثمان بن يعقوب

(1331 — 1310) 731 — 710

شخصيته :

أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق من أم عربيـة تدعى عائشة بنت الأمير مهلهل بن يحيى الخلطي ، وكان أبيض اللون أسود العينين واللحية كما كان قصير القامة عالماً متواضعاً ذا سخاء وعطف على العلم ورجاله . وقد لعبت أخته

عرَبية دوراً في تنصيبه عن طريق الأموال التي أغدقتها على كبار رجال الدولة ترغيباً لهم في تنصيب أخيها عثمان ، وقد تمت له البيعة الخاصة في قصر تازا أما البيعة العامة فتمت بظاهرها، وقد برهن أبو سعيد منذ البداية عن نضجه السياسي بإرسال ابنه أبي الحسن عاجلاً إلى فاس ليضع يده على الأموال والذخائر التي تركها سلفه ثم سرح السجناء على العادة وفرق الأموال على الفقراء ودخل العاصمة في رجب 710 ، ثم وجه همته لتقوية أسطوله حتى يجابه المسيحيين بالأندلس ، وقد عين على ثغور الجزيرة ورندة وحصونهما أخاه يعيش أبا البقاء ، ثم نازل الثائر عدي بن هنو الهسكوري الذي خرج بمراكش سنة 713 هـ .

محاربة بني زيان 714 (1314) :

كان من جملة الشروط التي تضمنتها معاهدة الصلح بين أبي الربيع وأبي حمو الزياني أن يسلم اليه عبد الحق بن عثمان والوزير رَحُّو (عبدالرحمن) الوطاسي غير أنه سهل سفرهما إلى الأندلس فخرج أبو سعيد لحربه سنة 714 هـ ، ولكنه لم يستطع أن يقتحم تلمسان فاكتفى بتحطيم قراها ومزارعها المجاورة وكان يصحبه أخوه يعيش الذي التجأ إلى بني زيان ثم رجع إلى تازا .

ثورة الأمير أبي علي 714 — 715 و 720 هـ :

كان الأمير عمر أبو علي أحد نجلي السلطان وكان من أم اسبانية وكان أصغر من أخيه أبي الحسن علي الذي كان من أم حبشية ، وكان أبو سعيد قد رشح عمر لولاية العهد وفوض اليه سلطات واسعة وعين له وزيراً ذا مكانة عالية في الدولة هو ابراهيم بن عيسى اليرنسياني، إلا أن أبا علي الذي أمره والده أن يستقر بالعاصمة ليسير الشؤون نيابة عن والده من سنة 714 ، حدثته نفسه بالاستبداد دون أبيه وتجهز لمحاربته وكادت الحرب تنشب بينهما فعلاً لولا أن أبا علي أصيب بمرض كاد يهلك منه وبعد أن اتفق الوالد وابنه على أن يحتفظ الأول بتازا وناحيتها سعى وجوه الدولة إلى أبي سعيد حتى يأخذوا الأمر لنفسه ، فعسكر أمام فاس واضطر أبو علي إلى طلب الصلح وتعويضه بسجلماسة فقبل

والده الذي كان يحبــه كثيراً ، بينا أذن أبو سعيد لأبي الحسن في تصفية أمر منديل بن محمد الكناني الذي كان كاتباً لأبي علي وكان بينه وبــين أبي الحسن عداوة وتم قتل هذا الكاتب في محبسه سنة 718 على أن أبا علي الذي توجه إلى سجلماسة سنة 715 عاد مرة أخرى إلى الاستبداد فاستولى على مراكش سنة 720 هـ . وقتل عاملها كندوز بن عثمان ثم تابع زحفه حتى اعترض جيش والده عنــد مُلوية فانهزم بعد أن افترق جيشه بين أوعار جبال الأطلس ورجــع يطلب الصفــح من جديد فعفا عنه والده ، وفي هذه السنة بالذات تم بناء مدرســة فاس الجديدة .

الحالة في سبتة ومحاربة بني العزفي :

كان بنو الأحمر قــد نقلوا أسرة بني العزفي إلى الأندلس منــذ سنة 705 ثم انتقل بنو العزفي إلى فاس في عهد أبي الربيع ، وكان أبو زكرياء يحيى وأبو زيد عبد الرحمن ابنا أبي طالب منهم يتلقيان العلم في القرويين وكان أبو سعيد يومئذ رفيقاً لهما في الطلب وانعقدت بينه وبينهم صلة ودية حتى تولى الملك ، فعين أبا زكرياء على سبتة سنة 710 وبعد ثورة أبي علي بفاس التجأ الاخوان إلى أبي سعيد الذي رد أبا زكرياء من جديد سنة 714 ولكن أبا زكريا خلع طاعة المرينيين من سنة 716 فزحفت اليه جيوش السلطان أبي سعيد ، ثم رجع الثائر العزفي في نفس السنة إلى طاعة المرينيين وبعد موته سنة 720 حدثت أزمة في سبتة بسبب الامارة فزحف اليها جيش بني مرين بقيادة السلطان نفسه سنة 728 وأخضعها لحكم الدولة وعين على ادارتها موظفين جددا .

الحالة في الأندلس :

كان لوجود بني عثمان بالأندلس وتسييرهم للعمليات العسكرية بالثغور أثر كبير في إيقاف زحف المسيحيين على عدة نقط اسلامية ، وهكذا فقد وُفق عثمان بن أبي العلاء إلى رفع الحصار عن المرية في سنة 709 (1309)، ودافع بكل شجاعة عن الحدود الغربية ، ولكن طريف ظلت في يد العدو من سنة 691 ،

ولما كانت سنة 718 (1318) تقدمت الجيوش القشتالية لفتح غرناطة تصحبها قوات صليبية جاءت على إثر نداء وجهه البابا . وتشكل وفد أندلسي يدعو الملك المغربي لانجاد اخوانه فاشترط عليهم تسليمه عثمان بن أبي العلاء مقدماً ، ولما كان هذا البطل قد فرض شخصيته هناك كزعيم حربي فإن الوفد لم يستطع أن يعد بالوفاء بهذا الشرط وليس ثمت ما يؤكد أن أبا سعيد كان يرغب فعلاً في الجهاد بالأندلس فقد كانت ثورة ابنه الخطيرة كافية وحدها لرده عن التدخل في الأندلس ، وقد استطاع عثمان أن يرد العدوان الصليبي عن غرناطة ، ويروي بعض المؤرخين حول هذا الانتصار روايات لا تخلو من مبالغات ولا محل لسردها هنا .

مصاهرة السلطان الحفصي ووفاة أبي سعيد :

بعد أن أمن الزيانيون تدخل بني مرين ، قاموا بدورهم يضايقون الحفصيين في افريقية وكان ملكهم يومئذ أبا بكر بن أبي زكرياء الذي انهزم انهزاماً مريعاً أمام جيش أبي تاشفين سنة 229 ه . واستولى الزيانيون على تونس حتى همّ أبو بكر أن يتوجه بنفسه لاستصراخ أبي سعيد ثم بعث ابنه مكانه إلا أن الحفصيين سرعان ما استعادوا عرشهم بينما كان أبو سعيد يزحف نحو تلمسان ليهاجم الزيانيين في عقر دارهم ، وفي هذه الأثناء خطب أبو سعيد ابنة الملك الحفصي فاطمة لولده أبي الحسن وانعقدت المصاهرة سنة 731 وعندما وصلت العروس إلى مرسى غساسه وتأكد أبو سعيد من استعادة أبي بكر لعرشه خرج نحو تازا ليشرف على شؤون الزفاف بنفسه ولكنه هلك في الطريق ونقل جثمانه إلى شالة حسبما يثبته ابن الأحمر في روضة النسرين ، وكانت وفاته في ذي القعدة سنة ١ 7 ه .

عهد أبي سعيد :

وبموت أبي سعيد تنطوي صفحة من تاريخ المغرب الحافل لم يكن يكدرها إلا ثورة عمه أبي علي ولم يطل ملك أبي سعيد عبثاً ، فقد تفوق الجيش المغربي في عهده ونشطت صناعة السفن الحربية وازدهر العمران والاقتصاد مما هيأ لأبي

الحسن ظروفاً مواتية لبسط نفوذه نحو الشرق لولا ثورة ابنه أبي عنان التي أوقفت انتصاراته .

وفي عهد هذا السلطان كثرت المدارس بالمغرب خصوصاً بفاس حيث بنيت مدرسة بفاس الجديد سنة 720 ومدرسة جامع الأندلس سنة 721 ومدرسة العطارين سنة 723 .

أبو الحسن علي بن عثمان

(1351 – 1331) 752 – 731

شخصيته :

أبو الحسن علي بن عثمان الملقب بالمنصور ، ولد بتفرديون سنة 697 ، وهو من أم حبشية تدعى العنبر وكان طويل القامة معتدل اللحية قوي البدن جميل الصورة ، وكان متمسكا بأهداب الدين ميالاً إلى أعمال الخير لم يتناول الخمر قط فيما عرف عنه وكان أسمر اللون لقب بالسلطان الأكحل عند العامة ولم يكن أسود ، ومن حسناته الأخلاقية الطموح والشجاعة مع حزم ورغبة صادقة في خدمة شعبه وكان يهدف إلى ضم أقطار المغرب العربي تحت سلطته موحدة نظراً للضعف الخطير الذي آلت إليه في عهده كل من مملكة افريقية وبني عبد الواد .

ومنذ عهد والده قام بدور مجيد في خدمة الدولة مع امتثال تام لأوامر والده وكان أشرف عمل أداه لصالح الدولة وقوفه بجانب أبيه يوم كادت ثورة أخيه أبي علي تطيح بعرش الدولة أو تؤدي بها إلى الانقسام .

وكان أبو الحسن شديد الحنو على الفقراء والضعفاء كثير الاهتمام بخدمة شعبه مما تؤكده المآثر ذات الصبغة الاجتماعية التي سجلها التاريخ كالمارستانات والزوايا والقناطر والمدارس ...

وقد بويع أبو الحسن البيعة الخاصة اثر مهلك أبيه بتازا ثم بويع البيعة

العامة بناحية فاس على يد المزوار عبد الله بن قاسم وفي نفس الليلة التي تلقى فيها البيعة العامة احتفل بزفاف زوجته الحفصية اليه .

نشاطه بالمغرب العربي

كان أول عمل قام به أبو الحسن أن قصد بنفسه إلى سجلماسة حيث يوجد أخوه أبو علي وذلك ليظهر لسكان هذه الناحية أن النفوذ الأعلى يرجع إليه كملك وقد خشي أبو علي أمر هذا التحرك المفاجيء نحو سجلماسة فبعث ببيعته اليه واستجاب أبو الحسن لوصية والده في البر بأخيه فثبته والياً على سجلماسه ثم عرج إلى الشرق يقصد تلمسان من أجل تصفية أمر بني عبد الوادي وانتقاماً لصهره أبي بكر الحفصي الذي كان يقاتل بني زيان في بجاية وأثناء ذلك اتفق أبو تاشفين مع أبي علي على أن يهيأ للإطاحة بعرش أبي الحسن لصالح أخيه أبي علي، وهكذا خرج أبو علي بجيشه يستولي على درعة ويزحف نحو مراكش، بينما كان أبو الحسن قد تجاوز تلمسان إلى تاساله ليتصل بأبي يحيى الحفصي حتى إذا بلغه ثورة أخيه انكفأ راجعاً إلى سجلماسة وتحرك أبو تاشفين بدوره نحو المغرب الشرقي حيث هزم جيشاً مرينياً بقيادة ابن أبي الحسن .

وفضل أبو الحسن أن يصفي أمر أخيه أولاً، فحاصره نحو سنة كاملة إلى أن استولى على سجلماسة سنة 733 ثم اعتقل أخاه وقتله بعد أشهر وبذلك سلمت له مقاليد الحكم بالمغرب لعدة سنوات من عهده ، وقبل أن يشرع أبو الحسن في حصار سجلماسة تلقى زيارة ابن الأحمر ملك غرناطة الذي جاء يستنجد به على الفونس الحادي عشر ، وسأفصل هذه النقطة في موضوع التدخل بالأندلس.

فتح تلمسان 735 — 737 (1334 — 1336) .

بعد تصفية أمر أبي علي بعث أبو الحسن إلى أمير بني زيان يطلب منه سحب جيوشه من المناطق الحفصية التي انتزعها بنو زيان من افريقية فرد عليه أسوأ رد، وتهيأ أبو الحسن لحربه سنة 735 فافتتح وجده وندرومة ووهران ثم عسكر بالمنصورة التي رممها وقد كان خربها بنو زيان كما بنى بإزائها أحياء جديدة ، وتوافدت عليه أثناء ذلك عدة شخصيات عسكرية من بني زيان خصوصاً قائدهم

العام يحيى بن موسى واستمر الحصار مدة عامين انتهى بعدها بفتح البلد الذي عجز عنه ملوك بني مرين قبل أبي الحسن ولكن الجيش المريني قتل من سكان تلمسان عدداً عظيماً وانتهك حرماتهم ، وقد وصف ابن خلدون والناصري هذا الفتح وصفاً كافياً لا طائل تحت تكراره هنا ، وقد قتل أبو تاشفين نفسه أثناءه ومعه عدد من أفراد أسرته ، وتدخل أبو الحسن لإيقاف الجنود عن الفساد .

وينبغي أن أشير هنا إلى العمل المبرور الذي قام به أبو الحسن أثناء حصار تلمسان [1] وهو إيفاد والدته إلى الحج مـــع رسالة توصية بعثها إلى الناصر بن قلاوون لهذا الغرض سنة 736 ، ثم جدد أبو الحسن صلته بزميله الشرقي اثر فتح تلمسان مباشرة وذلك بواسطة سفارة تبودلت بين الملكين

بوادر أزمة حول العرش 738 (1337) :

حدثت أزمة دبلوماسية بينما كان السلطان أبو الحسن يقيم بتلمسان حيث أبلغه وزير حفصي أن ملك افريقيه سيزوره ليهنئه ، بيد أن بعض الشخصيات في حكومة أبي يحيى أظهرت له عدم لياقة هذه الزيارة بوصفه قريناً لأبي الحسن وبقي هـــذا ينتظر قدوم أبي بكر من متيجه من غـير طائل سنة 738 وأصيب بمرض ألزمه الفراش بينما كان ابناه أبو مالك وأبو عبد الرحمن المتنافسان على ولاية العهد يدبر كل منهما انقلاباً لصالحه حتى إذا بلغ الخبر أبا الحسن انتزع منهما كل ما كـــان لهما من امتيازات وسلطـــات والتحق زيان الوطاسي ووزير أبي عبد الرحمن بالحفصيين بينما اعتقل أبو عبد الرحمن نفسه بوجده ورضي السلطان عن أبي مالك الذي عينه على ثغور الأندلس ، وبقي أبو عبد الرحمن في السجن إلى أن قتل بأمر من السلطان سنة 742 وذلك بعد أن قتل الأمير سجانه وكان لأبي عبد الرحمن طباخ يدعى أبو هيدور وكان شبيهاً به في الصورة فخرج بعد اعتقال مخدومه يدعي بين الأعراب أنه الأمير ابن عبد الرحمن حتى إذا افتضح

---

(1) يراجـع بشأن فتح تلمـسان : ابن خلدون ، العـــبر ج 7 ، الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص 72 - 73 .

أمره خرج إلى افريقية فظفر بـه أبو بكر الحفصي وبعث به إلى أبي الحسن فقتله بسبتة .

أما أبو مالك فقد لقي حتفه في جهاد المسيحيين سنة 740 بالأندلس فعبر أبو الحسن إلى طريف يحاصرها في جيش ضخم فمني لأول مرة بهزيمة منكرة بوصفه قائداً مباشراً سنة 741 وعاد المسيحيون يستولون على الجزيرة الخضراء سنة 743 .

نفي أولاد أبي العلاء إلى المغرب 742 (1341) :

بعد وفاة عثمان بن أبي العلاء خلفه أبو ثابت عامر في رياسة أسرته التي كانت تتولى مشيخة الغزاة بالأندلس حيث ضايقت بني الأحمر في عقر دارهم حتى قتلت سلطانهم محمد ابن الاصم وولت مكانه أخاه أبا الحجاج الذي اعتقلهم جميعاً وبعث بهم إلى تونس حتى طلبهم أبو الحسن فتشفع فيهم السلطان الحفصي ووجه بهم اليه وقبل أبو الحسن شفاعة ملك تونس إكراماً له بوصفه صهره ثم بلغـه انهم يدبرون له مكيدة فاعتقلهم بمكناس .

تدخل أبي الحسن بتونس[1] 747 ـ 750 (1346 ـ 1349) :

توفي أبو يحيى الحفصي في رجب 747 فاستبد بالأمر ابنه عمر الذي قتل أخاه أحمد ، ولي العهد وكان ابن تافراكين وزير الحفصيين بعـد هذه الحادثة يرغب أبا الحسن في تملك افريقية التي كان هو نفسه يطمع في ضمها إلى مملكته حتى يجدد بذلك وحدة المغرب العربي ، ولكنه كان يحترم جانب صهره حتى إذا توفي أبو يحيى واغتصب العرش ابنه عمر رأى أبو الحسن الفرصة مواتية للتدخل في تونس وذلك بعد أن زفت اليه عروسه الجديدة أخت زوجته الحفصية فاطمة التي ماتت خلال معركة طريف وتم الزفاف بحضر أخيها الفضـــل الذي بعثه السلطان الحفصي قبيل وفاته .

وانطلق الجيش المريني من تلمسان سنة 747 (1346) يخضع منطقة الزاب

---

(1) يراجع ابن خلدون . م.س . والزركشي ص 81 - 90 .

وبسكرة ويتسلم من أيدي الأمراء الحفصيين بجاية وقسنطينة ولم يكن أبو الحسن يسلك سياسة التعصب في تعيين ولاته فقد عوض أبا زيد الحفصي عن قسنطينة بولاية ندرومة وثبت الفضل أميراً على بونة .

وفي باجة تسلم أبو الحسن رأس السلطان الحفصي الجديد الذي اعتقل قرب قابس ثم دخل تونس سنة 748 في موكب رسمي رائع حتى قال عنه ابن خلدون: « وكان يوماً لم ير مثله فيما عقلناه[1] » ، ثم زار أبو الحسن القصر الملكي وآثار قرطاجنه وتونس ، وعين عمالاً في مختلف أقاليم افريقيه الى مسراته من ليبيا اليوم .

ولم ينظر سكان افريقية إلى المغاربة كغزاة كما زعم ذلك طيراس[2] الذي عاد ليؤكد أن الخطر الحقيقي كان يكمن في وجود العرب أو على الأصح في بدو العرب الذين كان الحفصيون يخشون خطرهم حتى أقطعوهم اقطاعات واسعة وضربوا الأتاوة على المسافرين ، فانتزع منهم أبو الحسن كل ذلك وعوضهم بأعطيات كسائر الجند فقامت قيامتهم وقاموا يهيئون لإعادة عرش الحفصيين فنصبوا أحد سوقتهم من توزر ويدعى أحمد بن عثمان بن أبي دبوس ثم هاجموا القيروان. وكان ضمن الجيش المريني عدد وافر من بني عبد الواد خصوم المرينيين فاتحدوا مع الاعراب وانهزم جيش السلطان أمامهم حتى استولوا علىفسطاطه وخيامه وسَبَوا كثيراً من حرمه وقام ابن تافراكين بدوره يناصر السلطان الذي نصبه العرب وذلك بعد أن يئس من الحصول على نفوذ قوي في بلاط الدولة مثلما كان الأمر في عهد الحفصيين ثم انسل بنفسه إلى الاسكندرية وقد خشي من أن يقع في قبضة أبي الحسن فآواه بعض أمراء مصر ، ولم تجد مراسلة أبي الحسن لسلطان مصر شيئاً في سبيل اعتقاله .

وفيما كان أبو الحسن ملتجئاً إلى القيروان عند تجمع غوغاء العرب وبني عبد الوادي لحصاره ارجف الناس بموته حتى قام أبو عنان ينصب نفسه ملكاً واسترد بنو عبد الواد ملكهم وتمكن أبو الحسن من مغادرة القيروان بفضل

(١) ابن خلدون ، عبر ، 7 ، 562 (2) Terrasse, Histoire du Maroc, 2, 59

تدخل جماعة أولاد مهلهل من قبائل العرب ، ثم استقر مؤقتاً بتونس ماراً بالبحر عن طريق سوسه .

وأثناء هذه الأحداث كان الفضل الحفصي عامل بونه يعمل لاسترداد مُلك أجداده فاستولى على توزور وقفصه وبلاد الجريد وقام بمحاصرة تونس فتحرك أبو الحسن يقصد المغرب خشية من هزيمة تلحقه ولكنه ترك ابنه أبا الفضل نائباً عنه ولم يلبث الفضل الحفصي أن استرد تونس سنة 750 فالتحق ابن أبي الحسن بوالده في الجزائر .

وفي المغرب الأوسط توقف وفد قدم من مالي لتهنئة أبي الحسن بفتح افريقية ووفد آخر قدم من قشتاله لنفس الغرض وفي لجة الفتنة قام الغوغاء بالاستيلاء على ما كان يحمله الوفدان من متاع وهدايا ولم ينجوا منهم إلا بشق الانفس .

وتوالت الفتن في مختلف أطراف المملكة وعملت قلة المواصلات وصعوبتها على تعمية أخبار السلطان عن شعبه وولاته فخرج من تونس سنة 750 عازماً على أن يستعيد امبراطوريته بكل ما يتوفر عليه من وسائل .

بيد أن سنة 750 تمهيد لآخر تدخل عسكري قامت به دولة مغربية في تونس فلم يكتب للملك بعد أبي الحسن وأبي عنان أن تطأ أقدامه أرض افريقية كفاتح وقد بدأ أول تدخل قبل ذلك بقرنين وربع تقريباً أي منذ عهد بني غانية .

فالتدخل المريني بافريقية والذي لم يستغرق أكثر من بضع سنوات لا يمكن أن يضع هذه المنطقة في اطار الامبراطورية المرينية إلا لهذه الفترة فقط وقد ترك الوجود المريني هناك بعض الآثار من بينها تلقي عدد من طلبة افريقية العلم على يد الفقهاء والعلماء الذين صحبهم أبو الحسن ومن بين المستفيدين من هؤلاء العلماء ابن خلدون ، كما أن أبا الحسن أنشأ تحصينات هامة بتونس بعد أن التجأ اليها .

وقبل التحدث عن مصير أبي الحسن بعد إبحاره من تونس ينبغي التحدث عن التدخل المريني بالأندلس .

تدخل أبي الحسن بالأندلس

استولى القشتاليون على جبل طارق من سنة 1309 (709) وظل في أيديهم أكثر من عشرين سنة حتى هددوا غرناطة . وكان ابن الأحمر يخشى نفوذ عثمان بن أبي العلاء فطلب تدخل أبي الحسن وشجعه على استرجاع جبل طارق وكان ابن الأحمر قد اتصل مباشرة بأبي الحسن في فاس حيث خصص له استقبالاً طيباً سنة (739) ثم أمده بجيش تحت قيادة ابنه أبي مالك وكان عدده خمسة آلاف مقاتل وقد تمكن من استرجاع جبل طارق سنة 733 وأعاد تحصينها بيد أن أبا مالك اغتر بهذا الانتصار وراح يناوش القشتاليين في عقر دارهم حيث قارب شريش سنة 740 فأحاطت به جيوشهم ووقع في أيديهم فقتلوه ثم حمل إلى الجزيرة الخضراء ومنها إلى المغرب وتقول الروايات العربية أن دخول أبي مالك في الأراضي المسيحية كان بأمر من أبي الحسن .

معركة طريف 741 (1340) :

ولم يتأخر أبو الحسن عن مواصلة عمل ابنه فهيأ أسطولاً شاركت فيه قطع من أسطول الحفصيين وبلغ مجموع القطع نحو مائة تجمعت بميناء سبتة تحت قيادة محمد العزفى . وفي بحر الزقاق (بوغاز جبل طارق) التحم الأسطولان في معركة سريعة انتهت باندحار الأسطول المسيحي وقتل قائده ثم نظم أبو الحسن أسطوله من جديد وانتقل بنفسه إلى الأندلس في ستين ألف جندي حيث شرع في محاصرة طريف من مطلع سنة 741 بمساعدة جيش بني الأحمر ، أمكن حصار طريف براً وبحراً ، بيد ان القشتاليين استعانوا بدورهم بقوات من جنوة والبرتغال وتسربت فرقة منهم ليلاً إلى المدينة ثم التحم القتال غداة تلك الليلة وخرجت الفرقة المذكورة تنهب فسطاط السلطان وتستولي على المؤن والذخائر ثم تقتل النساء والصبيان وكل من وصل إلى أيديها واعتقلت تاشفين ابن السلطان ولم ينتبه المسلمون إلى ما حل بهم إلا مؤخراً وأثر ذلك في معنويتهم واضطربت صفوفهم فتمت الهزيمة عليهم في 7 جمادى الآخرة 741 (28 نوفمبر 1340) وخرج السلطان إلى الجزيرة الخضراء ثم إلى جبل طارق حيث أبحر إلى المغرب، ويسمي

المسيحيون هذه الواقعة باسم المكان الذي وقعت فيه وهو (Rio Salodo) .

احتلال القشتاليين للجزيرة الخضراء (742 – 743) :

وانتهز القشتاليون فرصة اندحار الجيش المريني ورجوعه إلى المغرب فزحفوا إلى الجزيرة الخضراء وبعث أبو الحسن بأسطوله لحمايتها فاعترضه الأسطول المسيحي واستولى عليه وظل أبو الحسن يوجه المدد إلى الجزيرة الخضراء من غير طائل حيث ضاق الأمر بأهلها واجتاز ابن الأحمر إلى سبتة لمفاوضة أبي الحسن في تسليمها إلى المسيحيين وأثناء ذلك عمد السكان إلى تسليم البلدة بأنفسهم سنة 723 هـ ، ثم هاجر قسم عظيم إلى المغرب تحت رعاية ملكه ، وقد بقيت بعد ذلك مواقع في أيدي المسلمين تحت اشراف كل من بني مرين وبني الأحمر وخصوصاً جبل طارق واشطبونه وماربيلا . وقد كان انهزام المسلمين في وقعة طريف تؤدي إلى استيلاء القشتاليين على كل الأندلس لولا وفاة الفونس سنة 751 هـ (1) .

والحق أن فشل أبي الحسن في خطته الحربية بالأندلس لم يكن يرجع إلى شيء بقدر ما كان يرجع إلى انشغال الجيوش المرينية بالحرب في عدة واجهات أو على الأصح إلى توزعها في عدة واجهات من الشمال الافريقي ، بالإضافة إلى أن القشتاليين كانوا يتلقون على الدوام امدادات بحرية من جنوه وبرية من البرتغال ، وكانت الجيوش المرينية التي تنتقل إلى الأندلس قليلة العدد ثم يرجع أكثرها إلى المغرب بمجرد انتهاء مهمتها الحربية ، وكان مسلمو الأندلس أنفسهم قد ضعفت معنويتهم بتوالي النكبات فكان صمودهم أمام العدو قصير الأمد وكانت سياسة المداهنة التي اعتاد ملوك بني الأحمر أن يسلكوها تجاه المسيحيين تزيد في إضعاف هذه المعنوية وفي فشل التدخل المريني .

نهاية أبي الحسن (752) :

بعد أن طال مقام أبي الحسن بالمغرب الأدنى كما تقدم وأشيع نبأ موته قام أبو عنان يدعو لنفسه سنة 749 ولم يبق مخلصاً لأبي الحسن إلا شخصيات قليلة من بينها الوزير الحسن بن سليمان وعامل فاس منصور بن أبي مالك الذي عجز عن مقاومة

(1) ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص 95 .

أبي عنان فسلم اليه المدينـــة ثم قتله بمحبسه ، حتى إذا تحرك أبو الحسن من تونس سنة 750 وبلغ ميناء بجاية للتزود بالماء منعه أسطول أميرها الحفصي وقاتل الأسطول المريني حتى حصل على الماء ثم خاض البحر فاشتدت الريح عاصفـة وغرقت أكثر السفن المرينية بمن فيها من العلماء والخاصة وكان عـــدد العلماء الذين صحبهم أبو الحسن فيما هو معلوم حوالي أربعمائة[1] وعدد قطـع الأسطول ستمائة وقد نجا أبو الحسن بفضل جفن أدركه ثم حمله إلى الجزائر التي تمسكت بطاعته وجمع جيشاً من الأعراب حاول أن يدخل به تلمسان فانهزم وقتل ابنه ثم توجه نحو الصحراء وصحبة ونزمار رئيس سويد وقصد سجلماسة فتوجه أبو عنان لطرده منها وخذله الاعراب فذهب إلى مراكش حيث تمكن من تنصيب نواة لحكومته وبفضل هنتاته وعرب جشم تمكن من اعداد جيش لمجابهة أبي عنان ولكن هذا الجيش انهزم سنة 751 عند أم الربيع حيث تقابل الوالد وابنه في نفس المعركة ولم ير الوالد بعد هذا من ملجأ سوى هنتاته الذين قرروا أن يدافعوا عنه حتى النهاية ، وزحف أبو عنان مرة أخرى لحصار والده وطلب الابقاء عليه ثم أقر له بولاية عهده ، ولم يمكث غير قليل حتى اختاره الله لجواره سنة 752 من ربيع الثاني بعد مرض طارىء ، وقيل ان أبا عنان قد تفجع عليه وتلقاه حافياً حاسراً ولكن وقت التوبة عن جريمته المنكرة كان قد فاته ، وقد دفن أبو الحسن بمقبرة شالة .

عهد أبي الحسن :

كان عهد أبي الحسن مليئاً بالنشاط السياسي والعمراني والاجتماعي والفكري فقد امتد ملك أبي الحسن كما تقدم إلى مسراته شرقاً وحدود مالي جنوباً ، ومع أن أبا الحسن كان يحيط نفســـه بحكومة أغلب رجالها من الشخصيات الممتازة كعامر السدراتي وأبي مجاهد غازي وأبي محمد المسكوري فقد كانت الكلمـــة العليا له هو نفسه غير أنه كثيراً ما كان يكل القيادة العسكرية في واجهة ما إلى أحد وزرائه .

وعرف عهد أبي الحسن نشاطاً عمرانياً شاملا ، من ذلك توسيع المنصورة

(1) المقري ، نفح الطيب ، 8 ، 320

وتسوير تونس وتحصين جبل طارق والمدارس العديدة التي أنشئت بعدة مدن كالمدرسة المصباحية ومدرسة الصهريج بفاس والمدرسة الجديدة بمكناس ومدرسة الطالعة بسلا ، ومن القناطر التي أنشأها قنطرة الوادي وقنطرة الرصيف بفاس وقنطرة وادي سطيف بتلمسان ، هـذا بالاضافة إلى المارستانات والحصون والأبراج والزوايا ومختلف المباني العامة .

وفي عهد أبي الحسن اتسع النشاط الفكري في مختلف فروع المعرفة وظهر علماء كأبي عبد الله بن الصباغ المكناسي الذي وصفه ابن خلدون بأنه كان مبرزاً في المنقول والمعقول وأحمد بن شعيب المتخصص في الطب والعلوم العقلية وابن هلال العالم الرياضي .

وكانت سمعة أبي الحسن طيبة في البلاد الاسلامية والمسيحية على السواء وكان لأبي الحسن رغبة في توطيد صلاته بملوك الدولة الاسلامية فبادلهم السفارات والوفود وهكذا أوفد إلى الناصر بن قلاوون أول سفاراته سنة 736 (1336) برئاسة محمد الجراح ثم بعث سفارة أخرى سنة 737 برئاسة فارس بن ميمون يخبره فيها بفتح تلمسان ، وكان فارس بن ميمون من كبار الموظفين ثم صار وزيراً لأبي عنان ، وفي سنة (735) وجهت سفارة مع ركب إحدى الأميرات من قصر أبي الحسن ومعها هدايا جليلة للناصر رد عليها بهدايا أخرى نفيسة ، وفي عام 745 هـ توجهت سفارة أخرى من المغرب ضمن ركب الحجيج الذي كانت فيه مريم أخت أبي الحسن وأدت هذه السفارة تعازيها للملك الصالح في والده الناصر كما هنأته بخلافته ، ثم بعث سفارة أخرى إلى الشرق عام (747) وتبادل السفارة مع سلطان مالي منسا موسى الذي بعث يهنئه بفتوحاته وقد أكرم أبو الحسن هذا الوفد ورده بهدايا قيمة .

أبو عنان فارس بن أبي الحسن

752 — 759 (1351 — 1357

شخصيته :

أبو عنان المتوكل على الله من أم رومية تدعى شمس الضحى ، ولد سنة 729 وتولى الملك بطريق غير مشروع سنة 749 ثم خلص له الأمر باعتراف والده سنة 752 هـ ، وكان كما وصفه صاحب روضة النسرين : « أبيض تعلوه صفرة قوية طويل القامة يشرف الناس بطوله نحيف البدن عالي الأنف حسنه جهوري الصوت في كلامه عجلة وتوقف حيث لا يكاد يفهم ما يقول وكان أهدب الأشفار جميل الوجه بارع الحسن عظيم اللحية كما كان فارساً شجاعاً عالماً مطلعاً يناظر العلماء ويخطئهم في كثير من الأحيان ، وكان يحفظ القرآن الكريم ويتمثل به ، وقد مات وله من العمر 29 سنة وكان أول من تلقب بالخلافة من بني مرين ، وبالرغم من الموقف الغير اللائق الذي وقفه ازاء والده أبي الحسن حيث انتزع منه المُلك غصباً فقد كان متديناً يعظم الصلحاء حتى اغتم كثيراً عندما امتنع الشيخ أحمد بن عاشر عن استقباله سنة 757 هـ .

نشاطه بالمغرب العربي[1]

استرجاع المغرب الأوسط 753 — 754 / 1353 — 1354 :

كان بنو عبد الواد والحفصيون قد استردوا ممتلكاتهم أثناء النكبات التي توالت على أبي الحسن بافريقية لذلك بادر أبو عنان إلى تجهيز جيوشه لإخضاع هذه المناطق من جديد ، فقاد بنفسه حملة للاستيلاء على تلمسان من مطلع سنة 753 حيث اصطدمت جيوشه بجيوش بني عبد الواد التي كان يقودها السلطان أبو سعيد عثمان وقد سقط هذا السلطان أسيراً في يد أبي عنان فأعدمه في سجنه ثم سقط أخوه أبو ثابت في يد أمير بجاية فسلمه إلى أبي عنان وكان هذا الأمير

(1) ابن خلدون ، العبر ، ج 7 ، الزركشي اخبار الدولتين ص 93 - 99 .

(محمد بن أبي زكرياء الحفصي) قد حضر بنفسه لتسليم أبي ثابت ثم تنازل بمحض رغبته عن امارة بجاية التي عوضها عنه أبو عنان بمكناسة ، وهكذا استرجع أبو عنان في ظرف قصير كلا من تلمسان وبجاية التي عين عليها عمر الوطاسي ، بيد أن سكان بجاية لم يلبثوا أن ثاروا بالعامل الجديد وقتلوه بتحريض من حاجب الأمير الحفصي ثم دخلت المدينة من جديد في طاعة أبي عنان في أول سنة 754 .

مقتل أبي الفضل أخي السلطان سنة 755 / 1354 :

بعد طرد أبي الفضل بن أبي الحسن من تونس على يد سكانها رجع إلى المغرب ثم دخل في طاعة أخيه بعد وفاة والده ولكن أبا عنان لم ير في بقائه بالمغرب مصلحة له فبعث به مع أخيه أبي سالم إلى الأندلس من أجل الاشراف على العمليات الحربية هناك ثم بدا لأبي عنان في استقدامهما مرة أخرى ولكن أبا الحجاج أمير غرناطة تركهما تحت حمايته خوفاً عليهما من بطش أبي عنان ، وقد غضب السلطان المغربي لهذا الموقف وأرسل له خطاباً شديد اللهجة مما أدى بأبي الحجاج إلى التدخل لدى ملك قشتاله حتى يساعد أبا الفضل بأسطول يمكنه من فرض نفسه ملكاً عوض أخيه ، وحمل الأسطول أبا الفضل إلى ساحل السوس من غير أن يدنو من الساحل الشمالي الذي كانت الأساطيل المغربية منبثة فيه على أن الأسطول المسيحي لم يلبث أن انهزم انهزاماً شنيعاً أمام الأسطول المغربي وقد شعر ابن الأحمر بخطورة موقفه فبعث ابن الخطيب برسالة باسمه إلى أبي عنان يلتمس الأعذار ويؤكد ولاءه .

ثم التجأ أبو الفضل إلى عبد الله السكسيوي رئيس سكسيوة الذي لم يستطع أن يقاوم المرينيين فتخلى عنه ، والتجأ أبو الفضل إلى درعة حيث تمكن منه عاملها عبد الله الزردالي الذي سلمه على الفور إلى أبي عنان فقتله خنقاً سنة 755 ، وينبغي أن نلاحظ أن عملية الاعدام خنقاً كانت جارية في عهد المرينيين خصوصاً بالنسبة للملوك وكبار رجال الدولة ، أما أبو سالم فإن أبا عنان لم يمسه بسوء .

وقد انتفض عيسى بن الحسين عامل جبل طارق الذي كانت له رتبة الوزير سنة 756 فثار به السكان بمساعدة خصمه عامل رنده وقبضوا عليه ثم قادته سفينة إلى سبته وتم قتله بعد ذلك في نهاية السنة المذكورة .

فتح قسنطينة وتونس :

عين السلطان وزيره عبد الله بن علي والياً وقائداً عاماً على بجاية وما وراءها من بلاد افريقية سنة 757 . ولما كان هذا الوزير لم يوفق في سياسته واسترجاع قسنطينة التي كلفه أبو عنان بالاستيلاء عليها فقد عزل عن القيادة وخرج السلطان بنفسه لفتح قسنطينه سنة 758 بعد أن سفه وزيره فارس بن ميمون . وأمام الحشد الهائل الذي صحب أبا عنان إلى قسنطينه لم يجد السكان بدأ من تسليم سلطانهم الحفصي أبي العباس إلى المرينيين الذين اعتقلوه بسبته ثم دخل أبو عنان قسنطينه دخول الظافر وتوالت عليه البيعات من سكان النواحي حتى تمكن من فتح تونس بفضل مساعدة العرب من أولاد مهلهل بينما تحصن ابن تافراكين الوزير القديم بمهدية ومنع أبو عنان على العرب تحصيل الأتاوة من السكان ثم توجه إلى قسنطينه آملاً أن يعد العدة لتتمة فتح افريقية حتى إذا همّ بالعودة إلى تونس تآمر شيوخ القبائل مع الوزير فارس بن ميمون حتى يصدوا السلطان عن هذه الحملة متعللين ببعد الديار وعجز الاعتمادات العسكرية عن ضمان نجاح الحملة فاضطر إلى العودة إلى المغرب بعد أن كان قد قطع مرحلتين في طريقه إلى تونس ثم أتى قتلاً على المتآمرين من القادة وعلى رئيسهم وزيره فارس .

وفي سنة 759 عين القائد سلمان بن داوود وزيراً وتولى قيادة حملة جديدة نحو افريقية وتكفل بإحداث الاضطراب في صفوف عرب الدواوده الذين كانوا يرهقون السكان بالضرائب في المغرب الأوسط خصوصاً في ضواحي قسنطينه وهكذا عزل عن قيادتهم يعقوب بن علي وولى مكانه أخاه ميمون ثم شرد المتمردين منهم في المناطق الصحراوية وأثناء ذلك قدم أبو عنان بنفسه

إلى تلمسان للإشراف على الحملة بيد أن الجيوش المرينية لم تستطع اقتحام افريقية مرة أخرى وكانت هذه المنطقة تشهد اضطرابات خطيرة منذ عودة أبي عنان منها إلى المغرب حيث ثار السكان بالحاميات المرينية التي نجت بنفسها إلى المغرب وحيث أن الحملة الثانية لم تصادف نجاحاً فعلياً فقد عاد أبو عنان من تلمسان إلى العاصمة المغربية .

نهاية أبي عنان 759 (1357) :

احتفل أبو عنان عند عودته إلى المغرب بعيد الأضحى ، ثم أصيب بمرض ألزمه الفراش حوالي أسبوعين ودخل عليه وزيره الحسن بن عمر الفودودي فخنقه حتى مات سنة 759 من أواخر ذي الحجة كما خنق ولي عهده أبا زيان ونصب أبا بكر السعيد وهو بعد في الخامسة من عمره .

علاقة المغرب بالأندلس :

لم تشهد أيام أبي عنان أحداثاً سياسية تذكر بالأندلس فقد ظلت المناطق التي كانت بيد والده من قبل تخضع لإشرافه وأهمها جبل طارق الذي كان يستقر فيه عامل الثغور كما أنه لم تحدث اشتباكات ذات أثر حاسم مع الجيوش المسيحية على أنه ينبغي الاعتراف بأن القشتاليين الذين كانوا يواجهون الصراع ضد المسلمين كانوا هم أنفسهم منشقين على أنفسهم بسبب الخلاف حول العرش الذي كان يدعي أحقيته كثير من الأشخاص وهكذا نعم المسلمون بحقبة قصيرة من السلم بالأندلس في عهد أبي عنان الذي كان يولي على الثغور شخصيات سياسية كالوزير عيسى ابن الحسين وسليمان بن داوود وأبي بكر السعيد الذي خلفه في الملك وكان يتولى اسماً ، ويقوم بمراقبة الثغور بعضُ مساعديه .

أما العلاقات مع بني الأحمر فقد كانت حسنة في جملتها وقد لعب ابن الخطيب وزير غرناطة دوراً فعالاً في توطيد هذه العلاقات وكتب عدة مراسلات إلى أبي عنان باسم أبي الحجاج ثم ابنه الغني بالله الذي بعثه سفيراً عنه سنة 756 إلى المغرب فأكرم أبو عنان وفادته ، وقد أثبت صاحب نفح الطيب في كتابه هذا كثيراً من المراسلات التي جرت بين بني الأحمر وأبي عنان .

4 ـ دور الضعف

أبو بكر السعيد

(759 — 760 هـ / 1357 — 1358 م)

صفاتـــه :

أبو بكر السعيد بن أبي عنان ، من أم مولدة اسمها الياسمين، بويع يوم 25 من ذي الحجة 759 هـ . وكان أبيض اللون أسود الشعر جميل الوجـه مستديره براق الثنايا أدعج أعـين . وقد بويع بتدبير الوزير حسن بن عمر الفودودي ، وهو ما يزال صبياً .

النزاع حول العرش :

حاول الوزير الفودودي أن يجمع على بيعة السلطان إخوته ، فلجـأ المعتمد منهم إلى عامر الهنتاتي رئيس هنتاتة فحاصره الوزير سليمان بن داود في مطلـع سنة 760 . وفي هذه الأثناء كان أبو حمو الزياني يعد الحملة لاسترداد تلمسان ، ولكن جيوش بني مرين بقيـادة مسعود بن عبد الرحمن بن ماساي تداركت الموقف بعد أن احتل أبو حمو المدينة فعلا ، فطردته عنهـا إلى الصحراء ليعود مرة أخرى إلى تلمسان أثناء ثورة أبي سالم .

وكان ضمن هذه الحملة المرينية إلى تلمسان منصور بن سليمان من سلالة السلطان يعقوب ، فاستغل أثناء ذلك سخط الجيش على استبداد الوزير الفودودي ونادى بالبيعة لنفسه وأيده قائد النصارى ، ثم زحف نحو فاس الجديد والتحق بـه الوزير سليمان بن داود ، وبقي محاصراً لفـاس نحو شهر ونصف إلى أن ثار أبو سالم بجبال غمارة ، فانتفض الناس عن منصور وعن السلطان السعيـد ،

والتجأ الأول إلى بادس ثم ألقي عليه القبض وقتله أبو سالم . أما السعيد فقد أغرقه الفودودي في البحر مع جماعة من إخوته في شهر شعبان 760 هـ . وبذلك خلص الأمر لأبي سالم .

أبو سـالم إبراهيم

(760 – 762 هـ / 1358 – 1360 م)

بيعتـه :

أبو سالم إبراهيم بن أبي الحسن الملقب بالمستعين ، من أم رومية تدعى قمر ، وكان معتدل القامة آدم اللون رحب الوجه واسع الجبين بادن الجسم معتدل اللحية أسودها حسن الوجه كثير الحياء جم العطاء ، وكان قد استقر بالأندلس بعد موت والده أبي الحسن ، فنشأت بينه وبين بني الأحمر صلات ودية إلا أن استبداد الحاجب رضوان لم يمكنه من مساعدة بني الأحمر حتى يتولى الملك بعد موت أخيه أبي عنان وهكذا لجأ إلى ملك قشتالة الذي أمده بأسطول عبر به إلى المحيط الأطلسي حيث طمع في مساعدة عامر الهنتاتي من غير طائل . وحينئذ عاد إلى ناحية غمارة فبادروا إلى بيعته واصطحب معه أمير قسنطينة السابق أبا العباس الحفصي الذي كان قد تحرر من الاعتقال بسبتة ثم استوزر الحسن بن يوسف الورتاجني ومسعود بن رحّو بن ماساي وتوالت عليه البيعات من كل جانب حتى الأندلس ، ثم زحف إلى فاس حيث تلقى بيعة الحسن بن عمر الفودودي الذي عينه على الفور عاملاً على مراكش إبعاداً لتدخله . ومن كبار الشخصيات التي ظهرت في بلاط أبي سالم عندئذ الفقيه أبو عبد الله محمد بن مرزوق الذي كان له نفوذ عظيم على السلطان ، وابن خلدون الذي كان كاتب سره .

التجاء الغني بالله وابن الخطيب إلى أبي سالم 261 هـ :

كان الغني بالله محمد بن يوسف قد خلف والده في ملك غرناطة سنة 755 هـ ، وكان له أخ يدعى إسماعيل فسجنه الغني بالله بعد توليته ، ثم انتهز الفرصة بعض

شيعته فأخرجوه من سجنه ونصبوه عوض أخيه سنة 760 ، ثم اعتقلوا الوزير ابن الخطيب ، فبادر أبو سالم يستقدم الغني بالله ويتدخل لإطلاق سراح ابن الخطيب والسماح له بمرافقة ابن الأحمر إلى المغرب ، وكان السفير في ذلك هو أبو القاسم الشريف التلمساني . ثم قدم الغني بالله ووزيره ابن الخطيب ، فاستقبل أبو سالم السلطان المخلوع استقبالاً فخماً ،وأنشد ابن الخطيب قصيدة طويلة يستنصر فيها بالسلطان المغربي لصالح ابن الأحمر . وقد أثبت ابن خلدون هذه القصيدة في المجلد السابع من ديوان العبر ، ومطلعها :

سلا هل لديها من مخبّرة ذكر وهل أعشب الوادي ونم به الدهر ؟

ثم خصص أبو سالم لابن الأحمر قصوراً وميزانية ضخمة تُجرى عليه كملك .

قضية تلمسان 791 :

لم يبق لأبي سالم بعد تسويته أمور المغرب إلا أن يلتحق بتلمسان من أجل استعادتها من جديد ، وذلك بعد أن صفى أمر الحسن الفودودي الذي ثار بتادلا ، وتمكن السلطان من القبض عليه وقتله ، وبينما كان أبو سالم يقتحم تلمسان كان أبو حمو الزياني يحطم قرى المغرب الشرقي حتى يصرف بذلك أبا سالم عن تلمسان . وحاول أبو سالم أن ينصب أبا زيان محمد بن عثمان أحد أحفاد أبي تاشفين ، إلا أن أبا حمو سرعان ما طرده ودخل إلى تلمسان ثم عقد صلحاً مع أبي سالم .

قتل أبي سالم سنة 762 ﻫ :

كان الخطيب بن مرزوق قد بلغ نفوذه في بلاط أبي سالم مبلغاً عظيماً ، الشيء الذي جعل أمين القصر الملكي بفاس القديم،وهو عمر بن عبدالله الفودودي يهيء للإطاحة بعرش ولي نعمته بغضاً لمكان ابن مرزوق . وبفضل تأييد قائد النصارى غرسية وشيخ الحامية بفاس محمد بن الزرقاء ، أعلن خلع أبي سالم وتنصيب تاشفين بن أبي الحسن ، ثم انفض عن أبي سالم وجوه دولته ومن بينهم

ابن مرزوق فخرج ينجو بنفسه في نواحي فاس عند وادي ورغة ، ولكن متعقبيه قبضوا عليه ثم ذبحه أحدهم وهو نصراني ودفن بجبل الزعفران خارج باب عجيسة في أواخر ذي القعدة سنة 762 .

أبو عمر تاشفين الموسوس
(762 — 763 هـ / 1360 — 1361 م)

صفاته :

أبو عمر تاشفين بن أبي الحسن من أم مولدة تدعى ميمونة . وكان طويل القامة عظيم الجسم بعيد ما بين المنكبين أعين أدعج، وكان فارساً شجاعاً قوي الساعد، نصبه الوزير عمر بن عبد الله وكان يعلم أنه ناقص عقل بسبب وسواس نتج عن أسره أيام والده أبي الحسن .

قتل جند النصارى واستبداد الوزير عمر :

كان غرسية قائد الجيش النصراني يخشى سطوة الوزير عمر ، فدبر اغتياله ، ولكن عمر كان أسبق منه إلى الاحتياط لنفسه ، فقبض عليه ثم قتله مع كثير من جند النصارى وشارك العامة في قتلهم ، أما الوزير القديم سليمان بن داود فقد اعتقله بأحد القصور الملكية ثم راسل عامر الهنتاتي الذي كان ذا نفوذ عظيم في نواحي مراكش ، وذلك ليتقاسما السلطة بالمغرب .

وفي مطلع سنة 763 هـ قدم عبد الحليم بن أبي علي بن أبي سعيد من تلمسان حيث كان لاجئاً عند أبي حمو ،وذلك باستدعاء من شيوخ بني مرين الذين سخطوا سلطة الوزير عمر ، وبعد اشتباك قصير جرى بين جيش تاشفين وبين شيعة هذا الأمير ، قام عمر بتدبير خطة جديدة يحفظ بها نفسه من سطوة بني مرين ، فخلع تاشفين الموسوس بعد ثلاثة أشهر من توليته ، ثم نصب أبا زيان من سلالة أبي الحسن .

أبو زيان الأول محمد بن يعقوب بن أبي الحسن

(763 – 767 هـ / 1 13 – 1365 م)

صفاته وبيعته :

المتوكل على الله أبو زيان من أم مولدة تدعى فضة ، بويع في 21 صفر 763 ، وكان آدم اللون معتدل القامة منفرج الأنف دقيق العينين ، كما كان قليل الكلام هادىء الطبع ، وكان قد التجأ إلى ملك قشتالة منذ أول ولاية أبي سالم ، فراراً بنفسه من بطش البلاط المريني ، على أن الملك القشتالي لم يتخل عنه إلا بعد التزامات أكيدة من جانب المرينيين .

وبعد بيعته تلقى تهانىء الوفود وأنشأ ابن الخطيب قصيدة في تهنئته ، كما استقبل عامر بن محمد الهنتاتي الذي ثبته عمر الفودودي رئيساً على نواحي مراكش بينما عين أبا الفضل بن أبي سالم أميراً صورياً على هذه المنطقة أما مسعود بن عبد الرحمن بن ماساي فقد شغل منصب الوزارة تحت إشراف عمر الفودودي . وكانت هذه التعيينات في أواسط سنة 763 هـ .

ثورات جديدة :

بعد أن اقتسم الوزراء النفوذ بالمغرب ثار الأمير عبد الحليم بسجلماسة ، ثم ثار بعده مسعود بن عبد الرحمن الذي نصب سلطاناً جديداً هو عبد الرحمن أبي يفلوسن ، ولكنهما لم يصمدا أمام نفوذ عمر الفودودي ، فدخلا الأندلس في أول سنة 767 هـ .

قتل أبي زيان :

شعر أبو زيان بضغط الوزير عمر واستبداده فأعد العدة لاغتياله بقصره ، ولكن الوزير بلغه خبر المؤامرة عليه ثم قتله خنقاً وألقى به في بئر تابع لحدائق قصره ، وذلك في أواخر ذي الحجة 767 (1366) .

أبو فارس عبد العزيز

(767 – 774 هـ / 1365 – 1372 م)

صفاتـه :

أبو فارس عبد العزيز بن أبي الحسن من أم مولدة اسمها مريم ، وكان آدم اللون طويل القامة والساقين نحيف الجسم كبير الأنف في وجهـــه أثر جدري كما كان عفيفاً لين الكلام . وكان الوزير عمر بن عبد الله قد جعله تحت رقابته في أحد قصور العاصمة ، حتى إذا قتل سلفه أبو زيان ، استدعاه الوزير المذكور ليتولى الملك .

القضاء على المستبدين 767 – 770 :

نجح أبو فارس في قتل الوزير عمر ، من حيث فشل سابقوه ، وتم ذلك في قصر السلطان نفسه . كما جرد أبو فارس حملة للقضاء على كل من الأمير أبي الفضل بمراكش وعامر بن محمد الهنتاتي سنة 769 – 770 . وبينما سهل على السلطـــان الظفر بأبي الفضل ثم قتله خنقاً سنة 769 هـ ، فإن محاربـة الهنتاتي كلفته غالياً ، ولكنه ظفر به بواسطة عيونه ثم قتله جلداً واستصفى أمواله ثم عين على هنتاتة ابن أخيه فارس الهنتاتي .

ارتجاع الجزيرة والمغرب الأوسط :

كان النزاع على العرش على أشده بين ورثة ألفونس العاشر خصوصاً بـــين بطرة وأخيه القمط (Pierre le Cruel و Bâtard) في عهد أبي فارس عبد العزيز ، مما هيأ الفرصة للمرينيين حتى يعملوا على استرجاع الجزيرة الخضراء . فأمد السلطان أبو فارس زميله الأندلسي بأسطول وسلاح كاف حيث تمكن بسهولة من اقتحام الجزيرة الخضراء التي صعب على الحامية المسيحية الصمود فيها وقد كانت الفتنة بين الأمراء المسيحيين تشغلهم عن إمدادها ، وكان افتتاحها سنة 770 .

أما في المغرب الأوسط ، فإن أبا حمو الزياني خرق الهدنة التي عقدها سابقاً مع أبي سالم ، فأجار عاملا ثائراً من المغرب ، ثم زحف بجيشه إلى دبدو سنة 766 وحالف عرب معقل ، حتى إذا دخلت سنة 772 تقدمت طلائع أبي فارس إلى تلمسان بقيادة الوزير أبي بكر بن غازي ، وتمكنت من احتلالها قبل التحاق السلطان بها ، بينما نجا أبو حمو بنفسه إلى صحراء الجزائر ، وقد كلف إخضاع المغرب الأوسط أبا فارس زهاء سنتين من الحرب ضد العرب الذين فقدوا ما كانوا ينعمون به من امتيازات مجحفة تحت ظل بني زيان .

وفيما كان أبو فارس يقيم بتلمسان استأذنه ابن الخطيب في القدوم عليه لاجئاً. وكان قد رجع إلى بلاط الغني بالله الذي استرجع ملكه سنة 763 هـ ، إلا أن رجال الدولة نغصوا عليه ما كان ينعم به من سلطة وجاه في بلاط ابن الأحمر ، فخشي بطشه تحت تأثير سعايتهم ، وجاء إلى أبي فارس الذي أكرم مثواه بعد أن بعث بقطع من أسطوله لاستقدامه ، وقد حاول بعض حساده من الفقهاء أن يتهموه بالزندقة لدى أبي فارس ، فلم ترض نفسه أن يخفر ذمته ، وبقي مكرماً لديه ، وكان مقدمه سنة 773 هـ .

وفاة أبي فارس :

أصيب أبو فارس بمرض مزمن منذ صباه ، فاشتد عليه وهو بتلمسان حتى هلك بظاهرها فحمل إلى فاس حيث دفن بالجامع الملحق بقصره . وكانت وفاته في ربيع الثاني 774 هـ (1372) والحق أنه لو طال ملك هـذا السلطان لأحيى مجد أجداده الأولين ، فقد كان رغم صغر سنه حازماً سريع التنفيذ لما يقرره مع تدبير صائب .

السعيد بالله أبو زيان الثاني محمد بن عبد العزيز
(774 — 776 هـ / 1372 — 1374 م)

أبو زيان محمد السعيد بن أبي فارس عبد العزيز ، بويع صبياً لم يحتلم بعد ، وتولى الوزير أبو بكر الوصاية عليه . وقد تمكن أبو حمو من دخول تلمسان

بمجرد عودة أبي فارس إلى المغرب ثم طرد بني مغراوة الموالين لبني مرين من شلف ودخلت في طاعته أهم مناطق المغرب الأوسط ، وفي عهد هذا السلطان أتيحت الفرصة لابن الأحمر حتى يتدخل تدخلا سافراً في شؤون المغرب، وذلك بحجة امتناع أبي بكر بن غازي من تسليمه ابن الخطيب فبعث أسطولاً إلى عبد الرحمن بن أبي يفلوسن من حفدة السلطان أبي سعيد كما أرسل ابن عمه أبا العباس في شأن التعاون معه على إقصـــاء السعيد واقتسام ملك المغرب . وتحت ضغط الجيش المحاصر لفاس والذي قاده الأميران المذكوران ، تنازل السعيد لصالح أبي العباس أحمد بن أبي سالم منذ محرم 776 هـ .

المستنصر بالله أبو العباس أحمد بن أبي سالم

(776 — 786 هـ / 1374 — 1384 م)

صفاتـه :

أبو العباس أحمد بن أبي سالم من أم عربية تدعى نزهه بنت المجاهـد أبي العباس السبائي الأندلسي ، بويع بطنجة في ربيع الثاني 775 هـ في عهد السلطان أبي زيان ، ثم بويع البيعة العامة بالمدينة البيضاء في مطلع 776 هـ . وكان أبيض ربعة تعلوه صفرة رقيقة ، أدعج أسود الشعر أكحل الحاجبين ضيق البلج أسيل الخدين جميل الوجه فارساً سخياً كثير الحياء شاعراً رقيقاً ، ومن شعره :

أما الهوى يا صاحبي فألفته   وعهدته من عهد أيام الصبا
ورأيته قوت النفوس وحليها   فتخذته دنيـا إلي ومذهبا
لكن رأيت له الفراق منغصا   لا مرحبا بتفرق لا مرحبا

نكبة ابن الخطيب 776 (1374) :

كان ابن الأحمر قد اشترط على أبي سالم مقابـــل مساعدته على تولي عرش المغرب أن يسلم إليـه ابن الخطيب . وكان سليمان بن داود الوزير المسن يبغض ابن الخطيب لأنه كان قد عارض في تعيينه شيخـاً للغزاة بالأندلس ، حتى إذا

تولى ابن أبي سالم بفاس اتخذ سليمان بن داود من جملة وزرائه ، فأغراه بمحاكمة ابن الخطيب ، فقبض عليه ثم وجه السلطان رسالة إلى ابن الأحمر يخبره بذلك ، فبعث وزيره ابن رمرك ليتتبع قضيته ، ثم انعقد مجلس الشورى بحضر الفقهاء ، فأفتى بعضهم بقتله ؛ وقبل أن يستقر اتفاقهم على حكم معين ، بادر سليمان بن داود إلى ابن الخطيب فبعث بعض حاشيته بحضور أفراد من وفد ابن الأحمر ، وأخرجوه من سجنه بعد خنقه ، ثم أحرقوا جثته ودفنوه بمقبرة باب المحروق وذلك في بداية سنة 776 هـ . أما سليمان بن داود فقد دخل الأندلس سنة 776 هـ كشيخ للغزاة بموافقة ابن الأحمر ، وتوفي هناك سنة 781 هـ .

ثورة عبد الرحمن بن أبي يفلوسن :

كان أبو العباس قبل تنصيبه ملكاً، قد اتفق مع عبد الرحمن بن أبي يفلوسن على أن يقتسما مملكة المغرب وتفصل بين منطقة نفوذهما منطقة أزمور ، بيد أن عبد الرحمن رغب في أن يضيف عمالة صهاجة ودكالة إلى ملكه ، فنشأ بذلك نزاع بين أبي العباس وعبد الرحمن ، وتدخل ابن الأحمر ليصلح بينهما بعد حروب تكررت إلى سنة 784 .

فتح تلمسان 785 هـ (1383) :

بعد أن حاصر أبو العباس الأمير ابن أبي يفلوسن بمراكش حالف هذا أبا حمو الزياني الذي أطلق جموعاً من قبائل العرب على المغرب ، فعاثوا في ناحية مكناس وحاصر أبو حمو نفسه تازا ، ثم تمكن أبو العباس من الاستيلاء على مراكش وقتل عبد الرحمن سنة 784 ، فانسحب أبو حمو إلى تلمسان التي أخرج منها أهله وأطفاله ثم استقر قرب وادي شلف في انتظار ما سيصير إليه أمر تلمسان التي كان يزحف إليها أبو العباس انتقاماً من تدخل السلطان الزياني بالمغرب، ثم دخلها أبو العباس وخرب أسوارها ومعاقلها سنة 785 هـ .

خلع أبي العباس 786 هـ (1384) :

خشي ابن الأحمر أن ينقلب عليه أبو العباس وكان ينقم عليه عدم استجابته

لتنفيذ بعض مطالبه ، حتى إذا توجه أبو العباس إلى تلمسان بادر ابن الأحمر بتحريض موسى بن أبي عنان الذي كان يقيم بالأندلس تحت رعايته ، إلى إعلان نفسه ملكاً بالمغرب وخلع أبي العباس الذي انفض عنه جيشه ووجوه دولته قبل أن يعود إلى فاس ، مما يدل على النفوذ الخطير الذي كان يبسطه ابن الأحمر على المغرب . وما كاد ابن أبي عنان ينصب نفسه حتى ألقى القبض على أبي العباس ، ثم بعث به إلى ابن الأحمر سنة 786 هـ ، وبذلك انتهت الفترة الأولى من حكمه الذي مر في هدوء وسلم ، إذا استثنينا ثورة ابن أبي يفلوسن التي لم تؤد إلى نتيجة لصالحه . وقد تعاقب على الحكم بعده ثلاثة ملوك قبل أن يعود إلى تبوإ العرش بعد ثلاث سنوات فقط .

المتوكل على الله أبو فارس موسى بن أبي عنان

(786 — 788 هـ / 1384 — 1386 م)

أبو فارس موسى بن أبي عنان كان يعيش مع جماعة من إخوته وغيرهم من أفراد الأسرة المالكة ، في كفالة ابن الأحمر حتى إذا همّ ابن الأحمر بخلع أبي العباس ، بعث بموسى هذا يخلفه ومعه مسعود بن رحو بن ماساي الذي كان يقيم بالأندلس حينئذ ؛ ثم دخل السلطان الجديد ووزيره ، فكان أول عمل قام به تسليم سبتة إلى ابن الأحمر ثم القبض على أبي العباس وتسليمه إليه كما تقدم ، وذلك سنة 786 هـ .

وكان من وزراء أبي العباس محمد بن عثمان الذي ينتمي إلى أسرة بني الكاس ، ولما كان مستبداً في أيام أبي العباس هذا فقد خشي مسعود بن رحو من مزاحمته ، وأغرى به سلطانه فاستصفى أمواله ثم ذبحه في سجنه . وسرعان ما ظهر ثائر جديد بغمارة التي طالما كانت ملجأ للمتمردين منذ ما قبل الإسلام . وهذا الثائر هو الحسن بن الناصر بن أبي علي الذي سار إليه جيش بقيادة مهدي ابن ماساي ، ثم جيش ثان بقيادة الوزير مسعود ولكن السلطان ابن أبي عنان عاجلته المنية إثر مرض طارىء ، فعاد مسعود قبل تصفية أمر هذا الثائر ، وكانت وفاة هذا السلطان سنة 788 من شهر رمضان .

المنتصر بن أبي زيان محمد

(788 هـ / 1386 م)

المنتصر هذا هو ابن أبي العباس بن أبي سالم ، وهو أيضاً ابن أخت موسى بن أبي عنان ، وهو قد نصبه الوزير مسعود وهو ابن خمس سنوات ، ثم ظهر له في استدعاء أبي العباس والده ، حتى إذا بلغ سبتة طلب من ابن الأحمر أن يعيده الى معتقله بالحمراء ويبعث مكانه محمد بن أبي الفضل بن أبي الحسن . وهكذا تم خلع المنتصر بعد حوالي شهر ونصف من تنصيبه وولى مكانه محمد بن أبي الفضل هذا . أما الثائر ابن الناصر فقد نقل إلى الأندلس .

أبو زيان الثالث الواثق محمد بن أبي الفضل

(788 – 789 هـ / 1386 – 1387 م)

تمت بيعة الواثق بالله في رمضان 788 هـ ، وهو حفيد أبي الحسن . وكان مسعود بن رحو يرغب في إعادة سبتة إلى حظيرة الدولة المرينية ، فبعث إلى ابن الأحمر بتسليمها ، حتى إذا رفض هـــذا مهدداً ، هب الوزير مسعود بجيش لحصارها وأرسل ابن الأحمر من جهته أبا العباس بن أبي سالم من قلعة الحمراء ليحتل سبتة ويتولى الملك عوض الواثق . وعمد الوزير المغربي إلى تحريض أمراء قشتالة على مد يد المساعدة إلى ابن عم ابن الأحمر حتى يضايقه في ملكه ويصرفه عن التدخل في سياسة المغرب ، إلا أن أبا العبـاس تمكن من استعادة ملكه بسهولة ، كما تنازل له ابن الأحمر عن سبتة . وأرسل الواثق مقيداً إلى طنجـة التي تم فيها إعدامـه . وحاول مسعود بن ماساي أن يتحصن بفـاس الجديد ، ولكن أبا العباس دخلها بعد ثلاثة أشهر من الحصار .

أبو العباس أحمد بن أبي سالم
(789 — 796 هـ / 1387 — 1393 م)

محاكات وتعيينات :

كان أول عمل لأبي العباس بعد توليته بفاس ونفي الواثق إلى طنجة ، أن هيأ عدة تدابير لتطهير حكومته من العناصر المستبدة والمشاغبة ، فاعتقل مسعود بن رحو وحاكمه بتهمة نهب قصور الأمراء وتخريبها في غيابهم ، ثم مثل به فهلك ، وولى على وزارته محمد بن يوسف بن هلال وكان والده عاملا سابقاً في عهد أبي الحسن وأبي عنان ، وأثناء حصار فاس كان محمد بن عبد الحليم حفيد أبي سعيد الذي كان لاجئاً عند أمير تلمسان يدبر مؤامرة ليتولى الملك بتحريض من الوزير مسعود ، ولكن دخول العاصمة في طاعة أبي العباس حال دون مرامه ، فغادر المغرب إلى تلمسان ، ثم اعتقل أبو العباس كاتبه السابق محمد التميمي الذي كان قد تولى سفارة مغربية بالأندلس أيام موسى بن أبي عنان ، وكان أبو العباس يقيم تحت الحراسة الإجبارية هناك ، فلم يزره كاتبه السابق هذا ، حتى إذا وقع في يده عذبه حياً وميتاً بسحبه من نعشه في أزقة فاس ، ثم اعتقل حركات بن حسون أحد رؤساء العرب بتادلا ، وكان قد رفض الدخول في طاعته وهو لم يدخل العاصمة بعد . وفي جبال الأطلس المتوسط ثار شيخ المصامدة علي الهسكوري الذي كان من أوائل المبايعين لأبي العباس ، بيد أن الوزير محمد بن يوسف عزله عن ولاية المصامدة ليوليها أحد أصهاره ، وبعد اشتباكات بينه وبين جيوش الوزير ، تم اعتقاله . وكان هذا الإجراء الجائر من أمارات استبداد هذا الوزير .

دخول المغرب الأوسط في طاعة أبي العباس 791 — 795 :

منذ أواخر 788 ثار على السلطان أبي حمو الزياني ولده أبو تاشفين الذي جرت بينه وبين والده حروب طويلة إلى أن طلب أبو تاشفين مساعدة ملك المغرب . فأمده بجيش كثيف بقيادة ابنه أبي فارس ووزيره محمد بن يوسف . فتمكن أبو تاشفين من الإنتصار على والده الذي قتل في معركة فاصلة عند سفح جبل بني ورنيد قرب تلمسان سنة 791 هـ . ثم بعث الولد برأس والده إلى أبي العباس ،

والتزم أن يدخل في طاعته ويؤدي الضريبة المفروضة عليه . حتى إذا هلك سنة 795 هـ خلفه أخوه أبو يوسف الذي احتل تلمسان عنوة بالرغم من أن الوزير أحمد ابن العز نصب ابنــا لأبي تاشفين . وهكذا أتيحت الفرصة لأبي العباس حتى يدخل تلمسان وسائر المملكـة الزيانية تحت حكمه المباشر ، فبعث ابنــه أبا فارس الذي احتلها بسهولة .

وفاة أبي العباس 796 :

توجه أبو العباس إلى تازا ليشرف على تحركات ابنه أبــي فارس عن كثب . وهناك تسلم هدية من السلطان الظاهر برقوق بعثها إليه مع أحد أمراء العرب بالمغرب وكان قد اتصل بــه أثناء حجه . حتى إذا بدأ أبو العباس يجهز بدوره هدية للسلطان الشرقي أصيب بمرض توفي على إثره بتازا في أول سنة 796 هـ وقـد تمكن أبـو العباس من مباشرة حكمه دون تدخل من بني الأحمر الذين توفي سلطانهم محمد الخامس سنة 793 هـ .

المستنصر أبو فارس عبد العزيز
(796 — 799 هـ / 1393 — 1396 م)

بعد وفاة أبي العباس ، بويع ابنه أبو فارس بتازا بعد استدعائه من تلمسان التي أمر عليها أبازيان بن أبــي حمو إذ التزم بتدبير أمور المغرب الأوسط باسم بني مرين أما أخوه يوسف فقد تم قتله على يد بني عامر . وقد وصف صاحب روضة النسرين المستنصر بأنه كان فارساً عارفاً بركض الخيل ، ويحســن قرض الشعر . وقد تمكن وزراؤه من تدبير المملكة بحزم حتى توفي سنـة 399 هـ . وفي عهده وقعت معارك بين السلطان الحفصي أبي فارس وابن عمه محمد الذي لجـأ إلى المستنصر .

المستنصر بالله أبو عامر عبد الله

(799 – 800 هـ / (1396 – 1397)

خلف المستنصر هذا شقيقه عبد العزيز الذي كان يلقب بالمستنصر أيضاً . وكان التصرف في عهده وفي عهد شقيقه السابق وخلفه كذلك للوزراء والحجاب وخصوصاً أحمد القبائلي ثم فارح بن مهدي وقد توفي أبو عامر بعد أقل من سنة ونصف على مبايعته ، وكانت وفاته سنة 800 هـ .

أبو سعيد عثمان

(800 – 823 هـ / 1397 – 1420 م)

تولى بعد وفاة شقيقه المستنصر أبي عامر ، وكان أول عمل بادر إليه هو البطش بحاجبه أحمد القبائلي الذي ينتمي إلى أسرة عريقة في الثقافة والإدارة . وكان تدبير قتله على يد مساعده محمد الطريفي . وقد تولى الحجابة بعد القبائلي فارح بن مهدي ثم الطريفي المذكور .

تطور علاقة المغرب مع إفريقية 810 – 812 هـ :

وفي عهد أبي سعيد هذا تحول النفوذ في المغرب العربي والأندلس الإسلامية إلى يد السلطان الحفصي أبي فارس (1394 – 1434 م) وكان أبو فارس من أعاظم ملوك الدولة الحفصية ، إذ تمكن بفضل دهائه وحسن تدبير مساعديه من إخضاع جميع الإمارات المحلية التي تشكلت من قبل في عهد ضعف الدولة الحفصية ، ثم طمح بنفسه إلى بسط سلطته على سائر الشمال الإفريقي. وكان ابن عمه لاجئاً بالمغرب ، فحرضه أبو سعيد على الإستيلاء على عرش تونس ، حتى إذا دخل المغرب الأوسط ، وقع في قبضة أبي فارس الذي وجه برأسه إلى فاس حيث علق بباب المحروق[1] إغاظة لسلطان المغرب . وتمكن أبو فارس من

(1) الناصري ، ج 4 ص 91 .

احتلال تلمسان والزحف بسهولة إلى فاس ، وكان الوضع العسكري يومئـذ في غاية الضعف بالمغرب ، فطلب أبو سعيد عقد صلح مع أبي فارس ، ثم خطب له على منابر المغرب . وهكذا صارت الدولة المرينية نحـــو نهايتها مثلما كانت في بدايتها تخطب الملوك الحفصيين وترهب جانبهم وقد حدثت هذه التطورات فيما بين خروج أبي عبـــد الله إلى المغرب الأوسط ودخول أبي فارس إلى المغرب الأقصى خلال سنتي 810 – 812 هـ .

احتلال البرتغال لسبتة 818 هـ (1415 م) :

بدخول القرن التاسع الهجري والخامس عشر من الميلاد يبدأ عهد جديد في تطور الأحداث العالمية فيتجه اهتمام الدول الأوروبية إلى تقوية أساطيلها البحرية، وتتحول السيطرة على البحار والسواحل شيئاً فشيئاً إلى البرتغال وهولندا وإنكلترا، ويكون استعمار الأقطار تجارياً في مبدإ الأمر ثم يتحول إلى استعمار شامل. ومن الطبيعي أن تكون الشواطىء المغربية الضعيفة الحماية منذ القرن المذكور من المراكز الأولى التي اتجهت إليها أنظار البرتغال الذين كانت تداعبهم أحلام السيطرة الاستعمارية بفضـــل أساطيلهم القوية . وكان المغرب قد بدأ يضعف اهتمامـــه بالأساطيل آنذاك ، لأن السلطة الحكومية قد خرجت من أيدي الملوك إلى أيدي الوزراء والحجاب الذين كانوا يستغلون في الغالب موارد الدولة لصالحهم الخاص ، وأضعفت الثورات الداخلية والحروب في إفريقيا الشمالية ميزانية البلاد ، ولولا تقوي حركة الجهاد البحري في عهد الوطاسيين وبعدهم لذهبت سواحل المغرب كلها طعمة سائغة في أيدي الإسبان والبرتغال ولم يبق منها شبر في يد أهلها، على أنه لا يمكن أن تنكر الجهود التي بذلها على الخصوص أحمد المنصور الذهبي ثم السلطان إسماعيل فيما بعد .

وقد استولى البرتغال على سبتة سنة 1415 م (818 هـ) عن طريق الغدر حسبما نقله الناصري عن نشر المثاني[1] وذلك في عهد خوان الأول . على أن الناصري

---

1) الاستقصاء ج 4 ص 92 ، يحكي الناصري عن صاحب نشر المثاني أن البرتغال قد حطوا أربعة آلاف صندوق بمرسى سبتة وكان في كل منها شاب مسلح فخرجوا منهـــا ثم استولوا على المدينة .

يذكر قبل ذلك أن البرتغال حاصروا سبتة طويلا قبل فتحها ؛ والظاهر أنهم استخدموا الطريقتين معاً أي الحصار والغدر ،على أن الإسبان قد سبقوا البرتغال إلى الظهور في شواطىء المغرب كغزاة ، منذ عهد المنصور المريني حيث ثاروا بسلا سنة 658 هـ ثم في عهد أبي سعيد عثمان سنة 803 (1400 م) حيث هاجموا تطوان وخربوها انتقاماًوالمجاهدين الأندلسيين الذين كانوا قداستقروا بهامنذعهدأبي ثابت ، وكانوا يغيرون على الشواطىء الإسبانية وهكذا يمكن القول بأن القوة البحرية قد تحول معظمها من يد الدولة المغربية إلى يد الحركة الوطنية قبل أن تضمحل الدولة المرينية بنحو ثلثي قرن .

ولكي نعرف مبلغ الخسارة التي مني بها المغرب عند فقده سبتة ، يكفي أن نراجع ما كتبه مؤرخ عاصر حوادث سقوط المدينة في أيدي البرتغال ، وسجل ما خلفه المسلمون بها من آثار قبل الاحتلال الأجنبي[1] فمن ذلك اثنتان وستون خزانة وسبع وأربعون رابطة وزاوية ومحرس (ناظور) يشرف على العدوتين معاً إلى بادس جنوباً وناحية مالقة شمالاً. وكان هذا المحرس مبنياً داخل الأسوار والأبواب يكشف مواقع الأعداء عن بعد كبير ، وقد عدد هذا المؤرخ كثيراً من مباني المدينة كالفنادق (160) منها ما خصص للسكنى وما خصص للخزن ، والأفران (360) إلخ ..

والواقع أن أول هدف استعماري للبرتغال كان هو سبتة . وتروي بعض الروايات المسيحية[2] أن زوجة جان الأول كانت آخر كلماتها قبل أن تلفظ أنفاسها على إثر وباء أودى بحياتها ، هي أن يستمر غزو سبتة حتى النهاية . وما كاد جان الأول يفرغ من جنازتها حتى أعطى الأمر بأن يرتدي أبناءه وجنوده زي الحفلات وأن يستعدوا لغزو سبتة. وبعد مقاومة عنيفة أبداها المغاربة تمكن البرتغال من اقتحام البلدة بمساعدة بعض الخونة من السكان وكان أول عمل قاموا

(1) اختصار الأخبار عما كان بسبتة من سني الآثار لمحمد الأنصاري . نشر في هسبريس مجلد 12 سنة 1931 .

(2) Les Portugais au Maroc ص 5

به أن حولوا الجامع الأعظم إلى كنيسة وخربوا قصر العامل ، ثم حملوا إلى لشبونة عدداً من أعمدته. وقد تزعم المقاومة الشعبية على الفور أحد أولياء جزولة واسمه عبد الرحمن الجزولي الذي ظل يجاهد بشجاعة طيلة أربع سنوات لاسترداد سبتة ولو أنه لم يوفق إلى ذلك[1] وتوالت محاولات استعادتها بعد ذلك .

وفاة أبي سعيد 823 (1420) :

يسود الغموض أواخر عهد أبي سعيد الذي رغم طوله كان من أشأم فترات الدولة المرينية ، فثمة رواية إفرنجية تؤكد أن أبا سعيد قد مات أسيراً في السجن بفاس بعد أن تمكن أخوه عبد الله من الاستيلاء على الملك بفضل مساعدة ابن الأحمر وهي رواية مانويل صاحب كتاب « Historia de Marruecos » وقد نقلها عنه الناصري أيضاً . وهناك رواية تثبت أن أبا سعيد قد مات مقتولاً حسبما يذكره طيراس في تاريخه ، وعلى كل فقد كان موت أبي سعيد حوالي سنة 823 هـ (1420 م) . ولقد حاول أحد الأشخاص من سلالة أبي عنان واسمه محمد ابن أبي محمد بن أبي طارق بن أبي عنان أن يستولي على الملك بعد موت أبي سعيد، بفضل مساعدة عسكرية من أمراء تلمسان ولكنه فشل على الرغم من دخوله فاسا[2] واستمر أبو زكرياء يحاربه مدة أربع سنوات .

عبد الحق بن أبي سعيد
(823 — 869 هـ / 1420 — 1464 م)

كان عبد الحق هذا آخر ملوك بني مرين وأطولهم عهداً ، إلا أن المراجع لا تفيد شيئاً كثيراً عن هذه الحقبة الطويلة التي تقارب نصف القرن . وقد تولى

(1) Robert Ricard عن مصدر برتغالي ، هسبريس 1936 ، 4 ، وقد يكون المقصود هنا هو ابنه محمد الذي سيأتي ذكره ، وحسب الزركشي في تاريخ أخبار الدولتين ، ص 158 فإن أحد شرفاء غمارة قاد حركة جهادية لاسترداد سبتة ، وقد تمكن من الاستيلاء عليها فعلا أوائل 881 هـ ولكن يظهر أن البرتغال استرجعوها بسرعة .

(2) Auguste Cour, La Dynastie Marocaine des B. Wattas p. 47

عبد الحق وهو بعد صبي لم يبلغ أكثر من سنة وحاول ابن الأحمر أن ينصب أميراً مواليـــاً له ، ولكن أبا زكرياء يحيى الوطاسي تمكن من تثبيت عبد الحق ، وبذلك بدأ النفوذ الوطاسي يشكل في البداية مظهر الوصاية على العرش ليتحول فيما بعد إلى نفوذ مباشر شامل . وقد بذل أبو زكرياء جهوداً قوية بفضل معونة الحفصيين سنة 830 (1426) لاستعادة سبتة ، ولكن هـذه الجهود فشلت ، ثم استمرت تدخلات الحفصيين عن طريق قراصنتهم بعد ذلك من غير جدوى[1] .

وفي سنة 846 تمكن أبو زكرياء من إخضاع قبائل الشاوية الذين كانوا قـــد قدموا إلى المغرب منذ عهد يعقوب المريني وتولوا المحافظة على مواشيه فأعطوا إسم الشاوية ، ولم يستطـع عبد الحق أن يتخلص من وصاية أبي زكرياء حيث شغله بالملذات والملاهي عن شؤن الملك ، وقد دهي المغرب بوباء عظيم سنة 846 فلم تحر الدولة أمامه شيئاً .

وفي سنة 852 تولى رئاســة الوزارة علي بن يوسف الوطاسي خلفاً لخاله أبي زكرياء المتوفى ، فاستمر في مباشرة وصايته على السلطان ، ولكن التدخـــل الوطاسي طيلة 30 سنة من عهد عبد الحق ضد التوسع الاستعماري الأجنبي بالمغرب جعل الوطاسيين جديرين بما كانوا ينعمون به من نفوذ[2] .

وفي عهد عبد الحق هذا بدأت تتشكل قوى المقاومة الشعبية ضد الأجانب ، ولعب الصلحاء في هذه المقاومة أدواراً بطولية فيما بعد ، كما خرجت مراكش عن طاعة السلطان وتشكلت فيها إمارة هنتاتية مستقلة .

محاولات البرتغال لأخذ طنجة :

لم يكتف البرتغال بالاستيلاء على سبتة سنة 818 (1415) ، ففي سنـــة 1437 (841 هـ) طلب إدوارد الأول ملك البرتغال من البابا أن يمده بقوات صليبية للاستيلاء على طنجة ، وتجمعت هذه القوات في لشبونة بقيادة فرديناند ، ثم

(1) المصدر السابق ص 50 .

(2) Histoire de l'Afrique du Nord ج 2 ص 196 لجوليان .

ثم تحركت للزحف على طنجة براً وبحراً [1] ، وتولى الدفاع أهل المدينة بقيادة صالح بن صالح ، وأثناء ذلك تقدمت قوات أبي زكرياء الوطاسي التي أنقذت طنجة من احتلال وشيك وانقضت هذه القوات على البرتغال الذين استسلموا ومعهم قائدهم فرديناند . وقبل المغرب انسحاب الجيش البرتغالي مقابل تسليم سبتة وترك فرديناند رهينـــة ، إلا أن الحكومة والكنيسة البرتغالية رفضت التخلي عن سبتة ، وظل فرديناند في أحد سجون فاس إلى أن توفي بعد ست سنوات ودخل في عداد شهداء البرتغال . وقد قال عنه طيراس : « إنه ضحى في سبيل مصلحة بلاده (!) » .

وفي سنة 861 (1458) بعث الفونس الخامس ملك البرتغال بجيش يبلـــغ 17 ألف مقاتل وأسطول يتألف من ثمانين باخرة من أجل احتلال طنجة ،ولكنه لم يتجرأ على مهاجمتها،فتوجه إلى القصر الصغير الذي استولى عليه ، ثم تكررت محاولة الاستيلاء على طنجة سنة 1464 فعجز البرتغاليون في هذه المرة أيضاً ولم يتمكنوا من احتلالها إلا سنة 1471 م أي سنة 876 هـ ، لا سنة 869 هـ كما ذكر الناصري [2] .

نكبة الوطاسيين ووزارة اليهود :

توفي الوزير علي بن يوسف سنة 863 هـ ،فخلفه يحيى بن يحيى بن عمر الوطاسي الذي كان أقل مقدرة وكفاءة من سلفيه ، فأساء التدبير بإقصاء عدد من الولاة والضباط وكبار الشخصيات وتعيين آخرين مكانهم مما أحفظ صدر السلطان عبد الحق الذي انتبه أخيراً من غفوته بعد أن قضى أربعين سنة من عمره تحت حجر الوزراء الوطاسيين ، ولم يقض يحيى هذا في الوزارة سوى شهرين حتى اعتقل هو وأسرته وأعدموا ذبحاً ولم ينج منهم سوى محمد الشيخ الذي لجأ إلى أصيلا يتحصن بها . ويبدو أن عبد الحق فقد ثقته في شخصيات بني مرين فعين

---

(1) Villes et Tribus du Maroc ج 7 ص 56 .
(2) الاستقصا ج 4 ص 98 للناصري .

يهوديين في حكومته وهما هرون وشاويل ، ثم عيـن على حجابته يهودياً آخر اسمه حسين ، وهو من يهود الأندلس الذين استوطنوا فاسا وسموا بالمهاجرين ودخل كثير منهم في الإسلام نفاقاً . وتحكم هؤلاء اليهود في رقاب سكان فاس وخولوا المهاجرين امتيازات واسعة أهمها احتكار التجارة في أسواق العاصمة[1]، وأرغم الوزراء اليهود الناس بالضرب والعقاب على أداء الضرائب . وبينما كان السلطان غائباً في إخضاع ثورة بناحية الغرب اعتدى حسين المذكور على امرأة شريفة بالضرب والإهانة ، فثار أهل فاس بزعامة خطيب القرويين عبد العزيز الورياكلي ، وخلعوا طاعة المرينيين ثم نصبوا أبا عبد الله الحفيد نقيب الشرفاء الأدارسة سلطاناً وفتكوا بيهود فاس[2] . وبينما كان عبد الحق عائداً إلى فاس بعد أن بلغه خبر هذه الثورة ، تفرق عنه معظم جنوده ثم قتل الباقون وزيره هارون واعتقلوا عبد الحق الذي لقي مصرعه بمحضر السلطان الجديد في شهر رمضان 869 هـ .

وبذلك تنتهي الدولة المرينية التي دامت في الحكم أزيد قليلاً من قرنين ، إذا اعتبرنا بدايتها منذ عهد يعقوب المنصور . وقد دفن عبد الحق ببعض مساجد فاس.

أبو عبد الله الحفيد

(869 — 875 هـ / 1464 — 1470 م)

محمد بن علي الجوطي[3] الإدريسي العمراني من أسرة تولت نقابة الشرفاء

(1) تقييد عن البلديين بفاس ورقة 4 للزياني .

(2) في عهد عبد الحق هذا استولى بنو وطاس على عدد من المدن المغربية ، راجع : الزركشي أخبار الدولتين ، ص 156 .

(3) الجوطي نسبة إلى جوطة : قرية كانت على الضفة الجنوبية لسبو وهي احدى قرى أولاد عمران من الخلط — عن محمد العربي الفاسي : مرآة المحاسن ص 188 . وانظر عن الأشراف الجوطيين : تقييدين أحدهما لعبد السلام بن الطيب القادري الحسني كتب سنة 1101 هـ ، والثاني المسناوي محمد بن أحمد، كتب سنة 1125 هـ ، وعن الأشراف بصفة عامة: ياقوتة النسب الوهاجة في التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة للمشرفي أبي محمد العربي الحسني ، وكلها ضمن مجموع بخزانة الرباط 270 ك صفحات 20 و 34 و 403 . والكتب عن الأشراف كثيرة .

مدة طويلة ، وكان بنو مرين يجلونهم ويتوددون إليهم . وقد اضطربت أحوال المغرب في عهده غاية الاضطراب حيث تمردت قبائل الشاوية التي هددت كلاً من مكناس وفاس في زحفها شمالاً ، كما أن البرتغال تمكنوا من احتلال آنفا (الدار البيضاء) سنة 874 هـ (1468 م) وظلّت تحت أيديهم إلى نهاية الدولة السعدية . وفي هذه الفترة المظلمة استولى ابن الأحمر على جميع المراكز الأندلسية التي كانت امن قبل تابعة من الوجهة الحربية لبني مرين .

أما محمد الشيخ الذي سبق أن فر من بطش عبد الحق المريني ، فقد خرج من أصيلا زاحفاً نحو فاس سنة 872 فالتقت به جيوش الحفيد التي هزمته وعاد من جديد ليحاصر السلطان الإدريسي في عقر داره مدة سنتين ، فانتهز البرتغاليون الفرصة ، واحتلوا أصيلا في غيبته سنة 875 ، وبعد محاولة يائسة من محمد الشيخ لاسترجاعها اضطر إلى مهادنتهم والعودة إلى فاس التي دخلها دخول الظافر في نفس السنة . أما أبو عبد الله الحفيد ، فقد تم خلعه على يد أبي الحجاج الوطاسي بمدة يسيرة قبل أن يدخل محمد الشيخ إلى العاصمة ، وقد التجأ الشريف الإدريسي إلى بني حفص بتونس .

5 - عوامل سقوط الدولة

تتكون عوامل سقوط الدولة المرينية من أسبـاب داخلية وخارجية . أما العوامل الداخلية فهي :

1) **النزاع على العرش :**

وهذا أول عامل أضعف من سياسة الدولة وحول نشاطها عن ميادين أخرى، كانت أجدر بالاهتمام ، وقد بدأ هذا النزاع بتمرد أبي عنان على سلطة والده أبي الحسن ، وليس من شك في أنه لولا هذا التمرد الخطير لكانت النتائج التي تترتب عن بقاء السلطة بيد أبي الحسن من شأنها أن تحدث تحولاً عظيماً في تاريخ الدولة، فإن الكوارث التي توالت على أبي الحسن لم تكن لتضعف أبداً من عزيمته وتصده عن توحيد المغرب العربي ، ثم إن هذه الثورة من ولد على والده ، كانت أسوأ مثل ضرب لأدعياء العرش والثوار على الدولة ، وبما أنه لم يكن لبني مرين شأن سابقيهم أيضاً ، نظام قار لولاية العهد ، فقد كان كل ملك يتولى العرش ، يخشى على ملكه من ثورات يقوم بها أمراء الأسرة المالكة ، فينفى أخطرهم شأناً إلى الأندلس وتكون تلك أسوأ وسيلة للمحافظة على وحدة العرش ، حيث ينتهز بنو الأحمر أقل فرصة ضعف من بني مرين ليسلطوا عليهم بعض من تحت أيديهم من أمراء بني مرين ، وهكذا أمد أبو الحجاج أبا الفضل بجيش يحارب به أخاه أبا عنان الذي كان قد نفاه إلى الأندلس ، وقد يلتجأ الأمراء إلى بني عبد الواد أو بني حفص أو ملوك قشتالة ، فإن أبا سالم دخل إلى المغرب مخفوراً بأسطول ملك قشتالة ، والتجأ الأمير عبد الحليم إلى السلطان أبي حمو الذي ساعـده على دخول سجلماسة في عهد أبي زيان وهكذا . . .

2) **ضعف شخصية الملوك بعد أبي عنان :**

إذا استثنينا ملكين بدرت منهما محاولات لإعادة مجد الدولة وهما أبو سالم وأبو فارس وكلاهما ولي الملك بعـــد أبي عنان ، فإن باقي الملوك المتأخرين كانوا يتفاوتون ضعفاً من حيث صلاحيتهم لتحمل أعباء الدولة ، فقد بويع أبو بكر السعيد صبياً صغيراً . وكان أبو عمر تاشفين ضعيف العقل ، أما أبو زيان محمد ، فلم يكن له نفوذ يذكر ، وبويع أبو زيان الثاني طفلا لم يحتلم بعد ، وأدى أبوسعيد عثمان طاعته لبني أبي حفص ، وذبـــح عبد الحق وزراءه الوطاسيين لينصب عوضهم حكومة من اليهود وهكذا . . .

3) **استبداد الوزراء وفساد الحكومة :**

لعل هذا أخطر العوامل الداخلية التي أدت إلى سقوط الدولة ، فطالما كانت السلطة الأساسية بيد الملوك والوزراء الصالحين المتعاونين مع الملوك على خير البلاد كانت الدولة تفرض نفسها كقوة بناءة يرهب جانبها المتمردون وينظر إليهـا الجميع نظرة إجلال ، أما والسلطة قد تحولت كلها أو معظمها إلى أيدي وزراء أغلبهم ينظر إلى الملوك نظرة الأوصياء الجائرين إلى اليتامى المحجورين ، فإن ثقة الشعب قد ضعفت في هؤلاء وأولئك ، فكان ينتهز أول فرصة تسنح حتى يمد يده لأي شخص يخلصه من جبروت الوزراء وغفلة الملوك . وكانت أسرة الفودودي من أكثر كبار الموظفين خطراً على الدولة ، وهكذا خنق أحـــدهم أبا عنان وأغرق السعيد في البحر وخلع أبا تاشفين ثم نصب أبا زيان الأول الذي لم يلبث أن لقي حتفه خنقاً على يد هــــذا الوزير (عمر) . وكان من أخطر الوزراء نفوذاً سليمان بن داود الذي عمل على قتل ابن الخطيب ومسعود بن رحو الذي دبر اغتيال عدد من الوزراء ، ثم كانت أسرة الوطاسيين التي لم يبق معها للملوك المتأخرين أي نفوذ يذكر .

وكان من سياسة بني مرين أحياناً الاعتماد على عناصر يهودية لتسيير شؤون الدولة . وقد تجلى نفوذ اليهود في عهد مبكر من تاريخ بني مرين حيث اتخذهم

يوسف من جملة بطانته وأمناء سره . كما أن عبد الحق آخر ملوك بني مرين شكل حكومته من اليهود بعد أن قضى على الوزراء الوطاسيين .

4) **ضعف الروح الحربية :**

تجلت هذه الظاهرة منذ عهد أبي عنان عندما كان يريد توطيد أقدامه في إفريقية ، فإن شيوخ بني مرين قد فضلوا العودة إلى المغرب على متابعة الفتح ، كما تجلى ضعف الروح الحربية في عدم مباشرة الدولة لمهام الجهاد في الأندلس بشكل مستمر بعد أبي عنان ، كما أن أحداً من ملوك بني مرين لم يعد لغزو النصارى مثلما أعده أبو الحسن على الرغم من النتائج السلبية التي ترتبت على انهزام جيوشه في معركة طريف والدولة التي شهدت نصف قرن من احتلال البرتغال لسبتة دون أن تحرك ساكناً أمام هذا العدوان لجديرة بالرثاء لما حل بجهازها من فساد وبجيشها من ضعف وانحطاط . والحق أن هذه الحالة السيئة التي وصلت إليها الدولة وجيوشها لم تضعف من عزم الشعب على أن يتولى مقاومة الطغيان الأجنبي بنفسه عن طريق مجاهديه وبقيادة المتصوفة خاصة .

ولعل أقوى برهان على فقدان الملوك المتأخرين ثقتهم بالجيش الوطني ، اعتمادهم على الجيش النصراني الذي وكلوا إليه حمايتهم وحماية قصورهم ، بل ومقاومة المواطنين أحياناً عند تمردهم عوضاً عن الجيش الوطني . وهكذا فإن الجيش النصراني ساعد الوزير عمر الفودودي على خلع السعيد ، وأعلن خلع أبي سالم بتأييد غرسية قائد هذا الجيش ، كما أن قتله تم بيد أحد أفراده ، وهم غرسية هذا بالفتك بالوزير عمر لولا أن هذا بطش به قبله . ومن الطبيعي أن تلعب القوى النصرانية دوراً فعالاً في خلع الملوك وتنصيبهم ما دام هؤلاء قد عهدوا إليها بالمحافظة على سلامتهم ، وأي محافظة !

وهناك عوامل خارجية كان لها أيضاً أثر بارز في إضعاف نفوذ الدولة وانحطاطها ، وهذه العوامل هي :

1) التدخل المسيحي في السياسة المغربية :

شكل هذا التدخل مظاهر مختلفة ، فبعضها اتخــذ صبغة التأييد المعنوي لتنصيب ملك معين كما كان التدخل أحياناً عن طريق إمدادات عسكرية ، ثم انتهى بالتدخل المباشر المسلح .

فأبو سالم لقي تشجيعاً كبيراً من ملك قشتالة ليتولى عرش المغرب بعد أبي بكر السعيد ، واستمد الوزير مسعود القشتاليين أيضاً في عهد أبي زيان الثالث حتى يناوشوا ابن الأحمر الذي كان يتدخل بدوره في تنصيب وعزل ملوك بني مرين . وتم احتلال سبتة سنة 818 هـ على يــد البرتغال ، فعجز بنو مرين عن استعادتها وتكفلت المقاومة الشعبية بمناوشة البرتغال الحرب من آن إلى آخر ، ومنذ احتلال سبتة والتدخل المسيحي يتطور ويتسع مداه شيئاً فشيئاً والدول النصرانية تتكالب على التراب المغربي بمختلف الوسائل .

2) الحرب ضد بني عبد الواد والحفصيين :

انصرفت معظم الجهود في الميدان العسكري إلى محاولة ضم أجزاء المغرب العربي تحت سلطة واحدة فكان النجاح في جملته محدوداً وغير مطرد ، وكان الفشل في كثير من الأحيان يكلف الدولة خسائر كثيرة في الأموال والأرواح ، ولم تكن الموارد المحليــة بإفريقية والمغرب الأوسط لتغطي نفقــات الجيش وتكاليف المشاريع المدنية ، ذلك أن العرب كانوا ينتزعون ضرائب باهظة بعضها كانوا يأخذونه مباشرة من السكان والبعض الآخر كانوا يفرضونه على ملوك بني أبي حفص وبني عبد الواد ، فكانت نفقات الجيش المريني في معظمها تقــع على كاهل ميزانية المغرب . وبما أن بني مرين كانوا ضد سياسة دفــع الضرائب للأعراب ، فقد كان عليهم أن يقاوموا هؤلاء بدورهم ، ومن الحق أن يقال أن بني مرين فكروا مراراً في تعاون سلمي مع باقي أجزاء المغرب العربي، ولكنهم اصطدموا بمقاومة عنيفة من بني عبد الواد الذين لم يترددوا في خرق معاهداتهم مع المرينيين والتعاون مــع أعداء الدولة المغربية جهراً وسراً ، كما اصطدموا

بنفور الحفصيين من هذا التعاون ، في مقابل الخضوع لضغط الأعراب ، حتى إذا تقوى الحفصيون ، انقلبوا بدورهم يدعون المغرب إلى الدخول في طاعتهم !

3) تدخل بني الأحمر :

بدأ تدخل بني الأحمر في شؤون المغرب بنحو قرن مضى قبل سقوط الدولة المرينية . ففي عهد أبي زيان الثاني (774 — 776 هـ) أمد ابن الأحمر أميراً ثائراً بأسطول بحجة امتناع الحكومة المغربية من تسليم ابن الخطيب كما ساعد أحمد ابن أبي سالم على تولي الملك ، وخشي هذا نفوذه فبطش بابن الخطيب ، ثم عمل على خلع هذا السلطان واستدعائه إلى الأندلس وتوليته موسى بن أبي عنان مكانه ، حتى إذا توفي هذا وخلفه ابن أخته المنتصر بن أبي زيان ، تعاون مع الوزير مسعود على خلعه وهو بعد صبي ، ثم أطلق سراح أبي العباس ليستعيد ملكه بالمغرب . وفي الواقع بدأ تدخل بني الأحمر في المغرب على عهد يوسف حيث استولى بنو الأحمر على سبتة سنة 703 ، ولكنها لم تلبث تحت أيديهم أكثر من ست سنوات . ومهما يكن من شيء فإن تدخل بني الأحمر في شؤون المغرب قد أسقط كثيراً من هيبة الدولة المغربية .

6 - أهمية أعمال الدولة

مما لا ريب فيه أن بني مرين بذلوا جهوداً غير هينة ، في سبيل محاولة توحيد المغرب العربي ، ولئن لم يتوصلوا إلى ذلك طبق الخطة التي رسموها والتي كانت على أي حال أفضل من بقاء المغرب العربي تتوزعه الأهواء والمطامع وتتحكم في مصيره بعض فئات الأعراب ، فإنهم طالما حاولوا أن تظل علاقاتهم بجيرانهم من مختلف الدول تسودها روح المسالمة والتعاون . ولقد تقلص نفوذ المغرب في الأندلس أيامهم بالنسبة إلى ما كان عليه في عهد المرابطين والموحدين ، ذلك أن المشكلة ظلت تكمن في عدم وجود تعاون حقيقي من طرف بني الأحمر . ولكن وجود ممثل سياسي دائم لبني مرين في الأندلس كان يعني أن المغرب لم يكن يهمل بلداً شقيقاً يتهدده الخطر المسيحي كلما حانت الفرصة ، كما أن المقاومة الشعبية في الأندلس قد تبناها بنو مرين أنفسهم ، بتعاون مع فئات المتطوعين الذين كانوا تحت إشرافهم .

ومن المؤكد أن المغرب قد اتسع نشاطه الدبلوماسي في هذا العهد بشكل ملحوظ ، سواء مع المشرق أو مع السودان أو الدول المسيحية كما سيأتي ذلك في موضوع العلاقات الخارجية .

وإذا كانت رقعة المملكة الإسلامية بالأندلس قد ضاقت في عهد بني مرين بسبب الحملات الصليبية التي كانت تشنها القوات المسيحية على المسلمين ، فإن للمرينيين على أي حال فضلاً لا ينكر في تمديد أجل الإسلام في هذه الديار ، ذلك أن جيوش غرناطة المحدودة العدد لم تكن لتستطيع الصمود وحيدة أمام القوات الصليبية المتضامنة .

ولقد استطاع المرينيون أن يحتفظوا لأمد طويل بسلطتهم على المغرب

الأوسط الذي كلفهم إخضاعه في عدة فترات نفقات باهظة . ولقد تفوق المرينيون على الحفصيين وبني عبد الواد من حيث الجهاز العسكري الذي كان يقويه أسطول بحري كبير ، لذلك استطاع المرينيون أن يبسطوا نفوذهم على المغرب الأوسط ولأمد قصير على المغرب الأدنى ، بينما لم يستطع الحفصيون ولا بنو عبد الواد أن يسيطروا على مملكة بني مرين بشكل مباشر على الأقل .

ومن المؤسف أن المرينيين لم يكونوا يتلقون أي مساعدة من الشرق الإسلامي حتى يتمكنوا من تحرير الأراضي الإسلامية بالأندلس ، فقد كانت هذه المنطقة تكاد تعيش في عزلة سياسية تامة عن باقي البلاد الإسلامية .

ولقد أشار المؤرخ هنري طيراس إلى أن بني مرين قد أهملوا تنظيم حكومتهم وجيشهم وانعزلت المناطق الجبلية عن نفوذهم شيئاً فشيئاً . وإذا كان في نظام حكومتهم وجيشهم عيوب لا تنكر ، فإن مسألة خروج الجبال عن نفوذهم أمر لا تتحدث عنه المراجع العربية التي اعتمد عليها السيد طيراس ، فإذا استثنينا ما كان يتمتع به رؤساء هنتاتة من نفوذ في نواحي مراكش فقد كان المغرب قبل اشتداد ضعف هذه الدولة يخضع كله لسلطة الدولة ، وحتى الامتيازات التي كان يحظى بها أمراء هنتاتة ، لم تكن لتعفيهم من أداء الجباية للدولة والاعتراف برقابتها وسلطتها ، وإنما نالوا هذه الامتيازات من بني مرين استمالة من هؤلاء لهم ، واعترافاً بجميلهم إذ حموا أبا الحسن المريني من بطش ابنه أبي عنان . وأهم عمالات الجنوب يومئذ وهي سجلماسة ودرعة كانت تحت سلطة الدولة ، ولا يمكن إخضاعها بسهولة من غير أن تنتقل الجيوش عبر الجبال ، وقد ظلت حدود المغرب في عهد المرينيين تجاور مملكة مالي جنوباً ، حتى إن الذي تكلف بحمل بعض هدايا ملوك بني مرين إلى ملوك مالي كانوا من الملثمين المجاورين لهذا القطر ، فكيف يعقل أن تكون الصحراء النائية تحت سلطة الدولة والجبال خارجة عنها ؟

وقد نقل المرينيون الفن الأندلسي من منبعه إلى المغرب الذي ظل حتى

اليوم يحتفظ بالطابع الأندلسي في كثير من مظاهر حياتـــه الفنية (بناء ، موسيقى ، إلخ ...)

وعرف بنو مرين أهمية الأساطيل البحرية فاستكثروا منهـا أيام عظمتهم ، كما ازدهرت الحركة الفكرية في عهدهم ازدهاراً منقطع النظير بينما كانت الثقافة العربية بالشرق قد بدأت تلفظ أنفاسها على يد الأتراك والمغول . ونحن مدينون لبني مرين بكثير من روائع الفكر التي أنتجها أدباء وعلماء عاشوا في كنف هذه الدولة ، وإن مقدمة ابن خلدون لتمثل أروع مجهود فكري تلقى صاحبه معظم ثقافته على يد علماء مغاربة ، كما أن رحلة ابن بطوطة ستظل القبس المشع الذي ينير جوانب كانت ستظل مظلمة في تاريخ العالم الاجتماعي لولا هـــذه الرحلة .

ولقد كان لبني مرين أثر غير تلقائي ، في خلق المقاومة الشعبية ضد تدخل الدول الأوروبية . ولولا البطولات النادرة التي تمخضت عنها هذه المقاومة لعجز ملوك الدول المتعاقبة بعد المرينيين عن صد أو إيقاف التكالب الأجنبي المتكتل ضد المغرب، ومن المؤسف أننا نجهل الكثير عن الحالة الداخلية في المغرب خلال أكثر من نصف قرن مضى قبل سقوط الدولة ، ولا توجد حتى الساعة مصادر عربية تشفي غليل المؤرخ عن هذه الحقبة . ولا ننس مع هذا أن عهد بني مرين قد ظل يشهد سيادة الإقطاع في أوروبا بينما كان المغرب الأقصى والأوسط ينعم بحكومة موحدة وحضارة زاهرة .

★ ★ ★

7 - السياسة الداخلية

قامت السياسة الداخلية لبني مرين بوجه عام على جملة أسس :

1) التسامح الديني :

فقد كان المسلمون واليهود والنصارى يؤدون شعائر دينهم بكل حرية ، وكان للنصارى كنائسهم ولليهود بيعهم . وطالما كان اليهود والنصارى بمعزل عن التيارات السياسية المتعاكسة ، أو قائمين بشؤونهم في ظل النظـام والقانون فإن المسلمين لم يكونوا يهيجونهم بسوء ، ولا تتدخل الدولة إلا تحت ضغط الشعب ، كما حدث مراراً في قضية البلديين بفاس ، وكما حدث أيضاً مراراً في قضيـة تدخل الحامية النصرانية بشكل مباشر في شؤون الدولة . فقـد كان المسلمون يرفعون شكواهم إلى سلطان الدولة ولا يلجأون إلى الاصطدام باليهود أو النصارى إلا عندما تقف الدولة مكتوفة الأيدي من غير تدخل . وموقف الدولة هـذا يمكن أن يرجع إلى ضعف في السياسة كما يمكن أن يرجع إلى روح التسامـح الديني التي سادت علاقة الدولة بجميع المتساكنين تحت سلطتها .

2) محاولة التوفيق بين مختلف العناصر المتساكنة :

لقـد كان المرينيون يستميلون مختلف العناصر المتساكنة في البلاد من عرب وبربر ومن يهود ونصارى إلى جانب المسلمين ، ولا يسلكون سياسة العنصرية أو تضريب هذه المجموعة بتلك . وقد نجحوا إلى حد ما في إخضاع العرب تارة بالقوة ، وطوراً بالسياسة عن طريق التعاون والتشاور مع شيوخهم وتعيينهم في بعض المناصب السامية . وهكذا كانت مجالسـهم الاستشارية وجيوشهم المحاربة

تختلط فيها العناصر وضمنها البربر والعرب والنصارى . وكان الموظفون السامون يعينون بقطع النظر عن انتمائهم إلى هذا العنصر أو ذاك .

3) تعظيم الصوفية :

كان اتساع نفوذ الصوفية في عهد المرينيين نتيجة لظهور خطر النصارى وتدخلهم في شؤون المغرب ، كما كان نتيجة طبيعية لضعف الدولة عن تحمل مسؤولياتها تجاه هذا الخطر . وزعماء الصوفية هم الذين حملوا مشعل الثورة ضد الخطر الأجنبي ، أما الفقهاء فلم يحركوا ساكناً في بلاط الدولة، وما كان يستطيعه فقيه كابن رشد وابن حمدين والقاضي عياض في عهد المرابطين أصبح يستطيع أكثر منه زعماء الصوفية في عهد المرينيين ألا وهو قيادة حركة الجهاد ضد النصارى على مرأى من الدولة في عقر دارها .

والصوفية استطاعوا أن ينالوا تقدير الشعب وتقربه إليهم لأنهم كانوا عزوفين عن المناصب وشهوات الدنيا والفقهاء على أي حال لم ينسوا حظهم من الدنيا فتقربوا إلى الملوك من حيث سخطهم الصوفية ، بل من حيث تقرب الملوك إلى الصوفية وخشوا جانبهم أذ كان الشعب يحمي ظهرهم .

4) تنشيط الحركة العلمية :

كان تشجيع الحركة العلمية يتخذ صوراً مختلفة ،فمن بناء المدارس إلى تزويد المساجد بالخزائن العلمية ، ومن مساعدة الطلبة بالمنح والجوائز إلى عقد المجالس العلمية ومشاركة الملوك فيها كطلبة أو مناقشين ، وكانوا مع ذلك لا يختارون للوظائف الدينية إلا ذوي العلم والورع كما تدل على ذلك مثلاً قائمة الخطباء التي قدمها صاحب زهرة الآس[1] .

---

(1) زهرة الآس ورقة 109 الخ ... للجزنائي .

8- علاقات المغرب الخارجية

1 – مع باقي أقطار المغرب العربي :

من الطبيعي أن تكون الصلات الثقافية والسياسية والاقتصادية مع الحفصيين وبني عبد الواد أوثق منها بالنسبة الى المغرب مع دول أخرى . وقد كان بنو عبد الواد دولة قوية يحسب لها المرينيون حسابها منذ البداية . والواقع أن المنافسة بين الفريقين ترجع الى عهد قديم حتى أن عبد المؤمن قد أخضع المرينيين بفضل مساعدة بني عبد الواد ، مما جعل المرينيين يلتجئون الى الصحراء وينتظرون أول فرصة تسنح لهم حتى يزحفوا شرقاً وشمالاً لمجابهة بني عبد الواد والموحدين عند ضعفهم . حتى إذا بدأ المرينيون يشكلون نواة لدولتهم كان بنو عبد الواد يساعدون الموحدين وهم في النزع الأخير من دولتهم على صد الزحف المريني . ومن أهم أسباب التوتر التي ظلت قائمة بين الجانبين، إلتجاء بعض الثوار من هذا الفريق الى الآخر . وكان هدف المرينيين من بسط نفوذهم على المغرب الأوسط ، وضع حد لفتنة الأعراب وتوحيد الادارة والسياسة في القطرين معاً . وفي جميع الأحوال ظلت العلاقات الإقتصادية والثقافية أقوى ما تكون بين المغرب الأقصى والأوسط ، فكثير من علماء هذا القطر تنقلوا للتدريس والعمل بالقطر الآخر ، وبالعكس .

أما تدخل المغرب في إفريقية ، فقد كان نتيجة لانضمام المغرب الأوسط والأقصى تحت حكم دولة واحدة هي الدولة المرينية، ولم يكن ثمة من مبرر للتدخل أفضل من قيام وزير الحفصيين ابن تافراكين بهذه المبادرة ، وهو الذي شجع أبا الحسن على التدخل في إفريقية ، ومع ذلك فقد أحجم أبو الحسن عن هذا التدخل قبل حدوث أزمة ملكية نشأت بعد وفاة صهره أبي يحيى . والواقع

أن أبا الحسن قد أحسن صنعـاً عندما صاهر العائلة الملكية بتونس ، فقد وطد بذلك العلاقات التقليدية بين المغربين الأدنى والأقصى ، كما أتيحت الفرصـة للعلماء الذين صحبهم إلى إفريقية عند فتحها، حتى يطلعوا إخوانهم الإفريقيين على ما وصلوا إليه من تقدم فكري ويتعرفوا هم بدورهم الى علم وأفكار زملائهـم بتلك الديار . وقد جدد فكرة توحيد المغرب العربي أبو عنان الذي لم يجد تضامناً يذكر ، من وجوه دولته ، في سبيل تحقيق هذه الخطـــة . وحاول أبو فارس الحفصي بعد أن بلغت الدولة المرينية دور الضعف والانحطاط أن يحقـق الفكرة نفسها كما فعل أجداده مع الملوك الأولين من بني مرين ، ولكنه اكتفى بسيطرة رمزية بعد أن بدأ تدخله في المغرب بشكل مباشر [1] ، ومن ثم ففكرة توحيد المغرب العربي لم تكن تراود أحلام ملوك المغرب الأقصى فقط ، بل كانت مبدأ لأكثر الدول التي حكمت في مختلف ممالك المغرب العربي .

أما عن العلاقات الثقافية مع المغربين الأوسط والأدنى ، فقد كان كثير من طلبة العلم يتنقلون للدراسة في هذا القطر أو ذاك، كما تنقل كثير من علماء الأقطار الثلاثة للتدريس ، فأحمد المكودي تلميذ أحمد بن المبارك اللمطي وعلي بن محمـــد اكريشي قام بجولة في الشرق ثم استقر بتونس ، ومن أبرز تلامذته الشيخ محمـد بيرم الثاني (من تونس) [2] والمكودي هذا هـــو غير المكودي النحوي الذي سيأتي ذكره .

ومن المتنقلين أحمد بن عيسى القاضي درس عليـه عالم تلمسان أبو العبـاس الغبريني ، وكانت وفاته سنة[3] 682 هـ ، وأحمد بن مرزوق الخطيب لقي حظوة عظيمة في بلاط المرينيين وهو عالم تلمساني توفي سنة[4] 781 هـ . وأبو محمد عبد الله

(1) انظر بشأن بيعة عبد الحق بن أبي سعيد لأبي فارس الحفصي سنـــة 827 : الزركشي ، أخبار الدولتين ، ص 125 .
(2) النيفر : جامعة القرويين ص 221 .
(3) شجرة النور الزكية ص 201 لمحمد بن محمد مخلوف .
(4) المصدر السابق ص 336 .

المرجاني كان من أساتذة محمد بن الحاج الفاسي صاحب المدخل[1] ، ومحمد بن سليمان السطي من قبيلة أورية أخذ عنه ابن عرفة من علماء إفريقية والمقري وابن مرزوق من علماء تلمسان ، وقد توفي غريقا مع حاشية أبي الحسن[2] والفقيه محمد الحسني السبتي[3] المتوفى سنة 760 هـ من أساتذة ابن زمرك الأندلسي وابن خلدون وغيرهما ، وابن عبد الله العبدري صاحب الرحلة درس على عدد من علماء المغرب الأوسط والأدنى كابن عبد المعطي أستاذه في الأدب[4]. وهكذا فإن سلسلة علماء وأدباء المغرب العربي الذين تنقلوا فيما بين أجزائه لتلقي العلم أو تدريسه يصعب ضبطها . وقد أورد الغبريني في (عنوان الدراية) أسماء عدد كثير من علماء المغرب الأقصى الذين زاولوا التدريس في بجاية وغيرها كأبي سعيد الدكالي وأحمد بن عيسى الغماري في الفقه وابن دحية في الحديث واللغة والتاريخ ، وأبي محمد عبد الله الأغماتي الذي استقضي بنواحي بجاية وكان في علم العربية بارعاً على حد قول الغبريني[5] .

2 — مع الأندلس :

بدأ تدخل المرينيين في الأندلس سواء في الميدانين السياسي أو العسكري بشكل مباشر منذ عهد يعقوب حيث عقد الصلح مع المسيحيين مرتين بطلب منهم ، على أن يعقوب لم يشرع في تدخله بالأندلس قبل أن يستصرخه على النصارى بنو الأحمر أنفسهم سنة 673 هـ . ولا يمكن إثبات ما إذا كان يعقوب يرغب في مجرد توسيع مملكته بهذا التدخل ، على أن أحداً من ملوك بني مرين لم يفكر في إقصاء بني الأحمر عن الحكم . ولو لم يكن لعمل يعقوب بالأندلس من نتيجة أكثر من إيقاف زحف النصارى لأمد طويل ، على الأقل ، لكان ذلك

(1) ابن الحاج العبدري من سلسلة عبد الله كنون .
(2) تحفة الفضلاء ص 326 لأحمد بابا .
(3) شجرة النور الزكية ص 223 .
(4) رحلة العبدري ورقة 21 .
(5) الغبريني : عنوان الدراية ص 54 ، 131 ، 153 ، 159 .

كافياً في حد ذاته من طرف دولة كانت لا تزال في نشأتهـا . أما أبو يعقوب ، فقد سلم إلى بني الأحمر كل الأراضي التي كانت تحت حكم والده باستثنـاء رندة والجزيرة وطريف ، وفي الواقع رد ملك غرناطة على هذا الجميل بأن تعاون مع القشتاليين على الاستيلاء على طريف سنة 691 هـ .

ومنذ عهد يعقوب انتقل بنو إدريس بن عبد الحق إلى الأندلس ، فراراً من بطشه ، وأصبح لهم نفوذ ظاهر في تلك الديار منذ عهد يوسف ، وشجعهم على تزعم المرينيين هناك ملوك بني الأحمر ، الذين فوضوا الزعامة الرسميـة إليهم ابتداء من عبد الحق بن عثمان،وكانوا يتولونها بظهير يوقعه ابن الأحمر[1] ويصادق عليه عادة سلطان المغرب ، واشتهر منهم عثمان بن أبي العلاء الذي عينه محمد بن الأحمر على سبتة إغاظة لبني مرين ، وكان الملك الغرناطي قد استولى عليها في عهد يوسف الذي عجز عن استرجاعها . ثم إدريس بن عثمان الذي قتل خنقاً في سجن مكناس سنة 770 هـ ، على أن المرينيين كان لهم دائمـاً ممثل حكومي في الأندلس ، ويختار عادة من الشخصيات البارزة في الدولة ، ومنذ عهد أحمد بن أبي سالم، بدأ سلطان غرناطة يباشر شؤون الغزاة بنفسه وبذلك سقطت وظيفة شيخ الغزاة التي كان يتولاها بنو إدريس المرينيون .

ومن البديهي أن تظل الصلات بين المغرب والأندلس في مختلف الميادين وثيقة كذى قبل ، خصوصاً في الميدان الثقافي ، وهكذا فإن مالك بن المرحـل درس على عدد من علماء الأندلس من بينهم أبو علي الشلوبين كما درس ابن الخطيب على جملة من علماء كالقاضي حسن بن يوسف السبتي[2] وعبد المهيمن الحضرمي الذي استكمل هو نفسه ثقافته بالأندلس على يد علماء وأدباء كأبي جعفر بن الزبـير وأبي إسحق الغافقي ، وزاول عبد القادر بن سوار المحاربي التدريس بغرناطة سنة 757 هـ ، وعين سلطان هذا البلد محتسباً مغربياً هو أبو الحسـن الأنصاري السبتي 764 هـ ، وبرع الأديب محمد الكرسوطي في ميدان الأدب الشعبي الذي استطابـه أهل غرناطة حيث انتقل إليها من فاس ، وكان الى ذلك ذا ثقافة عربية متينة .

(1) نفح الطيب : ج 1 ص 427 للمقري .
(2) المقري : نفح 7 ـ 156 .

3 — مع السودان :

كانت علاقة المغرب بالسودان في عهد المرينيين تتسم بطابـع الود والمجاملة ، ففي عهد السلطان أبي سعيد عثمان حج ملك مالي كونكو موسى ثم رجع من حجه سنه 725 هـ (1325 م) فمر بالمغرب وصحب معه الشاعر « الساحـــلي » الغرناطـي الأصل ، وكان فناناً معمارياً مشهوراً ، وكانـت مساكن بلاد مالي يومئذ عبارة عن نوايل من الطين وسقوفها من القش فبنى له جامعاً بمحراب هرمي الشكل وكان بناؤه من الآجر المجفف بواسطة الشمس ، وكان أول بناء أثري من نوعه ، وقد ظل هذا النموذج السوداني منتشراً حتى الآن[1] .

ولما فتح أبو الحسن تلمسان أرسل كونكو موسى وفداً لتهنئته يصحبـه ترجمان من الملثمين المجاورين لمالي[2] و وأكرم أبو الحسن وفادة السفارة الماليـة وأعد لسلطان مالي هدية من تحف المغرب مما كان في ملكه الخاص ، ثم بعـث بدوره وفداً يحمل هذه الهدية ومن بينه مولاه عنبر الخصي وكاتب الديوان أبو طالب محمد بن أبي مدين وصحب الوفد عدد من أعراب معقل الذين كانوا يعيشون في الصحراء .

ولما وصلت هدية أبي الحسن الى مالي انشغل البلاط السوداني بفتنة داخليـــة حتى تولى منسا جاطة فرد على هدية المغرب بأخرى وكان ضمنها زرافة جميلة ، وقد وصلت هذه الهدية في عهد السلطان أبي سالم سنة 762 فجلس بمجلس العرض وأمر أن يحتفل سكان العاصمـــة بقدوم الوفد ثم نادى الناس في الخروج الى الصحراء لمشاهدة الزرافة ، وقام عدد من الشعراء بإنشاد قصائد في مدح السلطان والتنويه بهذه المناسبة ، وكان الوفد يحثو التراب على رأسه تحية للسلطان وتقليداً لهم إذ ذاك وقاموا في ضيافة ملك المغرب مدة طويلة ثم رجعوا عن طريـــق مراكش والسوس الى بلادهم[3] .

---

(1) M. Delafosse, Hespéris, 2, 1924 والناصري ج 3 ص 152

(2) ابن خلدون 7 ص 554 .

(3) ابن خلدون 7 ص 644 ،

وفي أواخر عهد أبي زيان الأول التجأ الأمير عبد الحليم الثائر في سجلماسة الى ملك مالي دياتا سنة 1366 م . ولما كان المرينيون قد بدأت تضعف دولتهم يومئذ فإنهم لم يقوموا برد فعل بسبب لجوء هذا الأمير إليهم لذلك ظل الجوار مستمراً بين الدولتين .

4 – مع المشرق[1] :

كانت مصر محطاً للحجاج الأفارقة القادمين من الديار المقدسة وإليها ، وكان المغرب يوفد إلى البقاع المقدسة وفداً رسمياً يصحب ركب الحجاج . وفي عهد السلطان أبي يعقوب ، تشكل أول وفد رسمي في الدولة المرينية[2] ، وأمر السلطان بانتساخ مصحف رائق الصنعة – كما يقول ابن خلدون – «واستكثر فيه من مغالق الذهب المنظم بخرزات الدر والياقوت » وبعث بهذا الوفد سنة 703 هـ يصحب المصحف المذكور مع هدايا قيمة ضمنها الخيل العراب و 400 من المطايا ، وصحب الوفد قاض شهير هو محمد بن زغبوش ودليل يدعى أبا زيد الغفائري وتوجه الوفد إلى مكة لتسليم المصحف إلى شريفها لبيدة بن أبي نمى ، أما باقي الهدية فقد وجه إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي رد عليها بهدية أخرى ثمينة ضمنها ثياباً وفيلاً وزرافة ، وترأس وفده الأمير التليلي الذي وصل إلى المغرب سنة 706 هـ ، وكان يصحبه عدد من أمراء الترك ، وقد استقبل الوفد المصري بالمنصورة حيث حظي بتكريم السلطان الذي لم يلبث أن توفي فتولى خلفه أبو ثابت البرّ بهم وأحسن صلتهم حتى إذا كانوا عائدين سنة 708 هـ اعترضهم أعراب بني حسن ونهبوا ما كان معهم بدسيسة من أبي حمو صاحب تلمسان[3] ، وقد ظل المغرب محافظاً على حسن صلاته بالمشرق رغم توقف مصر مدة طويلة عن إرسال وفودها إلى المغرب بسبب ما لحق وفد الناصر من إهانة.

---

(1) انظر بوجه خاص حول هذا الموضوع : محمد المنوني: علاقات المغرب بالمشرق في العصر المريني ـ عن دعوة الحق مارس ـ ابريل ماي 1965 ، ومجلة تطوان العدد 1 / 1956 .

(2) ابن خلدون : 7 ص 468

(3) ابن خلدون : 7 ص 470 .

على أن أفضل مرحلة مرت بها العلاقات بين المشرق والمغرب هي عهد أبي الحسن الذي تبادل مع ملوك المشرق سفارات عديدة ، وقد ذكرت بإيجاز أمر هذه السفارات في أخبار أبي الحسن ، وكانت أولها سفارة أبي الحسن سنة 736 هـ التي ترأسها أبو عبد الله محمد بن الجراح ، وكان القصد منها إخبار الملك الناصر بعزم والدة أبي الحسن على الحج واطلاعه على انتصاراته وجهاده بالشمال الإفريقي والأندلس .

وفي سنة 736 توجهت حظية والدة أبي الحسن إلى الحج[1] ، وصحبت معها هدية جليلة ، قال عنها المقريزي في السلوك : « إنه نزل يحملها من الاسطبل السلطاني (بمصر) ثلاثون قطاراً من بغال النقل سوى الجمال ، وكان ضمنها أربعمائة فرس وسيف ذهب مرصع ولجم مسقطة بالذهب والفضة . وقدرت هذه الهدية بما يزيد على مئة ألف دينار . ومن الطريف أن ننقل بعض ما أورده المقريزي عن ضيافة ملك مصر للحرة ومن صحبها من وفد السلطان أبي الحسن ، فقد « كان مرتبهم كل يوم عدة ثلاثين رأساً من الغنم ونصف إردب أرز وقنطار حب رمان وربع قنطار سكر وثمان فانوسيات شمع وتوابل الطعام ، وحمل إليها برسم النفقة مبلغ خمسة وسبعين ألف درهم وأجرة حمل أثقالهم مبلغ ستين ألف درهم .. الخ » .

وتقول رسالة الناصر إلى أبي الحسن في موضوع هذا الاستقبال[2] :

« ... فقد استقبلناهم على بعد بالإكرام ، وأحللناهم من القرب في أعلى مقام ، وصرفنا إلى تلقائهم وجه الإقبال والاهتمام ، وعرفنا حقهم أهل الإسلام ونشرنا لهم بفنائنا الأعلام ، ويسرنا لهم باعتنائنا كل حرام ، وأمرنا بتسهيل طريقهم وتوصيل البر لفريقهم ... » .

ثم يقول بعد كلام آخر :

(1) النفح 6 ـ 138 ـ المقري .
(2) محمد المنوني : مجلة تطوان العدد 1 .

... « وشوهد من تعظيمنا لهم ما يحسدهم عليه ملوك الزمان بكل مكان ، وكتبنا على أيديهم إلى أمراء الأشراف بالنهوض في حقهم والوقوف... وكذلك كتبنا إلى أمراء المدينة المشرفة الخ ...: » .

وقد رجع هذا الوفد بهدية من الناصر إلى أبي الحسن ، وضمنها أقمشة من الحرير وخيمة عظيمة صنعت بالشـــام وتحتوي على مختلف المرافق من غرف للنوم وأبراج للإشراف على الطرقات ، وتمثال مسجد بمحرابه ومئذنته وخيمة أخرى تظلل أكثر من خمسمائة فارس[1] .

وفي سنة 740 وجه أبو الحسن مصحفاً ثانياً وقفه على قراء أهـــل المدينة المنورة .

وقد أورد القلقشندي في آخر المجلد السابع من صبح الأعشى نصوص عدد من المراسلات التي تبودلت بين أبي الحسن والناصر بن قلاوون ، وفي شعبان 745 وجه أبو الحسن إلى الصالح بن الناصر سفارة جديدة تصحب ركب الحـاج مع الأميرة مريم أخت أبي الحسن ويرافقها الكاتب أبو الفضل بن أبي مدين . وكان ضمن رسالة أبي الحسن إلى الملك الصالح تعزيته في والده الناصر وطلب تدخل الملك المصري من أجـل مراقبة الأوقاف التي وقفهـا أبو الحسن على المصحفين اللذين حبسهما على الحرمـين الشريفين ، كما تعرضت الرسالة لموضوع جهـاده في الأندلس واحتلال النصارى للجزيرة الخضراء . ثم يهنيء أبو الحسن زميله الشرقي بتولي الملك . ومما جاء في هذه الرسالة الطويلة قوله[2] :

« ... وعنـد عودنا من تلك المحاولة تيسر الركب الحجازي موجهـاً إلى هنالكم رواحله فأصدرنا إليكم هذا الخطاب إصدار الود الخالص واكب اللُّبَاب ، وعندنا لكم ما عند أحنى الآباء ، واعتقادنا فيكم في ذات الله لا يخشى جديده من البلاء ، وما لكم من غرض بهـذه الأنحاء ، فموفـّىً قصْدُهُ على أكمل الأهواء ،

---

(1) التعريف بابن خلدون ملحق الجزء 7 ص 1168 لابن خلدون .

(2) نفح الطيب ج 6 ص 120 ـ 129 ـ المقري .

موالٍ تتميمه على أجمل الآراء، والبلاد باتحاد الود متحدة، والقلوب والأيدي على ما فيه مرضاة الله عز وجل منعقدة الخ ... » .

وجاء في جواب الملك الصالح الذي كتب في رمضان 745 من إنشاء خليل الصفدي قوله :

« ... وأما ما وصفتموه من أمراء الجزيرة الخضراء، وما لاقاه أهلها ومني به من الكفار حزنها وسهلها فإنه شق علينا سماعه الذي أنكى أهل الإيمان وعدد به نوب الزمان، كل قلب بأنامل الخفقان، وطالما فزتم بالظفر، ورزقتم النصر على عدوكم فجرّ ذيل الهزيمة وفرّ، ولكن الحروب سجال وكل زمان لدوائه دولة، ولرجائه رجال، ولو أمكنت المساعدة لطارت بنا إليكم عقبان الجياد المسومة وسالت على عدوكم أباطحهم بقسينا المعوجة، وسهامنا المقومة الخ ...[1] » .

وتتناول رسالة الصالح فقرات خطاب أبي الحسن بالجواب واحدة تلو الأخرى وتتخلل عباراتها عواطف الود والإخاء شأن رسالة أبي الحسن أيضاً .

وفي سنة 747 وجه أبو الحسن ركباً آخر مع سفارة إلى المشرق وكان قاضي الركب هو تقي الدين عبد الله الهرغي[2]، ووجه السلطان المغربي مع هذا الوفد مصحفاً ثالثاً إلى بيت المقدس وهو يتألف من ثلاثين جزءاً وقد كتبه بخط يده، كما أجرى أوقافاً وأرزاقاً على حفاظه والساهرين عليه. وهذا المصحف موجود حتى اليوم ببيت المقدس وهو في مجلدات ضخام ومكتوب بحروف كبيرة، بيد أنه لم يتم نسخه كله بخط أبي الحسن .

وفي سنة 749 وجه أبو الحسن سفارة إلى حسن الناصر ملك مصر آنذاك يطلب منه اعتقال أبي تافراجين وزير الحفصيين وكان قد ظاهر العرب على أبي الحسن عند دخوله إلى افريقية[3] .

---

(1) نفح الطيب 6 ـ 135 .

(2) مجلة تطوان عدد 1 ص 139 .

(3) مجلة تطوان عدد 1 ص 151 (محمد المنوني).

ولما كانت سنة 793 زار أحد أمراء معقل واسمه يوسف بن علي ملك مصر في ذلك العهد وهو الظاهر برقوق فتدخل ابن خلدون الذي كان في بلاطـــه ليبعث معه هدية إلى السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم[1] ، فأصحبه قماشاً وطيباً وقسيا وطلب منه أن ينتقى له خيولا عراباً من المغرب وكمـادة ملوك بني مرين،فقد جلس أبو العباس في مجلس العرض لاستقبال هدية الظاهر وعرضها بمحضر أفراد الشعب ، وبدأ يهيىء بدوره هدية أخرى ضمنها الجيـاد المطلوبة ليحملها يوسف بن علي المذكور إلى السلطان برقوق ، بيـد أن المنية عاجلته ، فبعث الظاهر برقوق رسولا تركياً هو قُطلو بُغا إلى كل من ملك تونس وتلمسان والمغرب سنة 799 وحمله إلى كل منهم خطاباً ، واستقبله السلطـــان أبو عامر المريني بالحفاوة واستكمـــل الهدية التي كان قد أعدها أبو العباس ثم سفرها مع المبعوث التركي .

وفيما يخص العلاقات الثقافية فقد ظل التبادل العلمي قائماً بين المرينيين ودول المشرق وهكذا فإن أحمد بن عيسى الغماري تابع دراسته بالمشرق على يد علماء أجلاء كالمعز بن عبد السلام واتصل ابن بطوطة خلال رحلته إلى المشرق بعدد من شيوخه وعلمائـــه ، كما ذاكر العبدري خلال تجواله بالمشرق أيضاً كثيراً من علمائه كزين الدين المالكي والمحدث الغرافي[2] . وكان لعبد الله محمد بن الحاج صيت عظيم بمصر حيث توافد عليه طلابها لتلقي العلم عنه ، كما كون مدرسـة دينية مذهبها كما يقول الأستاذ كنون[3] ، أن « تعنى بأعمال القلوب أشـــد العناية ، وتعمل على تنمية الأجور بالنيات الحسنة فضلاً عن ملازمة سبيل السنة في الحركات والسكنات ، وإسقاط الدعوى بالمرة ، وتحكيم الشرع في الظواهر والبواطن وعدم الاغترار بلوائح الغيوب أو الكرامات » . وفي حلب شغـل أبو زيد عبد الرحمن بن الجُعيد السجلماسي الشهير بابن رشـــد المالكي منصب

---

(1) ابن خلدون مجلد 7 ص 759 والتعريف ص 1170 .

(2) رحلة العبدري ورقة 45 .

(3) محمد بن الحاج العباسي من سلسلة الاستاذ عبد الله كنون ص 10 .

قاضي القضاة والإفتاء [1] حيث توفي سنة 789 هـ ، كما شغل منصب الإفتاء وتدريس الفقه والحديث بمصر الشيخ يحيى[2] بن عبد الله الرهوني 776 هـ ، وكان محمد بن محمد بن علي الغماري[3] تلميذ الشيخ خليل وأحد خمسة أشخاص تفرد كل منهم بفن في مصر ، وهم البلقيني في الفقه والعراقي في الحديث والغماري في النحو 802 هـ ، والفيروزبادي في اللغة وابن الملقن في كثرة الإنتاج

5 – مع الدول المسيحية :

كان للدول المسيحية علاقات متنوعة مع دولة بني مرين، ولم تكن الحروب التي جرت بين المرينيين ونصارى إسبانيا لتمنع من إنشاء روابط سلمية بين الجانبين، وقد عاش في المغرب كثير من النصارى من مختلف بلاد أوربا منذ عهد الموحدين على الخصوص ، ثم تكاثرت جالياتهم في عهد بني مرين بمختلف نواحي المغرب فكان خطرهم بداخل البلاد أكثر من خطرهم الخارجي ، ولا أدل على ذلك من ثورة الإسبان بسلا في عهد يعقوب بن عبد الحق سنة 658 هـ ثم النفوذ الذي بلغه جيشهم لدى الدولة . وفي عهد هذا السلطان انعقد الصلح مرتين بين المغرب وقشتالة سنة 676 و 681 ثم انعقد للمرة الثالثة مع سانشو سنة 684 في عهد يعقوب أيضاً ومع أن الحرب استؤنفت بعد ذلك بين المرينيين ونصارى إسبانيا فلم يمنع ذلك من التعامل بين الجانبين في الميدان الاقتصادي والتجاري .

وكان لجمهوريات إيطاليا صلات تجارية واقتصادية وطيدة مع المغرب ، وقد أهدى بعض الجنويين إلى السلطان يوسف حوالي سنة 692 هدية قيمة بينها شجرة مموهة بالذهب أهدي مثلها للمتوكل العباسي وصُنعت أطيار تصوت عليها بحركات هندسية [4] .

وكان لأبي سعيد عثمان اتصالات دبلوماسية بفرناندو ملك أراغون[5] . أما

(1) ابن تغري : النجوم الزاهرة 11 - 313 .
(2) السيوطي : حسن المحاضرة 1 - 262 .
(3) حسن المحاضرة : 1 - 310 .
(4) الاستقصاء : 3 ص 74 .
(5) ماريانو : هسبريس 3 سنة 1960 .

أبو عنان فقد اقترح على ملك البرتغال أن يعقدا حلفاً عسكرياً ضد قشتالة وأن يجتمع أسطولهما ببحر الزقاق (البحر الأبيض المتوسط) وأهدى إليه أبو عنان كثيراً من تحف المغرب ومصنوعاته ومركباً ذهبياً أنيقاً ، بيد أن الهدية لم تبلغ إلى صاحبها حيث هلكت بتلمسان[1] .

وللمغرب علاقات قديمة مع فرنسا ، وأقدم المستندات التي عثر عليها بهذا الصدد ترجع إلى القرن الثامن عشر ، وقد بدأت محاولة عقد صلات تجارية لمرسيليا وغيرها من إقطاعيات فرنسا مع المغرب منذ عهد علي بن يوسف[2] . ففي سنة 1138 عقدت مرسيليا مع جمهورية جنوة معاهدة تجارية ووعد المرسيليون الجنوبيين أن يؤدوا لهم تعويضات لمدة عشر سنوات ، عن كل الخسائر التي قد تحل بهم إذا هم تمكنوا من عقد معاهدة سلمية لصالحهم مع علي بن يوسف على أن يلتزموا هم من جانبهم بمنع قراصنتهم من مهاجمة السفن المغربية التي تقترب من إقليمهم .

وخلال القرن الثالث عشر كان ميناء سبتة محط أنظار مختلف جمهوريات ودول أوربا كالجنوبيين والبنادقة والمرسيليين والمونتبوليين ، وكان المرجان وسمك الطون يجذبان الصيادين الأجانب الذين كانوا يأتون لاستيراد بضائع مختلفة من المغرب كالصوف والخرفان والخيل والجلود والزرابي والأحزمة المزخرفة والقطن والشمع ، بينما يصدرون الى المغرب الحرير والكتان والسلاح أحياناً والخمر والخرداوات والملف وكان للمرسيليين فندق خاص بهم في سبتة خلال هذا القرن.

وقد عمل يعقوب المنصور المريني على عقد حلف مع فيلب الثالث الملقب بالجسور ، إذ في أيام المنصور ثار دون سانشو (سانجة) على والده الفونس العاشر الذي طلب مساعدة خصمه السابق المنصور ، وكان يومئذ بالجزيرة الخضراء ، وبالفعل ساعده المنصور على استرجاع عدة مدن كان ولده قد احتلها ، وحينئذ وجه المنصور خطاباً إلى فيلب سنة 1282م يطلب منه أن يساعد بدوره الفونس

---

(1) ابن خلدون : 7 ص 633 .

(2) هسبريس : 3 و 4 سنة 1957 (روبير ريكار)، وعن هذا المصدر أخذت بقية المعلومات .

العاشر ، وذلك لصالح أبناء أخيه ورثة عرش قشتاله ؛ كما يذكره الخطاب بضرورة التعاون والتآزر ، وأنه ساعد الفونس العاشر من أجل الواجب رغم اختلاف دينهما لا من أجل مصالح سرية . على أن المصادر العربية القليلة ، لا تذكر شيئاً عن هذه الرسالة التي حفظ نصها العربي وعرض سنة 1946 في معرض ديبلومامي بفرنسا . وقد كتبت سنة 681 وتقع في أربع صفحات من القطع الكبير .

وفي عهد الحسن سنة 1339 عقد المغرب معاهدة سياسية تجارية في تلمسان مع وفد ملك ميورقة وكذا مع ممثلي ملكي مونتبوليي وروسيون Roussillon . وينص هذا الإتفاق على وجوب عدم التعرض بسوء من الجانبين لرعايا الطرفين وللبواخر الغريقة التي يملكها أحد الفريقين ، كما سمح لرعايا ميورقة بالتجارة في المغرب ولكن منع عليهم أن يصدروا منه القمح والسلاح والخيل والجلود المملحة والمدبوغة .

وقد ضعفت العلاقات الإقتصادية مع فرنسا في النصف الثامن من القرن 14 م ثم استؤنفت في أواخره وخلال القرن الخامس عشر .

كما عثر على نص رسالة وجهها شارل السابع إلى ملوك المغرب وبجاية وتونس ووهران . وكان سلطان المغرب يومئـــذ عبد الحق آخر ملوك بني مرين ، ولم يضبط تاريخ هـــذه الرسالة الذي يرجح أنه كان سنة 1456 ، وهي تطلب من سلطان المغرب عقد صلات تجارية وأن يسمح للموانىء المغربية باستقبال البواخر الفرنسية ويضمن سلامة الرعايا الفرنسيين كما يضمن شارل للمغرب نفس هـــذه الامتيازات .

وتعتبر الرسالة المذكورة أول خطاب موجه من ملك عام لفرنسا إلى ملك مغربي بشأن عقد صلات بين بلديهما .

9 - الحيــاة الدينيــة

تطور الحركة الصوفية :

اكتست الحياة الدينية في عهد بني مرين مظاهر جديدة بسبب نشاط الحركة الصوفية من جهة ودخول العناصر اليهودية في الميدان السياسي إلى جانب الاحتكاك بالمسيحيين المتوافدين على المغرب كغزاة أو تجار من جهة أخرى .

وقد لوحظ أن الحركة الصوفية قد اتسع نطاقها على الخصوص شمالاً حيث كان لزعمائها دور في التوجيه الروحي لسكان هذه الناحية التي تسلط عليها التدخل الأجنبي .

لم تكن الحركة الصوفية في عهد بني مرين تكتسي صبغة التمرد المسلح على الدولة أو التكتل ضدها ، بل كانت في الواقع ثورة سلبية على الوضع الديني والاجتماعي والسياسي الذي صار إليه الشعب والدولة ، وظلت هذه الثورة مكبوتة لتنطلق في صراع مسلح ضد التدخل الأجنبي منذ أواخر أيام الدولة ثم تشتد ابتداء من عهد الوطاسيين .

ونستطيع أن نقسم رجال الحركة الصوفية في هذا العهد إلى قسمين رئيسيين، قسم انقطع لعبادة الله وتجرد عن الخوض في شؤون الدنيا ، ومن أفراد هذه الطائفة رجال زهدوا لمجرد الزهد ولم يؤسسوا طريقة معينة ، وأشهرهم الإمام ابن عاشر ، والباقون منهم من تزعم حركة صوفية معينة وكون لنفسه طريقة كالإمام الجزولي ، ثم هناك طبعاً مريدون وأصحاب لكل من الطائفتين . أما القسم الثاني فهو الذي كون نواة لحركة الجهاد التي سيتسع مداها في عهد الوطاسيين،

وقد جمع الإمام الجزولي بين مزايا الفريقين إذ أسس أشهر مدرسة صوفية بالمغرب وقاد حركة الجهاد ضد النصارى في الشمال .

أما تعظيم الشرفاء فلئن تحددت معالمه في عهد المرينيين فسيتسع مداه أيضاً في عهد الوطاسيين ثم يمتد أكثر فأكثر أيام السعديين والعلويين . ولقد كان تنصيب الشرفاء الجوطيين بفاس محاولة لإرجاع دولة الأدارسة الى الملك بعد غيبة دامت عدة قرون ، بيد أن قلب دولة وتأسيس أخرى لم يكن أمراً هيناً، فقد كان على الأدارسة الجدد أن يمهدوا لدولتهم بدعاية واسعة النطاق داخل المغرب ويعدوا الأموال اللازمة لضمان نجاح دولتهم ، وفقدانهم لهذه الوسائل الى جانب السند العسكري اللازم جعل دولتهم تموت في مهدها .

ولقد أصبح المذهب المالكي في عهد المرينيين يسيطر وحده في ميدان التشريع والعبادات مثلما كان الأمر في عهد المرابطين . ولم يفقد الفقهاء نفوذهم السياسي بالمرة في بلاط المرينيين بل كان لقليل منهم تأثير بالغ في توجيه السياسة الملكية ، مثلما كان الأمر بالنسبة لإبن مرزوق وقضية قتل ابن الخطيب. وقد تقرر في هذا العهد تدريس مدونة خليل بالمغرب على يد ابن إسحق المالكي 767 هـ

وينبغي أن نشير هنا إلى أن من أهم المراجع عن حركة التصوف بالمغرب في هذه الفترة كتاب « أنس الفقير وعز الحقير » لابن قنفذ أبي العباس أحمد بن الحسن القسطنطيني 810 هـ / 1407 م وقد تم نشره بتحقيق الاستاذين محمد الفاسي وأدولف فور 1385 هـ / 1965م بالرباط . ومن أهم مميزاته اعتماد المؤلف على مشاهداته الخاصة بالمغرب الذي تلقى ابن قنفذ دراسته في معاهده .

وقد خصص ابن الحاج مقارنة بين مساجد المغرب والشرق من حيث ان الأولى « مصونة مرفعة عظيمة لا ترفع فيها الأصوات ولا تدخل إلا للصلاة أو مجالس العلم » كما نوه بآداب الصلاة التي تراعى كثيراً في مساجد المغرب (أنظر المدخل 1 - 101)

نشأة الزوايا :

لم يعرف المغرب الزوايا قبل عهد أبي يوسف ، ثم لم يكن دور هذه الزوايا

في عهد المرينيين بوجه عام مثلما صار عليه في عهد الوطاسيين المتأخرين ، فقد كان قصد أبي يوسف من بنائها أن يجعلها بمثابة دور لاستقبال الغرباء والوافدين من الخارج من كبار رجال الدولة وأعيانها[1] . فالغرض الأول من بنائها كان كما نرى أبعد ما يكون عن الهدف الصوفي الذي اتجهت إليه فيما بعد ، والظاهر أنها أصبحت مع الأيام المكان المفضل لرجال التصوف الذين كانوا ينقطعون فيها للعبادة ، ثم تحولت لاستقبال المريدين والأتباع الذين ينقادون لحركة طرقية معينة وصارت لا تبنى إلا لهذا الغرض . وكان أبو عنان قد خصص للمساكين الوافدين على الزوايا طعاماً يومياً ، فهيأ بذلك الجو عن غير قصد لجعل هذه الزوايا تستقبل المريدين وخصوصاً الفقراء فيما بعد .

وكان بالمغرب منذ عهد المرابطين - بل قبلهم - ربط كانت عبارة عن محتشدات للجهاد ونشر الإسلام بين ربوع المغرب بيد أن هذه الربط قد ضعف شأنها أيام المرينيين وبدأت تترك مكانها للزوايا التي انقطع أغلبها للجهاد الروحي على أن أهم الزوايا التي ترجع إلى العهد المريني هي زاوية النسّاك بسلا وهي من بناء أبي عنان سنة 757 ، وقد بقي من بنائها بابان موقعهما قرب ضريح (سيدي بلعباس) ، وترجع الطرق الصوفية بالمغرب إلى أصول محلية ، حيث انتشرت بواسطة الإمام الشاذلي الذي استقى أهم أصول طريقته عن الإمام عبد السلام بن مشيش الذي تقدمت ترجمته في الجزء الأول .

حياة بعض كبار المتصوفة

١) أبو الحسن الشاذلي[2] :

علي تقي الدين أبو الحسن الشاذلي من قبيلة غمارة التي ولد فيها سنة 593 هـ .

---

(1) المسند منتخبات ص 36 لابن مرزوق ، والإتحاف الوجيز ورقة 26 لمحمد بن علي ، والذخيرة ص 100 لمؤلف مجهول .

(2) انظر كتاب (أبو الحسن الشاذلي) لعلي سالم عمار الذي استعرض ترجمته وطريقته بتفصيل وإتحاف أهل العناية الربانية لفتح الله البناني ص 108 وسلوة الأنفاس لمحمد بن جعفر ابن إدريس الكتاني ج 1 - 84 وشذرات ابن العماد 5 - 278 .

ومع أن نشأته ووفاته أيضاً كانت في عهد الموحدين (قبل سقوط دولتهم ببعض سنوات) فإن طريقته لم تنتشر في المغرب إلا في عهد متأخر من حكم بني مرين ، وذكر صاحب سلوة الأنفاس أنه من ذرية عمر بن إدريس .

وكان أبو الحسن الشاذلي نحيف الجسم خفيف العارضين ، طويل أصابع اليدين ، فصيح اللسان والمنطق ، وكان يلبس الفاخر من الثياب ، ويستنكف من لبس المرقعات ، ولو أنه قد ألبسه الشيخ حرازم مرقعة ليعتنق بذلك مذهب المتصوفة ، وكان يركب الدّواب ، ويتخذ الخيل الجياد ويقول : « لو اتخذ أصحاب المَهَنا لباساً يتميزون به ، والعلماء لباساً خاصاً يفرض على الناس احترامهم ، واتخذ الحكام مثل ذلك إظهاراً لهيبتهم ، فلا يجوز للصوفي وهو السهل السلس ، أن يتخذ لباساً لأنه ذلك العابد الزاهد الذي إذا تميز بالزي افتضح حاله وسره . والواقع أن هذه كانت نظرية عدد آخر من متصوفة المغرب كابن عباد وغيره .

وقد تلقى الشاذلي دراسته ومعارفه في ظل دولة الموحدين بالمغرب وتونس ، ومن أشهر شيوخه بالمغرب أبو الحسن بن حرازم الذي تلقى عنه الشاذلي طريق القوم كما لبس خرقة التصوف على يديه وأخذ عن عبد السلام بن مشيش الذي أوصاه بالدعاية لحركته في تونس بعد أن يستزيد من معارفه بها . وفي تونس تلقى الشاذلي علوم الحديث والكلام والفقه وغيرها على عدة علماء كأبي سعيد الباجي وأبي محمد المهداوي شيخ صوفية تونس الذي تلقى هو نفسه عن أبي مدين وعبد السلام بن مشيش .

وقد هاجر الشاذلي الى تونس وهو بعد حدث ثم هاجرها الى مصر سنة 642. وكان توجهه الى افريقية بأمر من عبد السلام بن مشيش الذي أوصاه أن يبدأ دعوته بشاذلة من أعمال تونس . لذلك اشتهر بالشاذلي رغم أنه من غمارة . وفي تونس أقبل عليه المريدون واتخذ له داراً بمسجد البلاط، وتردد بينها وبين زاويته بجبل زغوان طبقاً للخطة التي رسمها له استاذه ابن مشيش . وتألب عليه بتونس جماعة من الفقهاء الذين حسدوه على ما ناله من صيت بافريقية ، وتزعم معارضته

والكيد له ابن البراء قاضي الجماعة بتونس ، مما اضطره الى الهجرة الى مصر سنة 642 هـ ، حيث مكث بقية أيامه تحت ظل الأيوبيين الى أن لحق بربه سنة 656 هـ، بعد أن كف بصره وصادفته المنية وهو في الطريق الى الحـج فدفن بقرية حميثرا بصحراء عيذاب بصعيد مصر بين قنا والقصير ؛ وتولى تجهيزه ودفنه أبو العباس المرسي الذي كان على رأس أصحابه ، وضمنهم الشيخ بدر الدين بن جماعة الذي تولى منصب قاضي قضاة مصر ، وكان يفتخر بحضور جنازة الشاذلي ويقول : « إن بركة الشيخ قد حلت بالديار المصرية منذ أقام فيها » .

ومن وصايا ابن مشيش للشاذلي :

١ – الله الله والناس ، تنزه لسانك عن ذكرهم ، وتنزه قلبك عن التماثيل من قبلهم ، وعليك بحفظ الجوارح على الله وأداء الفرائض لله ، وقد تمت ولاية الله عليك ، ولا تذكرهم إلا بواجب حق الله عليك ، وقد تم ورعك ، وقل اللهم ارحمني من ذكرهم ، ومن العوارض من قبلهم ، ونجني من شرهم ، وأغنني عن خيرهم ، وتولني بالخصوصية ؛ إنك على كل شيء قدير .

٢ – أفضل الأعمال أربعة بعد أربعة : المحبة لله، والرضا بقضاء الله، والزهد في الدنيا ، والتوكل على الله . وأما القيام بالأربعة الأخرى ، فالقيام بفرائض الله ، والاجتناب لمحارم الله ، والصبر على مالا يعني، والورع من كل شيء يلهي.

٣ – ألزم باباً واحداً تفتح لك الأبواب ، وأخضع لسيد واحد تخضع لك الرقاب . قال الله : وان من شيء إلا عندنا خزائنه فأين تذهبون .

وقد عرف الشاذلي التصوف بأنه تدريب النفس على العبودية وردها لأحكام الربوبية. وقال: للصوفي أربع صفات: التخلق بأخلاق الله وحسن المجاورة لأوامر الله ، وترك الانتصار للنفس حياء من الله وملازمة البساط بصدق الفناء مع الله.

وتنبني طريقة الشاذلي بعد تبلورها ، على عـدم التجرد كلية من الدنيـا ، والمزاوجة بين العمل لها وللدين . وفي ذلك قال الشاذلي : ليس هـذا الطريق بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة ولا ببقبقة الصناعة ، وإنمـا هو بالصبر على الأوامر واليقين في الهداية .

وقال : من أراد عز الدارين فليدخل في مذهبنا يومين . فقال له القائـل : كيف لي بذلك ؟ فقال : فرق الأصنام عن قلبك ، وأرح من الدنيا بدنك ، ثم كن كيف شئت ، فإن الله تعالى لا يعذب العبد على مد رجليه في استصحاب التواضع للاستراحة من التعب ، وإنما يعذبه على تعب يصحبه التكبر ، وكان الشاذلي مع هذا ضريراً كما تقدم ،وقد أفرد التاج بن عطاءالله مؤلفاً حافلاً لترجمته .

2) **أبو عبد الله الجزولي :**

أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الجزولي[1] نسبة إلى قبيلة جزولة الشهيرة التي ينتمي إليها عدة علماء وشخصيات دينية ، وعلى رأسهم عبد الله بن ياسين ، ونسب الجزولي إلى سلالة النبي عليه السلام شأن كثير من الصوفية غيره ، وسواء أثبت هذا النسب أو لم يثبت فلقد كان الغرض منه استمالة الشعب المغربي الذي يعترف بفضل أشراف الأدارسة في نشر الإسلام ببلاده ، ولم يكن الشاذلي ولا الجزولي ولا كثير من الصوفية الأولين يهتمون بادعاء الشرف ، وإنما كان العامة يرون من البركة في شرفاء الصوفية ما لا يرونه في غيرهم .

وتلقى الإمام الجزولي دراسته بفاس والمشرق ، وأخذ طريقة الشاذلي عن شيوخها بمصر ، وقيل أنه توفي بجزولة ونقله أبو العباس أحمد الأعرج من مدفنه فوجده بحاله لم يتغير من جسمه شيء مع بعد العهد[2] . على أن الإمام الجزولي قد أتيح له أن يأخذ مبادىء الطريقة الشاذلية بالمغرب قبل أن يستكملها بمصر، وهكذا درس عن شيوخ الصوفية بتيط قرب الجديدة. وقد دفن الإمام الجزولي بمراكش بعد أن نقل جثمانه في عهد الملك السعدي المذكور من أفوغال ، وقد وضع هذا الصوفي الشهير دلائل الخيرات الذي ردد أوراده وأدعيته ملايين المريدين منذ وضعه ، وقيل أن المريدين بلغوا في عهده اثني عشر ألفاً [3] ، وكانت وفاته سنة 869 هـ أي في نفس السنة التي سقطت فيها الدولة المرينية .

---

(1) كان الجزولي ينسب الى جد أبيه فيقال محمد بن سليمان وهو في الحقيقة محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن سليمان .

(2) التشوف إلى رجال التصوف ص 71 للتادلي .

(3) المصدر المذكور ص 73 .

وقـد أنشأ الإمام الجزولي حوالي عشر زوايا في كل من سلا وتلمسـان وفاس وزرهون ومكناس وأغماي وأزراق ومراكش وبورمان وماسة وأقا . أما الزاوية المركزية فقد أنشأها بأفوغال[1] ، وقـد تزعم هذا الصوفي قيادة الجهاد ضد النصارى في الشمال .

3) أبو العباس أحمد بن عاشر :

أبو العباس أحمد بن محمد بن عمر بن عاشر الأندلسي الجزيري ، أصلـه من شمنية ، وبها ولد ونشأ إلى أن حفظ القرآن وقرأ العلم واجتهد في العبادات ثم انقطع إلى الجزيرة الخضراء يقيم ببيت في إحدى صوامعها ويقوم بتحفيظ القرآن الكريم . وفي الجزيرة اتصل بأولياء عديدين من بينهم مسعود بن سرحان الذي وصف بأنه كان «مأخوذاً عن نفسه، مصروفاً لحبه تعالى إلى ما يجده بعد الحلول في رمسه[2] » .

ثم قدم ابن عاشر الى المغرب فنزل بفاس ثم رحل إلى مكناس ، وكانـت تعيش بها أخت له[3] . وعندما اشتهر أمره ، أصبحت تعيش تحـت كفالة أبي عنـان حيث هي . ثم انتقل لسلا برباط الفتح حيث نزل على الولي الحاج عبد الله اليبوري الذي كان يسميه بالشاب الصالح ، وبدأ يشتغـل بتعليم الصبيان القرآن ، ثم تحول إلى سلا حيث نزل بزاوية أبي زكرياء قرب الجامع الأعظم . وحينئذ بدأ يتكسب من نسخ «العمدة» في الحديث، وكان يدرسه لطلبته وينسخ منه ثلاث نسخ سنوياً ويبيع كلا منها بدينار ذهبي بعد تسفيرها ، وبذلك تمكن من جمع مال لشراء دار بإزاء باب « معلقة » حيث توافد عليـه المريدون واعتزل الناس بعد ذلك فلا يظهر إلا نادراً .

وكان يطالع كتاب الاحياء للغزالى والنصائح للمحاسبي ويوصي بقرائتهمـا .

---

(1) انظر ترجمته بتطويل في الأعلام 1 ص 57 لعباس بن ابراهيم :
Auguste cour, La Dynastic Marocaine de B. Waattas, p. 61

(2) تحفة الزائر ورقة 2 لابن عاشر الحافي .

(3) الإتحاف الوجيز : ص 41 وتحفه الزائر ورقة 2 .

وكان يهتم إلى ذلك بكتب الفقه التي كثيراً ما يأمر باستنساخها وقراءتها حتى انتشرت بين الطلبة وتعيشت جماعة بنسخها وتصحيحها ، وكان مع ذلك « من أعلم الناس بالحلال والحرام ، وبه نجح الفقه في هذا الباب بالمغرب » [1] .

وكان يلبس اللباس الخشن الا في صلاة الجمعة حيث يلبس جبة صوف خضراء وحزام صوف ، وكان كثير التواضع لأصحابه إذ كان يخاطبهم : إنما أنا واحد منكم ، ولست بشيخكم ولا معلمكم ، فعليكم بكتب العلماء ، ولا يقتدين أحد بي فيما لا يجد له أصلاً في كتب العلماء ، ولست بقدوة ولا إمام متبع » .

ولقد لخص العلامة أحمد بابا طريقة ابن عاشر في عبارة موجزة إذ قال : « .. جعل إحياء علوم الدين بين عينيه واتبع مافيه بجد واجتهاد وصدق وانقياد ، وكان الحجة في ذلك الطريق » [2] .

وقد أتيح لابن الخطيب أن يلتقي بابن عاشر فوجده كما قال ، قاعداً بين القبور في الخلاء رث الهيئة مطرق اللحظ كثير الصمت ، مفرط الانقباض والعزلة ، قد ضرسه أهل الدنيا وتطارحهم ، فهو شديد الاشمئزاز من قاصده [3] .

ومن كراماته ما حدث به بعض أصحابه حيث قال : لما كان الشيخ برباط الفتح في زاوية الشيخ اليبوري رحمه الله ، كنا نتردد لزيارته والتبرك به ، فكلفني يوماً أن أسوق له « رعاية المحاسبي ... فلما كان بعد ذلك جئته فطلبته في خلوته فلم أجده ، وطلبته في سائر الزاوية فلم أجده . وكان وقت الصلاة وأردت الوضوء فتحيرت أن أباشر الوضوء والكتاب عندي أو أتركه وأنصرف لشأني فأخاف عليه الضياع ، ولا في الزاوية إذ ذاك أحد غيري ، فإذا بي أسمع حساً من خلفي ، فالتفت فإذا أنا بالشيخ رضي الله عنه مبادراً يقول : هات ، هات ! فتعجبت من أين أقبل بسرعة ولم أره ، ومن أين عرف ما عندي ، فلما

(1) تحفة الزائر ، ورقة 3 .
(2) نيل الابتهاج ص 43 ونفح الطيب 9 ص 197 ـ والعبارة في الأصل لابن قنفذ .
(3) نفح الطيب 9 ص 196 .

رأى تعجبي وما أصابني من أمره ، أشار لي بيده إلى ناحية الساحل مـن وراء الزاوية [1].

وسأله بعض أصحابه عن الفرق بين مكاشفة المسلم ومكاشفـة النصراني ، لوجود ذلك من بعضهم ، فقال : المسلم الذي له هذه الدرجة ، يبرىء من العاهة ، والنصراني لا يبرىء . ثم سأله نصراني في زي مسلم عن نفس المسألة فقال له : الفرق بينهما سقوط الزنار من وسطك . قال : فسقط ، وأسلم بسبب ذلك[2] .

وفي سنة 757 حاول أبو عنان أن يتصل بابن عاشر فوقف ببابـــه مراراً فلم يسمح بمقابلته ثم وجه إليه أحد أولاده مصحوباً بكتاب يطلب فيه زيارتـه فلم يقبل ، فأجابه برسالة تتضمن حوالي أربع صفحات منها قوله :

« الحمد لله ، من العبد الفقير إلى الله تعالى أحمد بن عمرو بن محمد بن عاشر وفقه الله تعالى بمنه وكرمه ، إلى أمير المؤمنين أبي عنان أيده الله تعالى بتقواه ..

أما بعد فقد ورد علي كتابكم المشرف بذكر الله تعالى ، وولدكم المكرم جعله الله تعالى من المتقين وأنبته نباتاً حسناً ، وعلمه علماً نافعاً ، ولا يجعله من المبعدين من رحمة رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الكريم ، ولتعلم أني ما شككت فيكم ، وقد أيقنت أنكم ما أرسلتموه إلا من أجل عز وجل وطلـــب مرضاتـه ...

وبعد ، فإني لم أكن للزيارة أهلاً ولا للغربة محلاً ، وإنما سترني الكريم بفضله ولطف بي بحلمه ، ولله الحمد على نعمته الظاهرة والباطنة » .

ثم يورد بعد هذا نصائح لأبي عنان ويمثل بآيات وأحاديث ، ومن نصائحه :

وليعلم أمير المؤمنين أنه لا يخلصه أحد من خدامه ولا من حشمه ، بل يفرون منه يوم القيامة ويفر منهم ، ولا عليك في هذا الأمر إلا أن تراقـــب الله تعالى وأنت مقبل على الله عز وجل » .

---

(1) تحفة الزائر ورقة 6 لابن عاشر الحافي .

(2) نفح الطيب 9 ص 197 ونيل الابتهاج ص 43 لأحمد بابا .

وقد عبر أبو عنان عن أسفه لعدم قبول ابن عاشر لزيارته حيث قال : هذا وليّ من أولياء الله تعالى حجبه الله عنا .

وقد رد عليه أبو عنان بخطاب ثان كان مما جاء فيه قوله :

« .. وصلني كتابكم الذي ذكرتني بموعظته، وعرفتني مصالح نفسي بنصيحته. أعرب بلسان الصدق ودعا إلى سبيل الحق وأيقظ من النوم ، ونبه من الغفلة ، فجزاء الله خيراً يا أيها القاصد وجه الله العظيم في سره وجهره ، الواقف عند حدود الله عز وجل حق نهيه وأمره . لقد نصحتني وما غششتني ، وندبتني لسعادتي وما كذبتني . فالله أسأل أنه ينوّر بصيرتي ويأخذ للخير بناصيتي ، ويسلك بي فيما قلدني سبيل أوليائه المتقين ، ويعينني على القيام بأمور عباده المسلمين الخ ... »

ويقول أبو عنان بعد كلام طويل :

« ... وأنا قد انتفعت بكتابك ، وانتفع انشاء الله بنصيحتك ، وأجد بركة موعظتك التي أردت بها وجه الله العظيم علام الغيب ، فلا تخلني بعد من اشارتك ، ولا من صالح دعواتك ولا توحشنا من أنس جوارك ولا تفقدنا من صالح إيثارك ، وإن كنت قد استغنيت عنا فإني لا أستغني عن مشاورتك الصالحة ، ومكاتبتك الراجحة إن شاء الله تعالى[1] ... »

وقد توفي ابن عاشر سنة 765 هـ ودفن بسلا قرب شاطئها وقد بنى السلطان عبد الرحمن العلوي قبة على ضريحه وتوالى الاعتناء به بعده .

4) **أبو عبد الله محمد بن عباد**[2] :

أبو عبد الله محمد بن عباد ولد ونشأ برندة حيث درس القرآن عن والده والعربية عن خاله عبد الله الفريسي ، وقراءة نافع عن أبي الحسن الرندي ، كما تابع دراسته بكل من فاس وتلمسان على عدة علماء كالفشتالي قاضي الجماعة .

---

(1) تحفة الزائر ابتداء من ورقة 10 لابن عاشر الحافي .

(2) إفادة المرتاد بالتعريف بابن عباد من ورقة 1 الى 5 ونفح الطيب 9 ص 196 .

وكان ابن عباد حسن السمت شديد الحياء والوقار ملازماً للصمت . حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ثم تشاغل بالنحو والأدب والأصول حتى برز فيها . ولقي بسلا أحمد بن عاشر وأقام معه سنين عديدة . وكان ممن يحضر السماع عند السلطان ليلة عيد المولد ، وكان يكره ذلك . ويحكي ابن عباد في بعض رسائله أنه خرج في يوم ذكرى الرسول (ص) صائماً الى ساحل البحر فوجد هناك الحاج أحمد بن عاشر وجماعة من أصحابه معهم طعام يأكلونه . قال ابن عباد: فأرادوا مني الأكل ، فقلت : إني صائم ، فنظر إليّ سيدي الحاج نظرة منكرة ، وقال لي : هذا يوم فرح وسرور يستقبح فيه الصوم كالعيد،فتأملت قوله فوجدته حقاً، وكأنه أيقظني من النوم. وقد اشتغل ابن عباد مدة بتدريس عدة كتب كمختصر ابن الحاجب ، وتسهيل ابن مالك ومقامات الحريري وفصيح ثعلب ، كما أقام خطيباً بالقرويين مدة 15 سنة ، وله شرح على حكم بن عطاء الله . وقال عنه الشيخ القسنطيني: هو عند أهل فاس بمثابة الشافعي عند أهل مصر. ومن مخطوطات الأوقاف بالمغرب ، الشرح الذي وضعه ابن قاسم القباب الجزامي الفاسي 778 / 1376 لبيوع الفقيه أبي يحيى التونسي 712 / 1312م ، وهو من نسخ ابن عباد في مجلد صغير[1].

وكان ابن عباد يلبس الثياب الرفيعة ويستعمل الطيب ، ووصفه صاحب إفادة المرتاد ، بأنه كان آية في التحقق بالعبودية والبراءة من الحول والقوة ، وقد شهد له بالولاية والتقدم عدد من الصوفية كسليمان اليازغي ومحمد المصمودي .

وقد دفن ابن عباد بفاس سنة 792 هـ ، وبها قبره .

اليهود والنصارى :

هاجرت عناصر كثيرة من يهود الأندلس إلى المغرب في عهد المرينيين ، فقدروا فيهم نشاطهم ومقدرتهم في شؤون التجارة والاقتصاد ، وخولوهم من الامتيازات ما لم يسبق لليهود أن نالوا مثله بالمغرب من قبل . وبرهن المرينيون عن تسامح ديني عظيم نحوهم ، فسمحوا لهم بفتح المتاجر والمصانع ومعايشة

---

(1) دعوة الحق رمضان 1385 ، يناير 1966 تحت عنوان : نوادر المخطوطات الجمسية .

المسلمين ، كما سمحوا لهم بمباشرة طقوسهم الدينية ، وأظلوهم بحمايتهم ، وكان لكبار موظفيهم مقام سام لدى ملوك الدولة ، حتى قيل إن أبا خزر بن إبراهيم ابن وقاصة « بلغ في الحضرة عند أبي الربيع المنزلة التي لم يبلغها عنده أحد »[1].

أما النصارى الذين استفاد المرينيون من خبرتهم الحربية رغم تدخلهم المتوالي في شؤون الدولة ، فقد سمح لهم الموحدون من قبل ببناء كنيسة بمراكش تحت إسم نوتردام (Notre-Dame) ولما كان عهد البابا انوصان الرابع (Innocent) أرسل إلى ملك المغرب سنتي 1246 و 1251 م رسالتين يطلب منه فيهما أن يمنح المسيحيين أماكن يجتمعون بها عند الخطر الذي يتهددهم من الأهالي (إذا أساؤوا استعمال الحقوق المخولة لهم) . ومن الملاحظ أن الملوك الموحدين بعد المأمون قد تركوا المسيحيين في خدمتهم حتى أن البابا جرجير التاسع شكر الرشيد سنة 1233 م على العناية التي يبديها نحو النصارى .

وفي مطلع سنة 1308 م علم أبو ثابت المريني أن قائد حامية مراكش يوسف ابن محمد بن أبي عياد قد أتى قتلاً على نصارى مراكش واستولى على أموالهم ففروا إلى أغمات ، وقد تمكن أبو ثابت من قتله ، كما قتل مئات من أتباعه الذين علقت رؤوسهم على أبواب مراكش انتقاماً من قتلهم للنصارى[2] .

وكلما تفاقم خطر النصارى على المسلمين بسبب تدخلهم السافر في الشؤون السياسية ، عمد هؤلاء إلى الانتقام منهم ، فيضطر القادة أو الملوك المرينيون إلى حماية الرعايا المسيحيين .

وإذا كان المرينيون قد صحبوا معهم معظم القوة النصرانية من مراكش الموحدية إلى فاس ، فقد تركوا عدداً منها بمراكش ،حتى إذا كانت سنة 1390 م طلبت الحامية النصرانية المؤلفة من خمسين فارساً الدخول إلى اسبانيا .

وكانت الكنيسة المسيحية بمراكش توجد جنوب مسجد المنصور بالقصبة التي كان بها أيضاً السجن المخصص للمسيحيين .

---

(1) مشاهير أعيان فاس قديماً ورقه 30 لمؤلف مجهول.

(2) Pierre de Cenival في هسبريس 1 - 1927 ص 81 .

وكان عددهم في عهد المنصور المريني يبلغ بمراكش حوالي خمسمائة ، وقد ظلوا يؤدّون طقوسهم إلى جانب أولادهم ونسائهم حتى استقدمهم جان الأول ملك قشتالة .

وقد أسس في فاس البالي أول ملاح لليهود وخصص لهم المنصور المريني حامية لرد كل اعتداء محتمل عليهم[1] .

وفي سنة 794 (1391 م) هاجر عدد كبير من اليهود الأندلسيين إلى المغرب وكان فيهم كثير من الأحبار . وقد كان لهذا الفوج من المهاجرين تأثير على الحياة الاجتماعية في المراكز التي حلوا بها [2]. بيد أنهم في أواخر عهد هذه الدولة لاقوا إضطهاداً شديداً حتى قتل عدد منهم وأرغم آخرون على الإسلام . وكان ذلك من المجتمع الإسلامي كرد فعل ضد الاستبداد الذي سلكه كبار موظفي الدولة من اليهود .

وقد كان للنصارى أيضاً منطقة خاصة لسكناهم بفاس الجديدة ، وموضعه يقابل فاس القديمة ، على بعد من ضفة النهر (نهر فاس) . وكانت هذه المنطقة تشكل مدينة حقيقية متميزة .

---

(1) ص 62 Manuel L. Ortega : Los Hebreos en Marruccos.

(2) ص 63 Manuel L. Ortega : Los Hebreos en Marruccos.

(3) القلقشندي : صبح 5 ـ 154 .

« الحضارة في عهد بني مرين »

1) **الدولة ونظامها** : رئيس الدولة – ولي العهد – الحجاب والوزراء – الكتاب – القضاة – العمال – الجيش والأسطول – النظام المالي .

2) **الحياة الاجتماعية** : السكان – اللباس – الإحتفالات والألعاب – الغناء .

3) **الحياة الاقتصادية** :

4) **العمران وهندسة البناء** : نظرة عامة – المدن – المدارس – المساجد – المارستانات – الزوايا – منشآت أخرى .

5) **الحياة الفكرية** : نظرة عامة – الأدب – الفقه – علوم اللغة – التاريخ – الرحلات – الطب – العلوم الرياضية – الموسيقى .

1 - الدولة ونظامهـــا

رئيس الدولة :

اكتفى المرينيون في بداية دولتهم بلقب الأمير ثم استعاضوا عنه بلقب أمير المسلمين الذي اتخذه لأول مرة عثمان[1] بن عبد الحق كما يدل على ذلك قطعة نقد من عهده محفوظة بقسم المسكوكات بباريز وتخطىء رواية الذخيرة[2] اذ تذكر أن أول مَنْ اتخذه يعقوب المنصور منذ أن دخل مراكش سنـة 668 هـ . وكان المرينيون يدعون لبني أبي حفص قبل هذا التاريخ ، إذ لم يكن لهم سند عربي أو قرشي يحتجون به في إدعاء الخلافة ، وكان بنو أبي حفص يومئـذ أقوى الدول الإسلامية، وسلك المرينيون هذه السياسة أيام نشأة دولتهم حتى لا يظهروا أمام الشعب المغربي بمظهر الغاصبين للملك،وكذلك ظلوا يحافظون على علاقات التبعية التي تربطهم بالحفصيين وإلى أن تمكنوا من الإستيلاء على عاصمة الموحدين فقطـع يعقوب بن عبد الحق دعوة الحفصيين بمجرد دخولها تقريباً، وكان كاسلافه يهادي الحفصيين ويستشيرهم[3] ويطلب إذنهم في تنفيذ خططه الحربية ضد الموحدين ، وكان الأمراء المرينيون كلما فتحوا مدينة بعثوا ببيعتها الى الحفصيين حتى أن يعقوب المنصور طلب تأييد المستنصر في فتح مراكش مما بعث السرور في قلب الملك الحفصي الذي بادر لإنجاده بالخيل والسلاح، وما كاد المنصور يفتح مراكش حتى عزم على قطع الدعوة للحفصيين . بيد أن أحد أعضاء وفـد المستنصر الى المنصور ، وهو محمد الكِناني اضطر الى تدخل ديبلوماسي ليحمل هذا الأخير

(1) La voix, catalogue des monnaies musulmanes, p, 440

(2) الذخيرة ص 134 .

(3) الناصري ج 3 ص 29 .

على الدعاء للمستنصر من أعلى منابر مراكش ، وكانت تلك آخر مرة تدين بها الدولة المرينية بالتبعية الحفصيين .

وأطلق على الملوك المرينيين لقب السلطان الذي إشتهروا به منذ عهد يعقوب المنصور ، وكان ذلك أول ما اشتهر هذا اللقب بالمغرب ، حيث كان اللقب الرسمي لدى الموحدين هو لقب بالخلافة ، أما المرابطون فاحتفظوا بلقب أمير المسلمين إلى نهاية دولتهم ، وأما الأدارسة فاتخذوا لقب الإمامة ، وفي أواخر عهد أبي الحسن إتخذ السلطان لقب الخليفة وأصبح يدعى بأمير المؤمنين عوض أمير المسلمين ، كما إتخذه أبو عنان أيام ثورته ضد والده[1] ، واستمر هذا اللقب الخليفي جارياً الى آخر حكم المرينيين .

أما ضباط الجيش فلا يحمل أحدهم لقب الإمارة كما لاحظ ذلك القلقشندي (صبح 5 — 203) ومعظم ملوك بني مرين كانوا يتوفرون على ثقافة تتفاوت عمقاً، ومن أبرزهم في هذا الميدان أبو الحسن وأبو عنان .

وقد اعترفت الأندلس وسائر أقطار الشمال الإفريقي بخلافة بني مرين أيام عظمتهم وبلوغ نفوذهم الى هذه الأقطار ، وعندما استنجد الغني بالله من ملوك بني الأحمر بأبي سالم أنشد وزيره ابن الخطيب في مجلس الملك المغربي قصيدة طويلة ضمنها قوله : —

خلافتك العظمى ومن لم يدن بها فإيمانه لغو وعِرفانُه نكر[2]

وكعادة معظم ملوك الدول ، فقد كان ملوك المرينيين إذا استلموا مهامهم سرحوا السجناء ، وفرقوا الأموال على الضعفاء ، وقد يلتجيء السلطان لانتهاج خطة جديدة لم يتعارفها أسلافه حتى يظهر بذلك ميزاته فإن أبا يعقوب مثلا أول من أباح للمسلمين أن يؤدوا زكاة الفطر للفقراء مباشرة بعد أن كان يجمعها السعاة[3] ، كما أسقط يعقوب المنصور الخطبة للحفصيين ، وأسقط أبو سعيد وظيفة الرباع وهكذا ...

---

(1) طيراس ج 2 ص 68 .

(2) ابن خ. 7 ص 639 .

(3) ابن خ 7 ص 436 .

ولم تكن البيعة تؤخذ دائماً بفاس ، فقـد كانت الظروف تقتضي أحياناً المبادرة ببيعة السلطان في مكان بعيد عن العاصمة ، فبيعة أبي عثمان مثلاً تمت بظاهر تازة ، كما تمت بيعـة أبي الحسن (العامة) بظاهر فاس وبيعـة أبي ثابت بالمنصورة، وقد تتم البيعة للسلطان الجديد محلياً في ظروف الفتنة ، حيث يفرض نفسه على المدن والبوادي التي يحتلها بينما لا يزال يوجد سلطـان شرعي يزاول سلطاته رمزياً على الأقل بالعاصمة .

ويتولى عقد البيعة عادة المزوار الذي كان يتولى في الواقع وظائف الحاجب، وكثيراً ما يحتفظ الملـك بالوزراء الذين كانوا يباشرون السلطـة الوزارية أيام سلفه .

وكانت دور الطراز من الاختصـاصات الملكية إذ تنتج بهـا الثياب الإمبراطورية المخصصة للخلع ، بالإضافة إلى الثياب المخصصـة لقواد الجيش .

وكان الملوك الأولون يحتفظون بالقول الفصل فيما يهمهم من شؤون السياسة ، ثم تضاءل نفوذهم على التوالي ، حيث أصبحت كلّ السلط الحقيقية بيد الوزراء غالباً ، يعاونهم في التنفيذ الحامية المسيحية بالعاصمة ، وكان لليهود مع ذلك وظائف لا يستهان بـه ضمن الوظائف الداخلية بالقصر الملكي ، وأحياناً في الوظائف الكبرى كالحجابة والوزارة، وكان هناك مجلس الخاصة وأهل الشورى بالمشور حيث يعقد الملك اجتماعاته مع كبار رجال الدولة [1] .

وإذا غادر الملك عاصمته للقيام بمهمة مؤقتة ترك نائباً عنه بالعاصمة،وهكذا فقد كان أبو عنان نائباً عن أبي الحسن أيام انتقال هذا الأخير بفتح إفريقية ، وناب أبو مالك عن والده يعقوب المنصور أثنـاء انشغاله بحرب النصارى بالأندلس ، أما نائب السلطان بالأندلس فكان يحمل لقب والي الثغور . وفي أيام ضعف الدولة كانت السياسة الملكية يباشرها أحد الوزراء ، وأما ولاية الثغور الأندلسية فقد كان يتولاها أمير أو قائد عسكري ، وكان للسلاطين البارزين

---

(1) محمد المنوني : بحث علمي 2 ـ ص 204 .

في الدولة مجلس علمي يعقدونه كلما أتيحت لهم الفرصة، ويشترك في هذا المجلس عادة جملة من الشخصيات الفكرية من مختلف أجزاء المغرب العربي والأندلس، ومن بينهم بعض كبار الموظفين في الدولة، وكان الآبلي والسطي[1] من جلساء أبي الحسن كما كان عبد المهيمن الحضرمي الكاتب ممن يشارك في مجلسه، وكان ابن رضوان الأديب الأندلسي والخطيب ابن مرزوق والعلامة المقري من أعضاء مجلس أبي عنان.

وكان السلطان يقتبل زواره وهو جالس على عرش منخفض أو بساط أو حصير، وتكون المقابلات غالباً في الصباح وتنتهي بمأدبة يشارك فيها خواص رئيس الدولة، كما أن العشاء يشترك فيه الوزراء وكبار الموظفين، وأورد القلقشندي نقلاً عن السلا يحي ما يفيد أن النظر في المظالم كان موعده المساء، وكان القصر الملكي يحتفل بكامل الزينة والأبهة أثناء الأعياد الدينية الثلاثة، الأضحى، والفطر، والمولد النبوي، فيقدم السلطان الى قواد الجيش وقضاة الدولة ورجالها الدينيين وسائر أفراد الجند صلات تختلف بحسب المناسبة[2]. وقد شاع في هذا العهد تقبل الملوك المرينيين للهدايا في مناسبات مختلفة.

أما الحرس السلطاني الذي كان يساير الملك في الموكب، فقد كانت قيادته موزعة بحسب العناصر التي يتألف منها، فكان لكل من العرب والأندلسيين والنصارى وبني مرين قائد خاص، وفي أغلب الأحيان كانت القيادة العامة لقائد نصراني، وأحياناً يتولاها عربي أو زناتي[3]، وإذا تم الإستيلاء على بلد دخل اليه الملك دخولاً رسمياً بما يتبع ذلك من إصطفاف الجنود وحمل الرايات وهدير الطبول، وعند الرجوع إلى العاصمة من حملة موفقة يتم استقبال الملك من لدن أفراد الشعب الذين يصطفون حسب قبائلهم إذا كانوا من البادية وحسب المهن التي ينتمون اليها إذا كانوا من المدينة، ومن شعارات السلطان:

---

(1) الأول من تلمسان، والثاني من نواحي فاس.
(2) الترجمان المعرب ص 322 للزياني.
(3) ابن خ 7 ص 652 وطيراس 71.

لمنصور وهو علم الدولة . 2) رماح يحملها خمسون من المشاة كل منهم
ن كبير وصغير . 3) طبول تدق خلف الساقة ويمنع على غــيره
4) طبرزينــات يحملها أكابر القواد من المسيحيــين والأندلسيين
اهـ[1] .

العهــــد :

عمل بولاية العهد في وقت مبكر من تاريخ بني مرين ، فقد تعاقب على ء عبد الحق بن محيو من سنة 614 هـ إلى أن تولى يعقوب ولده سنــــة رشح بدوره أبا مالك لولاية العهد .

كن لولاية العهد نظام قار ينعقد الإجماع عليه ويبقى عرفاً لدى الدولة ، ذلك نشأ النزاع بين أدعياء العرش وأدى غالباً إلى حروب وتدخلات ، بل شاهدنا ظروفاً استبد فيها الولد بالملك دون والده (ثورة أبي علي سعيد ، وثورة أبي عنان ضد أبي الحسن) .

اقع أن أبناء أخوة يعقوب بن عبد الحق لم يكونوا راضين عن ترشيــح ، أكبر أبناء يعقوب رغم أهليته ، وبذلك انفتح باب الثورة في سبيل نذ عهد يعقوب ، ووجد بنو ادريس بن عبد الحق من حماية بني الأحمر هم مراراً على تولي الملك .

كان الشأن في بيعة ملوك بني مرين التي كانت تجري حيثما اتفق فإن ولي ن كثيراً ما يتم تنصيبه بعيــــداً عن عاصمة المملكة ، وكانت تعطى له واسعة وشارات معينة ، وقد يتلقى تهاني الملوك وهداياهم ، ويكون له من وزير أو أكثر ، وقد يبلغ من نفوذه أن يثبت في الديوان ، ويزيد في ينقص[2] ، وكان من حقه أن يضع العلامة (الخاتم الملكي) ويدون ن ويتخذ قوة عسكرية تحت إشرافه .

القلقشندي صبح 5 ـ 206 وقد وصف بتفصيل كيفية خروج السلطان للسفر (ص 208) .
ابن خ 7 ص 506 و 539 .

وكان الوزير الذي يتخذه ولي العهد من كبار الشخصيات أحياناً كإبراهيم ابن عيسى اليرنياني الذي وزر لعمر بن أبي سعيد ، وزيان بن عمر الوطاسي الذي وزر لأبي عبد الرحمن بن أبي الحسن ، وعبد الحق بن يوسف الذي وزر لمحمد المستنصر وهو ولي العهد كما وزر له سعيد بن عبدون .

وكثيراً ما كان يولى ولي العهد قيادة الجيوش ، فقد خاض يوسف معارك طاحنة في عهد والده يعقوب[1] سواء بالمغرب أو الأندلس ، وقاد أبو عنان عدة حملات بالمغرب الأقصى والأوسط بينما كان ولياً لعهد أبي الحسن وهكذا .

الحجاب والوزراء :

لعب الحجاب دوراً بالغ الأهمية في عهد بني مرين وخصوصاً في أيام المتأخرين منهم ، ولم يكن لفظ الحاجب شائعاً بينهم ، بل كانوا يدعونه بالمزوار ، على أن وظيف الحاجب قد اختلفت أهميته حسب الدول والعصور ، فكان وظيفاً خطيراً في عهد أمويي الأندلس مما أدى بالحجاب إلى أن يكونوا دولة في قلب دولة ، وأن يتولوا الحكم بصفة مباشرة. ولم يكن لهذا الوظيف وجود في عهد المرابطين على أن إطلاقه العام يقصد به ما يقوم بـه رئيس التشريفات اليوم لدى رئيس الدولـة من تنظيم مقابلات هـذا الأخير وتنقلاته مـع اختلاف في بعض الاختصاصات ، وهكـذا كان الحـاجب المريني أو المزوار إلى جانب قيامـه بتنظيم الاستقبالات « برأس الجنادرة المتصرفين بباب السلطان ، في تنفيذ أوامره وتصريف عقوباته وانزال سطوته وحفظ المعتقلين في سجونه [2]» .

وقد أطلق صاحب روضة النسرين لقب الحاجب على كل من كان يقوم بهذه المهام في عهد بني مرين كما زودنا بأسماء عـدد ممن تولوا الحجابة إلى عهده كعتيق مولى السلطان يعقوب وعبد الله بن أبي مدين واليهودي خليفة ابن حيون وعنبر الخصي حجاب يوسف بن يعقوب ، ومنديل بن محمـد الكتاني حاجب عثمان ،

(1) الناصري 3 ص 58 و 51 .

(2) مقدمة ابن خلدون ، ص 210

وأحمد القبائلي صاحب أحمد بن أبي سالم وغيرهم . وبين هؤلاء الحجاب من تولى الحجابة مرتين أو أكثر كعبد الله بن أبي مدين الذي تولاها ليوسف بن يعقوب ، وعبد الله بن أبي يعقوب وأبي الربيع ، وأحمد القبائلي الذي تولاها لأحمد بن أبي سالم وأبي عامر المنتصر ، ومن الحجاب من يرتقي إلى رتبة وزير كخليفة بن ابراهيم بن حيون الذي تولى هذا المنصب الخطير بالرغم من يهوديته مما يدل على منتهى التسامح الديني في هذا العهد .

وكان الحاجب مع هذا يقوم أحياناً بمهام استثنائية ، كعامر بن فتح الله السدراتي الذي تولى قيادة حامية سبتة[1] سنة 728 هـ ، ومحمد بن عمرو حاجب أبي عنان الذي افتتح بجاية وكان قد جمع بين عدة اختصاصات كحاجب وسفير وصاحب العلامة ورئيس ديوان الجند[2] .

وفي أغلب أيام بني مرين كان وظيف الوزير أرقى رتبة من الحاجب ، وقد كانت للوزراء اجتماعات تُعْقَدُ بقصر السلطان وتحت إشرافه ، وكانت هذه الاجتماعات سرية أحياناً ، وقد يجتمع الوزير بديوانه أي برؤساء إدارته بقصره الخاص[3] .

وتزودنا المراجع بأسماء كل وزراء الدولة المرينية تقريباً ، ومن بينهم عائلات تولى أفرادها الوزارة على التوالي كعائلة الفودودي التي من بين وزرائها عيسى بن ماسي وزير يعقوب ، وإبراهيم بن عمران وزير يوسف ولده ، والحسن بن عمر وزير أبي عنان وأبي بكر السعيد ، وكعائلة الياباني التي من وزرائها عبد الله بن علي وولده عمر ومحمد بن أبي العباس وغيرهم .

ويمكن القول بأن طريقة الحكم العائلي ضمن الوظيفة المخزنية ، قد بدأت تتمركز في هذا العهد بشكل ظاهر وكان القصد منها في الحقيقة ضمان الاستقرار الإداري لبعض الوظائف الرئيسية ولكنها كانت وبالاً على رؤساء الدولة أنفسهم

---

(1) الناصري 3 ص 115 .
(2) ابن خ جزء 7 ص 606 .
(3) مشاهير أعيان فاس قديماً . ورقة 30 لمؤلف مجهول .

لأن بعض هذه العائلات قد بلغ استبدادها على الملوك منتهاه ، فتلاعبت أسرة الفودودي مثلاً بمصير عدد من الملوك كأبي عنان ، وأبي بكر السعيد وغيرهما من المتقدمين والمتأخرين .

وكان الوزراء متعددين في عهد أغلب ملوك بني مرين، وكان لهم رئيس يحمل نفس اللقب ، ولكن كانت سلطاته واسعة حيث كان يجمع بين الشؤون المدنية والعسكرية في غيبة السلطان خاصة ، ولم تكن لمجالس الوزراء بقصر السلطان أوقات منظمة ، وقد كانت تتم ليلاً على العموم بعد تناول العشاء مع السلطان(1).

وكان لبعض السلاطين ثقة مطلقة في وزرائهم حتى كانوا يدخلون قصورهم ويخالطون حريمهم من غير استئذان (2) .

وكان الوزير يكلف بمهمة حربية إذا اقتضى الحال، فقد تولى يحيى بن حازم وزير أبي يوسف قيادة حملة ضد المصامدة كما تولى عمر بن السعود الحشمي وزير يوسف حملة ضد الوطاسيين عند حصن تاروطا ، وقد يتولى عاملا على منطقة استراتيجية كعبد الله بن علي بن سعيد وزير أبي عنان الذي تولى منطقة بجاية وما وراءها (3) ، وعيسى بن الحسين الذي تولى على جبل طارق أيام هذا السلطان أيضاً .

وكثير من الصقالبة الموالي تمكنوا من بلوغ رتبة الوزارة في عهد هذه الدولة ، فعمر بن السعود الحشمي تولى وزيراً ليعقوب ، وفرج الخصي تولى وزيراً لعبد الله بن يعقوب ، وشعيب بن ميمون استوزره أبو فارس الخ ...

ولا يمكن أن يعزى إلى الوزراء المرينيين اختصاصات ثابتة بناء على المراجع الموجودة ، ولكن هذه الاختصاصات كانت تتغير حسب رغبة السلطان ، أو حسب قوة نفوذ الوزير ، فقد كان هناك وزراء يتكلفون مثلاً بدراسة مختلف الشكايات ، ووزير يشرف على ديوان الجند ، وآخر للشؤون المالية الخ ...

---

(1) طيراس 2 ص 71 .

(2) ابن مرزوق هسبريس 1 ـ 1925 م .

(3) ابن خ جزء 7 ص 615 .

ويساعدهم موظفو مختلف الدواوين أي الإدارات المركزية ، وكـــان مدير الإستعلامات العامة يدعى « ناظر الأخبار » . وهو تحت إشراف الذي يتلقى بواسطته أخبار النواحي والأقطار البعيدة[1] ، فضلا عن هيئـة المفتشين الذين كانوا على الخصوص أيام أبي الحسن يتفقدون أحوال الشعب بصفة دورية .

الكتاب :

لم يزل للكتاب في العهد المريني من المكانة قدر ما كان لهم في عهد الموحدين والمرابطين،على أنهم كثروا في عهد المرينيين تبعاً لاتساع فروع الإدارة وحاجات الدولة ، وكان لهم رئيس يتولى تنظيم شؤون أعمالهم ويوجههم أسلوباً وإدارة[2].

وكانت الدواوين الرئيسية هي : — 1) ديوان الجند والعساكر . 2) ديوان الرسائل . 3) ديوان الخراج. وكان يتولى الدواوين الملكية في الغالب شخصيات أدبية ، كأبي زيد عبد الرحمن الفاسي ، وعبد المهيمن الحضرمي ، وأبي الحسن القبائلي ، وكثيراً ما يجمع الكاتب إلى الأدب صفة المحدث أو الفقيـه كإبراهيم النميري كاتب أبي الحسن .

وقد شذ بعض المرينيين كأبي الحسن عن استكتاب أهل الذمةصوناً لأسرار الدولة[3]. وامتازت الكتابة في هذا العهد بطولها وتهويلها شأن الدول الإسلامية الأخرى التي أخذت بحظ وفير من الحضارة ، ومن الأساليب التي التزمها كتاب هذا العهد أن مخاطبة المكتوب اليه والمكتوب عنه قد تكون بميم الجمع أو نونه وذكر اسم المكتوب إليه في ثنايا الكتاب[4] ويستوي في ذلك أهـل الأندلس وأقطار المغرب .

وكثيراً ما يكون هذا الوظيف سلماً إلى الوزارة كما كان الشأنأيام الموحدين

---

(1) محمد المنوني (البحث العلمي 2 ـ 208) .
(2) ابن خ 7 ص 834 .
(3) المسند لابن مرزوق .
(4) القلقشندي : صبح الأعشي 7 ـ 30 .

بل إن الكتابة كثيراً ما اختصت بها عائلة بن أبي مدين التي تولى منها في هذا الوظيف عبد الله بن أبي مدين ليعقوب المنصور ، وليوسف ، وأبي ثابت ، كما تولاها الحاج محمد بن أبي مدين وأخواه القائم والقصري في عهد أبي سعيد ، ومحمد بن عبد الله ومحمد بن الحاج وابن أبي القاسم في عهد أبي الحسن[1] الخ ...

وأغلبية الكتاب عرب ، وقليل منهم بربر كيحيى التسولي في عهد أحمد بن أبي سالم . وكان فيهم كثير من الأندلسيين كأبي القاسم البرجي (نسبة إلى البرجة قرب المرية) وكان كاتب السر لأبي عنان .

وكانت أرفع رتب الكتابة لدى السلطان هي رتبة كاتب العلامة ، والعلامة كما شرحها ابن خلدون في التعريف[2] « توضع عن السلطان أسفل المراسيم والمخاطبات ، وبعضها يضعه السلطان بخطه » ، وممن تولاها محمد بن أبي عمرو في عهد أبي عنان وأبو الفضل عبد الله بن أبي مدين أيام أبي الحسن ، وعلي بن محمد بن سُعود في عهد أبي سالم . وأبرزهم بدون ريب عبد المهيمن الحضرمي الذي تولى العلامة لأبي الحسن . وقد فصَّلَ ابن خلدون ترجمته في التعريف . وأصله من سبتة وكان والده محمد قاضياً بها ، ثم تابع عبد المهيمن دراسته بغرناطة ، وكتب لعدة شخصيات كالوزير ابن الحكيم بغرناطة والسلطان أبي سعيد ، ومنذ عهده أصبح رئيساً للكتاب وكاتباً للعلامة ، ووصفه ابن خلدون بقوله « إمام المحدثين النحاة[3] بالمغرب » . وهو من أساتذته ، وكانت العلامة توضع بخط غليظ ، ومنذ أيام يوسف بن يعقوب اختص بها كاتب واحد بعد أن كانت توكل إلى عدة كتاب. ومن الوظائف المشابهة لكتابة العلامة كما يذكر ذلك الباحث محمد المنوني (البحث العلمي ع 2) ، وظيفة كاتب الإنشاء والصكوك وكاتب التوقيع على الرقاع المرفوعة إلى السلطان .

---

(1) روضة النسرين من ص 18 وانظر عن كتاب الدولة : ابن مرزوق : مسند ص 248
(2) التعريف ملحق ج 7 ـ ص 815 ـ لابن خلدون .
(3) التعريف 813 .

القضاة :

أسس أبو الحسن بكل من سبتة وتلمسان مجلساً للمظالم يترأسه بنفسه أو ينيب عنه شخصية يثق بها من الوزراء أو الفقهاء وكانت هذه المؤسسة تدعى بقبة العدل[1] ، ولها نظيرة بفاس وتسمى مجلس الفصل الذي كانت بناية بالقصر الملكي بفاس الجديد .

وكان أكثر القضاة من البربر وخصوصاً من مغيلة وبني يزناسن، ومن الأولين أبو الحسن المغيلي وأبو غالب ومحمد، ومن الآخرين إبراهيم اليزناسي وعبد الرحيم. كما نجد أفراداً كثيرين من عائلة البرجي الأندلسية ومن مليلية .

وكان للقضاة رئيس أكبر يدعى قاضي القضاة[2] . وكان بمثابة الرئيس الأعلى للقضاء اليوم ، يرجع إليه في الأحكام العليا، وقد تمسك الناس في عهد بني مرين بعمل أهل قرطبة ، حتى ثارت حفيظة قاضي القضاة يومئذ وهو أبو يحيى التلمساني المقري ، فحاول أن يدعو الفقهاء إلى الإجتهاد .

ولكن حب التقليد كان قد تمكن منهم بعد قرون في الأخذ بالفروع وترك الأصول « ورأوا أنه لا معدل عما عول عليه زعماء الفقهاء كابن رشد وأصحاب الوثائق كالمتيطي...[3] » .

وكان للجيش قاضي خاص يتنقل بتنقله[4]، وممن تولى هذا المنصب (منصب قاضي العساكر) محمد بن عبد النور في عهد أبي الحسن ، وابراهيم بن أبي يحيى في عهد أبي الحسن أيضاً ، وأبو القاسم البرجي في أيام أبي عنان .

ومن مناصب القضاء منصب قاضي الجماعة [5] ، وهو يكون عادة في العاصمة أو في إحدى المدن الكبرى ، ومنصب نائب القاضي بالمدن الكبرى[6].

---

(1) محمد المنوني بحث علمي 2 ـ ص 204 .

(2) مقري : نفح 2 ـ 93 .

(3) نفح 2 ـ ص 94 المقري .

(4) صلة الصلة 219 لابن الزبير ، والتعريف ، ص 834 و 859 و 1059 لابن خلدون .

(5) ذخيرة 50 والتعريف 1059 .

(6) صلة الصلة ص 222 .

وكانت تجري حركة تنقل في سلك القضاء كلما دعت الضرورة إلى ذلك وخصوصاً بين قضاة الأندلس الذين كثيراً ما كانوا ينتقلون إلى المغرب(1) .

أما العدول فكانوا على ثقافة طيبة ومران واسع في تحبير العقود القانونية(2)، وكان لهم كاليوم ، دكاكين خاصة تدعى سماط العدول . وقد عهد بكثير من مناصب القضاء والحسبة إلى أندلسيين لا لعدم وجود نظرائهم بالمغرب، ولكن لعدم التمييز في المعاملة بين أهل الأندلس والمغرب وقد كان المذهب واحداً وطرائق الحياة لا تكاد تختلف ، وكانت خطة صاحب الصلاة ترجع إلى القاضي ومهمة صاحبها حمل الناس على الصلاة ومعاقبة المتخلفين عنها وقد يستقل صاحبها عن القاضي كما في أيام أبي عنان(3)

وكانت كلمة القضاء محترمة ، ولا يتدخل الحاكم الإداري في شؤون القضاء ، فإن فعل كان ذلك استطالة على سلطة الأول لا يقبلها قاض ، حتى أن يوسف بن حكم قدم استقالته من قضاء فاس بسبب تمدي واليها على اختصاصاته ، بل إن حادثة إهانة أحد القضاة تسببت في انقلاب حقيقي،وتفصيل ذلك أن أبا الحسن الصغير قاضي فاس أيام أبي الربيع كان متشدداً في تغيير المنكر ، واتفق أن وفداً لابن الأحمر إلى سلطان المغرب كان ضمنه رسول ثمل فاعتقله أعوان القاضي المذكور فنفذ فيه حكم الإعدام ، فغضب لذلك الوزير رحو الوطاسي وحاول أن يقبض على القاضي الذي سرعان ما اعتصم بالمسجد وناصره العامة ، بينما أعدم السلطان أعوان الوزير الذين حاولوا اعتقال القاضي ، وثار الوزير بمساعدة عناصر من الجيش وبايع حينه عبد الحق بن عثمان ، غير أن أبا الربيع سرعان ما أعاد الهدوء إلى نصابه بعد أن كاد الوزير يطيح برأسه .

فهذه الحادثة تدل بحق على مكانة القضاة في نفوس سلاطين الدولة . وبالرغم من هذه المكانة ، فلم يَخْلُ سلك القضاة من بعض العناصر التي تشوه سمعته

(1) صلة الصلة 138 وذخيرة 66 .
(2) الإعلام 1 ص 354 و 350 لإبراهيم بن عباس .
(3) محمد المنوني ـ البحث « العلمي » ص 2 ـ 211 .

ولكنها قليلة على كلّ حال . ومن ذلك أن القاضي محمد بن علي بن عبد الرزاق الذي كان في عهد أبي الحسن ، وأبي عنان بفاس اتهم بأخذ الرشوة[1] في أحكام القضـــاء .

وقد أصبح للمحتسب ولرئيس الشرطة في عهد بني مرين نوع من الاستقلال كما أورد ذلك إبن خلدون في مقدمته وأحياناً كان القاضي يبسط عليها سلطته « فلا يقطعان أمراً دونه[2] » . وقد يتولى الإشراف العام على شؤون الحسبة بالمغرب موظف مركزي ، وكان ممن تولى هذه المهمة ، الشاعر أبو فارس عبد العزيز الملزوزي[3] . وكانت خطة الفتيا من أرفع مناصب القضـــاء ، ويزداد صاحبها رقياً إذا جمع بينها ومنصب القضاء[4] .

كما كانت هناك خطة المظالم التي تختلف عن منصب قاضي القضاة من حيث أن الأولى خطة دينية والأخيرة دينية إدارية يُتاح لصاحبها أن يسهم في اقتراح تعيين وعزل بعض القضاة ، وممن تولى خطة المظالم إبن خلدون المؤرخ في عهد أبي سالم[5] .

ومن أبرز قضاة الدولة علي بن عبد الحق الزرويلي المعروف بأبي الحسن الصغير الذي أورد صاحب الجذوة ترجمته ووصفه بالفقيه المالكي الحافظ المحصل . وفي عهد أبي يعقوب تولى قضاء تازة ، ثم ولي بعده قضاء فاس ، وكان مع ذلك يشتغل بالتدريس ، وقد وصفه صاحب الجذوة بأنه أحد الأقطاب الذين تدور عليهم الفتيا بالمغرب : وكان صارماً في أحكامه بدليل الحادثة التي تقدم ذكرها والتي كادت تؤدي إلى قلب عرش مَلِك . وقد ترجم له الزركلي في الأعلام (5 — 165) .
ومن الشخصيات التي تولت القضاء في عهد بني مرين الرحالة المشهور ابن بطوطة

(1) مشاهير أعيان فاس 1394 ص ورقة 28 لمؤلف مجهول .
(2) جذوة الاقتباس - مخطوط ك ، ص 589 لابن القاضي .
(3) محمد المنوني : البحث العلمي 2 ص 207 .
(4) جذوة 692 .
(5) التعريف 874 لإبن خلدون .

الذي ولي قضاء تامسنا بعد الرجوع نهائياً من رحلاته ، ولكننا نجهل كل شيء تقريباً عن هذه الفترة من حياته .

وكثيراً ما كان يتولى قضاء المالكية بالمشرق قضاة مغاربة أو من أصل مغربي كإبراهيم بن محمد التادلي 803 هـ بدمشق ، وقد وصفه السخاوي بالجرأة والمهابة ، وعيسى بن مخلوف المغيلي 746 هـ بمصر[1] ، وذلك مما يدل على حسن سمعة القضاة والفقهاء المغاربة في هذا العهد ، كما أن المعلومات الواردة في المراجع عن نظام الشرطة قليلة جداً ، وقد أفادنا بعض المؤرخين بوجود شرطة خاصة بالضواحي يستقر صاحبها بالمدينة [2]،وكان المزوار بمثابة مدير الأمن العام اليوم.

العمال :

بدأت لامركزية الحكم تتجلى بشكل واضح في بعض المناطق خصوصاً في الجنوب حيث ظلت إمارة هنتاته تتمتع باستقلال ذاتي على حساب الإدارة المركزية ، كما كان أثر العمال سيئاً في نهاية الدولة حيث كان من عوامل خرابها كما حصل بالنسبة للموحدين ، وكانت العمالات الكبرى يباشر إدارتها أمراء مرينيون أو عرب وأحياناً عناصر أخرى مساعدة على التوازن العنصري وضماناً للاستقرار ، بيد أن الاستقلال الذي تمتعت به الإمارات كهنتاته كان من شأنه إضعاف الدولة إلى حدٍّ خطير .

وفي الغالب كان نفوذ العامل يشمل مناطق واسعة مما لم يكن يساعده على تدبيرها مباشرة ، وعلى تنفيذ التعليمات بسرعة ودقة سيما وقد كانت وسائل المواصلات بدائية. وقد ترك لنا صاحب الذخيرة تقسيماً مفصلاً لعمالات المغرب في عهد يعقوب المنصور،يمكن أن يعطي نظرة مبدئية عن باقي التقسيمات بعده[3]. وكانت الأندلس كلها تعتبر في عهده عماله بالإضافة إلى عمالات : — 1) مراكش التي كانت تشمل كذلك منطقة السوس. 2) عمالة سلا وأحوازها . 3) مكناس

(1) السخاوي : الضوء اللامع 1 ـ 155 و 262 .
(2) استقصا 3 / 164 الناصري .
(3) ذخيرة 95 .

وأحوازهـا . 4) فاس . 5) تازة وأحوازها . 6) سجلماسة . 7) درعـة وفي الغالب كانت دكالة تشكل بدورها عمالة خاصة .

وكان العامل يطوق بأعمال إدارية محضة ، وطوراً يضاف إليه الإشراف العسكري[1] إذا كان مؤهلا لذلك عن طريق خؤُولة أو ولاء أو اقتدار[2] .

ومن المؤكد أنه لم يكـن هناك تحديد لمدلول لفظ « عامل » فإن السلطان يعقوب عين على الجزيرة الخضراء عاملاً هو ولده أبو زيان سنة 676 هـ كما كان هناك عامل خاص بجبل طارق، وأحياناً تصير الأندلس أو ما تبقى منها يشكل بمجموعه عمالة. وكثيراً ما تولى أبناء الملوك عمالات مهمة ، وذلك إما تدريباً لهم على شؤون الإدارة أو دفعاً لشر محتمل منهم .

والشيء الذي لا يمكن أن يتهم بـه المرينيون هو التعصب العنصري فقد كانوا أبعد ما يكونون عنه ، فقد اشترك في شؤون الحكم والإدارة عناصر من أوربة[3] وزناته وبني وطاس الذين يُظن أنهـم صنهاجيون ، وغير هؤلاء من العناصر .

وكان السلطان يلتجـىء إلى تعيين أحد أولاده أو فرد من الأسرة المالكة كلما حدثت ثورة يتعين قمعها بشدة وعلى الفور، وكان هذا يحصل في بداية الدولة على الخصوص[4] وكان تعيين الأمراء على رأس عمالات مهمة ، ولكن كثيراً ما يأتي بعكس النتائج المرجوة:— ومثال ذلك أن الأمير أبا علي ولاه أبوه السلطان أبو سعيد عمالة سجلماسة فاستبد فيها بالأمر واستولى على عمالة السوس التي قتـل عاملها عبد الرحمن بن الحسن بن يَدَّر، ثم استولى على إقليم درعة وبطش بعامل مراكش ، وكادت ثورته تكون وخيمة على الدولة لولا أن بادر والده إلى حربه

(1) ناصري 3 ص 27 .
(2) ابن خ 400 .
(3) ناصري 3 ص 19 و 57 .
(4) ابن خ ص 438 ج 7 وناصري 3 ص 69 و 72 .

حتى تمكن من سحق جيوشه ، ومع ذلك لـم يقتله بل تركه حَيّاً ليثير مصاعب جديدة لخلفه .

ولم يكن الملوك الدهاة ليتخلفوا عن استمالة بعض العناصر التي تنضم إليهـم من خصومهم ، وذلك بواسطة تعينهم في مناصب هامة كمنصب عامـــل مثلاً : فقد عين أبو الحسن على درعـــة عبد الله الزردالي من أحلاف بني عبد الواد ، وأعيد إلى منصبه هذا مرة أخرى في عهد أبي عنان ، وقد كانت ولاية درعة من أخطر الأقاليم شأناً ، إذ كانت معسكراً لمراقبة كلّ من المصامدة وبعض القبائل العربية ، لذلك كثيراً ما كانت الهجمات توجه إليهـا قبل الزحف على مراكش من طرف العناصر الثائرة .

أما المغرب الأوسط فكان يشكل إمارة يتمتع صاحبها بشيء من الاستقلال عن السلطة المركزية ، كما حدث في عهد أبي الحسن الذي عهد بها إلى ابنه أبي عنان ، وكان عمال الإمارة يخضعون مباشرة لسلطة الأمير[1] ، وكانت الأندلس أو الأجزاء التابعة منها للدولة يتولاها عامل عام يستقر في الغالب بجبل طارق أو الجزيرة الخضراء .

وكان إقليم مراكش من أكثر الأقاليم مصاعب ومحناً ، إذ حاول الهنتاتيون المستقلون به عدة سنوات أن يثيروا أمراء الأسرة بعضهم على بعض ، طمعاً في أن يربحوا من وراء ذلك سحق الدولة وإعادة دولة الموحدين من جديد ، ممـــا جعل السلطان عبد العزيز يتدخـل مباشرة لمنازلة جبـل هنتاته والقضاء على أميرهم عامر بن محمد .

وظلت الشؤون البلدية المتعلقة بالأملاك المخزنية والمباني العمومية خاصـة تحت إشراف المشرف ، وخارجـة عن نطاق العامل كما كان الأمر في عهـد الموحدين [2] .

وعلى العموم فقد كان الموظفون الأساسيون في كل عمالة هم : — 1) صاحب

---

1) ناصري ص 184 وابن خ 7 ص 617 .

2) ذخيرة 82 ـ مؤلف مجهول .

القصبة أو المشرف ويجمع بين الإشراف على سلطة الضواحي والشؤون البلدية .
2) العامـل أو الوالي ومهمته عسكرية مالية حيث انــه يجبي الضرائب .
3) القاضي . 4) صاحب الشرطة ويقوم في آن واحد بمهمة المدعي العمومي ومنفذ العقوبات . 5) المحتسب وهو تحت إشراف القاضي . وكان صاحب القصبة هو أداة الاتصال بين الوالي والسلطة المركزية . (محمد المنوني ـ البحث العلمي 2 - 212) .

الجيش والأسطول :

كان الجيش المريني يشتمل على عناصر مختلفة من زناتة وعرب وأندلسيين وصقالبة وغز وعبيد[1] وكان الزناتيون يتوفرون على أجود الفرسان، كما كانوا يتشكلون من مختلف الفروع كبني مرين ومغراوة ويفرن ومكناسة ومختلف فروع زناتة في المغرب الأوسط كبني راشد وبني توجين وزواوة . بيد أن هذه الفروع كانت تحارب تحت التأثير القبلي الضيق أكثر مما كانت تحارب بدافع وحـدة الأصل[2] ، وكان لبني مرين ثلاث فئات من الحرس إحداهـا من المسيحيين والثانية من الأكراد (الغز) ، والثالثة تشكل نواة للحرس الأسود . وكانت تلازم العاصمة ولا تخرج إلاّ في رفقة الملك أما العرب فقد اشتركت منهم مختلف عناصر بني هلال القادمة إلى المغرب الأقصى والأوسط ، وهكذا حارب إلى جانب المرينيين كلّ قبائل الخلط وبني جابر وبني زغبة وبني سفيان وسويد وبني سليم وبني عامر وبعض بني رياح ، كما اشترك بعض قبائـل بني معقل في الحروب ضمن الجيوش المرينية .

وكانت العناصر المكونة للفيف الأجنبي تتركب من ُغزٍّ ومسيحيين ، وعدد جنود هذا اللفيف يناهز العشرة آلاف بينهـم حوالي 1500 فارس من الأغزاز (الأكراد) و 500 قواس و 4000 من المسيحيـين ، وإلى جانب هؤلاء نواة للحرس الأسود .

---

1) ذخيرة 97 .

Terrasse : 2p : 72 (2

وكان الجيش إذا خرج للقتال احتفل لذلك بمحضر السلطان احتفالاً ضخماً ، فتصحبه الجمال والمراكب الملبسة بالديباج والقباب المرينة [1] . وكانت العادة تجري بأن تصحب كتائب الجيش مجموعة من الفتيات والنساء يجلسن داخل هوادج حتى يحمسن الرجال ويثرن غيرتهم[2] على الحريم فيضطرون إلى التضحية فداء لهن .

وكان قائد الجيش يأمر جيشه بإظهار الانهزام أمام عدوه حتى يتبعه فيبعده عن الصريخ ، ثم يكر عليه حتى لا يجد مفراً . ولم يشذ المرينيون عن اتباع القاعدة التي سلكها قبلهم المرابطون والموحدون إثر الانتصار في المعركة ، حيث تُجْمَعُ رؤوس الأعداء كتلة واحدة بعضها فوق بعض ثم يُقام عليها الأذان ويصلي المسلمون عن كثب منها ، وتقضي واجبات الجهاد بتخصيص سهم واحد للراجل عند تقسيم الغنائم ، وسهمين للفارس بعد استخراج الخمس لبيت المال . ويحدثنا صاحب الذخيرة أن المعركة التي قُتِلَ فيها ذو نونة ، حصل فيها المسلمون على مائة ألف رأس من البقر وسبعة وعشرين ألفاً « وأما الغنم فلا تُحصى[3] » ، وبالرغم مما يبدو من هذا التعداد من مبالغة ، فإن الجيوش المسيحية كانت تسير إلى القتال محملة بمؤن وافرة .

وتقضي العادة بأن يجمع الملك وزراءه ورؤساء القبائل والشخصيات البارزة في حاشيته ليستشيرهم في تدبير الخطط الحربية قبل الشروع في القتال ، كما يتم تنظيم الجيش وإعداده للقتال لآخر مرة قبل الشروع فيه .

وتقدم بعض العطايا للجيش قبل القتال تشجيعاً له[4] . وكثيراً ما يصحب الملك معه مجموعة من العلماء والأدباء أثناء تنقلاته الحربية كما اشتهر عن أبي الحسن الذي صحب إلى افريقية نحو أربعمائة عالم وأديب غرق أغلبهم .

كما يتم عرض الجنود عند القتال ويتم استعراضهم عند الانتصار والدخول

1) ذخيرة 146 .

2) ذخيرة 131 و 146 .

3) ذخيرة 174 .

4) ابن خلدون 7 ص 543 .

رسمياً إلى بلد تمّ فتحه[1] . وكان هناك مجلس رسمي للعرض يعقد يومي الاثنين والخميس ويخصص كذلك للمظالم ، واستقبال السفراء ، وموقعه ببرج الذهب ، ببستان المسرة خارج فاس الجديدة [2] .

أما فن الحصار فلم يكن يجهله بنو مرين ، حيث كانوا يحشدون له الفنيين والعمال ويضيقون به على خصومهم مدة طويلة حتى يضطروا في الغالب إلى الاستسلام ، فقد حاصر أبو يعقوب تلمسان مدة سبع سنوات حتى اختط بقربها مدينة سماها المنصورة ، وأحاط البلد المحاصر بخندق وسور جديد ونصب المجانيق والآلات واستكثر من الأبراج لعله يتمكن من فتح تلمسان ، كما حاصر أبو يوسف طنجة مدة ثلاثة أشهر حتى فتحها .

وكان الحصار يقتضي قطع الميرة عن الخصوم إضعافاً لهم ، ومتى تمّ دخول البلد عنوة قتل زعماؤه واستبيحت أعراض نسائه ، وهذا ما لم تكن تشذ عنه دولة في الغالب .

ومن أهم المراكز التي إعتنى المرينيون بتحصينها جبل طارق الذي يحكي المقري أن أبا الحسن « أنفق عليه أحمال المال في بنائه وحصنه وسوره » كما تمكن من تحصين سفح الجبل بسور دائر بالرغم من النفقات الباهظة التي تكلفها بناؤه ، ثمّ تابع العناية بهذا المركز الإستراتيجي ولده أبو عنان .

واستعمل المرينيون نفس الأسلحة والآلات الحربية المعروفة قبلهم وهكذا استخدموا المنجنيقات و[illegible] والنبال كما استخدموا الرعادات ، واستخدموا في [illegible] الأبواق والطبول والطنابير ، وكان قتالهم عنيفاً ، ويحكي بعض المؤرخين أن [illegible] في معركة « ريوسالادو » [illegible] القتال ، ويستعملون [illegible] [3] .

1) [illegible]
2) [illegible] ، بحث علمي عدد 6 ، 5 [illegible]
3) [illegible] 1956 - 2 [illegible]

والى هذا العهد يُعْزَى اختراع البارود على يد أحد الأطباء سنة 768 هـ حيث كان يقوم بتجربة كياوية هدته إلى اختراعه كما جاء في نزهة الحادي (ص 163) نقلاً عن أبي زيد عبد الرحمن الفاسي ، على ان استعمال البارود ظهر في بلاد أخرى قبل هذا العهد .

أما في الأندلس فقد لعب بنو عبد الحق بن عثمان كما سبق ذكره في موضوع علاقات المغرب بالأندلس دوراً حربياً جديراً بالتنويه ، حتى غلبت الصبغة الشعبية على المقاومة ضد المسيحيين،وتذكر المصادر أن أحد رجال هذه الأسرة وهو عثمان بن أبي العلاء قاد أو شارك في أكثر من سبعمائة غزوة ، وظل يجاهد حتى مات عن ثمان وثمانين سنة ، وقد عهد برياسة الغزاة إلى أفراد الأسرة المذكورة باتفاق مع ملوك بني مرين منذ عهد يعقوب المنصور واستمرت فيهم إلى عهد أحمد بن أبي سالم حيث ساءت علاقة بني الأحمر مع المغرب بسببهم، واعتقل آخر مشايخهم عبد الرحمن بن أبي يفلوسن بالأندلس ، ثم أطلق سراحه ، ولم يعد بنو الأحمر إلى تكليف أحدهم بالمشيخة منذ 770 هـ بعد أن قضوا فيها أزيد من قرن ، وكانت الرتب العسكرية في هذا الجند البربري تنتهي من أعلى بدرجة شيخ الغزاة الذي لا بد أن يمت إلى ملك المغرب بنسب[1] ، ويتولى بظهير سلطاني[2] من ملك غرناطة .

وكانت قيادة الجيش توكل إلى أفراد من الأسرة المالكة أو من الموالين لها، وكثيراً ما قاد الجيش أحد أنجال السلطان كأبي زيان ولد المنصور الذي شارك في تهدئة السوس وفي حروب الأندلس .

ومن الملاحظ أن اهتمام الدولة بالنواحي الجنوبية من المغرب كان شديداً إذ كان موطناً لدولتين فيما سبق ، وكانت جهات السوس ومراكش ودرعة يرسل إليها كبار القادة ، وهكذا فإن السلطان يعقوب أرسل ولي عهده يوسف لإخضاع عرب السوس حتى ألجأهم إلى الساقية الحمراء فماتوا عطشاً وجوعاً .

---

1) إبن الخطيب : اللمحة البدرية ص 28

2) القلقشندي : صبح الأعشى ص 6 ـ 11 .

وكان للفرقة المسيحية في الجيش المريني دور يكاد يكون حاسماً في مصير بعض الملوك ، فقد أعلن القائد غتصالو « Gozalez » خلعَ أبي الربيع ، تحريضاً من الوزير عبد الرحمن الوطاسي بسبب سوء تفاهم بين السلطان وهذا الأخير ، وكادت الفتنة تؤدي إلى مهلك السلطان الشرعي ، لولا مبادرته بإخمادها ، وقد سبق أن ذكر تدخل الجيش النصراني لخلع السعيد بمساعدة عمر الفودودي ، كما عمل القائد غرسية على خلـــع أبي سالم وهم بالبطش بالوزير خليفة لولا أن هذا سبقه وفتك به .

ومن قواد بني مرين المعروفين محمد بن عطو الذي شارك في حروب المغرب والأندلس ، والوزير ابن علال الذي كان من قواد بني مرين البارزين في المغرب الأوسط، وعمر بن السعود بن خرباش الذي شارك في تدبير شؤون الدولة بوصفه وزيراً ليوسف وقائداً في حروب الأندلس والمغرب .

أما الأسطول المريني فكانت مراكزه بسبتة وطنجة وبادس وسلا ووهران وبجاية وقابس ، وكانت الأساطيل المرينية تقوم بمناورات حربية قبل القتال أو بعده ، وقد تحدثت المصادر عن يعقوب المنصور الذي « برزت أساطيل المسلمين أمامه بالمرسى (الجزيرة الخضراء) وهو جالس بمشور قصره ، فلعبوا بمرأى منه في البحر ، وتجاولوا وتناطحوا وتطاردوا كفعلهم ساعة الحرب[1] » .

وكانت أهم ترسانات المغرب توجد في سبتة وسلا حيث أسس يعقوب دار صناعة هامة ، غير أن سبتة كانت تفوقها أهمية حيث كانت مركز تجمــع مختلف القطع .

وبلغ المرينيون أقصى قوتهم البحرية في عهد أبي الحسن، حيث كثرت عدة النصارى وعديدهم ، ثم بدأت عناية الدولة بالأساطيل تضعف شيئاً فشيئاً بسبب الفتن الداخلية وتوقف الدولة عن التدخل في سواحل الأندلس إلى أن صار معظم العناية بالنشاط الحربي مقصوراً على حركة الجهاد البحري الشعبي منــذ القرن الخامس عشر الميلادي ، وكان لمجاهدي أبي رقراق على الخصوص دور

1) الناصري ، استقصا ، 3 ، 62

فعال في صد هجمات المسيحيين ، وكان قائد الأسطول الأعلى تحت إشراف الوزير غالبا (1) .

ومن كبار القادة البحريين سليمان بن داود في عهد أبي عنان، ومحمد بن يوسف من أمراء بني الأحمر في عهد أبي عنان أيضاً ، ويحيى الرنداحي قائد أسطول سبتة ومحمد بن علي بن أبي القاسم العزفي في عهد أبي الحسن، وكان حشد الجيوش برية كانت أو بحرية ، طبق نظام خاص ، فقد كانت الكتائب تتألف من قبائل وطوائف وتشارك في القتال وتنتقل في عرض البحر جماعة جماعة حسب انتمائها (2) . وبالرغم من وجود فرق نظامية ، فقد كان يدعى إلى التجنيد قبائل مختلفة وأفراد من المتطوعين والمرتزقة ، عندما تدعو الضرورة إلى ذلك .

وفي معظم حروب بني مرين نشاهد أثراً ملموساً لكلّ من قبائل زناتة والعرب بالاضافة إلى اللفيف الأجنبي، ولكن عناصر صنهاجة والمصامدة لم يكن لها من أثر بارز في الجيش المريني بالنسبة إلى العناصر السابقة ، خصوصاً وقد كانت تمت محاولات ضعيفة في الواقع لإعادة دولة المصامدة عن طريق هنتاتة ، كما أن الوطاسيين الذين كانوا فيما قيل ينسبون أنفسهم إلى صنهاجة ، يعملون على قلب الدولة منذ وقت مبكر .

والواقع أن عدد جنود الجيش المريني قد تضاءل بالنسبة إلى ما كان عليه في عهد المرابطين والموحدين ، فلم يكن يبلغ في مجموعه 150 ألفاً وهو عدد يصعب معه تثبيت سلطة الدولة في مختلف أقطار الشمال الإفريقي والأندلس كما كان يطمح إلى ذلك بنو مرين ، ولم يكن عدد الفرسان المثبتين في الديوان يتجاوز أربعين ألفاً قبل فتح تلمسان أيام أبي الحسن وذلك غير حاميات المدن والسواحل (3) .

أما عن رايات الجيش ، فقد كان لكل قبيلة راية خاصة تقف تحتها ، ولكن

---

1) محمد المنسوني ، بحث علمي 2 ص 207 .
2) ذخيرة 166 .
3) ذخيرة 148 .

الجميع يلتف حول راية واحدة هي راية الملك[1] . وقد عرفت جيوش القرون الوسطى كجيوش العصور القديمة استعمال الراية البيضاء دليلاً على طلب السلم . وكان الملك بنفسه يعقد الرايات لمختلف الكتائب ، ويسلمها إلى القواد ، ويسمى العلم الرئيسي بالمنصور أو سعد الدولة ، وتحتفظ بعض الكنائس الإسبانية براية يعود تاريخها إلى محرم 712 هـ من أيام أبي سعيد عثمان بن يعقوب[2] .

وكانت راية الملك بيضاء مطرزة بالذهب ومكتوباً عليها آيات من القرآن الكريم ، بينما تحمل الكتائب أو القبائل رايات من مختلف الألوان . وقد سجل ابن خلدون وصفاً حسناً عن رايات بني مرين أيام أبي الحسن حيث قال : « وقد بلغت في أيام السلطان أبي الحسن فيما أدركناه مائة من الطبول ومائة من البنود ملونة بالحرير ومنسوجة بالذهب ما بين كبير وصغير ، ويأذنون للولاة والعمال والقواد في اتخاذ راية واحدة صغيرة من الكتان ، بيضاء، وطبيل صغير أيام الحرب ، لا يتجاوزون ذلك » .

وكانت هناك أعلام ثانوية لفرق الجيش والشرطة والأسطول فضلاً عن الهيئات الشعبية ، وتختلف ألوانها[3] .

ولم يكن الجيش يقطع أرضاً ، ولكنه كان يتوصل براتب شهري يتراوح بين ستة مثاقيل وستين مثقالاً ذهباً تبعاً لمرتبة الشخص . وكانوا يتناولون هذه الأجرة من ديوان الجيش حيث تسجل أسماؤهم[4] ، وقد أنشئت الأبراج والمحارس في عهد عظماء ملوك الدولة خصوصاً أيام أبي الحسن الذي امتدت المحارس والمناظر في عهده من افريقية إلى آسفي ، وكانت الإشارات فيما بينها بواسطة النيران تتم في ليلة واحدة من أقصى محرس إلى أقصاه من الطرف الآخر بينما يتعين قطع هذه المسافة للقوافل في شهرين ، وكان لكل محرس جنود

---

1) ذخيرة 108 .

2) الجراري : الغاية من رفع الراية ص 13 .

3) محمد المنوني : البحث العلمي 4 ـ 5 ص 256 .

4) أورد القلقشندي بتفصيل مخصصات ضباط الجيش (الأشياخ) وقاضي القضاة وكاتب السر من حيث الرواتب والإقطاعيات والإنعامات : صبح 5 ـ 204 .

ونظار يراقبون البحر حتى إذا ظهرت قطعة تبودلت الإشارات النارية على الفور .

النظام المالي :

كانت الجبايات تُدفع نقوداً أو أسلحة وثياباً وغيرها . وكان العمال يضمنون مبالغ الجبايات مقدماً ليستخلصوها لأنفسهم ، وكان هذا النظام الجائر له سوابق كثيرة بالشرق، غير أن أبا الحسن ألغى هذا النظام وعين جباة خاصين كما منع الزام أهل الذمة بأداء غير الجزية والأعشار المشروعة . وكان يُعْفَى أحياناً من الضرائب بعض الأشخاص والهيئات ، وتخصص بعض الموارد لنفقات معينة كالجزية التي كان يَصرف منها في فاس على الطلبة والخطبة بجامع القرويين ، وكان مستفاد دار الدباغة بسلا يخصص للأشراف الدباغين . وكانت أوقاف القرويين وحدها تغل أحياناً عشرة آلاف دينار فضية سنوياً [1] .

وكان للجباية ديوان خاص يطلق عليه ديوان الخراج، يختار له أقدر الكتاب، وأضبطهم لشؤون الحسابات وكان بعض ملوك بني مرين ينحُّون أهل الذمة عن هذا الديوان محافظة على أسرار الدولة المالية وصيانة لمواردها [2] ، وكان رئيس هذا الديوان يجمع اليه اختصاصات ديوان العطاء وله تفويض التوقيع باسم الوزير أو السلطان ، ولكنه يرجع إلى قراراتهما [3] .

وقد وضع في عهد أبي سعيد عثمان نظام يقضي بإحداث ضرائب عامة زيادة على الزكوات والأعشار الدينية بالنسبة للمسلمين، والجزية بالنسبة إلى الذميين[4] .

وكانت الشخصية التي يوكل إليها رئاسة ديوان الخراج تعطى حق مراقبة تصرفات العمال والولاة فيما يخص استخلاص وصرف أموال الجباية ، كما يمكن أن تعطى حق معاقبتهم إذا اقتضى الحال ، وممن استعمل على الجباية عبد الله بن

---

1) محمد المنوني : البحث العلمي 3 ص 251 .
2) إبن مرزوق : هسبريس ع 1 سنة 1925 م .
3) مقدمة 213 .
4) طيراس 75 .

أبي مدين وعبد السلام الأوربي ، وموسى بن علي الهنتاتي ، وكان يجمع أحياناً بين ولاية الجباية والعمالة بالرغم من عدم صلاحية هذا النظام[1] حيث يؤدي إلى استبداد العامل . وكان لجباية المصامدة أهمية كبيرة في موارد الدولة، إذ كانت مناطقهم من أخصب الأراضي كناحية مراكش والسوس ، لذلك كان لها وال خاص يولى في عين المكان[2] .

وقد عهد أبو الحسن إلى أبي عنان بولاية المغرب الأوسط وجبايته في آن واحد ، فكان ذلك مما مكنه من الاستبداد على والده . وفي عهد أبي سعيد تولى أبو القاسم بن أبي مدين العثماني ، مهام المكلف بالجباية والمشرف ، حيث كلف ببناء قرية أفراك بجوار سبتة وتخصيص جرايات لمشايخ وأعيان سبتة ، أي أنه جمع بين استخلاص المال وصرفه ، وتشبه هذه المهمة الاستثنائية اختصاصات « المندوب السامي لإعادة بناء أكادير » بعد زلزال سنة 1960 م مع بعض الفوارق .

وقد ألغى أبو الحسن معظم الضرائب وترك الزكوات والأعشار، ومع ذلك فقد توفرت الدولة في عهده على موارد بفضل المراقبة الصارمة ، وبالرغم من النفقات الضخمة التي تكلفتها بعض المباني العمومية . ويُفهم من كلام ابن الخطيب أن بني نصر كانوا يؤدون لملوك بني مرين ضريبة سنوية [3] .

السكـــة :

كانت مراكز ضرب النقود بكلّ من فاس ومكناس وسبتة ومراكش وسجلماسة وزمور وتلمسان (أحياناً) ، ومن النقود المرينية المحفوظة بباريز قطعة مستديرة (ككلّ نقود الدول تقريباً) ، وبداخلها مربع ، وقد نُقِشَ على أحد الوجهين منها بين المربع ومحيط القطعة :

---

1) ابن خ 7 ص 661 .
2) ابن خ 510 و 661 .
3) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص 196 .

بسم الله الرّحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً

وبداخل المربع :

الحمد لله

والمنة لله

ولا قوة إلاّ بالله

وفي الوجه الثاني نُقش بين المربع والمحيط :

ضرب بمدينة فاس حرسها الله بمنه عن أمر

عبد الله عثمان

أيده اللّه (1)

والسلطان المقصود هنا هو عثمان بن عبد الحق (614 هـ ــ 638 هـ)

– ومن القطع التي تخلفت من مسكوكات سجلماسة أيام عهد أبي سعيد عثمان (710 هـ — 731 هـ) قطعة مستديرة بوسطها مربع ، وقد نُقِشَ بين المربع والمحيط في **الوجه الأول** :

والهكم إله واحد لا اله الاّ هو الرحمن الرحيم

وبداخل المربع :

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على محمد وآله

الحمد لله وحده

لا إله إلاّ الله

محمد رسول الله

(1) Catalogue des Monnaies Musulmanes, p 440 , (Lavoix)

وفي الوجه الثاني نُقِشَ بين المربع والمحيط :

وألهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم

وبداخل المربع :

ضرب بمدينة
سجلماسه عن
أمر عبد الله أبي
سعيد عثمان
أيد الله ونصره (1)

وكان الدينار الذهبي يعادل 56,4 غ وأجزاؤه النصف والربع والثمن كما يساوي 69 درهماً صغيراً ، أما الدينار الفضي فيساوي عشرة دراهم صغيرة. وسك أبو عنان ديناراً ذهبياً يزن مقدار مائة دينار ذهبي عادي . ومعظم النقود المرينية مستديرة وقليل منها مربع أو مستطيل .

وكانت أكبر دور السكة بفاس الجديدة على عهد يعقوب المنصور بن عبد الحق قرب القصر الملكي ، وبها يستقر ناظر الدار والعدول والكتاب ، وبقربها المصاغات وأمينها الذي يختم على المقبول منها .

وكانت تروج بعض النقود الأجنبية كالحفصية والسبتية والمردنيشية والحسونية ، وكان يعقوب المذكور قد منع أن يقبل منها ما لم يكن على قدر السكة المحلية وجودتها (2) .

ومن أهم المراجع عن السكة المرينية كتاب الدوحة المشتبكة الذي وضعه أبو الحسن علي بن يوسف الحكيم المديوني (3) ومنه نسخ بخزائن المغرب الرئيسية. وقد نُشِرَ بتحقيق حسين مؤنس بصحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ع 1 و 2 سنة 1378 هـ .

---

(1) Catalogue des Monnaies Musulmanes ص 443

(2) كل هذه المعلومات الأخيرة مستقاة من البحث القيم في الموضوع للسيد محمد المنوني – البحث العلمي 4 . (3) من هذا المصدر استقى السيد المنوني المعلومات المذكورة غالباً . وقد تعذر رجوعي الى هذا المصدر مباشرة .

2 - الحياة الاجتماعية

السكان :

استقرت عناصر سكان المغرب على ما كانت عليه من الأصول في عهد الموحدين ، وبدأ اثر العنصر العربي يشتد في توجيه الحياة السياسية شيئاً فشيئاً ، ولكنه لم يكن العامل الوحيد ولا الأساسي في ضعف الدولة أو سقوطها كما توهم طيراس ؛ فقد اعتمد بنو مرين على عناصر أجنبية في قيادة الجيش وبعض وحداته، خصوصاً بعد أبي عنان، كما استخدموا عدداً من اليهود غير المخلصين ، وشغلتهم تدخلات بني الأحمر وحروب بني عبد الواد، إلى غير ذلك من العوامل؛ فمن الظلم أن ننسب إلى البدو العرب إسقاط دولة بني مرين والحالة هذه، ولكن لا ريب أن استقرارهم في السهول الأطلسية التي هي من أخصب مناطق المغرب جعل البربر فئتين ، فئة ساكنتهم وانصهرت فيهم ، وفئة انحازت إلى جبال الأطلس حيث يتضاءل النفوذ العربي ، ولكنا لا نعرف مع ذلك حرباً قامت بين العرب والبربر من أجل هذا الاستقرار الذي لم يشجعه ويرحب به مقدماً سوى ملوك البربر أنفسهم وبالرغم من قلة خبرة البدو العرب في الزراعة والفراسة بالنسبة إلى البربر ، فإن ضعف موارد الدولة أيام انحطاطها إنما نشأ عن عجزها عن تنسيق وتدبير ميزانيتها ، وعدم الضرب بشدة على أيدي الثوار من بدو العرب الذين تطاولوا على الدولة بسبب انهيار جهازها ، والناس كما يقال على دين ملوكهم . ولا نجد في تاريخ بني مرين أثراً يستحق الذكر مما يدل على وجود حركة عنصرية عربية ضد العنصر البربري أو بالعكس. وقد تمكن هؤلاء البدو فيما بعد أن يكرسوا أنفسهم للجهاد ضد التدخل المسيحي الأروبي فدافعوا باستماتة عن شواطىء المغرب شأن إخوانهم من البربر ومهاجري

الأندلس ، وان كان هذا لا يمنع من تسجيل أثرهم السيء في الاقتصاد المغربي والحياة الاجتماعية في بعض مظاهرها .

ومما لا يمكن انكاره ، ان البدو قد كونوا مجموعة خاصة بسبب إختلاف اللغة وبعض العادات غير أن هذه المجموعة سرعان ما بدأت تنحل مع الزمن ، وإنما كانت وحدتها إجتماعية ولم تكن قط سياسية .

وفيما يتعلق بحياة المدن ، فقد سجل ابن الخطيب وصفاً دقيقاً لأنماط الحياة بعدد من مدن المغرب المشهورة [1] فوصف أهـل سبتة بالتكلف في الولائم ، وبشدة الاقتصاد حتى أنهم يحملون الخبز في الولائم بعدد الجماجم ، وانهم يفاخرون بمدينتهم غاية المفاخرة .

وقال عن سلا انها جامعة بين البداوة والحضارة ، وأثبت أن أهل ازموز بربريو اللسان (أي في عهده وهو يقصد أزموز الشاطئية) ووصف أهل فاس الجديدة (المدينة البيضاء) بأنهم يرون لأنفسهم مزية الفضل ، يلقى الرجل ابا مثواه فلا يدعوه لبيته ، ولا يسمح له ببقله ولا بزيته ، فلا يطرق الضيف حماهم .

ووصف أهل سجلماسة بعمش العيون ، ومدينتهم بكثرة الحصى والغبار

كما سجل برتغالي بعض مشاهداته عن الحياة الاجتماعية بنواحي القصر بالشمال ، فذكر أن أكثر سكان هذه النواحي فقراء، وأنهم رثوا اللباس، وأغلب ثروتهم من الماشية ، وهم شجعان ذوو حيل ، وليس لديهم عدل ، شديدو الطمع والخداع ، ومساكنهم مبنية بالتبن والقش ، وبقرهم وثيرانهم صغيرة لكنها قوية تدر لبناً غزيراً وتأكل كثيراً ! وهي هادئة ، لأنها تنام عادة في منازل السكان . وهؤلاء يستكثرون من السمن في طعامهم إذ ليس لديهم زيت لشـدة غلائها ، ولأنها تأتي من بعيد ، وسمكهم قليل ولكن فواكههم كثيرة لذيذة . وأكثرهم يشربون الخمر بدون تحفظ (ذكر ذلك ليون الافريقي أيضاً) وهم من أقل الأمم خوفاً من الموت .

(1) معيار الإختيار من ورقة 26 الى 37 - ابن الخطيب .

على أن ما سجله هذا المسافر المدقق ، يمثل بعض مظاهر الحياة في النواحي الشمالية في عصر الانحطاط المريني[1] .

ومما ذكر عن آثار التخريب والنكسة الاجتماعية التي حصلت في بعض مناطق المغرب نتيجة تدخل البدو العرب ، ما جاء على لسان صاحب نفح الطيب[2] إذ يقول :

« دخلت مكناسة هذه مراراً عديدة ، وقد أبلى الدهر محاسنها التي كانت في زمان لسان الدين بن الخطيب جديدة ، واستولى عليها الخراب ، وتكدر منها بالفتن الشراب ، وعاث في ظاهرها الاعراب » .

ومع أن المقري عاصر السعديين ولم يشهد عصر المرينيين ، فإنه يضيف إلى كلامه السابق عن ناحية مكناس قوله :

« ... على أن ضواحيها كانت في زمان لسان الدين مأوى للمحاربين واللصوص ، ومثوى للأعراب الذين أعضل داؤهم بأقطار المغرب » .

وكان الأمن مع هذا سائداً في أغلب نواحي المملكة بفضل التنظيمات التي أحدثها أبو الحسن والتي استمر العمل بها بعده ، فقد أمر بنصب مخيم على رأس كل اثني عشر ميلاً يستقر به بعض السكان المجاورين ، ويتولى أصحابه مهمة حماية المسافرين وتموينهم عند الاقتضاء . وكان هؤلاء الحراس يقطعون في مقابل ذلك أرضاً يستغلونها [3].

ولقد انصهرت عناصر عربية في بوتقة البربرية كما وقع العكس ، حيث نجد ناحية دكالة بل ومختلف نواحي المحيط حتى الصويرة ، قد تعربت كلها كما اكتسبت عناصر عربية بسوس وغيرها تقاليد ولهجة السكان الأصليين ، وحتى أسرة بني مرين التي ارتبطت بالمصاهرة مع قبائل العرب ضماناً لولائها ، تحضرت مع مر

R. Ricard, Hespéris 4 - 1936 (1)

(2) المقري ، نفح 8 ص 318 .

(3) محمد المنوني ، مجلة البحث العلمي ، 2 ، 212 .

الأجيال وأصبحت عربية في كل تقاليدها وفي لهجتها إذ قطنت المدن الرئيسية بالمغرب .

اللبـــــاس :

كان لباس عامة البربر كساء من صوف ومطرفة من أرجوان وجلموساً غليظاً على الرأس ، كما كانوا يتقلدون بسرّافٍ وهو سكين كبيرة [1] .

وكان لباس الفقهاء كسوة تشتمل على برنوس وبرد كلاهما أبيض من صوف ، ثم أحرام للتردية ومنديل يتعمم به ودراعتين ، وقبطية سداسية [2] . أما اتخاذ البياض في اللباس فمقتبس عن أهل الأندلس منذ أن اقترح استعماله زرياب المغني على بني أمية [3] ولو أن الأندلسيين لم يلتزموا به دائماً .

وكان المشايخ وقادة الجيش عرباً أو زناتيين يلبسون زياً متشابهـاً ، وهو عمامة طويلة خفيفة يغطيها لثام ينزل إلى الكتف وكانوا يحملون سيفاً ويتمنطقون بأحزمة للزينة أو أيام الحرب وتسمى مضمات .

وكان القضاة والكتاب يتعممون بعمامة خضراء ولا يحملون سيفاً [4]. وعلى العموم فقد ساد البياض لباس الرسميات والاخبية فضلا عن العلم كما يذكر ذلك المنوني في مجلة البحث العلمي (ع 4 - 5) . وقد تأثر بالزي المغربي لهـذا العهد سكان الصحراء الكبرى وما وراءها (صبح 5 - 299) .

الاحتفالات والألعاب :

كان أبو الحسن المريني يقدم عطايا لقواد العسكر والقضاة والأئمة والخطباء والحاشية في كل من عيد الفطر والأضحى والمولد[5] ، فيعطي هؤلاء في ليلة عيد

---

(1) عبد الحق البادسي ، المقصد الشريف ، ورقة 45 .
(2) ابن القاضي ، جذوة الاقتباس ص 439 .
(3) Pérès, La poesie Andalouse, p. 320
(4) Terrasse 1, 73 ، والقلقشندي : صبح 5 - 204 .
(5) الترجمان المعرب ص 322 للزياني .

الأضحى مائة من الغنم لكل واحد ، ورأساً للنفر من الجند ، وفي ليلة المولد يوزع مائة ألف دينار على الفقهاء والأشراف والطلبة والحفاظ ومن يحضر المولد من العلماء والقضاة وغيرهم ممن يقوم بمهمة في ليلة عيد المولد ، فيأخذ كل منهم من عشرة إلى مائة دينار . وقد صار الاحتفال رسمياً بعيد المولد منذ عهد يوسف ابن يعقوب سنة 691 ، مع العلم بأن بني العزفي سبقوهم إلى ذلك بسبتة .

وكانت هناك ألعاب خاصة تجري بقصر الملك فقد روي أن أبا عنان أشرف ذات يوم من أحد الأبراج على مصارعة بين الثور والأسد ، فوصف ابن جزي ذلك حيث قال[1] :

لله يوم بدار الملك مر به　　من العجائب لم يَجْرِ في خلدي
لاح الخليفة في برج العلا قمرا　　يشاهد الحرب بين الثور والأسد

ولابن الخطيب قصيدة طويلة أنشأها بمناسبة اعذار أبي عنان أحد أنجاله ، وفيها يصف « الطلبة (؟) التي نصبها في الهواء يرسلون العصي اليها ، والثيران التي ارسل عليها الاكلب الرومية تمسكها في صورة القرط من آذانها »[2] .

وكانت توجد بسبتة أماكن للرماية والسباق متعددة، حسبما جاء في اختصار الأخبار ، إذ كانت هناك مرام خاصة بكل مجموعة من السكان تربطهم رابطة معينة ، فكانت هناك مثلاً ، مرام خاصة بالقاضي وكبار الفقهاء وغيرهم « ان الرمي طبع لأهل سبتة طبّعوا عليه ، فلا تلقى شريفاً ولا مشروفاً ولا كبيراً ولا صغيراً إلا وله بصر بالرمي » .

الغنـــاء :

انتشرت الموشحات الأندلسية بالمغرب في عهد بني مرين ، كما انتشر الزجل كغناء شعبي وبما أن الموشحات لها وضع موسيقي خاص مع سمو لغتها بالنسبة إلى الزجل ، فالأحسن ترك الكلام عنها إلى موضوع الحركة الفكرية .

---

(1) نفح 8 ص 46 .

(2) المقرى : نفح 9 ـ 165 .

والأزجال من وضع أندلسي هو أبو بكر بن قزمان الذي عاصر المرابطين، ولو أن المحاولات بدأت قبله ولكنها اتخذت طابعها المتميز في عهـــده . وفي عصر بني مرين اشتهـر فيهـا كثيرون بينهـم كبـار الكتاب . ومن المجيدين لسان الدين بن الخطيب وأبو عبد الله الالوسي وعلي بن المؤذن وابن شجاع وهو من تازا والكفيف من أهل زرهون .

ومن الطبيعي أن تنتقل الأزجال الأندلسية إلى المغرب ما دام الاتصال بين العدوتين مستمراً . ولم تكن لغة الأزجال نفسها بعيدة من الفصحى كما يدل على ذلك قول ابن شجاع :

تعب من تبع قلبو ملاح ذا لزمَان	أهمل يا فلان لا يلعب الحسن فيك
ما منهم مليح عاهد إلاّ وْخَان	قليل من عليه تحبس ويحبس عليك

ومن أجود ما قيــل في الأزجال قصيدة الكفيف في تعزية بني مرين عن انهزامهم في افريقية أيام أبي الحسن . ومن أبياتها :

لو كان ما بــين تونس الغربا	وبلاد الغرب ســد السكندر
مبني من شرقها إلى غربهـا	طبقا بحديدا وثانيا بصفر
لا بد الطــيران تجيب نبا	أو يأتي الريح عنهم بفرد خبر

وقد أحدث العباسيون كما يذكره ابن خلدون (في نهاية المقدمة) عـدة أنواع من الزجل كالمزدوج والكاري والملعبه، والزجـل ضمنه نظامه ومغنوه مختلف المعاني والأبواب كما حدث في الموشحات، فجاء بذلك تعبيراً حقيقياً عن ميول طبقات الشعب وتفكيرها وانماط حياتها .

3 - الحياة الاقتصادية

نظراً لطول ملك الدولة ، فقد اختلفت الأوضاع الاقتصادية باختلاف عهد الملوك الذين تعاقبوا عليها ، غير أن فترة التقدم السياسي صاحبها ازدهار ملموس في الحياة الاقتصادية ، فقد قيل ان السنة التي بويع فيها يعقوب المنصور ، بيع فيها القمح بستة دراهم للصفحة والكبش بخمسة دراهم ،والشابل وحْدَة بقيراط. ولا شك أن أسعار المواد الغذائية الأساسية ، تشكل المقياس الحقيقي لأثمان المعيشة ، وعلى الأقل فالرخاء يومئذ كان معناه كثرة العرض بسبب وفرة الانتاج ، ولكن في عهد السلطان يوسف انخفضت قيمة العملة بالنسبة للماضي حيث بيعت صفحة القمح بعشرين درهماً ولكن الرخاء كان شاملا ، لأن دخل الفرد لا شك قد ارتفع كما ارتفع معه انتاج المواد الأساسية .

ومن أهم المراكز الاقتصادية بالمغرب في العهد المريني : أصيلا التي كانت مركزاً للتجار الأجانب وكان يباع بها الملف والتوابل ، فضلا عن مصيدها الغزير السمك[1]. وفي نواحي سلا كان يزرع القطن والكتان[2] ، أما آنفا فكانت تتوفر على الفواكه الطيبة والحبوب الوافرة ، وامتازت مراكش بغزارة زيوتها المستخرجة من المعاصر[3] ، أما سجلماسة فقد كانت متجراً عظيما للذهب المستورد من السودان .

وقد أصبحت ناحية مكناس منذ العهد المريني كلها جنات مغروسة [4]

---

(1) ابن الخطيب : معيار الاختيار 28

(2) معيار 28 .

(3) معيار 31 .

(4) روض هتون 14 - لابن غازي .

وكانت المداشر تحيط بها من مختلف الجهات حتى عَدَّ ابن غازي منها اثني عشر ألف مدشر وهو عدد في منتهى المبالغة ولكنه يدل على مدى عمران هذه الناحية يومئذ .

وفي عهد يعقوب استمر الرخاء خمس عشرة سنة متوالية [1] حتى أصبحت القطاني لا يوجد من يشتريها [2] ، ونشطت تجارة المغرب مع الخارج كما سبق في موضوع العلاقات الخارجية ، حيث كان ميناء سبتة يجتذب سفن البندقية ومونتبليون وجنوة ومرسيليا وغيرها فيشحنون إلى المغرب الملف والمنسوجات والسلاح والخمر والخرداوات والثوب والكتان ؛ ويصدرون الصوف والقطن والزرابي والخيل والجلود والغنم والشمع .

وقد اهتم المرينيون بتنظيم الري بالنواعير التي كثرت أيام أبي عنان . وكان يزرع قصب السكر بسوس ووادي نفيس وناحية سبتة . وفي مراكش وحدها كانت توجد أربعون معملا لتصفية السكر[3] . وكان بفاس وحدها نحو ستمائة رحى تدور بالماء[4]. وكان مصيد سبتة يتوفر على نحو مائة نوع من السمك فضلا عن المرجان الغزير بها،وكانت ميناء دوليا حقيقيا من حيث نشاطها التجاري[5] وكانت سجلماسة تتوفر على بساتين عديدة تحيط بها وبالمدينة سور يبلغ أربعين ميلا . وقد ظلت باديس والمزَمّة من الموانىء الشمالية المشهورة ، واحتفظت باديس بأهميتها إلى ما بعد المرينيين بزمن طويل . وكانت أودغشت من مدن السودان المغربي التي تنتج التمر والقطاني بوفرة . ومن المنتجات القليلة الأرز والموز وغالب الفواكه والخضر على أنواع . وقد كان لأقطار المغرب العربي في هذا العهد نشاط تجاري عظيم مع أقطار السودان المجاورة [6] .

---

(1) ذخيرة : 97 .
(2) ذخيرة : 104 .
(3) محمد المنوني : البحث العلمي 564 ص 251 والقلقشندي 5 ـ 176 .
(4) القلقشندي صبح 5 ـ 155 .
(5) صبح 5 ـ 158 .
(6) بازل دافيد : افريقيا ... ص 154 .

4 - العمران وفن البناء

نظرة عامة :

شارك المرينيون بنصيب في العمران ، فبنوا بعض المدن والقرى والقلاع ، كما شادوا مدارس كثيرة ومارستانات هامة . وكانوا في فن البناء أحسن مثال للنقل عن الفن الأندلسي الأصيل بعد أن بلغ ذروته في عصر بني الأحمر .

وقد شاد المرينيون مباني كثيرة ، وكان من أهم بناة الدولة يعقوب المنصور الذي بنى فاس الجديد والمنصورة حول تلمسان وأصلح ووسع مسجد تازا كما بنى سوراً وحصن عدة مدن وبدأ بإنشاء المدارس الأولى في عهد هذه الدولة ، بينما بدأت تتكاثر في عهد أبي سعيد الذي تم على يده وكذا أيام أبي الحسن انطباع الفن المريني بطابع الدقة والروعة ، فانتهى الفن المذكور إلى أصالته .

وقد امتاز الفن المريني كما جاء في مظاهر الحضارة المغربية[1] باستعمال الطابية والآجر والحجر غير المنحوت والنقش على الخشب والجبس والأدهان البديعة والشماسيات الملونة والنحاس المموه وترصيع المنارات بالزليج ، كما شمل الزخرف الثريات والمصنوعات الجلدية والخزفية وغيرها . وقد انتشر نظام الري بالنواعير التي من ضمنها الناعورة الكبرى بوادي فاس المصنوعة سنة 685 هـ كما شاد المرينيون عدة قناطر وأبراجاً ومحارس ومراسي وكانوا مع ذلك يبنون بواسطة تصميم يضعه المهندسون مقدماً .

والحق أن العمل المريني في ميدان الفن ، لم يكن مستمداً من ابتكار هندسي تقني ، بقدر ما كان يرجع إلى جودة الذوق والتنويع والدقة . ولا يزال أثر هذا

---

(1) جزء 2 ص 58 ـ لعبد العزيز بنعبد الله .

الفن عظيماً في عدد من مباني المغرب بـل امتد إلى البلاد الشرقية التي تستدعي رجال هذا الفن لتشييد بعض مساجدها. وإذا كان هذا الفن قد استنفذ قواه كما يقول جوليان منذ القرن XV م فإنـه لم يمت على الاطلاق في عهد السعديين ولا العلويين ، بـل انبعث في بعض الأحيان متمثلاً في عدد من منشآت الدولتين ، ليستأنف انتشاره منـذ مطلع القرن العشرين ، على نطاق واسع . وقد جاء في بعض الأخبار أن الولايات المتحدة الامريكية قد بدأت تقتبس عـن الفن المغربي متمثلاً في عدد من منازلها الفخمة(1) .

المدن :

هناك مدن بناها المرينيون قصبات أو قرى صغيرة تطورت فيما بعد إلى مدن بكامل مرافقها، كما توجد قرى أو مدن شادوها لم يتم لها النمو لأسباب سياسية أو اقتصادية . ومن المدن والقرى المرينية قصبة تطوان التي بناها يوسف سنة 685 هـ وقلعة دبدو وشالة الحديثة التي تم بناء أسوارها وبابها الأكبر في عهـد أبي سعيد سنة 739 ؛ وقلعه كرسيف ، وقصبة العرائش التي تم بناؤها سنة 657 هـ على يـد يوسف بن علي ، وقصبة مكناس التي بناها أبو يوسف سنة 674 هـ وهو أيضاً باني المدينة البيضاء في نهاية السنة نفسها ، ثـم المنصورة التي بناها يوسف بن يعقوب حول تلمسان سنة 698 هـ .

1) قصبة مكناسة :

بناها أبو يوسف المريني كما تقدم وأنشأ بهـا مدرسة الشهود وكانت تدعى مدرسة القاضي حيث كان يعطي بها بعض الدروس القاضي أبو علي الونشريسي. كما بنى بهـا أبو الحسن زاوية المشاوريين وزاوية القورجـة وعدداً من القناطر والمرافق . وتدعى المدرسة المذكورة اليوم بالفيلالية . أمـا زاوية المشاوريين فقد صارت فيما بعد اصطبلاً ، كما صار مكان زاوية القورجة في أوائل عهـد الحماية الفرنسية مبنى للبلدية وعدد آخر من البنايات العمومية .

(1) La Nation Africaine - Rabat - 3 octobre 1963

2) المدينة البيضاء :

بنيت في آخر شهر من سنة 674 هـ 1276 م على يد أبي يوسف أو على الأصح بدأ بناؤها منذ ذلك الوقت واتخذها المرينيون عندئذ ، عاصمة لهم ، وسورها أبو يوسف كما بنى جامعها بواسطة أسرى الاسبان وأشرف على البناء أبو عبد الله الجدودي وابن الأزرق والي مكناس ، وتم اجراء الماء إلى الدور والقصور كما بنى بها رجال الحاشية الملكية عدداً من المنازل إلى أن توسعت بسرعة عند تكاثر السكان ، وضمنهم اليهود الذين كانوا يقطنون فيما قبل بحـي القرويين ، واستخدموا في مبانيهــم بالملاح الذي بنـي لعهد أبي يوسف ، نفس الأسلوب الأندلسي الذي عرفه المسلمون في عهد بني مرين . والظاهر أن الذي أكمـل معظم مباني الملاح هو عثمان بن أبي يوسف.وأطلق على المكان اسم مدينة «حمص» قبل أن يعرف بالملاح (قلقشندي 5 - 154) .

3) قصبة تطوان .

بنيت في عهد يوسف بن يعقوب سنة 685 هـ وكان بناء القصبة يهدف إلىحصار سبتة والاستيلاء عليها شأن طريقة بني مرين في حصار المدن الأخرى كالجزيرة الخضراء ، وتلمسان التي بنوا حولها المنصورة وقد ظلت المدينة عامرة نحو قرن حتى أصبحت من المراكز الأولى لحركة الجهاد البحري بالمغرب . وحوالي سنـة 803 هـ (1400 م) استولى عليها الاسبان فهجرها سكانها وخربهـا الغزاة ثم جدد بناؤها على يد أبي الحسن المنظري بعد نحو تسعين سنة[1] ويعود تاريخ تطوان وقصبتها الأولى إلى ما قبل هذا التاريخ بزمن طويل فقد ذكرها البكري مراراً في الجزء الخاص بالشمال الافريقي[2] .

4) المنصورة :

مدينة مستطيلة تبلغ 1300 م طولاً و 750 م عرضاً . وبأركانها أبراج لا منفذ

---

(1) تاريخ تطوان 1 ص 83 لمحمد داود .

(2) البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص 101 ، 107106 الخ ...

لها . وتبعد عن تلمسان بكيلومترين وعرض جدارها أكثر من متر ، وفي شماليها ستـــة أبواب ، ويستنتج أن عدد أبوابها كان كذلك في الجانب المقابل . وإلى أواخر القرن التاسع عشر كان لا يزال معظمها قائماً وخاصة المسجد . وتعـــد صومعتها من مظاهر الفن الجميل[1] . أسسها يوسف بن يعقوب قرب تلمسان سنة 698 هـ ليضرب منها الحصار على هذه المدينة التي كانت عاصمة لبني عبد الواد ، وبينما كان مستقراً بالمنصورة كانت جيوشه تنتقل بين واجهات المغرب الأوسط الأخرى لافتتاحها . وقبل أن يدير يوسف السور على المنصورة ، بنـــى قصراً لسكناه ومسجداً كما بنى مارستاناً وحماماً وخانات حتى صارت مدينة كاملة المرافق « واستبحرت عمارتها وهالت أسواقها ورحل إليها التجار بالبضائع من الآفاق ، فكانت احدى مدائن المغرب[2] » ولكن بنـي عبد الواد سرعان ما خربوها بعد انسحاب بني مرين .

المدارس :

اهتم المرينيون ببناء المدارس التي سبقهم إليها الموحدون ، ولكن على نطاق واسع . على أن بعض هذه المدارس التي لا تزال قائمة كآثار فنية أصيلة ، تشهـد أكثر من أي شيء آخر ، بروعة الفن المريني .

وكان القصد من بناء هذه المدارس إيواء الطلبة ، ولكن بعضها كان يستعمل للتدريس أيضاً إلى جانب المساجد الكبرى كالقرويين مثلاً . ويتولى الاشراف على المدرسة مقدم يخضع لمراقبة القاضي بعد أن يختاره الطلبة وكان على المقدم أن يجمـــع بين مهام المقتصد والمؤذن والبواب والخادم[3] . وكثير من البيوت يتوارثها الطلبة من نفس العائلة عن طريق العدول . وقـد يبيع الطالب مفتاح البيت إلى زميله . وللطلبة مؤونة يومية ظلت تتناقص مع الأيام حتى انحصرت في خبزة ، بالرغم من كثرة الأوقاف المخصصة لهذه المدارس .

---

(1) L'Abbè Bargès : Tlemcen p 250

(2) ابن خلدون 7 ص 459 .

(3) Archives marocaines, vol. 18

وللمدرسة مسجد داخلها وله إمام راتب من الطلبة أو غيرهم . وكانت المدارس تصلها هدايا وتبرعات كثيرة من المحسنين ، كما تقام على شرف الطلبة مآدب داخل المدرسة بمناسبة احتفال عائلي أو عيد . فكان الطلبة والحالة هذه، يحظون بعطف سكان الحي .

وكثير من مشاهير العلماء قاموا بالتدريس في بعض هذه المدارس كأحمد بن سعيد القيجميسي خطيب القرويين وكان يدرس بالعنانية[1] والمفتي محمد المقري التلمساني قاضي القضاة الذي قام بتدريس صحيح مسلم في المدرسة المذكورة[2]، وكان أبو عنان يحضر مجلسه ، فجرى يوماً بالمجلس الحديث النبوي عن الخلافة في قريش فقال المقري : ان هذا الحديث مظنون به غير مقطوع به وكان يرمي من وراء ذلك إلى مساندة شرعية الخلافة المرينية . فلما ذهب أبو عنان إلى قصره بعث إليه بألف دينار جزاء له على ذلك ، ولكن العالم أثار استيـاء الشعب ا . وقد كان لكل هذه المدارس خزانة علمية ضاع جلها مع مر الأيام .

ومن أهم مدارس بني مرين :

1) مدرسة الحلفائيين بفاس وهي أول ما بني من مدارس بني مرين[3] ، وكان مؤسسها هو يعقوب سنة 679 هـ وقيل كان اسمها في أول الأمر المدرسة ، ثم دعيت بالصفارين إذ تقع في حومتهم ، وقد جهزها المنصور بخزانة كبيرة كان ضمنها عدد من الكتب التي كانت لدى اليهود والمسيحيين في مملكة قشتالة ، والتي كان تسليمها من الشروط المتفق عليها بين الطرفين سنة 1284 م . وللمدرسة منار يتجه بدقة إلى القبلة ، وكانت تؤدى فيها الصلوات الخمس ولكن لم تكن تعطى فيها دروس[4] .

2) مدرسة البيضاء أو فاس الجديد بناها أبو سعيد سنة 720 ، وكان لهـا

---

(1) نيل الابتهاج ص 21 لأحمد بابا .

(2) مشاهير أعيان فاس قديماً ورقة 32 (لمؤلف مجهول) .

(3) م . مجهول ، الذخيرة السنية، ص 188 .

(4) مجلد 18 ص 263 Archives Maroc

طلبة يرتلون القرآن وأحباس كثيرة وفي عهد العلويين حولت إلى معهد للتخصص العلمي على يد السلطان محمد بن عبد الرحمن وكان خليفة إذ ذاك . وكان يتخرج منها الموظفون الاداريون ، ثم ادخلت في المشور بعد ذلك . ومن خريجيها محمد الجباس ممثل السلطان بطنجة .

3) مدسة الصهريج بناها أبو الحسن سنة 721 قرب مسجد الأندلس بفاس، وكان يومئذ خليفة لوالده ، وليس لها منار ، وقد أخذت اسمها من الصهريج المستطيل الموجودة بفنائها ، وقد كلف بناؤها أكثر من مائة ألف دينار (100 ألف) وكان بها أساتذة نظاميون . وجددت لأول مرة على يد عبد الله الغالب السعدي سنة 1562 م . ويمتاز بناؤها بالانسجام والبساطة .

4) مدرسة العطارين بنيت سنة 723 في عهد أبي سعيد عثمان على يد الشيخ عبد الله بن القاسم المزوار بفاس. وحضر أبو سعيد وضع الحجر الأساسي لبنائها، واشترى لها السلطان عدداً من العمارات وكان بها ما بين 30 وخمسين بيتاً ، وهي من أجمل مدارس بني مرين ، إذ تمتاز بتنسيق زخارفها خصوصاً في الصحن وبيت الصلاة وكان بها أساتذة نظاميون وقومة كثيرون .

5) مدرسة الطالعة بسلا . بناها أبو الحسن سنة 733 هـ (1333 م) وهي غير بعيدة من المسجد الأعظم وكان بظاهرها سقاية ماء اوقف جريانه منذ عهد قريب ، ويتوسطها صحن مفرش بالفسيفساء وفي وسطه صهريج صغير من الرخام ، كما يوجد بيت الصلاة داخل الفناء ، وأربعة وعشرون بيتاً للطلبة موزعة بين طابقين . ومن المعلوم أن المسجد الأعظم بسلا ومدرسته الجوفية ، من بناء المنصور الموحدي . وقيل ان الفراغ من بناء المدرسة المرينية كان سنة 742 (1) ، وقد نقش على جدرانها قصيدة في مدح أبي الحسن .

6) المدرسة المصباحية بفاس ، من بناء أبي الحسن أيضاً ، وتحمل اسم أول أساتذتها وهو أبو الضياء مصباح بن عبد الله اليلصوتي ، وكانت تحتوي على

(1) الاتحاف الوجيز ورقة 23 + 24 لابن علي الدكالي .

117 حجرة ، وتشتمل على ثلاث طبقات زيادة على السفلى ولهـا بابان الرئيسي منهما يواجه باب سانية العين من جامع القرويين . وتبلغ بيلتها الرخامية نحو متر ونصف عرضاً ومترين طولاً وقد جلبها أبو الحسن من المدية ، وكان لهـا باب ثالث ينفذ إلى زقاق الحجامة .

7) المدرسة البوعنانية : بدأ بناءها وتم في عهد أبي عنان بفاس من سنة 751 — 757 هـ (1350 — 1357 م) وهي آخر وأجمل مدارس بني مرين ؛ وصفها ابن خلدون بأنه لم ير لها نظيراً بالمشرق . وقد بدأ بناؤها على يد الناظر أبي الحسن بن أحمد بن الأشقر . وخصص لها أبو عنان أحباساً عديدة منها حمام ومنزل مجاور له بمقابلة المدرسة ورحى بجوارها وفرن واصطبلات ودكاكين بزنقة غابـة القصر وحوالي أربعة وسبعين دكاناً[1] ، وذلك للإنفاق على طلبتها وقومتها وأساتذتها ، ولهـا منارة في غاية الروعة ، ومسجدها ينفصل عنها بوادي اللمطيين القادم من باب أبي الجنود . ولكن توجد قنطرتان توصلان المدرسة ببيت الصلاة . وصنعت لها منجانة ذات ثلاثة عشر طاساً ومقياسها حوالي أحد عشر متراً طولاً . وقد صنعت الساعة المائية الأولى على يـــد أبي عبـد الله محمد بن الحباك التلمساني 685 / 1287 وصنعت الثانية على يـد عبد الرحمن اللجائي تلميذ ابن البناء واستاذ ابن قنفد ، أيام أبي سالم بن أبي الحسن[2] 763 / 1362 .

وقد كانت تقام صلاة الجمعة في هذه المدرسة التي فقدت أهميتها منـــذ عهد الوطاسيين ، حيث حول ريـع أوقافها لصالح الجهاد واحتفظ الطلبة بحـــق السكنى ، وكانوا من قبـل مكفولين طعامـاً وملبساً . وقد ذكر القلقشندي (صبح 5 - 162) انه كان يوجد بباب جامع الكتبيين منجانة على ارتفاع خمسين ذراعاً ، وكانت أجراسها تسمع على بعد .

ولبني مرين مدارس أخرى كثيرة منها مدرسة السبعيين بفاس ودعيـــت

---

(1) مجلد 18 ص 278 Archives Marocaines

(2) انظر حول السـاعتين تفاصيل في منتهى الأهمية في بحـــث لدى صولا برايس الأمريكي عربه الأستاذ عبد الهادي التازي عن مجلة فرنسية في مجلة المغرب ـ الرباط ابريل 1966 م .

كذلك لأنها كانت تدرس فيها القراءات السبع ، ومدرسة العباد قرب تلمسان من بناء أبي الحسن ، والمدرسة البوعنانية بمكناس وهي في الحقيقة من بناء أبي الحسن[1]، ومدرسة القاضي بمكناس من بناء أبي يوسف والمدرسة العجيبة بباب احساين بسلا من بناء أبي عنان . وأكثر الملوك بناء للمدارس أبو الحسن الذي شادها بتازا ومكناس وسلا وطنجة وسبتة وآسفي وآزموز وآنفا وأغمات والقصر الكبير والعباد[2] .

المساجد :

شاد المرينيون عدة مساجد في مختلف أنحاء المغربين الأقصى والأوسط ، وامتاز فنهم في هذه المساجد بالدقة وكثرة التوريقات والمقرنصات خصوصاً حول المحراب . ومن أشهر مساجدهم :

1) جامع فاس الجديد الذي تم سنة 677 هـ أيام أبي يوسف الذي صنع له منبراً رائعاً وثريا تزن سبعة قناطير وخمسة عشر رطلاً وعدد كؤوسها 187 وبنيت المقصورة[3] سنة 779 هـ ويتصل الجامع بالقصر الملكي بواسطة باب يؤدي إلى بيت الصلاة . وقيل أن أبا يوسف أنفق في بناء الجامع وصنع الثريا ثمانية آلاف دينار ذهباً .

2) جامع العباد قرب تلمسان والذي يزدان بمدخل قد غطي بالفسيفساء . ويتوفر المسجد على خمس بلاطات وثلاثة أساكيب ومحراب ذي زخارف من الآجر والطين ، وهو من بناء أبي الحسن سنة 740 / 1339 ؛ كما بنى هذا السلطان بعد ثماني سنوات المدرسة الملحقة به . وبها زاول التدريس ابن مرزوق وربما ابن خلدون أيضاً . وللمسجد مبرتان من الأوقاف احداهما لتعليم الأميين والأخرى لارواء الظامئين وقد استوفى الكلام على هذا المسجد جورج مارسي في كتابه (تلمسان ص 73) .

---

(1) عبد الرحمن بن زيدان : اتحاف اعلام الناس 1 ص 122 .
(2) نخب من مسند ابن مرزوق بهسبريس .
(3) ذخيرة ، ص 188 لمؤلف مجهول .

3) جامع القصبة بتلمسان من بناء أبي الحسن .

4) الجامع الكبير بتلمسان من بناء أبي الحسن أيضاً . وقد وصف ابن مرزوق منبره بأنه لم يعمل مثله في المعمور . والبناء الأصلي يعود إلى عهد ابن يوسف سنة 530 / 1136 ثم رمم في عهد عبد المومن الذي حاول أن ينسبه إلى نفسه [1] .

5) جامع وجدة من بناء أبي يعقوب .

على أنه إذا لم يتبق من مساجد بني مرين الكبرى إلا عدد قليل جداً فإن في المساجد الملحقة بمدارسهم بفاس ما يعطي نظرة كافية عن فن بناء المساجد في عهدهم .

وفي هذا العهد بدأ تخصيص أوقاف لكراسي معينة للتدريس ، ومنها :

1) كرسي سليمان الونشريسي 705 / 1306 للتفريع والمدونة بجامع الأندلس.

2) كرسي أبي الحسن الصغير الزويلي علي بن محمد 719 / 1319 لتدريس « تهذيب البراذعي » بجامع الازرع بحومة فندق اليهودي .

3) كرسي أبي الحسن علي الصرصري للتهذيب أيضاً ، أنشأه أبو عنان .
وكل الجوامع المذكورة بفاس : وقد أثبت ذلك الباحث محمد المنوني في بحثه عن كراسي الأساتذة بالقرويين (دعوة الحق 4 ــ 1385 / 1966)[2].

المارستانات :

سبق إلى بناء المارستانات كل من يعقوب ويوسف الذي بنى مارستان المنصورة حول تلمسان [3] ، كما عني أبو الحسن بتجهيز وتسيير هذه المنشآت العمومية . ومن أشهر مارستانات بني مرين ذلك الذي بناه أبو عنان بسلا وسط حارة اليهود من حومة باب احساين وهو كما يذكره المؤرخ ابن علي الدكالي ،

---

(1) L'abbé Bargès : Tlemcen, pp 435 - 437 ، وانظر أيضاً ؛ G. Maçrais Tlemcen p 23.

(2) راجع أيضاً : جامع القرويين للدكتور عبد الهادي التازي ، ويتضمن معلومات غزيرة عن النشاط الفكري بالقرويين .

(3) ابن خلدون ، 7 ، 458

بناء حفيل[1] مشتمـل على بيوت كثيرة لاستقرار المرضى والمجانين والحمقى ، وأجرى له الماء من الداخل على السور الذي بناه أبو الحسن ، ورتب له أبو عنان قومة وأطباء ، وكان في القديم فندقا للزيت ، ثم هجر المارستان بعــد ضعف الدولة وعاد فندقا كما كان من قبل ، وبقي اسم بانيه إلى أن امّحَى في بدء عهد الحماية الفرنسية [2]، وهو يحمل اسم فندق أسكور ولكنه خرب الآن وكان في فاس عدد كبير من المارستانات المجهزة أحسن تجهيز .

الزوايا :

بنى ملوك بني مرين عــدداً من الزوايا في مختلف أرجاء مملكتهم لاستقبال الغرباء والمسافرين والموظفين المتنقلين ، ومن أهمهـا زاوية النساك بسلا من بناء أبي عنان سنة 1356 م وكان لها بابان وساحة مغطاة بالفسيفساء وصهريج تغذيه « مطفية » ولم يبق منها إلا باب مزخرف قريب من ساحة باب الخميس .

منشآت أخرى :

أما ما يدخل في نطاق ما نسميه اليوم بالاشغال العمومية ،فقد مهر بنو مرين في هندسة الأسوار ونظام الري والقناطر والموانىء والقنوات . وهم بانُوا سور فاس في عهد أبي يوسف سنة 673 هـ على يد عامل الرباط أبي سالم إبراهيم ، كما بنو سور الأقواس بسلا ، وهو الذي وصفه الناصري بما يلي[3] :

« اعلم ان هذا السور من المباني العادية والهياكل العظيمة التي تدل على فخامة الدولة وكمال قوتها مثل مـا يقال عن حنايا قرطاجنة ونحوها . وهذا السور مسوق من عيون البركة خارج مدينة سلا على أميال كثيرة ، ممتداً من القبلة إلى الجوف ، على أضخم بناء وأحكمه ، موزون سطحه بالميزان الهندسي ليأتي جريان الماء فوقـه على استواء . ولذلك ينخفض إلى الأرض متى ارتفعت ، ويعلو عليها اذا انخفضت

(1) الاتحاف الوجيز ورقة 24 لمحمد بن علي الدكالي .
(2) Champion : Le Maroc et ses villes d'Art 1, 26.
(3) الاستقصاء 3 ص 176 الناصري .

ويجري على متنه من الماء ، مقدار النهر الصغير ، في ساقية قد اتخذت له . ولما شارف البلد عَظُم ارتفاعه جداً ، لأجل انخفاض الأرض عنه . وكلما مر في سيره بطريق مسلوك فتحت له فيه أقواس،فسمي لذلك سور الأقواس. وبالجملة، فهو شاهد لبانيه بضخامة الدولة وعظم الهمة » .

أما القناطر فقد بنيت عشرات منها كقنطرة وادي النجاة وقنطرة ماريج في عهد يوسف سنة 680 هـ وهو الذي ركب الناعورة الكبرى على وادي فاس سنة 685 هـ . وأنشأ أبو الحسن قناطر وادي ردات وقنطرة بني بسيل ، وقنطرة الوادي داخل فاس وباب الجياد والرصيف بفاس وغيرها .

وبنى المرينيون دار الصناعة بسلا في عهد يعقوب بن عبد الحق.وكان لواديها منفذان حيث جلب الماء من نهر أبي رقراق إلى الباب المسامت لجامع حسان من عدوة الرباط في ترعة عميقة ، فإذا صنعت سفينة في الترسانة المذكورة وأريد ارسالها في الوادي فتحت الترعة فيدخل الماء وتقوم فيه السفينة فتخرج من الباب القبلي طافية فوق الماء إلى أن تدخل الوادي ، وبنيت الترسانة على يد أبي عبد الله الأشبيلي الميكانيكي الذي توفي بفاس سنة 714 هـ وكان خشب السفن يجلب من المعمورة لصناعة السفن الحربية والمدنية وكان السلطان محمد بن عبد الله العلوي قد عرض على الأتراك تجديد هذه الترسانة فطلبوا منه مدة عشرين سنة لإنجازها مما دفع به إلى بناء مرسى الصويرة[1]،والانصراف عن تجديد هذه الترسانة. وأهم أثر لبني مرين بقي حتى الآن غير المدارس والمساجد المذكورة ، هو قرية شالة الحديثة وهي في الأصل من منشآت الفنيقيين ، ثم جددها القرطاجنيون ثم الرومان بعدهم . وكانت سفن الفنيقيين والقرطاجيين تأتي إليها بالبضائع من عاج وصمغ وجلد وريش نعام ، وحتى الفيلة التي كانوا يستعملونها في حروبهم[2] وكانت تمد روما بالمنتجات الفلاحية . وهي من أوائل المدن التي دخلت في الإسلام أيام ادريس الأول، وعند ظهور المرابطين كانت مقراً للبرغواطيين الذين

---

(1) كل المعلومات عن هذه الترسانة من الاتحاف الوجيز ورقة 29 - 30 لابن علي الدكالي .
(2) بوجندار ، مقدمة الفتح من رباط الفتح ، ص 14 .

خربوها ثم أعادوا بناءها [1] ، ولكن الادريسي وصف خرابها من جديد ، حتى إذا أسس الموحدون الرباط انتقل اليها أهل شالة بتجارتهم وصناعاتهم . على أن عبد المومن الموحدي جلب اليها الماء من عين غبولة، كا بنى بها المنصور الموحدي مسجداً وحصناً عظيماً ومارستاناً لذوي العاهات والأمراض .

وفي عهد بني مرين تم تسويرها واتخذت مدفناً لعظماء وملوك الدولة ، وكان أول من دفن بها المنصور المريني الذي نقل رفاته من الجزيرة ودفن بجامعها [2] . وقد بنى بها المرينيون قباباً رائعة . وممن دفن بها يوسف الأول وأبو سعيد وأبو الحسن وزوجته الحرة أم أبي عنان . وكان أبو الحسن قد دفن بمراكش ثم نقلت رفاته إلى شالة،وهو الذي كان قد سور هذه المدينة وشاد بها قبة كبيرة زخرفها بنقوش ذهبية وألصق أحجارها بالرصاص. وقد زخرفت مختلف القباب والقبور بالآيات الكريمة والأمداح والمراثي كما وُقِف على المقبرة عدد من الأوقاف الحبسية لصيانتها وإطعام من يفد عليها من أبناء السبيل . وكان يرتل بها القرآن الكريم يومياً .

وحدثت ثورة ضد آخر ملوك بني مرين ، وهو عبد الحق بن أبي سعيد ، من طرف أحمد اللحياني الورتاجني الذي استولى على مكناسة وشالة والرباط وسلا ، فخرب شالة واستولى على ذخائرها وأموالها وشرد طلبة القرآن بها واستولى على مصاحفها وتحفها وقد بقي من شالة مع هذا،القصبة المرينية نفسها وبابها الرئيسي الذي مـــا يزال على حالته الأصلية ، وزاويتها الموجودة عن يسار هذا الباب ومسجدان لكل منهما ميضأة ومنارة، وقد دفن بأحدهما يعقوب المنصور وكان بها خزانة كتب طافحة ، كما بقيت آثار بيوت يظن أنهـا كانت مأوى للحفاظ وسدنة الاضرحة[3] وقد خصص هنري باسي بالاشتراك مـــع ليفي بروفنصال دراسة جيدة عن شالة المرينية تتحدث عن آثارها وما فيها بتفصيل .

---

(1) بوجندار ، مقدمة الفتح من رباط الفتح ص 20 .

(2) الإتحاف الوجيز ورقة 33 لابن علي الدكالي .

(3) الإتحاف الوجيز ورقة 33 .

(4) هناك أيضا دراسة حديثة للدكتور عصمان عصمان عن شالة .

5 - الحيـــاة الفكـرية

نظرة عامـــة :

كان بين ملوك الدولة عدد كبير ممن نالوا نصيباً وافراً من الثقافة كأبي الحسن وأبي سعيد وأبي عنان . وناهيك بالمجالس العلمية والأدبيـة التي عقدها كل من أبي الحسن وولده وأبي عنان ، كما أن الهيئة العلمية العظيمة التي رافقت أبا الحسن إلى افريقية وغرق معظمها وكانوا نحو أربعمائة كما أثبته ابن خلدون ، تدل وفرتها على مدى انتشار الثقافة بالمغرب في هذا العهد الذي كثر فيـه الفقهاء والأدباء واشتدت العناية بعلوم اللغة العربية مما جعل بعض مؤرخي الأدب يستنتجون من ذلك عروبة أصل بني مرين[1] .

والواقع أن بني مرين يعود إليهم الفضل مرة أخرى في بقـاء مذهب مالك وانتشـاره العلمـي بالمغرب . وذلـك بعـد المجهود الذي بذله أسلافهم المرابطون . وقد نشطت حركة التأليف نشاطاً عظيماً في ميدان الفروع ، كمـا أن كتب النحو الأساسية التي ألفت في عهدهم ظلت تدرس بعـدهم حتى القرن العشرين م . والحضارة العمرانية والفنية يصاحبها عادة ، نشـاط فكري ينمو على قدر تشجيع العلماء والأدباء ، فإن الثقافة في عصر بني مرين قـد ازدادت انتشاراً يفوق بكثير ما كان عليه الأمر في عهـد الموحدين ، حتى إن الأزجال الشعبية التي أثرت عن هذا العصر لا يكاد ينقص من فصاحتها شيء ، ولمـا كان بنو مرين قـد أكثروا من المارستانات ، فقـد احتاجوا إلى أطباء كثيرين تبعاً لذلك ؛ غير أنهم لم يجـدوا صعوبة في توظيف عدد وافر منهم مما يدل على أن الناحية العلمية قد أخذت باهتمامهم البالغ .

---

(1) النبوغ المغربي ص 183 وما بعدها (عبد الله كنون) .

ولا ننس مع هذا أن عصر بني مرين عصر كبار الرحالة كابن بطوطة وابن رشيد والعبدري، وقد أفادت رحلات هؤلاء العلماء الطلاب ورجال الفكر أيما افادة ، فوسعت أفقهم الفكري ، وظلت مدة مثار تعليقات النقاد في المجالس كما ألمح إلى ذلك ابن خلدون في تاريخه .

وان انتشار المدارس وكثرة الخزائن العلمية الموقوفة على الجوامع والمدارس، وتبني الدولة للتعليم عن طريق إيجاد الكتب والمعاهد وضمان معاش الأساتذة وإيواء الطلاب ، كل ذلك مما يؤكد أن تقدم الحركة الفكرية قد فاق عصر الموحدين رقياً وتوسعاً .

أما النهضة الموسيقية فقد ظلت أروع ما سجله هذا العصر ، لأن إشعاعها ما يزال يتوقد يوماً عن يوم في عصرنا هذا الذي اتجه فيه المفكرون وعشاق الموسيقى إلى سبر أغوار هذا الفن الموروث عن الأندلس والذي نما ونشط على يد المرينيين[1] .

الأدب :

امتاز هذا العصر بالإطناب في الرسائل والنثر الأدبي عامة ، كما شاع السجع إلى حد المبالغة في بعض المراسلات وتُؤنـِّق في التعبير وأسهب في الألفاظ من غير طائل ، ولكن اللغة كانت عالية والأسلوب يمتاز برقته . وكان للإخوانيات والمحاضرات دور بارز في حياة الأدب . وقد سجل بعض الرواة ما كان يجري بين بعض الشعراء من مساجلات أو مهاجاه ، من ذلك ما روي انه كان بين إبن رشيق الثعلبي ومالك بن المرحل خصام أدى إلى تهاجيهما فنظم ابن رشيق قصيدة مطلعها :

لكلاب سبتة في النباح مدارك ... وأشدهـا عند التهارش مالك
شيخ تفانى في البطالة عمره ... وأجل مَحْكيه الكلام الآفِكُ

واتخذ لها كنانه كأوعية الكتب، وكتب عليها : « زمام معجل ، إلى مالك ابن المرحل » وعمد إلى كلب وجعلها في عنقه وأوجعه ضرباً حتى لا يأوي إلى

(1) النبوغ 612 .

أحد ، وطرده بالزقاق . فذهب الكلب يعوي وخلفه من الناس أمة . وأخذ الكتاب وقرىء،فحمل إلى ابن المرحل ، فلم يَخفَ عليه انه من عمل ابن رشيق فقال في جوابه :

كلاب المزابل آذينني ... بأبوالهن على باب داري
وقد كُنت أوجعها بالعصا ... ولكن عوت من وراء الجدار

ومن أسلوب كتابة هذا العهد في موضوع الإخوانيات[1] ، ما كتبه أبو جعفر الجنان المكناسي إلى ابن الخطيب : « أيها السيد الذي يتنافس في لقائه ويتغالى، ويصادم بولائه صرف الزمان ويعالى، وتستنتج نتائج الشرف بمقدمات عرفانه ، وتقتنص شوارد العلوم برواية كلامه » .

وأشهر كتاب العصر المريني عبد المهيمن الحضرمي الذي مر ذكره في موضوع الكتاب .

أما في الشعر فقد تبوأ المدح مقاماً ملحوظاً حيث شجعه عدد من الملوك الذين كانوا هم أنفسهم يتذوقون الأدب أو يقرضون الشعر كأبي الحسن الذي قال:

أرضي الله في سر وجهر ... وأحمي العرض عن دنس ارتياب
وأعطي الوفر من مالي اختيارا ... واضرب بالسيوف طلى الرقاب

وممن برعوا في المدح مالك بن المرحل وابن عبد المناف والملزوزي .

كما كانت حوادث الأندلس واستيلاء الإسبان على معظم التراب الإسلامي مجالاً تفجرت فيه العواطف الشعرية لدى عدد من أدباء المغرب ، وملحمة عبد العزيز الملزوزي نموذج من هذا الشعر الفياض . كما استغاث مالك بن المرحل بشعب المغرب حتى يهب لإنقاذ اخوانه بالأندلس في قصيدته التي جاء بها :

استنصر الدين بكم فاستقدموا ... فإنكم إن تُسلموه يُسلَمُ
لا تُسلموا الإسلام يا إخواننا ... وأسرجوا لنصره والجمُوا

(1) أورد القلقشندي نماذج من الاخوانيات لأبي زيد الفازازي في صبح الأعشى ج 8 ـ 149 .

لاذتْ بكم أندلسٌ ناشدةٌ   بِرحيمِ الدين ونعم الرّحيمُ

وفتحت الحضارة العمرانية والاجتماعية ميداناً خصيباً للغزل الذي كان أبو العباس الجزنائي مُجَلّيّ فيه، وكان مع ذلك ذا ثقافة علمية عالية. كما تفتقت قرائح عدد من الشعراء في مجال الوصف على اختلاف أنواعه من طبيعة ومبان ومصنوعات وغير ذلك. ومن القصائد الخالدة في هذا الباب قصيدة ابن عبد المنان في وصف ساعة المدرسة العنانية بفاس. وقد جاء فيها :

وآلة للمواقيت استقل بها   صنع تفوت النهى لطفا صنائعه
أبياتها عد أبراج السماء ولها   قطب ولها فلك تدري مواضعه
يجري الهلال عليها جريها أبدا   على المنازل صنع فاق بارعه
وفي البيوت جوار كل واحدة   منهن خصت بيقات تطالعه

وانتشرت الأمداح النبوية في هذا العهد، بسبب الرغبة الملحة التي كانت تحدو بالمغاربة إلى زيارة البقاع المقدسة، حتى أن عدداً كبيراً من الرحلات المغربية بهذا العهد ينحصر موضوعها فيما يخص السفر إلى البقاع المقدسة. واشتركت الموشحات بدورها في مدح النبي الكريم. وهكذا اشتدت العاطفة الدينية لدى المغاربة الذين إذا قطعوا الأمل من استعادة الأندلس كمساعدة لإخوانهم في الدين، فقد هَفَوْا بقلوبهم إلى مكة المكرمة وحثوا مطاياهم إليها، كما قادهم حب آل الرسول في النهاية إلى تنصيب بعض عائلاتهم في الحكم بعد أن أخفق كل من بني مرين والوطاسيين في الميدان السياسي.

ولقد شاركت المرأة بدورها في ميدان الأدب كما اشتركت في غيره من فروع الثقافة. ولكن المصادر لا تفيدنا بأكثر من تعداد أسماء بعض اللواتي اشتهرن في العلم أو الأدب مع نتف بسيطة عن حياتهن. ومنهن في باب الأدب وقرض الشعر سارة الحلبية الفاسية وست العرب بنت عبد المهيمن الحضرمي وصفية العزفية التي مدحتها سارة المذكورة بقصيدة جاء فيها :

ومن مثل ذات العلم والحلم والنهى   لقد سار سير الشمس معجزها الأرقى
لقد سار سير الشمس فخر صفية   ونور إكباراً لها الغرب والشرق

أما الرجال فقد نبغ منهم الكثيرون كأبي فارس عبد العزيز الملزوزي شاعر المنصور المتوفي سنة 697 وأحمد بن عبد المنان المتوفى سنة 792 ومالك بن المرحل المتوفى سنة 699 والذي أقتصر على ترجمته : وهو أبو الحكم مالك بن عبد الرحمن السبتي المعروف بابن المرحل ، ولد سنة 604 هـ ودرس على عـدد من العلماء كأبي نعيم رضوان إبن خالد وأبي القاسم بن بقي وأبي علي الشلوبين وأبي جعفر أحمد بن علي . وأخذ بنصيب كبير من علوم اللغة بما في ذلك القراءات السبع التي مكنته من ملكة اللغة وسبر أغوارها ، وتولى وظيف التوثيق ثم القضاء، ومدح المنصور بعدة قصائد ، وكان مـع ذلك مجلّىً في أبواب كثيرة من الشعر ، فضلاً عن سعة اطلاعه في العلوم الأخرى ، وقـد وضع ديوان شعر ضمنه الأمداح النبوية التي نظمها ، كما رتب أمثال أبي عبيد على حروف المعجم ونظم غريب القرآن وكتاب الفصيح واختصار إصلاح المنطق لإبن العربي ، أي أنه ساهم في تبسيط عدد من العلوم ويسر حفظها للطلاب . وقـد امتاز العصر المريني بظهور عدد ممـن نظموا في فنون مختلفة أثناءه . وقد توفي ابن المرحل سنة 699 هـ بعد أن عمـر طويلاً .

وقد برع مالك بن المرحل كما تقدم في أبواب مختلفة من الشعر . من ذلك ما قاله في العشرّيات الزهدية :

بني الدهر أما الدهر فهو عدوكم | وإن لاح يومـاً في ثياب حبيب
بلاكم وأبلاكم بقلب صرفـه | فيـا ويحها من أنفس وقلوب

وقال يحمس المغاربة لجهاد المسيحيين بالأندلس :

خُذُوا السلاح وانفروا وسارعو | إلى الذي من ربكم .وُعِدْتُمْ
إن امام البحر من إخوانكم | خلقاً لهـم تَلَفُّتٌ إليكمْ
ونحوكم عيونهـم ناظرة | لا تطعم النوم وكيف تطعـم ؟

وقال يحبذ النسيب في قصائد المدح :

ضل المحبون إلا شاعراً غَزِلا | يطارح المدح بالتشبيب أوطارا
لا يشتكي الحب إلا في مدائحه | دعوى ليصغي أسماعا وأبصارا

كضارب العود وشى فيـــه توشية		وبعد ذلك غنى فيـه أشعارا

وقال في وصف سبتة :

أخطر على سبتة وانظر إلى		جمالهـــا تصبُ إلى حسنه
كأنها عود الغناء وقـــد		ألقى في البحر على بطنه

وبالجملة فشعر ابن المرحل صورة حية لأنبل مظاهر الحيـاة الأدبية في العصر المريني ، بما فيها من نشاط وتنوع .

وبالرغم من كثرة أدباء العصر المريني وتمتع الأدب بشخصية متميزة في المغرب فإن عدد المؤلفات الأدبية والدواوين الشعرية في هذه الفترة نفسها قليل جـــداً بالقياس إلى طولها . ومن أهم هذه الكتب والدواوين : رفع الحجب المستورة عن محاسن المعمورة لأبي القاسم الشريف وشرح المقامات الحريرية للزناتي وجهد المقل لأبي القاسم الشريف ، وتسميـــط السُّرْدة لابن جابر . والمقصورة للمكودي ، وري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام لأبي يحيى عبد الله بن أحمد الزجالي المتوفى بمراكش 694 هـ وعيوب الشعر لابن البناء .

الفقه والعلوم الدينية :

أصبح المذهب المالكي في هذا العهد كامل السيادة ولم يعد ينافسه أي مذهب ديني آخر ، ولكن اتجاه الفقهاء ذهب نحو التآليف في الفروع ، ولم يعد ثمت ميل إلى الاجتهاد إلا في إطار محدود، بل تحدد الإتجاه في تأويل أقوال مالك وأصحابه والتبسط في شرح المتون تدريساً وتأليفاً ، وقـد اكتسب الفقهاء اعتباراً فائقاً في هذا العهد بسبب الإقبال العظيم الذي حصل على العلوم الدينية بوجه عـــام ، والذي كان كرد فعل للحجر الطويل على المذهب المالكي أيام الموحدين . وقـد زاد اتصال المغاربة بأهل المدينة أيام الحج إقبالاً على الفقه المالكي الذي فقـــد بصفة نهائية كل منافس له بالمغرب منذ هذا العصر .

وقد نشطت علوم القراءات والحديث نشاطاً عظيماً كما خصصت دراسات خاصة للأصول على مذهب مالك . وهناك ظاهرة امتاز بها هذا العصر خاصـة

وهي أن المغرب زود المشرق ولا سيما الشام بعدد كبير من القضاة والفقهاء المالكية حيث إستقروا هناك طلاباً أو أساتذة في البداية وقد زودنا ابن العماد بأسماء عدد كبير من هؤلاء[1] كبرهان الدين إبراهيم الصنهاجي 796 هـ وبـــدر الدين الغماري وكلاهما قضى بدمشق ، وأحمد بن يعقوب الغماري قاضي حماه 796 هـ ، وهناك ظاهرة أخرى لعلها أكثر أهمية ، وهي أن عدداً كبيراً من هؤلاء القضاة والفقهاء ينتمون إلى غماره .

وفي هذه الفترة كثرت المؤلفات في الفرائض ، كما تعددت الشروح الفقهية ، وبوجه خاص على الرسالة ومتن خليل ، وتعددت التقاييد على المدونة وكراسي تدريسها . وبالرغم من كثرة فقهاء هذا العصر فإن نفوذهم في الميدان السياسي لم يكن بارزاً وعملياً إلا في فترات استثنائية من حياة الدولة ولم ينشأ ثمت نزاع بين الفقهاء والمتصوفين ، غير أن الأولين كانوا أشد ارتباطاً بالبلاد وبالحياة العامة من المتصوفين الذين تجردت أغلبيتهم الساحقة لحياة روحية مجردة .

ولقد ألف في عصر المرينيين عدد وافر من كتب الفقه والعلوم المرتبطة به من جملتها : 1) المناسك الفقهية المنوطة بالأحكام الشرعية لابن منصور المغراوي 2) الوثائق للقـــاضي الفشتالي 779 هـ . 3) شرح مختصر خليل للقوري في 8 مجلدات . 4) تقييد على المدونة لأبي موسى الجناني المتوفى 830 هـ . 5) الأجوبة في التفسير والأصول لابن البقال . 6) المدخل لابن الحاج الفاسي . 7) تقييـــد على المدونـــة لابن عمران العبدوسي المتوفى 776 هـ . 8) شرح الموطأ للزناتي المتوفى 702 هـ . 9) التحفـــة في القراءات لميمون الفخـــار المتوفى 716 هـ . 10) تفســير القرآن لأبي القاسم السَّلَوي . 11) تفسير القرآن لمحمـــد بن علي الدكالي الذي لم ينقل فيه مؤلفه حرفاً واحداً عمن تقدمه وكان مطولاً جداً كما يقول الشوكاني في البدر الطالع (ج 2 - 212) .

ومن أشهر الفقهاء أبو الحسن الصغير الذي تقدم ذكره في القضاة ، ومحمد بن

---

(1) ابن العماد : شذرات الذهب ج 6 - 345 - 346 - 124 - 331 الخ .

البقال وكان مشاركاً في علوم كثيرة كالأصول والفقه والفلسفة والأدب ، وهو تازي الأصل وتوفي بفاس سنة 725 هـ . ومن كبار المحدثين أبو عبد الله بن رشيد الذي سيأتي الحديث عنه كرحالة . ومن علماء القرآن أبو عبد الله محمد الأموي المشهور بالخراز وأبو الحسن بن بري . أما في علوم التصوف فقد نبغ محمد بن الحاج الفاسي صاحب المدخل المتوفى سنة 737 هـ ، وكان ابن رشيد الفهري يجمع بين الأدبيات والفقه والحديث(1) .

علوم اللغـــة :

يعتبر عصر بني مرين عصراً ذهبياً في ميدان علوم اللغة التي اتجه إليها اهتمام الطلاب دراسة والأساتذة تدريساً وتأليفاً وأهم الكتب التي تدارسها المغاربة بمدارسهم في اللغة ترجع إلى هذا العصر بالإضافة إلى بعض مصنفات الشرق . وقد ظلت الكتب المذكورة متداولة بكثرة إلى ما بعد دخول الحماية الفرنسية بسنوات عديدة ، وهذه الكتب بما فيها من منظوم ومنثور ، لعبت دوراً بالغ الأهمية في تقويم اللسان العربي بالمغرب حتى الآن ، وبفضلها أصبح مثقفوا المغاربة أكثر المثقفين تجنبا للحن وتتبعا لسقطات العلماء والأدباء بين الدول العربيـــة . ويرجع الفضل في ذلك إلى الدراسة التقليدية التي حصلوا عليها في المعاهد الحرة والتقليدية ، ولكن الاهتمام بدراسة اللغة والنحو أخذ يضعف الآن .

ومن أشهر كتب اللغة في العهد المريني 1) شرح كتاب سيبوية لابن رشيد 2) شرح مقصورة أبي حازم الغرناطي لمحمد الحسني السبتي . 3) شرح المكودي على الألفية . 4) الأجرومية لأبي عبد الله بن أجروم المتوفى 723 هـ . 5) شرح تسهيل إبن مالك لابن هاني السبتي المتوفـــى 733 . 6) المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع لأبي محمد السجلماسي 7) البسط والتعريف في علـم التصريف لابن المرحل .

وقد تفوقت سبتة وفاس في هذا العهد على غيرها من مراكز الثقافة بالمغرب

---

(1) الشوكاني : البدر الطالع 2 - 234 .

كمراكش بما اجتباه من علماء في اللغة والأدب ومن بعض مشاهير الرحالة كابن رشيد وطبقة الفقهاء كأبي سعيد الرعيني وأبي الحسن الصغير .

ومن كبار علماء اللغة :

1) ابن آجروم[1] .

وهـو أبو عبد الله محمد بن محمد الصنهاجي المعروف بابن آجروم ، ولد بفاس سنـة 672 ومن أشهر أساتذته أبو حيان . وتوفي سنـة 723 . وكتابه الصغير في النحو بقي يدرس قروناً عديدة بالمغرب ، بدأه بأقسام الكلام ، ثم تحدث عـن أنواع الإعراب ومحل كل منها ، ثم عما يعرب بالحركات ومـا يعرب بالحروف ، وأفرد بعد ذلك باباً للأفعال وأنواعها ، ثم الأسماء المرفوعة على اختلافها كالفاعل والمبتدأ والخبر وأتبعه بالمنصوبات ، وختم بالمخفوضات . وأسلوبه بسيـط للغاية يبدأ بالقاعدة ثم يمثل لها حتى ترسخ الأمثلة عند حفظ القاعدة . ولا يذكر خلافاً ولا تفاصيل ثانوية ، واهتم كما نرى بمـا يخص الكلمة من حيث تغيير إعرابها ، وهذا من أهم مميزات النحو العربي .

2) إبن هاني :

أبو عبد الله محمـد بن هاني اللخمي السبتي المتوفى في حصار جبـــل طارق سنة 733 هـ شرح التسهيل لابن مالك الذي وصفه ابن الخطيب بأنه « أبدع فيه ، وتنافس فيه الناس » .

3) أبو القاسم الشريف :

محمد بن أحمد الشريف الحسني السبتي ، ولد بسبتة سنة 697 ودرس على والده وابن رشيد وأبي الحسن الغافقي وغيرهم ، كما أخذ عنه ابن زمرك وابن خلدون وابن الخطيب وأبو اسحق الشاطبي وغيرهم ، وهو كما يقول صاحب « شجرة النور الزكية » أول من حل مشكلات الخزرجية ، كما شرح تسهيل إبن مالك ، ومقصورة حازم وتولى قاضياً بغرناطة سنـة 760 . وقد تولى أبو القاسم عدداً من

---

1) ترجم له الكتاني في سلوة الأنفاس ، 2 - 112 .

الوظائف في ظل ملوك غرناطة كالكتابة والخطبة والقضاء وكان معروفاً بنزاهته.
أما كتابه رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة، فقد تم طبعه على يد التهامي الكلاوي باشا مراكش، وذلك سنة 1344 هـ فيما يقارب أربعمائة صفحة من القطع الكبير.

ويبتدىء الشارح بعرض بيت أو أكثر من المقصورة المذكورة ثم يشرح ألفاظ البيت لغوياً، ويقابل بين معناه ومعانٍ أخرى لغيره من الشعراء، كما يعرض لوجوه البلاغة في ألفاظ البيت ومعانيه وإذا ورد اسم شخصية بارزة أو وقعة عرض لها بتفصيل واف. والحق أن طريقته في الشرح يمكن أن تكون أحسن مثال لمؤلفي الكتب المدرسية الثانوية والجامعية من العرب

ويتجلى من شروحه وتعليقاته عمق معلوماته اللغوية، من ذلك مثلا قوله[1].

« ويقال صرّ القلم والباب وغيرهما يصر صريراً إذا صوت، والدرص ولد الفار واليربوع وأشباه ذلك. وفي المثل: ضل دريص نفقه: يضرب مثلاً لمن يعيا بأمره. ويقال صأ الفرخ يصأى صئياً إذا صاح وكذلك الخنزير والفيل واليربوع. وفي المثل جاء بما صأ وصمت أي بالمال الكثير من الناطق والصامت ... »

المكودي:

أبو زيد عبد الرحمن بن علي بن صالح المكودي، الفاسي، درس على جماعة منهم عبد الله الوانقيلي كما درس عليه عبد الرحمن ابن عطية المديوني وهو في الأصل من قبيلة هوارة العظيمة وكان المكودي على علم واسع باللغة والنحو والأدب[2]. وهو آخر من قام بتدريس كتاب سيبويه. وقد وضع عدة كتب منها شرح على الأجرومية ورجز في التصريف، وشرح المقصور والممدود لابن مالك، والمقصورة في مدح النبي (ص) أما الكتاب الذي خلد اسمه بالمغرب فهو شرحه

(1) ابو القاسم الشريف: رفع الحجب المستورة، 1، 93.

(2) نيل الابتهاج لأحمد بابا وقد ترجم للمكودي أيضاً في جذوة الاقتباس لابن القاضي واعلام الزركلي وشجرة النور الزكية ص 249 لمحمد مخلوف وسلوة الأنفاس للكتاني 1 - 187.

المعروف على ألفية ابن مالك ، وقيل أنه وضع عليها شرحاً كبيراً أتلفه حسدته إلا أوائله التي توجد بفاس وكانت وفاته سنة 807 هـ .

التاريخ :

الدول ذات الحضارة العمرانية ، والتي تميـل في حياتهـا إلى اتخاذ مظاهر السلطة والملك ، وتحيط بلاطها بمجموعة من الشعراء يمدحونها، والفقهاء يعضدون سطوتها ، تحتاج كذلك إلى مؤرخـين يسجلون تطوراتها السياسية وأحداثها البارزة ، وينوهون بمآثر ملوكها ، وكان المرينيون من أكثر الدول رغبة في تسجيل تاريـخ دولتهم وتمجيد مآثرهم لذلك كثرت كتب التاريـخ في عهدهم ، ولهذه الكتب عظيم الفضل ليس فقط في تسجيل تاريخ المرينيين بـل حتى في تاريخ دول المغرب قبلهم ، فأهم المراجع التي تحدثنا عن الأدارسة حتى الموحدين لم يبق منها في الغالب إلا ما كتب في أيام المرينيين وأغلب الظن أن عناية هؤلاء بالاستكثار من الخزائن واستنساخ الكتب هو الذي حفظ كثيراً من كتب التاريخ وغيرها من الضياع ، فنحن إذاً، مدينون للحلل الموشية بمعلومات قيمة عن تاريخ المرابطـين ، والموحدين ، كما أننا مدينون للقرطاس في نفس الموضوع ، وبنسبة محدودة لكتاب العبر ، وكل هـذه الكتب وضعت في أيام المرينيين . وفيما يلي أتحدث بإيجاز عن بعض الكتب المصنفة في هذا العهد :

1) الحلل الموشية : مؤلفها مجهول ، ولا يفيدنا بشيء هـام عن المرينيين بقدر ما يفيدنا عن المرابطين والموحدين. وقيل ألف الكتاب أبو العلاء بن سماك العامري المالقي[1] . وقد تم تأليفه سنة 872 .

2) الأنيس المطرب بروض القرطاس : في أخبـار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس[2] ويبـدأ بالدولة الادريسية لينتهي إلى سنة 726 . وهو يبـدأ عادة

(1) ابن سودة ، دليل المؤرخ المغرب الأقصى صفحة 46 ، وللدكتور مختار عبادي دراسة قيمة عنه بمجلة تطوان سنة 1960 .

(2) أنظر بحثنا حول الكتاب أنجزه المؤلف بموسوعة المغرب العربي (وقـد تعذر نشرها حتى الآن) .

بمعلومات عن شخصية الملك وحكومته، ثم يفصل الأحداث السياسية في عهده، ويتبعها بذكر أحداث أخرى بارزة حول الوضعية الاقتصادية والاجتماعية أو وفاة شخصية علمية . وقد يتخذ نفس الطريقة إذا فرغ من أحداث الدولة السياسية . وقد وقع بعض الاختلاف في اسم مؤلف الكتاب المذكور . غير أن المرجح كما توصل إليه بعض الباحثين أن كتاب الأنيس اثنان أحدهما وهو الأصغر وينسب إلى صالح بن عبد الحليم وهو المتعارف الآن ، وصاحبه بربري من إيلان مصموده ، وقد توفي في نفس السنة التي أتم فيها تأليف الكتاب المذكور ، وعاش ابن عبد الحليم طويلاً في فاس . أما الأنيس الأكبر فهو من تأليف أبي عبد الله بن أبي زرع الذي اختلف في اسمه هل هو علي أو محمد أو أحمد، ويعتبر هذا الكتاب في حكم المفقود الآن ، وقد طبع الأصغر مراراً على الحجر بفاس كما ترجم أو طبع طبعاً عصرياً منذ سنة 1693 (فرنسية) ثم سنة 1794 م بالنمسا وبلشبونة سنة 1828 ثم بباريس سنة 1860 م وبالرباط 1936 م وترجم إلى الألمانية والإسبانية والفرنسية واللاتينية وبدأ طبعه على الحجر سنة 1885 م . ولم يطبع كاملاً بالعربية طبعاً عصرياً حتى الآن، كما تنقصه دراسة مستفيضة وتصحيحات لبعض أخطائه التاريخية ، على أن تعاليق طبعة الرباط التي لم تكمل لحد الساعة مفيدة في الجملة .

3) الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية . ويبدأ الكتاب بأنساب بني مرين ويتوقف عند الخبر عن بناء مدينة البيضاء أيام أبي يوسف . وطريقته لا تبعد كثيراً عن طريقة الأنيس المطرب مما جعل الباحث كنون يستنتج أن مؤلفه هو نفس مؤلف الأنيس المطرب (الصغير) أي ابن عبد[1] الحليم . ومن مزايا الكتاب الذي طبع بالجزائر سنة 1339 هـ (1920 م) ، أنه يسجل أسماء عدد من الشخصيات العلمية والإدارية ضمن الوفيات مع تفاصيل قيمة عنها ؛ هذا مع معلومات واسعة في التاريخ السياسي .

4) روضة النسرين في دولة بني مرين لأبي الوليد إسمعيل بن يوسف إبن

(1) مجلة تطوان سنة 1957 م (ع الله كنون) .

الأحمر،وقد خصصه لبني مرين وبني زيان فذكر نبذة عن ملوكهم وأسماء كتابهم ووزرائهم وقضاتهم وحجابهم ، وطبع منه حتى الساعة القسم الخاص ببني مرين بالنص العربي وترجمته الفرنسية بباريس 1335 هـ موافق 1917 م وبالرغم من أن المؤلف عاصر أحداث الدولة وكان في وضع يمكنه من معرفة أسرارها فقد كانت معلوماته موجزة . وله كتاب آخر بعنوان : « حديقة النسرين في أخبار بنـــي مرين » .

5) الذيل والتكملة لإبن عبد الملك محمد بن محمد الأنصاري المراكشي المتوفى سنة 703 هـ والكتاب مجموعة ضخمة من التراجم يتابع فيها صاحبها مـا وضعه صاحب كتاب الموصول والصلة ويتضمن كتاب الذيل والتكملة تراجم علمـاء وملوك وشخصيات مختلفة.وأجزاؤه الخطية مفرقة في خزائن عديدة (باريس، القرويين ، القاهرة الخ ...) والكتاب في عدة مجلدات[1] عثر منها حتى الساعة على 5 . وتنفرد القرويين بنسخة من الجزء الأول بخط أندلسي[2] .

6) اختصار الأخبار عما كان بسبتة من سني الآثار لأبي عبد الله محمد بن قاسم الأنصاري ، وهو من أهل سبتة الذين شاهدوا المرحلة الأخيرة من عهدها الإسلامي قبل سقوطها في أيدي البرتغال . ولا نعرف عنه حتى الساعة شيء يستحق الذكر أكثر من كتابه الصغير هـذا الذي انتهى من تأليفه سنة 825 هـ أي بعد دخول البرتغال سبتة بحوالي سبع سنوات . وقد نشر المخطوط في كل من هيسبريس سنة 1931 م ومجلة تطوان 58 ـ 190 وتوجد منـــه بضع نسخ بالمغرب،وهو يقدم معلومات قيمة عما كان بسبتة من المساجد والزوايا والمدارس والخزائن والمحارس والربط والدور والمصانع وغير ذلك .فهو والحالة هذه سجل دقيق للحالة العمرانية بسبتة قبل سقوطها مباشرة في يد البرتغال ، كمـا يصف كذلك حالة العمران بالقرى المجاورة من غير مبالغة أو تهويل . وقد تم طبـع الكتاب مستقلاً على يد ليفي بروفنصال بباريز سنة 1351 هـ (1932 م) .

---

(1) دعوة الحق : العابد الفاسي يناير ومارس 1959 .

(2) دعوة الحق يناير 1966 ص 135 .

7) تاريخ إبن خلدون المسمـى بـ (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، من أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) وقـد عالج المؤرخ تاريخ دول الإسلام على اختلافها ؛ وأهم أجزائه السادس والسابع . فالأول يعرض لصنهاجة أفريقية والقلعة والملثمين والموحدين وبني أبي حفص الذين خصص لهم أكثر من ثلاثمائة صفحة . أما المجلد السابع فقد استعرض فيه تاريخ دول زناتة خصوصاً بني مرين الذين يشغلون من هذا المجلد أزيد من أربعمائة صفحـة بينما خصص للمرابطـين عشرين صفحـة ولبرغواطة حوالي سبـع صفحات . هكذا يكون أهم قسم من الكتاب ما خصص للمرينيين لأن المؤلف عاش طويلاً في بلاط هذه الدولة كما عاصر أحداثها وأحداث الدول المجاورة لها . وقد اهتم بموضوع علاقـات المغرب بالسودان والمشرق فخصص صفحات عديدة للحديث عن هدايا وصِلات المغرب بهذه الدول .

ومن خلال سطور الكتاب ، ومع جهد طويل ومضن يمكن أن تلتقط بعض المعلومات عن نظام المرينيين الإداري والسياسى كأسماء الولاة والقادة العسكريين ووجوه الكتاب . ومصادر الكتاب متعددة ، وأغلبهـا معروف كابن الأثير والطبري وابن حزم والإدريسي . وأسلوب ابن خلدون في التاريخ ينفرد بـه وحده من بين المؤرخين ، وفيه تتجلى مقدرة ابن خلدون العالية في تطويع معاني العربية وتراكيبها البليغة ، وإخضاعها للحديث العلمي . ومن عباراته :

1) ساجلوهم في الثورة 2) صَرّ السلطان أذناً واعيـة 3) استشرف ابن الأحمر إلى التجاني 4) استلحق العساكر رائحة وناشبة ، الخ .

ولم يطبق ابن خلدون في تاريخه ما يقتضيه التحليل العلمي الذي عرض لـه في مقدمته ولا اهتم بالحديث عن حضارات الدول التي أرخ لها ، وندر أن شذ كتابه عن الأحداث والفتن السياسية[1] ، ومع ذلك فإن المجلدين الأخيرين يمثلان أهمية بالغة في تاريخ الشمال الإفريقي وبوجه خاص مـا يتعلق بالبربر وقد توفي ابن خلدون سنة 808 هـ .

---

1) أنظر بحث المؤلف في مجلة آفاق المغربية العدد الأول حول كتاب العبر كمصدر تاريخي .

أما مقدمة ابن خلدون فإسمها يغني عن تحليلها بعد أن كانت ولا تزال موضع مآت الدراسات بمختلف اللغات . على أن من النظريات الثورية التي أتى بهـا في هذه المقدمة دعوته إلى إصلاح اللغة العربية عن طريق تغيير حركات الإعراب محتجاً بتطور لغة حمير التي انفصلت عن لغة مضر وقـد كانتا من قبل لساناً واحداً . وجدير بدعاة الإصلاح والمحافظين اليوم أن يطلعوا على هـذه النظرية وقد ألفت كتب أخرى كثيرة غير هذه التي أمكن نشرها ومن ضمنها :

1) « بغية الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب » للحضرمي .

2) العز المتين في ذكر ملوك بني مرين لأبي عبد الله محمـد بن أحمد بوراس المسكري .

3) تقريب المفازه في تاريخ مدينة تازه لأبي الحسن علي الجزنائي من رجال القرن الثامن الهجري .

4) زهرة الآس في أخبار مدينة فاس للمؤلف المذكور . وقد تم طبعـه بالجزائر على يد المستشرق بل سنة 1340 هـ (1922 م) .

5) البيان المغرب لإبن عذارى المراكشي وقد تم طبعه أيضاً .

6) المسند الصحيح في مآثر أبي الحسن لمحمد بن أحمد بن مرزوق 782 — 1380 ومنه نسخة بالاسكوريال وأخرى بالرباط نسخت سنة 1124 هـ .

الرحلات :

اتسع نطاق الصلات المتبادلة بين المشرق والمغرب عن طريق تبادل السفراء والهدايا بين الملوك وتنقل عدد كبير من المغاربة إلى الشرق بقصد زيارة بيت الله الحرام أو لمجرد السياحة أو الدراسه . وكان كثير من الرحالة يدونون رحلاتهم ويصفون فيها مشاهداتهم المختلفة وكثير منها يختص بالمشرق وحده . وأقـدم رحلة معروفة وصفهـا مغربي هي رحلة ابن رشيد ثم رحلة العبدري ورحلة ابن بطوطه ولكل منها أهمية خاصة وإن كانت الأخيرة أعظمها قيمة .

1) رحلة ابن رشيد :

اسمها « ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة مكة وطيبة » ومؤلفها أبو عبد الله محمد بن عمر الفهري المزداد في سبتة سنة 657 هـ ، وبها درس علوم الحديث والأدب التي علا فيها كعبه .

وفي السادسة والعشرين من عمره عزم على الحج ولم يتمكن من الشروع في سفره إلا سنة 683 هـ فمر بتونس التي اتصل فيها بجماعة من العلماء ثم قصد مصر ومنها إلى المدينة المنورة. وبعد أداء مناسك الحج عاد عن طريق طرابلس الغرب ثم تونس التي قضى فيها سنة ثم اتجه عن طريق المدينة إلى المغرب وكان قد ركب منها سنة 683 هـ ، ويعتبر كتاب ابن رشيد كأعظم كتاب عربي خاص بالرحلة وقد اختلف في عدد أجزائه التي تتراوح فيما بين خمسة وسبعة وتوجد خمسة أجزاء بالإسكوريال تنقصها المقدمة ، كما أن الجزء الرابع مفقود أيضاً وهو يتضمن رحلة المؤلف من القاهرة إلى دمشق .

ويتحدث المؤلف في مختلف الأجزاء عن العلماء الذين صادفهم ويشيد بعلماء تونس خاصة ، كما يذكر عدداً كبيراً من الأساتذة الذين درس عليهم أثناء رحلته ، وقد شرع ابن رشيد في تدوين رحلته خلال سفره وأتمها إثر رجوعه . واتصل عند استقراره بفاس بالسلطان أبي سعيد عثمان الذي قضى لديه بالإكرام والتقدير ، وتوفي ابن رشيد سنة 721 هـ حيث دفن بفاس .

2) رحلة العبدري :

أبو عبد الله العبدري نجهل الكثير عن حياته الأولى قبل رحلته بل نجهل حتى الساعة سنة وفاته ولكن الذي نعلمه أنه من سلالة أسرة عربية من قريش نزلت بحاحة . ورحلته في كتاب متوسط الحجم وتوجد مخطوطة بكثرة .

ويبدأ العبدري رحلته المدونة بمقدمة نفهم منها أنه بدأ تقييدها بتلمسان وإن سفره إلى الحج الذي كان هدف رحلته بدأ سنة 688 هـ فزار أولاً في بلاده السوس الأقصى وكان يتوفر على خيرات كثيرة ثم اتجه نحو تلمسان عن طريق

الصحراء التي كان فيها يومئذ جماعة من قطاع الطرق « أطلع الله عليهم من الآفات ما يسحقهم جميعاً أصلاً وفرعاً » !

ثم دخل تلمسان فوصفها بأنها بلد « حلت به حوادث الحدثان ولكنها كانت مغروسة الضواحي بالكرم وأشجار الفواكه ». وقد درس العلم في أكثرها وسمع مدرساً بها يقول في درس نحو « كلا للمذكرين وكلتا للمذكرَين » وزار بعد ذلك مدناً مختلفة من المغرب الأوسط ودخل تونس المدينة فأعجب بها ووصفها بقوله «مطمح الآمال ومحط الرجال في الشرق والغرب» كما وصفها بقوله « أربت على البلاد في كل فضيلة» وذكر عدداً من علمائها كالأديب إبن برهان الطائي والفقيه إبن عبد المعطي الذي تلقى عنه العبدري علوم الأدب . أما القيروان فقد وصف أهلها بجفاء الطبع. ولما زار طرابلس الغرب وجدها على طرفي نقيض مع تونس، ولكنه أعجب بفصاحة عرب برقة حيث سأل أحد بدوهم عن ماء فقال له « تطؤون أبا شمال » فاستعذب العبدري إثبات النون في الفعل ونصب المفعول به وعلق على ذلك قائلاً « ليس في الغرب أعرابي ولا حضري يفعل ذلك». أما أهل الإسكندرية فاتهمهم بسقوط العرض عندهم وننبه هنا إلى أن بعض الأوساط الاجتماعية بمصر كانت مثار انتقاد ابن الحاج في هذه الفترة بالذات ولنفس السبب ثم وصف العبدري ركب الحجاج والاحتياطات التي يتخذها الحكام لوصوله سالماً ويتابع وصفه للبقاع المقدسة والشام .

وكثيراً ما كان ينزل بالمدارس والخوانق ويهتم بالحديث أحياناً عن مستوى المعيشة بالبلاد التي يزورها كما يبذل عناية خاصة بالاتصالات العلمية التي كان يجريها مع علماء مختلف البلاد التي حل بها ولا يتردد في انتقاد من لاحظ منه هفوة أو نقصاً . وقد سلك نفس الطريقة ابن بطوطة في رحلته ولكن العبدري شديد الانتقاد ولاذع اللسان لا يسلم من شر قلمه بلد زاره. ويختم العبدري رحلته بقصيدة طويلة تغلب عليها المسحة الدينية والتأثر بثقافته الفقهية(1) ومطلعها :

عليك النصح رُدْهُ بكل حسي ... وإن الغيث وارده فحَسْبي

فمعظم ديننا نصح البرايا ... كذاك أتى الحديث عن النبي

(1) نشرت رحلة العبدري بالرباط ، 1968 م. بتحقيق الأستاذين محمد الفاسي و أ. فور .

3) رحلة ابن بطوطة :

أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجي المعروف بابن بطـوطـة نسبت إليـه الرحلة المشهورة وهو من أسرة دينية علمية ترجع إلى لِوَاتَـةَ من قبائل العرب ببرقة ، ولد سنة 703 هـ وخرج إلى الحج سنة 725 هـ وكان ارتحاله بقصـد الحج ثم استطاب السفر فوسع نطاق رحلته وفي الشرق تعرف بعـدد كبير من الشخصيات ثم زار نجداً وصحراء العرب والعراق وشيراز وأصفهان وحج مرتين أخريين أثناء رحلته هذه ، واخترق بعد ذلك البحر الأحمر إلى السودان ثم مصر والشام والأناضول . واتصـل بأوزبك خان صاحب الأناضول الشمالية وصحب وفده إلى الملك البيزنطي اندورنيكوس الثالث ، وكان ضمن الوفد ابنة هـذا الملك وزوجـة أوزبك خان ، وذلك سنة 733 هـ حيث شاهد ابن بطوطة القسطنطينية وأعجب على الخصوص بكنيستها ؛ ثم توجه نحو الهند التي وصف مشاهداته فيها كحيواناتها وأشجارها وعادات أهلها ، وعاش أعواماً طويلـة فيها حيث تزوج وتولى بها القضاء ، كما تعرض للأسر وقطـاع الطرق ، ثم زار جاوة و سومطرة والهند الصينية ، وعاد مرة أخرى إلى الشرق العربي ثم قصد بلاده التي وصلها سنة 753 هـ ، وهكذا استغرقت رحلته الأولى ما يزيد عن ربع قرن تزوج أثناءها مراراً عديدة ، ثم ارتحل إلى الأندلس وقدم إلى غرناطة أيام أبي الحجـاج النصري وكان يروي مشاهداتـه بالأندلس فيكذبه بعض الناس ، وكان بينهم لسان الدين بن الخطيب . ثم سافر إلى السودان وبلغ نهر النيجر الذي ظنه نهر النيل ، وأثناء ذلك أمره أبو عنان بالرجوع إلى المغرب بعد ثلاثين سنة قضاهـا في التجوال خارج بلاده . وقد قضى بقيـة حياته في هدوء . وولاه المرينيون قضاء تامسنا ، وتوفي وهو قاض سنة 775 هـ .

وتمتاز الرحلة بدقة وصفها وتعدد مناحي هذا الوصف من مجتمعات وآثار وشخصيات دينية وعلمية وأحداث خاصة. وتتجلى أهميتها فيما يخص مشاهدات ابن بطوطة في افريقيـا والشرق الأقصى ، وهو أول عربي يقدم وصفاً بهـذه الدقة عن البلاد المذكورة . وحتى فيما يخص المشرق الإسلامي نستفيـد أشياء

كثيرة من هذه الرحلة لا نجدها في غيرهـا كإجراءات الجمارك بحدود مصر والشام ، وكالحديث عن بعض وجوه الوقف الخاصة بدمشق .

وقد كانت هذه الرحلة ولا تزال محل عناية المستشرقين وترجمت لعدة لغات أجنبية .

أما كاتب الرحلة فهو ابن جزي محمد بن أحمد الكلبي الذي ولد بغرناطة 721 ووالده هو مؤلف «القوانين الفقهية » الذي ظل يدرس بمعاهد التعليم التقليدية إلى وقت قريب ، وهو الذي طبع الرحلة بطابع أدبي من تأثير ثقافته ، وقد شغل مناصب إدارية بفاس حيث مدفنه بالجامع الأعظم بالمدينة البيضاء[1] وكانت وفاته سنة 757 .

ويعتبر ابن بطوطة أول رحالة دخل إلى وسط افريقيا ممن وصلت رحلاتهم إلينا . وتكاد تتفق المعلومات التي يقدمها عن هذه الناحية من العالم مع أحداث ما ترويه الرحلات العصرية كما يؤيد ذلك « والكنز » في كتابه : « أبحاث جغرافية عن داخل افريقيا الشمالية » (ص 29) .

الطب :

اهتم بنو مرين ببناء المارستانات فاحتاجوا في ذلك إلى أطباء لعلاج المرضى وتتبع الحالة الصحية لكل نزلاء المارستانات . وكان الطب النظري موضع عناية عدد كبير من الأدباء والفقهاء نظراً لرعاية الدولة لهذا الجانب من العلوم التطبيقية .

ولقد كانت جامعة القرويين تخصص كراسي لتدريس الطب النظري الذي ظل يحتل فيها مكانة بارزة إلى عهد قريب . ومن أطباء هذا العهد :

1) أبو العباس أحمد بن شعيب الفاسي الذي جمع بين العلوم العقلية والنقلية ، وكان طبيب أبي سعيد وكاتبه[2] . وكان ممن صحب أبا الحسن ، وهلك بافريقية .

---

1) الدباغ محمد بن عبد العزيز : ابن جزي كاتب رحلة ابن بطوطة ـ دعوة الحق ، صفر 1962/1382 .

2) ابن خ ص 841 ج 7 .

2) أبو الحسن علي العنسي المراكشي ، اشتهر في عهـد أبي الحسن ، ووضع بعض المصنفات الهامة في الطب كارجوزة في العلاقلات الجنسية والأمراض السرية.

3) أحمد الجذامي نشأ بسبتـة ، وأصله من قرطبة ، وجمع بـين الحديث والطب والأدب وتوفي سنة 650 هـ .

وقـد وصل الطب في هذا العصر إلى درجة بالغة من الرقي حيـث كان الاختصاصيون في فاس لا يشخصون المرض إلا بعـد تحليل دقيق للبول الذي يكتشفون منه أشياء كثيرة كتقدير سن المريض وجنسه « أذكر أم أنثى » وما إذا كانت حاملاً أو غير حامل فضلاً عن نوع المرض بالضبط وأسبابه إلى غير ذلك من الجزئيات كما أثبت ذلك ابن الحاج في المدخل (ج 4 - 140) .

العلوم الرياضية :

أدى توطيـد مذهب مالك بالمغرب إلى دراسة الفرائض طبقاً لقواعد هـذا المذهب وكان لا بد من تعلم الحساب والتعمق فيـه من أجل الوصول إلى حل المسائل المستعصية في الميراث ، ومن ثم اشتدت عناية الطلاب بالحساب الذي قادهم إلى تعلم الهندسة وسائر متعلقاته ، كما أن الحاجة إلى ضبط أوقات الصلاة وشهور السنة العربية خصوصاً رمضان أدى إلى تعاطي دراسة الفلك ، وهكذا ظهر علماء رياضيون وفلكيون في هذا العصر امتـد تأثير بعضهم إلى الثقافة الأجنبية نفسها .

ومن مشاهير الرياضيين :

1) أبو عبد الله محمد بن هلال السبتي شارح المجسطي في الهيئة[1] .

2) أبو زيد اللاجائي من علماء الفلك والهيئة وصاحب مؤلفات فيها وهـو تلميذ ابن البناء وقد درس على القرافي ، وتوفي سنة 773 هـ وهـو الذي أدخل مختصر ابن الحاجب في الفقه إلى القرويين .

3) أحمد بن محمد بن عثمان المعروف بأبي العباس بن البناء المراكشي : ولد في

---

1) ابن خ ص 840 ج 7 .

قاعة ابن ناهض بمراكش سنة 654 هـ (1256 م) . واشتغل بالتصوف وهو بعد شاب ، وأخذ طريقة أبي زيد الهزميري . ومن أساتذته في الحديث ابن عبد الملك الأنصاري ، وفي السنن أبو الحجاج التجيبي المكناسي، وفي النحو الشريف محمد بن علي ، وفي الرياضيات ابن مخلوف السجلماسي وابن حَجَلة .

وقد حظى ابن البناء بتقدير ملوك بني مرين واستقدموه إلى فاس مراراً .

ومؤلفات ابن البناء كثيرة ومتنوعة ، منها :

1) كتاب الفصول في الفرائض ، 2) المناخ في تعديل الكواكب ، 3) الجبر والمقابلة ، 4) رفع الحجاب في الحساب ، 5) كتاب الفلاحة الخ..

الموسيقى :

سيطول الحديث شيئاً ما في هذا الموضوع بسبب أهميته ، ولأن العهد المريني هو الذي حفظ الطابع المغربي لهذا الفن.ولا جرم أن الموسيقى العربية التي انتقلت من الأندلس إلى المغرب لم تكن مجرد اشعار تلحن كيفما اتفق . ومن ثم فقد تدخلت القواعد العلمية مرة أخرى في توجيه هذا الفن الذي قدر له أن يكتسح الشمال الافريقي والعالم العربي كله .

والمشهور أن زرياب المغني أو من وضع الأصول الأولى لما نسميه الآن بالموسيقى الأندلسية وكان تلميذاً لإسحق الموصلي الذي خشي من منافسته له في بلاط هرون الرشيد ، فشجعه على مغادرة العراق مقابل مكافأة سخية ، وهكذا طوى زرياب المراحل حتى حط رحاله بالأندلس،وقد نقل اليها الموسيقى العربية التي كانت قد لقحت في الشرق بمؤثرات اغريقية وفارسية، شأن العلوم والآداب التي استمدها العرب أو لحقتها نفس المؤثرات .

بيد أن هذه الموسيقى دخلها تغيير متوال على يد الأندلسيين أنفسهم سواء في اللحن أو في الشعر ومن المؤكد أنها مرت بأطوار مختلفة حتى انتهت أخيراً إلى الاستقرار في أواخر العهد المريني وإن ما طبع الموسيقى الأندلسية بطابعها البارز،لهو الموشحات التي لم تكن معروفة لدى العرب من قبل. ولذا لا نستطيع

أن نثبت ما يذكره بروكلمان من أن تعدد أسماء القصيدة وأجزائها إنما هو تقليد للشعر الاسباني[1] فقد عرف أهل بغداد قبل ظهور الموشحات أنواعاً من النظم تختلف من العامية إلى تنوع القافية .

وكما أن مؤرخي الحركة الفكرية من العرب لم ينكروا قط فضل اليونان والفرس فيما اقتبسوه أو نقلوه من علومهم ، فكذلك لا يعقل أن ينكروا فضل الأوروبيين لو ثبت أنهم أخذوا عنهم في الموشحات طريقة الوزن والتركيب .

وقد أجمعت المصادر العربية على أن مخترع الموشحات التي وضعت خصيصاً للتلحين ، هو مقدم بن معافر (أو معافي) أحد شعراء عبد الله المرواني وان ابن عبد ربه أخذ عنه هذا الفن ثم تكاثر الموشحون بعدهما وأشهرهم عبادة القزاز أحد شعراء المعتصم بن صادح أمير المرية ، وهو من ملوك الطوائف .

ومن المعلوم أن العصر المرابطي عرف ازدهاراً ملموساً في نظم الموشحات وشيوع الموسيقى ومن أبرز وشاحي هذا العهد أحمد بن علي المعروف بأعمى طليطلة الذي يقول في إحدى موشحاته :

ضاحك عن جمان — سافر عن در
ضاق عنه الزمان — وحواه صدري

ثم أبو بكر الأبيض وأبو بكر بن باجة ، وابن بقي يحيى بن عبد الرحمن ، ثم أبو بكر بن قزمان الذي اشتهر بالابداع في فن الزجل بعد أن سبقه آخرون لا نعرفهم . والزجل شعر عامي شبيه بالموشحات التي وضعت أساساً بالعربية ، ومما لا ريب فيه أن عامة أهل الأندلس وجدوا في الزجل من حرية النظم ما لم يجدوه في الموشحات . لذلك انتشر الزجل بسهولة في الأندلس ، كما انتقل بسرعة إلى المغرب الذي يبدو من كلام ابن خلدون أن أهله فاقوا أهل الأندلس في هذا الفن ، ومهما يكن من شيء ، فإن الزجل الذي استخدم للتلحين على غرار الموشحات ، لم يكن بعيداً بدوره عن الفصحى . ونجد في هذا الفن

---

(1) تأريخ الشعوب الاسلامية ج 2 ص 174 لبروكلمان .

الشعبي كلمات دارجة ما تزال تستعمل حتى الآن بالمغرب ولو أتيح جمع أكبر كمية من الأزجال الأندلسية والمغربية منذ هذا العهد على يد متخصص، لأمكن أخذ نظرة لا بأس بها عن تطور بعض الكلمات العامية واللهجة المستعملة في تلك الأيام . ومن أمثلة الزجل الأندلسي في عهد المرابطين قول ابن الزاهر الاشبيلي:

نشب والهوى من لج فيه ينشب ترى اش كان دعاه يشقى ويتعذب
مع العشق قام في حالو يلعب وخلق كثير من ذا اللعب ماتو

ومن الواضح أن فن الموشحات قد انتقل إلى المغرب ، وبما أنه صادف عصر المرابطين ، فانه لم يتسع مداه بالمغرب بقدر ما نما وترعرع بالأندلس التي كانت قد اعتادت حياة اللهو والطرب وتعاطى أدباؤها بوفرة فن التوشيح ، بينما كانت جدية الحياة بالمغرب أبرز وأشمل، غير أنه يستحيل أبداً أن لا تكون الموشحات قد أخذت طريقها الضيق إلى المغرب في هذا العهد ، إذ نشاهد عدداً كبيراً من الزجالين لمعت أسماؤهم فيما بعد ، وقد جاء الزجل مرحلة بعد الموشحات ، كما أن المغاربة أحدثوا أنواعاً جديدة شبيهاً بالموشحات وسموه عروض البلد .

ولقد انتقلت الموشحات إلى الشرق عَلى يد أشخاص مجهولين لم يكشف البحث حتى الآن أسماءهم ، إلا أننا نعلم أن الموشحات الأندلسية قد ازدهرت في عهد الأيوبيين معاصري الموحدين ، وأول وشاح ظهر اسمه حتى الآن هو ابن سناء الملك الذي وضع كتاب (دار الطراز) حيث أثبت فيه موشحاته الخاصة الى جانب موشحات أندلسية كما برز في هذا الفن أدباء آخرون بمصر وغيرها من بلاد المشرق كابن نباتة وابن الوكيل وصفي الدين الحلي والقاسم الواسطي وغيرهم.

بل إن الموشحات تجاوز أثرها المشرق إلى أوربا عن طريق التروبادور والموريسكيين ولا يزال أثر التلحين بارزاً في الموسيقى الكنسيّة الكريكورية حتى الآن(1) وكل من الموسيقى الأندلسية والكريكورية يرجع إلى أصول اغريقية قديمة .

---

(1) محمد الفاسي ، جريدة العلم 11 يناير 1962 .

ولقد أصبحت الموسيقى الأندلسية منذ عهد المرينيين ثم فيما بعدهم تتطعم بمؤثرات مغربية في بلاد المغرب ، كما أدخلت عليها تعديلات وزيادات هامة لم تفقدها على كل حال اطارها الأصلي .

وإذا كانت الموشحات قد ركد سوقها في المغرب أيام الموحدين ، بل وحتى في الأندلس ، وذلك لطغيان الزجل وانتشاره فإن ابن الخطيب وتلميذه ابن زمرك قد عملا على إحياء هذا الفن الموسيقي نظماً وجمعاً . وقد وضع الأول كتابه المعروف (جيش التوشيح) ضمنه موشحات كثيرة وضعها سابقوه .

وإذا تركنا ناحية النظم جانباً ، وهي تتعلق بالأدب وفنونه ، فإن تلحين الموشحات يخضع لنظام موسيقي مضبوط وله مصطلحاته الخاصة ، التي اختلف بعضها حسب البلاد التي دخلت إليها الموشحات .

وهكذا فإن الموسيقى الأندلسية تتكون من وحدات أساسية تدعى نوبات، وأصل هذه اللفظة ان الموسيقيين كانوا يتناوبون الغناء حسب تلاحينهم الخاصة ، ولكل نوبة طبع أي نغمة معينة كما ان لكل نوبة خمسة ميازين ، وقد احتفظ المغرب باحدى عشرة نوبة أو طبع (modes) وهي المَايَة ، ورمل الماية ، والعشاق ، والأصبهان ورصد الذيل والاستهلال والحجاز الكبير، وعرق العجم والغريبة ، والحجاز المشرقي والرصد .

ولكن الميازين نفسها لم يبق منها إلا خمسة ، والخامس من ابتكار المغاربة وهو الدرج ، والباقي هو البسيط ، والقائم ونصف ، والبطايحي ، والقدام .

وهكذا يبدأ الجوق أولاً بتقديم الآلات ثم يشرع في التوشية وهي قطعة صامتة ذات إيقاع معين ، كما يتنقل في الميازين الخمسة على الترتيب السابق الذي ينتهي بالدرج .

ولكل من هذه الميازين وحدات موسيقية . إما من نوع التواشيح أو الزجل أو الشعر العربي الفصيح المنظوم في احد البحور العادية . وهذه الوحدات تدعى صنائع ، وقد تتعدد كثيراً من حيث اللحن .

وللطبوع أو النوبات الاحدى عشرة معانٍ خاصة شرحها الأستاذ محمد الفاسي في محاضرة قيمة : [1]

1 – المايـــة : تدل على الفرقة واصفرار الشمس .
2 – العشاق : تدل على طلوع النهار وتدفق الماء وفصل الربيع .
3 – الأصبهان : الإستعطاف والرحمة .
4 – رصد الذيل : الصبر والاستسلام .
5 – الاستهلال : تذكر الفرقة وهجران الحبيب .
6 – الحجاز الكبير : بلوغ الأماني والشعور بالاطمئنان والسعادة .
7 – عرق العجم : اليأس وانقطاع الأمل .
8 – الغريبة : الحزن والأسى .
9 – الحجاز المشرقي : الرقة واللطف .
10 – الرصد : العزة والاباء .
11 – رمل الماية : في الأصل للتغزل ثم تحول لمدح النبي (ص) وما تتمثل فيه صفات السمو والجلال .

هذه أهم ميزات الموسيقى الأندلسية المغربية التي كادت تندثر لولا عناية بعض الهيئات الفنية التي عملت على بعثها من جديد . وقد كانت فاس والرباط وتطوان أهم مراكز هذه الموسيقى، ولا يزالُ لها قصب السبق حتى الساعة .

(1) العلم 12 يناير 1962 الأستاذ محمد الفاسي .

بنو وطاس

(876 – 961 هـ / 1471 – 1553 م)

1) **العالم في هذا العصر .**

2) **نشأة الدولة وتطور الأحداث في عهدها :**

أصل الوطاسيين – عوامل تأسيس الدولة – محمد الشيخ (876 – 910) – فتح فاس وبناء شفشاون – الحركات الانفصالية – تدخل البرتغال في عهد محمد الشيخ – أبو عبد الله محمد البرتغالي (910 – 932) – تدخل البرتغال في عهده – ظهور السعديين – أبو حسون علي بن محمد (932) – أبو العباس أحمد (32 – 956) – اشتداد الصراع بين الوطاسيين والسعديين – أبو حسون (961) – نهاية الدولة .

3) **عوامل سقوط الدولة .**

4) **أهمية أعمال الدولة .**

5) **السياسة الداخلية .**

6) **علاقات المغرب الخارجية :** مع الدولة العثمانية – مع السودان – مع الشرق الإسلامي – مع الدول المسيحية : (البرتغال ، بريطانيا ، فرنسا) .

7) **الحياة الدينية :** تطور الحركة الصوفية – حياة بعض كبار المتصوفة : (عبد العزيز التباع – عبد الله الغزواني – أحمد زروق ومتصوفة آخرون) – اليهود والنصارى .

1 - العالم في هذا العصر

العالم الاسلامي :

يمثل هذا العصر فترة بسط النفوذ العثماني على كثير من دول العالم ، بعد أن تمكن محمد الثاني من فتح القسطنطينية سنة 1453 أي قبل ظهور الوطاسيين. ولقد قام هذا السلطان بجهود عظيمة في نشر الحضارة بالبلاد التركية ، فأنشأ الخزائن والملاجىء والمستشفيات والترسانات ، ووسع نفوذه في البلاد المجاورة ، وأخضع المجر بعد حروب عنيفة كما شمل نفوذه بلاد اليونان ، وأناخت عساكره بكلكلها على جيوش البنادقة الذين تخلوا مكرهين عن سيطرتهم على البانيا لصالح محمد الفاتح منذ سنة 1479 م .

وامتاز عهد السلطان سليم بن بايزيد بفتوحات عظيمة في البلاد الإسلامية ، فضم إليه سورية سنة 1516 م بعد أن فشلت جهود قانصو الغوري في المحافظة عليها حتى لقد لقي حتفه فيما هو يلوذ بالفرار في معركة مرج دابق الحاسمة ، ولم تكد تمضي سنة على فتح سورية حتى تمكن السلطان سليم من فتح مصر وسحق المماليك الجراكسة بها . كما اعتقل آخر خلفاء الدولة العباسية ، المتوكل على الله وشنق السلطان طوماي باي. وكان سليم مشهوراً بشدة بطشه ، فقاتل سلطان العجم اسمعيل حتى اقتحم عاصمته تبريز سنة 920 ﻫ .

وعاد سليمان القانوني يدوخ جيوش المجر التي عانت هزائم منكرة منذ عهد محمد الفاتح حتى لقد توغلت الجيوش العثمانية في الأراضي النمساوية ، وحاصرت فينا سنة 937 ﻫ ولم تمض بضع سنوات حتى احتلت فارس وبسطت نفوذ الدولة العثمانية على الولايات التابعة لها .

والحق أن العثمانيين طيلة هذه الفتوحات الواسعة، لم يتخلوا عن الإهتمام بترقية الآداب والعمران فضلاً عن اهتمامهم بإنشاء قوة بحرية ضخمة طالما بثت الرعب على طول سواحل البحر المتوسط .

أما افريقيا الشمالية، فقد تحولت كثير من موانئها الى مراكز للجهاد البحري بعد أن هاجرت إليها أسر عديدة من الأندلس . وكان المغربان الاوسط والأدنى أكثر تعرضاً للخطر الاسباني بسبب ما آلا إليه من تفكك سياسي حتى لقد احتل الأسطول الاسباني مرسى الكبير سنة 932 هـ. وقتل أزيد من أربعة آلاف جزائري في وهران التي تم احتلالها بعد بضع سنوات من احتلال مرسى الكبير ، ثم تساقطت مراكز المغرب الاوسط شيئاً فشيئا في يد الإسبان الذين صاروا سادة على طول ساحل هذا القطر .

وكان استيلاؤهم على مراكز الشمال الافريقي مُرَكَّزاً في الموانىء الساحلية مثلما فعل البرتغال أيضاً وقد تعرض سكان المغرب الاوسط للنهب والقتل مراراً على أيديهم، بيد أن ظهور الاخوين عروج وخير الدين التركيين قد هيأ لهذا القطر في شخصهما خير مدافع عن ترابه في حقبة عز فيها النصير ، وسرعان ما تمكن عروج من إنقاذ مدن المغرب الاوسط من الاحتلال الإسباني بعد صراع مرير ، بينما وجه أخوه خير الدين ضرباته إلى إفريقية التي احتلها باسم الباب العالي سنة 942 هـ (1535) فانتهت بذلك دولة الحفصيين التي استمرت في الحكم أربعة قرون وسرعان ما شهد هذا القطر أحداثا مولمة في أواسط القرن العاشر الهجري بسبب تدخل شارلكان امبراطور النمسا ، والمذابح التي قام بها الاسبانيون .

العالم المسيحي :

كان لظهور الدولة العثمانية والقضاء على البيزنطيين أثر بارز في تحول الأحداث السياسية بأوروبا التي أضحت تشعر بخطر محقق أمام الزحف العثماني السريع ، وفي هذا العصر ظهرت الدولتان الاستعماريتان الأوليان في تاريخ أوروبا الحديث ، وهما البرتغال واسبانيا . وقد انطلق المغامرون من كلتا الدولتين يجوبون بقاع الأرض التي كانت مجهولة لدى الاوروبيين إلى ذلك الحين على الأقل ، فوصلت

سفنهم إلى الهند ورأس الرجاء الصالح ، كما تمكن الاسبان من وضع أقدامهم لأول مرة بأمريكا بفضل كريستوف كولومبس الايطالي الذي اكتشفها سنة 898 (1492) وكان للبرتغال مستعمرات في الهند والصين وافريقيا وأمريكا . ولما كان هؤلاء وأولئك يبحثون عن الذهب في المناجم ، فقد اضطروا إلى استقدام أيد عاملة جديدة من افريقيا ، وكانوا يشترونهم كعبيد بأبخس الأثمان ويسوقونهم مغلولين إلى السفن التي تشحنهم إلى أمريكا . ومن ثم نشأت طبقة السود بأمريكا ، تلك الطبقة التي لا تزال حتى الساعة تعاني الأهوال من التمييز العنصري .

وشهد العصر الوطاسي ثم السعدي صراعاً مريراً بين الكاثوليكية وغيرها من المذاهب الدينية المسيحية التي ظهرت في النصف الأول من القرن السادس عشر ، وذلك بسبب الثروات الطائلة التي نعم بها رجال الكنيسة ، وشهدت البابوية محنة ما تقدم نظيرها في تاريخ المسيحية ، ودعا لوثر الألماني إلى رفض طاعة البابا والرجوع إلى الكتاب المقدس مباشرة مما يذكرنا بموقف المنصور الموحدي من المذاهب الفقهية في الإسلام . وفي لجة هذه الأحداث، كانت المطبعة قد شقت طريقها بين دروب النهضة الحديثة ، فكان فضلها في نشر المعرفة والعلوم لا يقدر بثمن .

2 - نشأة الدولة
وتطور الأحداث في عهدهـــا

أصل الوطاسيين :

ليس من اليسير تحديد أصـــل بني وطاس ، لأن بني مرين لم يكونوا قبيلة واحدة ، بل كانوا قبائل متعددة . وإذا أخذنا بقول صاحب الذخيرة [1] ، فإن بني وطاس ينتمون إلى صنهاجة ، وبالتالي إلى المتونة ، فهم كما يقول هذا المصدر : « من ولد وطاس بن المعز بن يوسف بن تاشفين ، ملك المغرب بأسره ، والأندلس بأسرها (؟) وبلاد القبلـة إلى السودان ، وخطب له على أزيد من ألفي منبر ، وبنو وطاس يجمعون على ذلـك ، والقوم أعرف بأنسابهم . وسبب دخولهم في قبائل بني مرين أنه لمـــا انقضت أيامهم وغلبهم الموحدون على ملكهم ، خرج جدهم وطاس بن المعز بن تاشفين، فاراً بنفسه من تلمسان أمام عبد المومن بن علي أمير الموحدين القادمين عليهم ، فلحق ببلاد الزاب ، ولجأ إلى أحيـاء بني مرين فاستجار بهم فأجاروه ، فلم يزل مقيماً بـين أظهرهم هو وبنوه وذريته من بعده في أحسن جوار وأعز دار إلى أن ظهر بنو مرين على المغرب ، وغلبوا الموحدين على ملكهم ، واستوطنوا بلاده ، فكانوا من جملة قبائلهم محسوبين في عددهم ، وكان لهم فيهم رياسة » .

وقد بدأت المحاولات الأولى لانتقـاض الوطاسيين على بَني عبد الحق ، وهؤلاء ما يزالون في حرب مع الموحدين[2] ، أي حوالي سنة 646 هـ ممـا جعل

(1) الذخيرة السنية ص 19 لمؤلف مجهول .
(2) الذخيرة السنية ص 80 .

الأمير أبا يحيى يرحل عنهم من كان معهم من بني مرين ، كما ساعد الوطاسيون بني غانية من قبل ، في حربهم مع الموحدين ، ولما قدموا من المغرب الأوسط مع بني مرين ، أقطعهم يحيى ناحية الريف، وكان مركزهم هناك بحصن تازوطا ، ولكنهم ثاروا مرة أخرى على الدولة المرينية ، حيث طردوا عامل يوسف بن يعقوب سنة 691 هـ ، مما جعل السلطان يتدخل بنفسه لوضع حد لهذه الثورة كما مر في ذكر أعماله ....

وقد كان المرينيون مع ذلك يتقون شرهم ، بتعيينهم في الوظائف السامية ، وكان بينهم القاضي المشهور أبو الحسن الصغير ، والوزير زيان بن عمر ، والوزير أبو زكرياء يحيى .

عوامل تأسيس الدولة

سواء أكانت دولة بني وطاس امتـــداداً لدولة بني مرين أو محاولة لإعادة حكم الصنهاجيين وهو ما نميل إلى اعتقاده، فقد كان بنو وطاس يرمون إلى محاولة انقاذ البلاد من الفوضى التي ضربت اطنابها يومئذ في كل ربع من ربوعها،حيث تشوق إلى ملك المغرب كل من الاسبان والبرتغال ، فضلاً عن الخطر الذي كان يهدده من الأتراك الذين تمكنوا من الاستيلاء على المغرب الأوسط قبـــل قيام الوطاسيين .

وإذا أضفنـــا إلى ذلك مشكلة هجرة الأندلسيـين إلى المغرب ، وبعض المحاولات التي تجلت في عدد من المدن من أجل تأسيس إمارات أو جمهوريات صغيرة مستقلة ، عرفنـــا نوايا الوطاسيين وبعض العوامــل البارزة التي أدت إلى تأسيس دولتهم ، وقد كانت رغبتهم صادقة في توحيــد صفوف المغاربة تحت ادارة مركزية يخضع لهـــا الجميع ، حتى يمكنها مجابهة الخطر الخارجي الذي اندلعت ناره من كل جـــانب ، وإذاً يمكننا أن نلخص عوامــل تأسيس دولة الوطاسيين فيما يلي :

1 ـ محاولة إيجاد حكومة مركزية يعترف بشرعيتها كل المغاربة .

2 – محاولة ضبط الشؤون الداخلية ، سياسياً وإدارياً حتى يتم القضاء على أصحاب الفتن ، ويستعيد المغرب ازدهاره .

3 – محاولة القضاء على الخطر الخارجي .

وسنرى إلى أي حد ، وفق الوطاسيون أو فشلوا في المهمة التي من أجلها قامت دولتهم، مع العلم بأن هذه العوامل تتقارب في الواقع مع أهداف الدولة .

محمـــد الشيـخ

(876 – 910 هـ / 1471 – 1505 م)

فتح فاس وبناء شفشاون 876 هـ :

نجا محمد الشيخ من بطش عبد الحق بن أبي سعيد سنة 863 هـ ومعه محمد الحلو من بني وطاس ، وكان محمد الشيخ قد وجه همه منذ البداية إلى محاولة انقـــاذ ما يمكن انقاذه من الاحتلال الأجنبي . فاستولى على أصيلا التي كان البرتغال قد تشوفوا إلى الاستيلاء عليها وبدأوا يستعدون لذلك ؛ وأثنـــاء ذلك كان يدعو لنفسه سراً ، إلى أن تمكن من الاستيلاء على فاس سنه 876 هـ (1465 م) ولجأ أبو عبد الله الحفيد الذي نصبه أهل فاس إلى تونس، وفيما كان محمد الشيخ يحاصر فاساً ، استولى البرتغال على أصيلا ، فاضطر إلى عقد هدنة معهم قبل أن يفرغ من فتح فاس .

وفي هــذه السنة تم تأسيس شفشاون على يد الحسن بن محمـد من سلالة عبد السلام بن مشيش الصوفي المشهور ، والحسن هذا هو أحد الزعماء الذين ترأسوا المقاومة بناحية سبتة، ثم استقل بالمدينة بعد مقتل الحسن، ابن عمه علي بن موسى ابن راشد ، وبقيت بأيدي أبنائه وذريته أزيد من قرن ، وقد تمكن محمد الشيخ مع ذلك من التغلب عليهم ، ولكنه ترك المدينة تحت حكمهم المباشر[1] .

---

(1) منظومة محمد الكراسي ـ تاريخ تطوان 1 ص 149 لمحمد داود .

الحركات الانفصالية :

تمزقت الوحدة السياسية في المغرب بشكل خطير في عهد محمد الشيخ . وقد رفض كل من بني راشد وأبي الحسن المنظري الهدنة التي عقدها محمد الشيخ مع البرتغال في عهد ألفونس الخامس ، فظلوا يضايقون الجيش البرتغالي عند أصيلا حيث تمكنوا من تحطيم عدد من سفنهم بخوضها .

ولم يكن بنو راشد وحدهم ممن انفصلوا بشكل أو بآخر عن الحكومة المركزية ، فقد ظل بنو هنتاته منذ عهد الموحدين مستقلين استقلالاً ذاتياً بمراكش ، واستمر أمرهم كذلك في عهد بني وطاس . بينما قامت دويلة صغيرة من بني مرين بـدَبْدُو ، حيث أسسوا قصبة كبيرة . واضطر محمد الشيخ إلى أن يخطب ودهم في النهاية عن طريق تزويج بنتين له وذلك بعد محاولات فاشلة لإخضاعهم ، وكان زعيم ثورتهم محمد بن أحمد المريني الورتاجني . وكانت مدينة أنفا شبه جمهورية مستقلة في أواخر عهد بني مرين مع خضوعها في فترات طويلة للبرتغال . وفي الجنوب ثار شخص يدعى عمرو بن سليمان المغيطي الذي اشتهر بالسياف ، وذلك منذ قتل الإمام محمد بن سليمان الجزولي سنة 870 هـ الذي قيل إنه مات مسموماً على يد بعض الفقهاء وكان يدعي العلم بالغيب ويطوف بشلو الشيخ الجزولي مثيراً بذلك عطف الناس حتى ينتقموا له ، واستمرت ثورته نحو عشرين سنة ، وقد قتل فيما يقال سنة 890 هـ على يد زوجة الجزولي أو بنته ، ولم يظهر أثر لتدخل محمد الشيخ في الجنوب بالرغم من خطورة انتفاضاته ، وفي أوائل دولة محمد الشيخ بدأ اختطاط تطوان الجديدة على يد أبي الحسن المنظري الذي استقل بدوره بهذه المدينة وتزعم حركة المقاومة ضد برتغال سبتة . وقد تمت عمارة المدينة بسبب أفواج الأندلسيين الذين اختاروها مقراً لهم ضمن الأماكن الأخرى التي لجأوا إليها بعد سقوط غرناطة سنة 898 هـ ولم يكن أبو الحسن المنظري بقادر على مقاومة المسيحيين بالأندلس حيث كان يحالفهم ابن الأحمر[1] وكان ضمن القادمين من الأندلس أبو عبد الله بن الأحمر آخر ملوك غرناطة الذي فضل المقام بفاس

(1) Cour Auguste: Le Dynastie Marocaine des B. Wattas, p. 78.

على الرغم من العروض التي تلقاها من عدة ملوك بالشرق. وقد توفي قتيلاً في بعض حروب الوطاسيين مع السعديين سنة 946 هـ .

تدخل البرتغال في عهد محمد الشيخ :

بدأ استيلاء البرتغال على الثغور المغربية منذ عهد أبي سعيد عثمان المريني :

1 – احتلوا سبتة سنة 818 هـ (1415 م) ثم القصر الصغير سنة 1458 م .

2 – سنة 1468 م (873 هـ) أي في عهد أبي عبد الله الحفيد ، استولوا على آنفا ، وكانت شبه جمهورية مستقلة منذ أواخر عهد بني مرين ، وكان احتلالها على يد دون فرديناند الذي قاد لفتحها أسطولاً من خمسين قطعة وجيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل . وبعد أن هدموها بنوا مكانها مدينة جديدة باسم الدار البيضاء[1] ، ولم يشرعوا في بنائها إلا حوالي سنة 921 هـ .

3 – سنة 876 (1471) أي عند قيام دولة الوطاسيين ، احتل البرتغال أصيلا بأسطول من 308 باخرة وثلاثين ألف مقاتل ، وبلغ أسراهم المغاربة خمسة آلاف كما بلغ قتلاهم من المغاربة ألفين . وقد عمدوا فور احتلالهم لأصيلا إلى تحويل مسجدها الأعظم إلى كنيسة . ولم تلبث طنجة أن سقطت في أيديهم في نفس السنة. وحاول السلطان محمد الشيخ أن يهاجم سبتة سنة 1476 م . كما هاجم البرتغال عند أسفل وادي اللكوس سنة 1489 م ووفق في هذه المرة إلى حملهم على الانسحاب من حصن أقاموه هناك وعقد هدنة معهم . وبفضل مقاومة مجاهدي سلا وتطوان ، فشل البرتغال في احتلال القصر الكبير سنة 1503 بينما استطاع الاسبان أن يحتلوا مليلية سنة 1496 م .

4 – سنة 910 هـ (1505 م) احتلوا موقع أكادير الحالية وبنوا بها حصناً يتوفر على عين ماء طبيعية وسموه حصن فونتي . وفي هذه السنة توفي محمد الشيخ مسموماً على الأرجح ، ومعه أربعون رجلاً لقوا نفس المصير[2] .

(1) Castonnet des Fosses : Les Portugais au Maroc P. 10.

(2) تاريخ الدولة السعدية الدرعية ص 15 لمؤلف مجهول .

أبو عبد الله البرتغـــالي

(910 — 932 هـ / 1505 — 1524 م)

بعد وفاة محمد الشيخ تولى ولده محمـد المدعو بأبي عبد الله البرتغالي ، ولقب بالبرتغالي لأنه كان قـد أقام رهينة لدى البرتغال في صباه على اثر هدنة عقدها معهم والده .

تدخل البرتغال في عهد أبي عبد الله محمد :

بالرغم من أن أبا عبد الله البرتغالي تصدى لحرب البرتغـــال ، مهاجمتهم في في المواقع التي احتلوها منذ عهد والده، فقد واصل هؤلاء احتلال مراكز أخرى من المغرب :

1 — سنة 918 هـ — 1507 م تمكنوا من احتلال آسفي بواسطـة قوة بحرية صغيرة لم تكن تزيد على بضع بواخر وألف وخمسمائة رجل، وقد بدأوا محاولتهم لاحتلالها قبل ذلك عن طريق الاستعمار الاقتصادي ، حيث تمكنوا من بنـاء مركز تجاري بها وكانت يومئذ خارجة عن نفوذ الوطاسيين تحكمها عائلة بربرية وكانت مقاومة أهلها عنيفة بالرغم من انها لم تكن تتوفر على حامية [1] .

2 - سنة 919 — 1513 احتلوا أزمور بعد محاولات فاشلة لبناء حصن بها قبل هذا التاريخ[2] ويفهم من اضطراب بعض الروايات التي تتحدث عن احتلال أزمور أن محاولات الاستيلاء عليها تعددت قبل السنة المذكورة [3] .

3 — سنة 907 — 1502 ، احتلوا ساحل البريجة وكان يوجد به برج يسمى برج الشيخ ، ثم بنوا في السـاحل المذكور التحصينات الأولية لمدينـة الجديدة ، وقد تم احتلال تيط في نفس التاريخ .

---

(1) Léon, Description de l'Afrique T 1. P. 118

(2) Caillé, La Petite Histoire du Maroc p. 67.

(3) أنظر مجموعة اوكاسلري البرتغال / ج 1 ص 394 وكتاب La Petite Histoire du Maroc. Les Portugais au Maroc. والاستقصا ج 4 ص 142 .

4) سنة 921 (1515) احتلوا المعمورة ، أي المهدية القريبة من القنيطرة . وحاول الناصر أخو السلطان إنقاذها بواسطة قوة بحرية ، ولكنهم تمكنوا بعد انهزام أولي من احتلالها وبنوا بهـا تحصينات ثم استرجعها أبو عبد الله البرتغالي حوالي سنة 926 هـ . وفي سنة احتلال المعمورة من طرف البرتغال بدأ بناء الدار البيضاء وكان موقعها يحمل هذا الإسم قبل هذا التاريخ بزمن طويل .

نشاط أبي عبد الله ضد البرتغال :

حاول أبو عبد الله أن يسترد أصيلا سنة 914 هـ حيـــث تمكن من اقتحام المدينة ، لولا تدخل نجدات برتغالية وردت في آخر لحظة ، كما انه لم يوفق في استرداد طنجة بعد سبع سنوات من هـذا التاريخ . وفي سنة 1514 م خرب رباط تيط الذي كان قد لجأ إليه البرتغال. ثم في سنة 1515 م حاول أن يستأنف الهجوم على أصيلا فأخفق في الاستيلاء عليهـا ، ولكنه تمكن من استرجاع المهدية كما تقدم .

ظهور السعديين :

ولم يلبث أبو عبـــد الله في الملك سوى حوالي خمس سنوات حتى ظهر الأشراف السعديون بناحية السوس التي اشتغـل أهلها بحرب البرتغــال الذين استقروا هناك بحصن فونتي كما تقدم . ورأى السعديون الفرصة سانحة للتدخل، فقادوا الحرب في البداية باسم الجهاد ضد النصارى ،حتى إذا آنسوا من أنفسهم الاستعداد للثورة ضد الحكم القائم ، استعانوا بأمراء هنتاتة ، واحتلوا مراكش سنة 930 هـ . وبينما كان أبو عبد الله البرتغـالي يحاصر السعديين في مراكش وأميرهم يومئذ أبو العباس الأعرج بلغه خبر انتفاض فاس ومبايعة أهلها لأحد إخوته ففك الحصار عن مراكش،وعاد إلى فاس ليقتص من ثوارها ، ثم لم يلبث أن توفي سنة 932 هـ .

أبو حسون

(932 هـ / 1524 م)

أبو الحسن علي بن محمد الشيخ تولى بعهد من أخيه أبي عبد الله البرتغالي ، وكان يلقب بأبي حسون ، ولكنه لم يلبث في الملك بضعة أشهر حتى خلعه ابن أخيه أحمد في نهاية سنة 932 هـ ، وكان مشهوراً بالبخل[1] .

أبو العباس أحمد

(932 — 956 هـ / 1524 — 1548 م)

أبو العباس أحمد بن محمد الوطاسي تولى بعد خلع أخيه في نهاية سنة 932 هـ . وبما أن الخطر السعدي كان قد بدأ يستفحل يومئذ ، حيث ان الأشراف لم يكتفوا بالاستيلاء على ناحية السوس بل بدأوا يوسعون رقعة نفوذهم شمالاً وشرقاً ، فإن أبا العباس قد اضطر إلى عقد هدنة جديدة مع البرتغال الذين كانوا قد احتلوا مواقع كثيرة من بلاد الهبط (الغرب) وكان مركزهم فيها يومئذ بأصيلا . وكان هدف أبي العباس محاصرة مراكش والتخلي مؤقتاً عن حرب البرتغال . وبقرب هذه المدينة عند زاوية سيدي رحال الكوش تم اللقاء بين أبي العباس الأعرج وأبي العباس الوطاسي في مكان يعرف بآنماي ولكن الجيش الوطاسي انسحب بعد قليل ، دون أن يظفر بدخول مراكش التي تكررت محاولات فتحها عبثاً بعد معركة آنماي سنة 935 هـ .

والظاهر ان الشعب المغربي نفسه قد سئم من الانقسامات السياسية التي استغلها المسيحيون لصالحهم ، فتوسعوا في أطراف المغرب التي استعمروها سياسياً واقتصادياً ، فتولى جماعة من العلماء والصلحاء أمر الصلح بين أبي العباس الوطاسي وأبي العباس الأعرج ، وكان بينهم أبو الرواين المحجوب ، وأبو حفص عمر دفين زهون ، وعبد الواحد الونشريسي وغيرهم ، وتم الاتفاق كتابة على أن

(1) منظومة الكراسي : تاريخ تطوان 1 ص 153 لمحمد داود .

يكون ما بين تادلا والمغرب الأوسط للوطاسيين وما بين تادلا والسوس للسعديين وكان ذلك سنة 940 هـ .

والظاهر أن السعديين لم يحترموا نصوص المعاهدة ، حيث لم تحل نهاية سنة 942 هـ حتى أعدوا العدة لدخول فاس العاصمة ، ولكن أبا العبـاس الوطاسي لاقاهم بجيش جرار عند مشرَع أبي عقبة قرب وادي العبيد بتادلا . وبعد عراك استمر عدة أسابيع انهزم الوطاسيون مخلفين مئات من القتلى كما استولى أحمد الأعرج على قصبة تادلا في أوائل صفر 943 هـ . وكانت وقعـة أبي عقبة من أهم المعارك الفاصلة بين الفريقين . وبعد هذه الأحداث استولى محمد المهدي السعدي على الملك من يد أخيه أحمد وتجدد اللقاء بين الوطاسيين والسعديين بتادلا عند وادي درنة سنة 952 حيث انهزم الوطاسيون وتم أسر قائدهم الأمير أبي زكرياء يحيى نجل أبي عبد الله البرتغالي .

واستمر السعديون بعد ذلك ينقضون على المراكز الوطاسية على التوالي إلى أن تمكنوا من الوصول إلى فاس التي حاصروها مدة سنة واستولوا عليها عام 956 بعد أن قتلوا الفقيه الونشريسي غدراً ولم يكد محمد المهدي يستولي على فاس حتى اعتقل الوطاسيين وعلى رأسهم أبو العباس الذي عاش تحت الحراسة بمراكش إلى سنة 960 هـ وفيها كانت وفاته . وكان أبو العباس الوطاسي كباقي أسلافـه شديد الاعتقاد في الصلحاء يعمل بتوجيههم ويتقرب إليهم . وكان الفقيه عبد الواحد الونشريسي من أبرز مستشاريه[2] وقد نجا من قبضة السعديين أبو حسون الوطاسي الذي لجأ إلى الترك بالجزائر .

وأثناء هذه الأحداث لفظت بقايا دولة بني زيان بتلمسان أنفاسها بعـد أن استولى الإسبان ثم الأتراك على معظم المغربين الأدنى والأوسط ولجأ الأمير أحمد

---

(1) الإستقصا ج 4 / ص 151 للناصري .

(2) تم اعتقال أحمد الوطاسي مرتين كما سيتضح عند الكلام على عهد محمد المهدي السعدي ، ولكن المصادر لا تتفق فيما إذا كان إعتقاله مرتين .

الزياني وحاشيته إلى ديدو التي استولى أميرها عمر المريني سنة 952 على أموالهم وأساء معاملتهم على الرغم من إلتجائهم إليه .

أبو حسون الوطاسي

(961 هـ / 1553 م)

تقدم أن أبا حسون الوطاسي تولى الملك بضعة أشهر سنة 932 هـ وبعد اعتقال المهدي السعدي للوطاسيين سنة 956 ، فــر أبو الحسن إلى الجزائر مستنجداً بأتراكها بعد أن حاول الاستنجاد بملك إسبانيا ثم البرتغال . وفي سنة 961 تمكن من إقناع الأتراك بمساعدته ووعدهم بالأموال والغنائم وقدم الجيش التركي بقيادة صالح التركماني ودخل فاساً بعد معارك شديدة مع السعديين . أمـا محمد المهدي فقد فر إلى الجنوب في انتظار إعادة الكرة على فاس . ثم انصرف الجيش التركي بعـد أن ضايق سكان فاس واعتدى على الأعراض ، وبدأ في النهب والسلب . وحينئذ قـــدم الجيش السعدي من مراكش في أواخر سنة 961 واستولى على فاس من جديد بينما قتل أبو حسون في معركة فاصلة بتادلا في نفس السنة .

3 - عوامل سقوط الدولة

1) كان الغزو الأجنبي أعظم خطر هدد الوطاسيين منذ نشأة دولتهم ، لأن البرتغال على الخصوص فتحوا عـدة واجهات حربية بالمغرب في أوقات متقاربة وكانوا أعظم تسلحاً وتنظيماً . وهدد الاسبان بدورهم شمال المغرب ،لأنهم احتلوا مليلية منذ سنة 1496 م .

2) احتفظت عدة مراكز باستقلال ذاتي كمراكش وتطوان وشفشاون التي احتفظ بإدارة كل منها عائلة معينة يتوارث أفرادها رئاستها . ولم يكن هذا

الاستقلال الذاتي بطبيعة الحال مما يحفظ للدولة هيبتها ويسهل مهمتها الحربيـــة والإداريـــة .

3) اشتد نفوذ الصلحاء بشكل لم يعرف لهمثيل من قبل.وفزع الناس إليهم بعـــد أن لمسوا ضعف الدولة وعجزها عن حماية الأراضي المغربية من الاعتداء الأجنبي . وقـام بعضهم بالتوجيه الروحي وآخرون بالقيادة الفعلية في عدد من الواجهات محاولين بذلك أن يدرأوا عن البلاد مـا تعرضت له من الإحتلال ولكن كثيراً من الخوارق نسب إلى بعضهم . ووجد الدجالون بدورهم سبيلاً إلى قلوب العامة السذج . كما فعل عمرو بن سليمان السياف الذي استمرت ثورته عشرين سنة ضد الدولة نفسها .

4) كاد قيام السعديين يساير قيام الدولة الوطاسية، فشغلوهم بذلك عن صد الخطر الأجنبي طيلة عقود من السنين، ولم يعدوا إليهم صادق العون حتى في أحرج الظروف . واستَغَلّ السعديون نسبهم إلى آل البيت وهم معظمون في قلوب المغاربة فراحوا يعملون على تحويل الأمر إلى أيديهم ولعلهم وفقوا حيث فشل الوطاسيون .

5) الظاهر أن الوطاسيين لم يكونوا قساة أو سالكين سبيل الصرامة على الأقل ضد المتمردين على الدولة . وكانوا على العموم يسايرون الرغبة الوطنية حتى ولو كانت مصلحة الدولة في غير تحقيقها . كمـا أنهم لم يستعملوا بعض الوسائل التي لجـأ إليها بعض أسلافهم من ملوك الدولة عندما تدعو الحاجة كاغتيال خصومهم وتفقيرهم ونحو ذلك.فكانت استقامتهم في تلك الظروف وبالاً عليهم.

6) لم يحاول الوطاسيون أن يدخلوا تطوراً يذكر على خططهم العسكرية أو أسلحتهم التي ظلت دون أسلحة أعدائهم الأجانب كماً وكيفاً، لأن مصانعهم الحربية كانت لا تفي بحاجة البلاد فضلاً عن افتقارهم إلى الجيش المنظم الكافي من حيث العدد .

4- أهمية أعمال الدولة

عجـز الوطاسيون عن توحيد المغرب سياسياً فكانت هناك مراكز كثيرة خارجة عن نفوذهم :

1 – مليلية وغساسة بيد الاسبان .

2 – سبتة وطنجة وأصيلا وبلاد الهبط والقصر الصغير وأزمور ومازيغان (الجديدة وأسفي وأنفا وأكوز على شاطىء المحيط عنـــد وادي تانسيفت) وأكادير وماسة بيد البرتغال .

3 – تطوان بيد بني المنظري .

4 – شفشاون (أو شيشاون أو الشاون) بيد بني راشد .

5 – دبدو وتازوطا بيد بني مرين .

6 – مراكش بيد هنتاتة ، بالإضافة إلى مراكز ثورية بيد أشخاص مختلفين وأخيراً فإن منطقة السوس خضعت عملياً لنفوذ السعديين منذ أيام أبي عبد الله البرتغالي . أمـــا عموم منطقة الريف وسهول المحيط وجبال الأطلس والنواحي الشرقية والجنوبية الشرقية ، فقد كان نفوذ الوطاسيين فيها قوياً بوجه عام كما أن بعض المراكز المستقلة كشفشاون وتطوان كانت تتعاون تعاوناً وثيقاً معهم بحكم الصهر الذي ربـط ملوكهم بهذه المراكز . أو اعترافاً بالسيادة الرسمية للحكم القائم بفاس .

وبالرغم من أن بدو العرب ظلوا ينهبون بعض المناطق الغنية ،وأن عدة قرى ومدن قد قل عمرانها بسبب عدم الإستقرار السياسي . فلا نرى أن وجودهم قد

وضع مشكلة عنصرية كما يتوهم بعض المؤرخين ، كما ان هؤلاء العرب لم يعد لهم أثر سياسي يذكر في توجيه الدولةالتي كانت على العكس من ذلك تستخدمهم باطمئنان في معاركها .

ولم يحاول الوطاسيون أن يلجأوا إلى عون خارجي إلا في آخر لحظة من حياةدولتهم وكانوا في ذلك يراعون الشعور الوطني ولكنهم مع الأسف لم يحددوا لسياستهم خطة معينة منذ البداية ، مثلما فعلت دول المغرب التي سبقتهم ، فترددوا بين محاربة المسيحيين المهاجمين وبين الخضوع لتوجيهات الصلحاء ومقاومة بعض الحركات الانفصالية أحياناً والإغضاء عن نشاط بعضها أحياناً .

على أن كل هذه الاعتبارات لا ينبغي أن تنسينا أن الوطاسيين قد بقوا وحدهم تقريباً بين الدول الإسلامية التي لم تخضع لنفوذ أجنبي . فقد تهافت البرتغال والإسبان والعثمانيون وغيرهم من الدول القوية يومئذ على الممالك والدول الضعيفة التي غلبت على أمرها فأصبحت تشكل أجزاء من الإمبراطورية الإستعمارية . وقد عمد الوطاسيون إلى الإعتراف بالسيادة الرسمية للخليفة العثماني دون أن يكون للأتراك نفوذ مباشر . وحتى بالنسبة إلى البرتغال والاسبان الذين تسلطوا على الشواطىء المغربية فإنهم في معظم الأحيان لم يتجاوزوا المراكز الساحلية إلى الداخل نظراً للمقاومة العنيفة التي أبداها الشعبيون فضلاً عن تدخل الوطاسيين .

ولم يخل عهد الوطاسيين مع ذلك من نشاط متعدد الوجوه سواء في العلاقات الخارجية أو في ميدان الفكر والعمران وما إلى ذلك من مظاهر الحضارة .

5 - السياسة الداخلية

قامت سياسة بني وطاس في الميدان الداخلي على الأسس التالية .

1 – الاكتفاء بنفوذ رمزي على بعض المراكز التي تصدت لكفاح المسيحيين مثل تطوان والشاون أوالتي عجزت الدولة عن اخضاعها حربيا ولكنها لم تر في رؤسائها رغبة في توسيع رقعة نفوذهم مثل دبدو .

2 – تعظيم الصلحاء والخضوع لتوجيهاتهم والإغضاء عن تدخلاتهم .

3 – مسالمة السعديين في أغلب الأحيـــان ، ولو أن هؤلاء كانوا يميلون إلى قلب الدولة بأي ثمن . على أن الاصطدامات الحاسمة بين الفريقين لم تبدأ إلا منذ عهد أبي العباس أحمد .

6 - علاقات المغرب الخارجية

1 – مع الدولة العثمانية :

اعترف الوطاسيون منذ البداية بالسلطة الرمزية للخليفـــة العثماني على بلاد المغرب فنقشوا اسمـه على السكة ، ودعوا له في خطبة الجمعة [1] . والظاهر أن اشتغـال الأتراك في الجزائر بحروب الاسبان قـد حال دون التفكير في تدخلهم المباشر بالمغرب إلى أن أقنعهم أبو حسون آخر أمراء بني وطاس بمساعدتـه على حرب السعديين، فوافق على ذلك القائد صالح الرايس والي الجزائر فيما بين سنتي 960 و 963 (1552 – 1555) ، وقـاد الحملة التركيـة إلى فاس سنة 961 هـ كما سلف . وبمجرد أن انتهت مهمة الجيش العثماني الذي استاء أهل فاس من تصرفاته،

(1) الترجمان المعرب ص 347 للزياني .

انسحب إلى الجزائر وبقي منه أفراد قلائل ، مما شجع محمد المهدي السعدي على القضاء بسهولة على دولة بني وطاس .

2 – مع السودان :

كان بين محمـد البرتغالي وملوك السودان علاقة وطيـدة حيث أن ليون الإفريقي صحب عمه في سفارة إلى محمد أسكيا الذي حكم من 1493 م إلى 1528 . وكان مرورهما عن طريق درعة حوالي سنة 1509 وظلت سجلماسة حتى ذلك الوقت مركزاً تجارياً عظيماً يتبادل تجارها البضائع مع مصر والسودان. وكانت القوافل تسير عن طريق ولاتا وبحيرة تشاد . أما الطريق التي كانت تقطعها القوافل خلال القرون الوسطى بين السودان ومصر عبر طرابلس وفزان فقد أهملت قبل ذلك بأكثر من قرن بسبب تسلط الأعراب[1]

3 – مع الشرق الاسلامي :

أما العلاقة مع دول الشرق الإسلامي فقد ضعفت عن ذي قبل ، خصوصاً وقد صارت كلها تقريباً تحت سلطة العثمانيين ، كما اشتد خطر القرصنة المسيحية في عرض البحر الأبيض المتوسط . ولكن ذلك لم يمنع من استمرار التبادل الثقافي وهجرة بعض رجالات المغرب إلى الشرق بقصد الحج أو الاستزادة من المعارف، وأحياناً للقيام بمهمة التدريس في تلك الأصقاع وكان ممن شدوا الرحال إلى الشرق الشيخ زين الدين بن عبـد الكريم المتوفي سنة 895 هـ والذي استقر ببيت المقدس . وعبد الرحمن بن سقين الذي درس على القلقشندي علوم الحديث وتابع دراسته على يد أبي فهد بمكة وغيره . ثم محمـد بن عبد الله الزقاق الذي درس بمصر على ناصر الدين اللقاني[2] ، وكانت وفاته ضرباً بالسياط سنة 961 هـ .

4 – مع الدول المسيحية :

فتح القرن الخامس عشر م ميداناً للغزو الاستعماري الذي شاركت فيه

---

(1) Raymond Mauny - Hespéris 3 et 4 - 1954

(2) معطيات الحضارة المغربية ج 1 / ص 91 و 92 لعبد العزيز بنعبد الله .

بعض الدول المسيحية بأساطيلها التجارية والحربيـــة وعلى الخصوص إسبانيـا والبرتغال. وكان المغرب ضمن الأقطار التي طمعت البرتغال في استغلالها الإقتصادي كما كان لهذه الدولة أسباب دعتها إلى تقوية وضعها عن طريق الإستيلاء على المواقع الستراتيجية بالمغرب. وكما كان للمغرب علاقات مع البرتغال بحكم الجوار من جهة، وبحكم الصراع السياسي الذي ظل قائماً بينهما لمدة طويلة من جهة أخرى، كذلك كان للمغرب علاقات مع دول أخرى كإسبانيا وفرنسا وغيرهما، ولحسن الحظ فإننا بفضل الوثائق التي دونها عدد من الرحالة الأجانب وكذا السجلات الرسمية التي احتفظت بهـــا المصالح المعنية بالأمر في الدول المذكورة أصبحنا نتوفر من المصادر المتعلقة بعلاقات المغرب مـع هذه الدول على ما يكفي لإعطـاء نظرة حقيقية عن الوضع السياسي وحتى الإقتصادي والإجتماعي للمغرب ابتـداء من القرن الخامس عشر الميلادي . وعلى العكس من ذلك فالوثائق التي لهـا ارتباط بعلاقات المغرب مع غير الدول المسيحية في عهد الوطاسيين قليلة نسبياً .

البرتغال :

لا فائدة من إعادة ذكر مراحل التدخل البرتغالي بالمغرب . ولكن ينبغي الإشارة هنا ببعض التفصيل إلى الأسباب التي عملت على تحقيق حلم البرتغال في الإستيلاء على الشواطىء المغربية :

1 ـ لم يكن المغرب من الإستعداد العسكري بحيث يستطيع أن يجابـــه بشكل إيجابي غزو البرتغال .

2 ـ كان البرتغال كالإسبانيين يحلمون بفكرة التعصب للمسيحية والعمـل لإعلاء كلمتها وطالما كانوا من أوائل المسيحيين الذين استجابوا بحماس لنداء البابا الذي كان يدعوهم إلى جهاد المسلمين وغزو بلادهم خصوصاً نداءه الموجـه إليهم بقصد توسيع فتوحاتهم سنة 1496 [1] .

3 ـ إن القوة البحرية التي توفرت عليها البرتغال في القرن الخامس عشر ثم

(1) Castonnet des Fosses, Les Portugais au Maroc p 11.

السادس عشر شجعتها بطبيعة الحال على امتلاك السواحل على الخصوص . أما القتال براً فكانوا فيه أقل استعداداً ومقدرة، أو على الأصح كانوا بالنسبة إلى المغاربة أقل شجاعة وبطولة ، لذلك نجحوا في احتلال المراكز الساحلية من حيث انهزموا انهزاماً ساحقاً في معركة وادي المخازن وفي معارك أخرى بالسوس والشمال .

4 – العامل الإقتصادي كان من أكبر عوامل الإستيلاء على المراكز الساحلية ، فقد كان البرتغال يبحثون عن منافذ لتصريف منتجاتهم التجارية ، والمغرب يومئذ من أكثر البلاد المستهلكة اقتصادياً لبعض المواد التي توقف عن إنتاجها أو لم يوفق بعد إلى إنتاجها كبعض أنواع الثياب والمدافع والسفن .

وكان البرتغاليون في مقابل ذلك، يحتاجون إلى بعض المواد التي كان المغرب من أكثر الدول المصدرة لها يومئذ كالقمح والجياد .

5 – عامل نشر المسيحية كان أيضاً من عوامل هجوم البرتغال . ولم يترك وجود البرتغال أثراً يستحق الذكر ، على الرغم من السنين الطوال التي قضوها في عدد من المراكز لأن أهم ميدان اقتصادي بالنسبة إلى المغرب وهو الفلاحة كان المغاربة لا يزالون متفوقين فيه بمراحل ، على كثير من البلاد يومئذ بما فيها البرتغال . كما ان البرتغاليين لم يكونوا ذوي حضارة علمية من شأنها أن تغير المجرى الثقافي بالمغرب ولو كان المسيحيون في ذلك الزمن متفوقين علمياً مع ما حصلوا عليه من قوة بحرية عظيمة لتبدل وجه التاريخ الإسلامي منذئذ ، لأن الاستعمار عن طريق الغزو الفكري الذي تواكبه القوة الحربية أشد رسوخاً وأقوى خطراً من أي نوع آخر من الاستعمار .

ولكن الأبراج والمباني العسكرية والمدنية التي تركها البرتغال اكتسبت الدولة المغربية منها فوائد جمة لأنها استخدمتها فيما بعد للدفاع ضد المهاجمين كما بنت منشآت على غرارها (الصويرة ، الدار البيضاء الخ) . ولقد كانت مقاومة المغرب للاستعمار البرتغالي أقوى منها في أي بلد آخر تمكنوا من احتلاله إذا استثنينا صمود العرب على سواحل المحيط الهندي . وقد كانت

مقاومة المغرب فريدة من نوعها اشتركت فيها الدولة على قلة وسائلها إلى جانب سكان المـــدن مثل تطوان التي تحولت إلى أول مركز للجهاد الشعبي البحري بالمغرب ، وآسفي التي دافع أهلها ببطولة عن مدينتهم قبل أن تسقط في أيدي البرتغال . فضلاً عن الأولياء والصلحاء الذين ساهم كثير منهم في الدفاع عن تراب المغرب بسلاحه ويده ، ثم السعديين وإن كانوا خصوماً للوطاسيين فقد أنقذوا منطقة سوس من أيدي البرتغال ، كما ناضلوا في سبيل طرد هؤلاء بعد أن استقرت دولتهم .

وكان فشل البرتغال كلياً فيما يخص نشر المسيحية بالمغرب . ولا عبرة ببعض الأفراد الذين تتناولهم بالذكر بعض تقارير المسيحيين والذين اعتنقوا المسيحية لأغراض شخصية مجردة . وقـــد دونت كثير من التقارير والوثائق عن تبادل الأسارى بين المغاربة والافرنج . ومن ذلك ما يتعلق بأسارى البرتغال في تطوان وأسارى المغاربة لدى هؤلاء[1] . فتذكر بعض هذه الوثائق أن مركباً وصل إلى إشبيلية في 29 أكتوبر 1523 (نهاية 929 هـ) ، به خمسة وعشرون من النصارى البرتغال الذين أطلق سراحهم وكانوا بتطوان . ثم تذكر الوثيقة أسماءهم وأسماء مالكيهم السابقين من المسلمـين كالقائد المنظري والرايس الغزال بالإضافـة إلى شهادة حاكم سبتة ضون خوان دي كورونا الذي يثبت أن الأسارى المذكورين وصلوا إلى سبتة ثم أرسلوا إلى إشبيلية مع بيدرو دي طوليدو المالقي .

وفي سنـة 1538 تم عقد معاهدة بين السلطان أحمد الوطاسي وملك البرتغال جان الثالث[2] والتزم الطرفان فيها باحترام الهدنة لمدة إحدى عشرة سنة فأرسل ملك البرتغال مبعوثاً إلى السلطان ، هو باستياو دي فرجاس (Bastiao de Vergas) وكان المبعوث يتحدث بالعربية بطلاقة كما كان يقرأها أيضاً . فكتب عدة تقارير ومراسلات إلى ملكه عن رحلته واتصالاته . وكانت مهمته اقتصادية من الوجهة الرسمية . وكان عليه أن يشتري كميات من القمح لبلاده ويبعث بهـا عن طريق مينائي المهدية والعرائش .

---

(1) تاريخ تطوان 1 ـ ص 115 لمحمد داود .

Caillé, La Petite Histoire du Maroc P 57. T 1 (1)

وقد وصف المبعوث السلطان الوطاسي بالسذاجة والضعف ، كما وصفه بأنه يتوفر على ذاكرة جيدة . وقـد بقي باستياو في بلاط الوطاسيين مدة طويلة إلى أن ذهب إلى أصيلا . ومع أنه جاء موفداً عن ملك البرتغال فقد وجد من بعض المشترين الأجانب منافسين كباراً ومن ضمنهم أخو ملك البرتغال نفسه وقد جاء بدوره إلى المغرب لعقد صفقات تجارية .

بريطانيا :

شهدت السنون الأواخر من حكم الوطاسيين إقرار علاقات إقتصادية مـــع بريطانيا (1) التي أخذ نشاطها الإقتصادي في هذا الوقت يشمل عدة أجزاء من العالم. ففي سنة 1551 م (959 هـ) أبحرت إلى المغرب من لندرة باخرتان، مجهزتان بالعتاد الحربي بقيادة قرصان قديم يدعـــى توماس (Thomas Windham) واتجهتا نحو أكادير التي كان يسميها البرتغاليون سانتا كروز . ولكن المراجع لا تذكر ما آل اليه أمرهما . إلا أن هذا القائد رجع مرة أخرى إلى المغرب سنة 1552(960 هـ) يقود ثلاث بواخر . ومجموع رجالها 1120 (عشرون ومائة وألف) وبينهم عدد كبير من التجار الذين حملوا معهم من بريطانيا كميات ضخمة من المسك والعنبر والمرجان وغيرها . ورست البواخر بآسفي . ثم قصـد عدد من تجارها مراكش براً وتابعت طريقها بعد ذلك إلى أكادير . وكانت منطقة السوس يومئذ تحت حكم السعديين وهم الذين أذنوا للبواخر البريطانية بحمل البضائع التجارية لمبادلتهامع المغاربة هناك وصادف الحال أنهموجدوا هناك باخرة فرنسية قابلتهم بالمدافع فأفهموا ضابطها أنهم أتوا لمهمة تجارية . ورجعت البواخر المذكورة محملة بالسكر واللوز وغيرهما. وفي رجوعها إلى إنجلترا اعترضتهاسفن برتغالية ولكنها استطاعت أن تواصل طريقها بسلام بعد ذلك وقد كان قدوم البواخر المذكورة فاتحة عهد ربط العلاقات التجارية مع المغرب . وقـد تمت هذه العلاقات واتسع نطاقها فيما بعد .

---

(1) La Petite Histoire du Maroc T 1. P 76 رهسبريس عـدد 4 سنة 1929 ومجموعة دوكاستري ، انجلترا .

فرنسا :

في سنة 1533 أرسل فرانسوا الأول إلى أحمـــد الوطاسي مبعوثاً ذا خبرة عسكرية وسياسية وهو الكولونيل بيير دو بيطون Pierre de Piton [1] وكان معه شخصية أخرى وهو إيون دومولون وكان قد سبق له أن زار المغرب، وبعد أن رست الباخرة بالعرائش ، اتصل المبعوث في ضواحى المدينة بأحمد الوطاسي الذي استقبله استقبالاً حسناً، ثم قدم المبعوث بعض الهدايا التي حملها إلى السلطان، والتي لم تحظ برضا الحاشية وكان بينها خمس سلال من الفضة وخمس وأربعون مرآة، خمس ساعات مذهبة وعدد من السكاكين والشوكات ثم التحق المبعوث الفرنسي بالسلطان في فاس . وحصل منه على بعض الامتيازات كحق جلب الدواب من المغرب والسماح للبواخر الفرنسية بالرسو في شواطىء المغرب والمرور في أمـان بمياهه وحمايتها إذا اقتضى الحال. وحمله السلطان بدوره هدايا إلى فرانسوا الأول وهي إثناعشر حصاناً وثمان حُجُور وذئبة وأسد وثلاث نعامات وأربع أرانب.

وأثناء عودة الباخرة الفرنسية التي كان يقودها ربان جنوي لم يكن على وفاق مـــع السفير واجهتها العواصف نحو شواطىء البرتغال فاتصل الربان بسلطات البرتغال وأبلغهم أن السفير حمل إلى المغاربة اعتدة حربية فحجز السفير وتابع الربان طريقه إلى فرنسا حيث حصل على مكافأة سخية عوض المبعوث الذي لقي حتفه قبل أن يستطيع إثبات براءته .

---

(1) جاك كايي : Hist. p. la - 1 - 72 وهسبريس / 3 و 4 سنة 51

7 - الحيـاة الدينيـة

تطور الحركة الصوفية :

في عهد الوطاسيين بدأ انتشار الطرق والزوايا في المغرب بشكل لم يسبق له نظير حيث إن تلاميذ الشاذلي وعلى رأسهم الإمام الجزولي الذي سبق ذكره في مثل هذا الفصل عند الحديث عن المرينيين قـــد تمكنوا من فرض طريقته التي صارت في المغرب تنسب إلى الشيخ الجزولي .

ولم يكن موقف الصلحاء في هذا العصر سلبياً أمام الأحداث المؤلمة التي كان المغرب مسرحاً لها فقاموا ينظمون في كـل مكان تعرض للخطر الأجنبي حملات جهادية يقاتلون فيها بأنفسهم كما يجمعون لها الاكتتابات ويتولون مفاداة الأسارى.

وكان من الصلحاء الذين تولوا حركة الجهاد الحسن بن محمد من أحفاد عبـد السلام بن مشيش وهو الذي اختط شفشاون، وقتل بتدبير من البرتغاليين وكذا الإمام ابن غازي الذي شارك في الجهاد مراراً ضد البرتغال، وعلي بن عثمان الشاوي الذي قتل شهيداً في حروب أصيلا سنة 925 هـ .

وهكذا أصبح للصوفية في هذا العصر دور ثلاثي إذ خاضوا الميدان السياسي، والحربي، كما كان لهم نفوذ روحي بالـغ، بيد أنه نسبت إلى بعضهم خوارق وتصرفات لا تكاد تصدق، وبلغت ثقة العامة بهم إلى درجة ان سلاطين الدولة الوطاسية رهبوا جانبهم، واضطروا إلى مجاراة العامة في تعظيمهم واحترامهم . وقد روي أن محمد البرتغالي اعتقل الشيخ عبد الله الغزواني (في مراكش) بتدبير من الفقيـــه ابن عبد الكبير البادسي السفياني الذي اتهمه بالعمل على الثورة، وتمت محاكمة الشيخ في مجلس علني بحضور السلطان الذي شعر في الحال بخطورة

موقفه فبادر يعتذر إلى الشيخ ويرجوه السكنى بفاس حيث بنى له منزلاً داخل باب الفتوح .

وقيل ان والي آسفي طرد محمد بن سليمان الجزولي من البلد فدعا عليهم ، ثم سأل منه العفو فقال : « أربعين سنة » أي يتأخر دخول النصارى إليها أربعين سنة [1] . وقد مات الجزولي عام قيام الوطاسيين .

كما روى أن الشيخ محمد البهلولي كان يزوره السلطان محمد البرتغالي فينصحه بالجهاد فيمتثل لتوجيهاته ولما تولى أحمد الوطاسي ورغب في مصالحة البرتغال أظهر الشيخ البهلولي غضبه وأقسم أن لا يلقاه ، حتى إذا دنت وفاته وعلم ان السلطان قد بدأ يستعد للجهاد سر بذلك أشد السرور .

ولما انهزم أحمد الوطاسي في معركة وادي العبيد (943 هـ) وطارده جنود أبي العباس الأعرج إلى أن هموا بالقبض عليه ، قيل ان فارساً حال بينه وبينهم وقال له سر يا أحمد ولا تخف ، وبقي أحمد الوطاسي متابعاً طريقه بسلام ، ولما استخبر عن هوية الفارس المذكور قيل له انه هو الشيخ أبو طلحة المصباحي ... والروايات عن الكرامات الصوفية بما تحتوي عليه من مبالغات ، أكثر من أن تحصى .

وقد زودنا الحسن الوزان بمعلومات وآراء شخصية عن مشاهداته لأحوال المتصوفة [2] فلاحظ أن صوفية هذا العهد ، قد هجروا الطرق القديمة التي انبنى عليها التصوف فصاروا يقيمون المآدب ويرقصون طويلا ويغنون حتى ليحدث أن يمزق أحدهم ثيابه وجداً وتأثراً ثم يزعمون أن حرارة الحب الإلهي قد أدفأتهم (أما أنا يقول الحسن الوزان) فأعتقد أن ما ألهبهم هو الإفراط في الأكل لأن الواحد منهم كان يأكل طعام ثلاثة . ثم يؤول الوزان تأوهات الصوفية وحالهم هذا لكونهم يعشقون بعض الغلمان من تلامذتهم الذين يحضرون مجالسهم ومن المفيد أن الحسن الوزان قد عزز رأيه هـــذا بشاهد أخرى جديرة بأن توصف

---

(1) الاستقصاء 4 ص 141. Lèon l'Africain, Description de l'Afrique T1

(2) الوصف المذكور يتعلق ببعض بلاد المشرق .

بالفظاعة لاحظها في جهات أخرى من شمال افريقيا ، أما الوَجْد الصوفي فليس هذا موضع مناقشة .

غير أن الصوفية اختلط بهم بعض من لا ينتمي إلى الصلاح بصلة ووجد ذريتهم وأتباعهم مجالاً واسعاً للاستغلال والشراء فيما شادوه من زوايا وما ألزموا به الناس من مغارم، ورحم الله اليوسي اذ وصف حال هؤلاء أصدق وصف بقوله[1]:

« فما شئت أن تلقى جاهلاً مسرفاً على نفسه ، لم يعرف بعد ظاهر الشريعة فضلاً عن أن يعمل فضلاً عن أن يخلص إلى الباطن ، فضلاً عن أن يكون صاحب مقام ، إلا وجدته يصول ويجول ، وينابذ المعقول والمنقول ، وأكثر ذلك في ابناء الفقهاء يريد الواحد منهم أن يتحلى بحلية أبيه ويستتبع أتباعه بغير حق ولا حقيقة ، بل لمجرد حطام الدنيا فيقول : خدام أبي وزريبة أبي ويضرب عليهم المغرم كمغرم السلطان ، ولا يقبل أن يحبوا أحداً في الله أو يعرفوه أو يقتدوا به غيره وإذا رأى من خرج يطلب دينه أو من يدله على الله تعالى يغضب عليه ويتوعده بالهلاك في نفسه ، وماله . وقد يقع شيء من المصائب بحكم القضاء والابتلاء فيضيفه إلى نفسه فيزداد بذلك هو وأتباعه ضلالاً ثم يختلق لهم من الخرافات والأمور المعتادة ما يدعيه ميزة وديناً يستهويهم به ثم يضمن لهم الجنة على مساوىء أعمالهم والشفاعة يوم المحشر » .

ولعل أبرز من تصدى لنقد الصوفية ، في هذا العهد الشيخ أحمد زروق الذي ندد بلبس المرقعات والخروج عن سلطة الدولة ، كما انتقد تصرف الطائفة التي تستخدم الغناء والرقص وسيلة لادعائها الحب الالهي والتي سخر منها الحسن الوزان كما تقدم ثم يقول الشيخ زروق [2] :

« ولقد تتبعت الطرق الموجودة بأيدي الناس في هذه الأزمنة فلم أجد لأهلها فتحاً ولا نوراً ولا حقيقة ولا علماً ولا ذوقاً ولا فهماً ، بل ولا لذة نفسانية غير لذة الرياسة والامتياز بالاختصاص ».

---

(1) الاستقصاء 4 ص 164 للناصري .

(2) عدة المريد ، نقلاً عن معطيات الحضارة 1 ص 150 لعبد العزيز بنعبد الله .

وقد لقي الشرفاء القادمون من الأندلس مكاناً عظيماً لدى محمد الشيخ الذي آواهم بفاس وضمنهم كما يقول « cour » في تاريخه عن بـــني وطاس (ص 103) المراقيون والصقليون والقادريون وغيرهم .

حياة بعض كبار المتصوفة

عبد العزيز التباع [1]:

عبد العزيز بن عبد الحـق التباع الذي عرف بالحرّار أيضاً لأنه كان يحترف صناعة الحرير في بداية أمره ، كان من كبار العلماء كمعظم الصوفية الآخرين حتى هذا العهد وهو تلميذ الإمام محمد الجزولي ووارث طريقته وقد دفن بمراكش بعد وفاته سنة 914 هـ ، وهو والشيخ أبو عبد الله السهلي دفين خندق الزيتون باحواز فاس سنة 918 ه وأبو العباس أحمـــد الحارثي السفياني دفين مكناس في العشرة الأولى من القرن العاشر والحسن بن عمـرا جانا دفين أحواز فاس أيضاً كما يقول صاحب ممتع الاسماع هم أشهر أصحاب الشيخ (الجزولي) ممن تفرعت بهم الطريقة الجزولية وهي تنبني على الأسس التالية :

1) التوبة عن الذنوب والإكثار من البر والعمل الصالح .

2) الاقتداء بشيخ عالم بالظاهر والباطن .

3) اتباع السنة النبوية .

4) التزام الأخلاق والآداب الفاضلة .

وللتوبة عند الإمام الجزولي تسع علامات هي: الحسرة، والندامة، والإنابة، والخشوع، والتواضع، والإبتهال، والمداومـة على الذكر والرضى بالقضاء وحسن الظن بالله.

عبد الله الغزواني :

عبد الله بن محمد الغزواني تلميذ الشيخ التباع وقد درس بفاس قبل أن يتلقى على الشيخ الذي أمره بالاشتغال بحمل الحطب ورعاية الدواب[2] ثم كلفه بحراسة

---

(1) ممتع الاسماع في ذكر الجزولي والتباع ص 34 لمحمد المهدى الفاسي .

(2) ممتع الاسماع ص 38 ، لمحمد المهدى الفاسي .

بستان له مع اتخاذ الحيطة لذلك فبقي بخدمة البستان مدة إلى أن أمر التباع جملة من أتباعه بمداهمة البستان فجأة ونهب ثماره حتى يختبر بذلك مدى تنفيذ الشيخ الغزواني لوصاياه ، ولكن الجماعة عجزت عن اقتحام البستان ، فأقرّ له الشيخ بأنه أصبح آخذاً بطريقته ، وقد سبقت الاشارة إلى أن السلطان محمد البرتغالي اعتقله وحاكمه ثم أطلق سراحه ، فبنى زاويته داخل باب الفتوح بناء على رغبة من السلطان المذكور . وقد استقر الشيخ الغزواني أخيراً بمراكش يشتغل بالحراثة والبساتين ، ولكنه ينفق دخله على ذوي الحاجات ويكتفي بأبسط الطعام، وكان مولعاً بحفر السواقي ويكلف أصحابه بالفلاحة واستخراج الماء ، وطريقته لا تختلف عن طريقة أستاذه .

أحمد زروق (1) :

أبو العباس أحمد بن أحمد البرنسي المعروف بزروق ، درس بالمشرق والمغرب على الشيخ السنوسي والسخاوي وابن زكري والرصاع وأحمد الحباك وغيرهم ، كما درس عليه الحطاب الكبير وطاهر بن زيان القسنطيني والشعراني الامام والقطب أبو الحسن البكري وغيرهم،وكان يلقب بمحتسب الصوفية فقد مكنته اتصالاته وأسفاره من الاطلاع على أحوال الناس واعتقادهم في بعض أدعياء التصوف ، مما أهاب به إلى وضع كتابه المشهور (عدة المريد) الذي شرح فيه أصول التصوف ، وحلل أضاليل الطرق التي يشاهدها في عهده ، كما وضع كتباً أخرى في التصوف ، والحكم والآداب ، وقد توفي ودفن بمسراطة بطرابلس سنة 899 هـ ، وكان للشيخ زروق اتباع ومحبون بالمشرق والمغرب

متصوفة آخرون :

ومن غير هؤلاء من رجالات التصوف محمد بن منصور السفياني دفين أولاد جلول شرق وادي سبو سنة 930 هـ . وأبو يشّو مالك بن خدّة الصبيحي دفين أحواز فاس سنة 933 هـ ومحمد بن علي الزمراني المعروف بالطالب دفين الزاوية

---

(1) محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية، ص 267 السخاوي، الضوء اللامع ،1، 222 .

الغزوانية بفــاس (964 هـ) وعلي الصنهاجي وكان يعظمه السلطان أبو العباس الوطاس وقد توفي ودفن خارج باب الفتوح في أواسط القرن العاشر ، وعبد الله الخياط دفين زرهون وهو من أصل يمني توفي سنة 939 هـ .

اليهود ، والنصارى

منــذ عهد المرينيين صار من المعتاد عزل اليهود في حي خاص بكـل مدينة تجمع فيها عدد كبير منهم فاتخذلهم أبو سعيد الثاني (800 — 823 هـ) مكاناً خارج المدينة القديمة وكان يسمــى بالملاح فصارت الأحياء اليهودية بالمدن تحمل نفس الإسم . وكان المسلمون كلما صادف الحال موت ملك عمدوا إلى نهب دكاكينهم[1] لأنهم حظوا عند المرينيين باهتمام بالغ وكانت متاجرهم في عهد الوطاسيين تمتد في شارع طويل وقد تكاثر عددهم ، بعد طردهم من إسبانيا منذ سنة 1493 . وقـد فرضت عليهم نعال خاصة ، في عهد الوطاسيين ، كما ألزموا بلبس عمامة سوداء أو طاقية تضاف إليها قطعة من الثوب الأحمر . وفرضت عليهم جزية ضخمة . والظاهر أن ذلك لرواج حركتهم التجارية وثرواتهم الطائلة فضلاً عن أن ملوك الدولة كانوا في أشد الحاجة إلى المال ، لمجابهة المصاريف العسكرية على الخصوص . وقد كانت رقعة نفوذهم تتقلص يوماً عن يوم ، وكانت لليهود بيعهم التي يمارسون فيها طقوسهم بكل حرية . وكان أبو العباس أحمد الوطاسي قد استعمل أحدهم ممـن أسلموا حديثاً على امكاس المغرب وكان يدعى بالمنجور الإسلامي[2] وكان يدفـع في مكس فاس الف دينار سنوياً .

أما المسيحيون فقد أمكنهم معايشة المسلمين بسهولة أكثر ، حيث تكاثر تجارهم بمختلف المدن المغربية وكان لهم بها كنائس ورهبان غير أن ذلك لم يمنع المسلمين من كراهتهم نظراً للمهانة التي لحقتهم باحتلال شواطىء بلادهم وفي أيام أبي العباس أحمد الوطاسي قدم إلى المغرب راهب يدعــى نيقولا كلينار[3]

(1) Léon, Description de l'Afrique T 1. P 234.

(2) تقييد عن البلديين بفاس ورقة 4 للزيالي .

(3) Le Tourneau, Hesperis, 1934.

« Nicolas Clénard » بقصد دراسة علوم العربية واقتناء الكتب واتصل بأبي العباس الوطاسي فشافهه برغبته . فرحب السلطان بالفكرة وشجعه، كما اعجب باستعداده وقد تعرف الراهب المذكور إلى الفقهاء الذين تساءلوا مع ذلك عن سر رغبته في تعلم العربية ، وحصلت له من ذلك مضايقات دونها في بعض مذكراته وقد فضل الراهب المذكور أن يستقر في حي اليهود عوضاً عن العمارة التي كان يقطنها النصارى بالمدينة القديمة . وقال ان اليهود بالرغم من كراهتهم للمسيحيين فهم أقل تهجماً عليهم من المسلمين ويعترف نيقولا بأن التجار المسيحيين يعيشون في أمن إلى جانب المسلمين وان الذي أثار ارتياب المسلمين فيه وبغضهم له ، هـو صفته كراهب وقد أفادنا في مذكراته عن عدد بيع اليهود بفاس وهـو ثمان أو تسع بينما كان عددهم يبلغ حوالي أربعة آلاف نسمة وكان بينهم كثير من العلماء (المتضلعين في علوم الدين) .

ومنـــذ عهد الوطاسيين تمكن يهود فاس من توثيق صلاتهم بيهود الواحات السوسية حتى بلاد السودان ، واحتكروا كل تجارة البلاد . وبينما وقـف تجار الجنوب ضدهم فقـد لقوا عطفاً وحماية من طرف مسلمي فاس بسبب مهارتهم الصناعيـــة [1] .

إلا أن اليهـود الذين استقروا بشواطىء الشمال الإفريقي على العموم كبجاية وتطوان وتونس كانوا يتعرضون للتنكيل والإهانة من طرف الغزاة الإسبانيين والبرتغـــال [2] .

(1) ص 64 Manuel L. O ortega, Los Hebreos en Marruecos

(2) المصدر المذكور ص 110 .

الحضارة في عهد الوطاسيين

1) **الدولة ونظامها** : رئيس الدولة - ولي العهد - الوزراء - القضاة - العمال - الجيش - النظام المالي .

2) **الحياة الاجتماعية** : السكان - اللباس - المرأة - الحفلات والأعياد - الغناء - الطعام .

3) **الحياة الاقتصادية** : الفلاحة - التجارة - الصناعة .

4) **العمران وفن البناء** : نظرة عامة - المدن المستحدثة - التحصينات - المدارس .

5) **الحياة الفكرية** : نظرة عامة - الأدب - الفقه والحديث - علوم اللغة - التاريخ - الجغرافيا - الطب - الرياضيات - الموسيقى .

1 - الدولة ونظامها

رئيس الدولة :

نحن مدينون للحسن الوزان بأكثر المعلومات المرتبطة بهذا الموضوع(1) إذ من المؤسف أن مؤرخي المغرب غيره لم يكونوا يلتفتون إلى مؤسسات الدولة إلا اتفاقاً في جمل عابرة يستغرق البحث عنها أحياناً قراءة كل الصفحات المخصصة للدولة ؛ وهي إلى ذلك لا تشفي غليل الباحث .

وقد كان أول ما يهتم به السلطان الوطاسي الجديد أن يعين من بين أكابر شخصيات حاشيته مستشاراً رئيسياً ويخصص له فيما يقول الوزان ثلث دخل دولته كما يعين شخصية أخرى تجمع بين مهام الكتابة الخاصة ومرافقة الملك وخدمته فضلاً عن الإشراف على الخزينة ، ثم يعين ضباط الحرس الخاص المؤلف من كتيبة الفرسان وهم بدورهم يشاركون في الحملات الحربية عند الإقتضاء ، وفي الميدان القضائي والجبائي يقوم بتعيين قضاة وجباة جدد .

أما في داخل القصر فإن للسلطان قيما خاصاً على نفقاته ، كما أنه يشرف على تزويد الجيش بالمؤونة ولعله يكون تحت إشراف الكاتب الخاص ، وبطبيعة الحال، فهناك مشرف على الاصطبلات الملكية التي تتوفر على دواب كافية (جمال على الخصوص) لحمل المؤن الى الجيش وقد وضع الطباخون تحت إدارة هذا السائس الذي يخضع بدورة للقيم .

أما الأحكام الصادرة عن القصر فيتولى السهرعلى تنفيذها قائد الحرس الخاص الذي من مهامه زيادة على إدارة الحرس المذكور الإشراف على الموظفين المكلفين

Léon l'Africain, Description de l'Afrique T 1, P 235. (1)

بتنفيذ الأحكام القضائية والمصادرات وحق اعتقال الشخصيات السامية وتطبيق العقوبات ضدهم إذا صدر أمـــر سلطاني بذلك ويتم ترشيح هذا القائد على يـــد المزوار [1] .

وهناك فرقة من الجيش لحمل الرايات ، وإذا ساروا تركوا الراية ملفوفـة ، وتنشر منهـا واحدة تتقدم صفوف حملة الرايات وحاملها يرفعها إلى أعلى وكل الأعلام المذكورة تستعمل لتدل الملك وحاشيته وجيشـه على الطرق ويقودهم حملتها عبر الغابات والأنهار والمسالك .

وأغلب خدم القصر من السوداوات ، وفيهـــن مسيحيات من إسبانيا ، والبرتغال وهناك حاجب يؤدي مهمة مدير التشريفات اليوم ، وكـان يصحب السلطان دائماً ، ويرشد الناس إلى أماكنهم في مجلس السلطان ، ويشير إليهم بتناول الكلمة حسب مراتبهم .

وفي الحفلات التي يترأسها السلطان يقوم المشرف على الحفلات (المزوار) باخبار السعاة بموعد الحفلة ومكانها ، فيقومون باخبار أقارب السلطان أولاً ثم القواد وقواد الرحى وسائر الفرســان ويتم الحشد في ساحة المشور والأزقـــة المجاورة ثم يتقـدم حملة الرايات الموكب يتلوهم الطبالون وسائس السلطـان ، ومساعدوه ، ثم القيم الخاص ومساعدوه فقواد الرحى فرئيس الحفلات (المزوار) فكتاب الملك وأمين المال والقاضي وقائد الجيش وأخيراً السلطان الذي يرافقه مستشاره أو وزيره الأعظم مع بعض الأمراء ويتحلق حول السلطان وحاشيته المباشرة ، حراس مسلحون ، ثم يأتي بعـد ذلك الخدم ، والخصيان والقواسة ، والبندقيـــون .

وإذا تنقل السلطان إلى البادية نصب له مشور خاص من ثوب سميك وهو ذو شكل مربع يبلغ طول كل من جوانبه حوالي خمسة وثلاثين متراً أي ما يعادل 1225 متر مربع ولكل من أركان هذا المشور الهائل باعتبار صنعـه ، برج تعلوه قبة مذهبة ولكل جانب من الجوانب الأربعة باب يحرسه الخصيان ووسط هذا

Auguste Coure : La Dynastie marocaine des B Wattas P. 110. (1)

المشور تنصب خيمات إحداها عبارة عن غرفة نوم للسلطان وحول المشور تنصب خيمات للضبّاط والندماء المقربين . ووراءها خيام قواد الرحى المصنوعة من جلد الماعز ، وأخيراً خيام باقي الحاشية . أما دواب القافلة فتأوي بعيداً عن المعسكرات حيث تنتصب دكاكين الجزارة ، والبقالة ، وباعة القديد والصناع وكل هؤلاء يرافقون الجيش للتعامل معه خلال تنقلاته .

أما حرس المشور المذكور فهم غير مسلحين وقد وصفهم الوزان بالكسل حيث إن عدم إخلاصهم كثيراً ما كان سبباً في تعرض المعسكر للسرقة بل محاولة الإعتداء على السلطان .

وقد اعترف الوطاسيون بالسيادة الرمزية للخليفة العثماني ، كما نقشوا اسمه على السكة ولذلك ألغوا لقب أمير المؤمنين الذي سبق أن رجع إليه المرينيون منذ عهد أبي الحسن وهكذا اكتفى الوطاسيون بلقب السلطان الذي كان قد أحدث لأول مرة بالمغرب في عهد المنصور المريني .

ولي العهد :

تركزت ولاية العهد في ذرية محمد الشيخ الثلاثة : محمد وعلي وأحمد إلا أن تولية علي الأولى على الرغم من أنها كانت بعهد من أخيه محمد البرتغالي فإن أحمد الوطاسي سرعان ما نحاه عن الملك سنة 932 هـ وأحمد هذا هو ولد محمد البرتغالي وكان الذي تصدى لكتابة بيعته الفقيه الونشريسي وقد لعب دوراً بارزاً في البلاط وكان لولي العهد وزيره الخاص مثلما كان الأمر في عهد المرينيين .

الوزراء :

لم يختلف نظام الوزارة في أيام الوطاسيين عنه في أيام بني مرين حسبما يتجلى من سياق الأحداث السياسية على الأقل غير أن الظاهرة التي تميز بها النظام الوطاسي هي أن ملوك الدولة استوزروا في معظم الأحيان أشخاصاً من أدنى أقربائهم ، كمحمد الحلو ، والناصر بن أبي زكرياء أخي محمد الشيخ وكلاهما كان وزيراً لهذا الأخير ، والمسعود بن الناصر ابن عم أبي عبد الله البرتغالي ووزيره ،

ومحمد ولد أبي العباس الوطاسي ووزيره . ومن أبرز الوزراء الذين لا ينتمون إلى الوطاسيين محمد بن راشد حسبما ذكره صاحب التقييد الملحق بمختصر المناهل (ص 250) . ومحمد بن راشد هذا آخر أمراء بني راشد بشفشاون .

وكان هؤلاء الوزراء يتولون مهام سياسية وحربية فضلا عن اشرافهم على الأعمال الإدارية كما كانوا يشاركون في قيادة الجيوش المحاربة . والظاهر أن الصقالبة في هذا العهد لم يحظوا بوظائف وزارية سامية كما كان الشأن في عهد بني مرين .

القضاة :

يفهم من المعلومات التي أوردها الحسن الوزان عن النظام القضائي في عهد بني وطاس أن سلطة القاضي في الشئون المدنية تقلصت بشكل ظاهر ، حيث اقتصر على القضايا الشرعية وأحيلت القضايا المدنية والجنائية على الولاة ، وهذا هو النظام الذي أحيته الحماية الفرنسية فيما بعد حتى ضعفت دائرة اختصاص القضاة في الميدان الشرعي نفسه ، ويرجع توسع سلطة الولاة على حساب سلطة القضاة إلى الأتراك الذين استمد منهم المغرب هذا النظام في العصور المتأخرة (انظر تاريخ تونس Pellegrin) .

وكان القاضي الشرعي يعززه قاضي التوثيق الذي يتكلف بشؤون الزواج والطلاق والتحقيق في الشهادات، ولم يكن يتقاضى راتباً رسمياً ، لأن القضاة في الغالب كانوا يشتغلون بوظائف أخرى كالتدريس والخطبة وكان المفتي بمثابة قاضي الإستئناف الذي يرجع إليه إما بقصد الاستشارة في مسألة قانونية ، أو لإعادة النظر في حكم قضائي . ولا ندري ما هي الأسباب التي جعلت الحسن الوزان يصف المفتين والوكلاء بالجهل[2] .

وكان القاضي يتوفر على سجن يوضع فيه المحكوم عليهم بأحكام حقيقية ، أما القضايا الجنائية فكان تنفيذ الأحكام فيها من اختصاص الوالي وكذا البت فيها

(1) Description de l'Afrique T 1. 405 للحسن الوزان .

(2) المصدر المذكور ص 206 .

كما تقدم وكانت العقوبة العادية في هذه الحالة هي الضرب بالسوط مائة فأكثر ثم تطويق المحكوم عليه بسلسلة في عنقه وقد يشرك في السلسلة الواحدة عدة متهمين ثم يطاف بهم عراة إلا من لباس يستر عورتهم ويصحبهم رئيس الشرطة والجلاد الذي يردد الجريمة المنسوبة إلى هؤلاء بصوت عال .

وكان للقضاة في المدن الكبرى نواب كما كان الشأن في عهد بني مرين [1] ومن قضاة الوطاسيين محمد بن عبد الله اليفرني وولده أبو عبد الله [2] ومحمد الرزيني الغماري المتوفى سنة 934 هـ وكان قاضياً بتطوان . ومحمد بن عبد الرحمن الكرامي المتوفى سنة 964 وكان قاضياً بتطوان أيضاً [3]. وعبد الواحد الونشريسي قاضي فاس المتوفى سنة 955 .

أما الحسبة في هذا العهد فقد انحطّت رتبتها إلى درجة أنها بدأت تسند إلى أميين فضلا عن أنها صارت موضع مساومة لدى القصر السلطاني وكان محتسب فاس جابياً في نفس الوقت كما سيتبين ذلك في موضوع النظام المالي وكان من اختصاصه مراقبة الأسعار والمجزرة ومواد الاستهلاك خصوصاً الخبز الذي كان له وزن موحد واللحم الذي كان يبين ثمنه في بطاقة يشاهدها الزبناء .

العمـــال :

اتسمت سلطة العمال في هذا العهد على حساب سلطة القضاة كما سبقت الإشارة إلى ذلك وقد كانت العمالات أو الأقاليم يومئذ سبعاً هي : 1 – تامسنا ومن كبريات مدنها الرباط وأنفا . 2 – فاس وتمتد إلى سلا غرباً ومن أهم مدن هذا الإقليم سلا ، فاس ، زرهون ، المعمورة . 3 – ازغار (وتكون مع عمالة الهبط منطقة فاس والغرب الحالية) ومن مدنها القصر الكبير وهي أصغر العمالات . 4 – الهبط وتكون منطقة باقي الغرب الحالية مع منطقة غمارة ومن مدنها طنجة وتطوان وأصيلا والبصرة . 5 – الريف ومن مدنها باديس وترغة .

(1) درة الحجال ص 222 لابن القاضي .
(2) تاريخ تطوان ص 140 لمحمد داود .
(3) درة الحجال ص 224 ج 1 .

6 ــ الحوز وهو يكون احواز فاس وتامسنا الجنوبية ومن مدنها صفرو وتازة . أما الإقليم السابع فيشكل الأجزاء الشرقية العليا وهو أفقر الأقاليم المذكورة ، ومن مدنه مليلية ، وتازوطا ، مع العلم بأن مليلية كانت تحت النفوذ الاسباني .

أما اختصاص العمال فكان يشمل السلطة الإدارية والعسكرية ، إلى جانب القضاء المدني الذي كان تنفيذ أحكامه يجري تحت إشراف العامل .

وكان العامل يستخلص مبالغ هامة من الذعائر . وكان على بعض التجار والصناع أن يؤدوا إليه ضريبة معينة على كل سجين تم اعتقاله وكان صاحب الشرطة تحت إشرافه ، أما العاصمة فقد خصص لها أربعة من أصحاب الشرطة يتولون السهر على الأمن خاصة بالليل وكانوا لا يتقاضون رواتب معينة وإنما يحصلون من المعتقلين على ضرائب حسب مدة اعتقالهم ونوع العقوبة المنفذة فيهم[1] وقد كان لقصبة فاس صاحب شرطة خاص[2] .

وفي هذا العهد بدأ يطلق على بعض الولاة لقب قائد خصوصاً ولاة المراكز التابعة للعمال والقائد في الواقع لقب إداري وعسكري خصصه الأتراك لولاتهم وضباطهم فضلاً عن لقب الباشا وهو أعظم رتبة والأغلب ان هذا الأخير لم يبدأ استعماله إلا في عهد السعديين .

أما إقليم فاس فكان يمتاز بجودة أراضيه الفلاحية كما هو الشأن حتى الآن وكان يتوفر على قرى عديدة في تلاله ومرتفعاته وعلى العكس من ذلك السهول التي كانت الحروب قد قللت كثيراً من نشاطها وسكانها ، وفي هذا الإقليم كان عدد من قبائل العرب يشتغل بالزراعة في الاقطاعات غالباً .

أما إقليم الهبط فكان يتوفر على مياه غزيرة ومدن عتيقة ولكن الحسن الوزان الذي استقيت عن كتابه معظم هذه المعلومات يؤكد أن ثروات هذا

Description de l'Afrique T 1, P 206. (1)

(2) ممتع الاسماع ص 39 لمحمد المهدي الفاسي .

الإقليم كانت فيا سبق دخول الإسلام أعظم شأناً ، أي أن أهميـة الإقليم ضعف منذ الفتح الإسلامي بسبب الحروب الطاحنة والثورات التي كان مسرحاً لهـا .

وكان إقليم ازغار يمد غمارة وفاس بالأقوات والماشية والجياد وكان إلى ذلك الحين يتوفر على كثير من الغزلان .

وبالرغم من هذا التقسيم فقـد كانت عدة مراكز خارجـة عن نفوذ الدولة بشكل مباشر أو غير مباشر كما تقدم .

أما تطوان التي تم تجديد بنائها منذ سنة 889 هـ فقـد تولتها عائلة أبي الحسن المنظري طيلة العهد الوطاسي وأبو الحسن (علي) المنظري كان من قواد جنود ابن الأحمر بالأندلس وقد وفد على محمد الشيخ قبل سقوط غرناطة فأذن له في تجديد بناء تطوان حوالي سنة 898 هـ وولاه حكم المدينة ثم خلفه حفيده أبو عبد الله في أوائل القرن العاشر وقـد تزوج بالست الحرة بنت الشيخ علي بن راشد حاكم شفشاون الذي تعاون كثيراً مع أسرة المنظري في الجهاد ضـد البرتغال . وكان اسم الست الحرة ، هو عائشة ، وقـد كانت تشارك زوجها مهـام الحكم حسبما استنتجه الأستاذ داود في كتابه تاريخ تطوان [1] ، وقد توفي زوجها حوالي سنة 935 وتولت هي نفسها حكم تطوان بعد ذلك . وتزوجها أحمد الوطاسي سنة 948 وبقيت هناك نائبة عنه حسب استنتاجات المصدر المذكور إلى أن استعادت عائلة المنظري سنة 949 حيث تم إقصاء الست الحرة التي لا يعرف مصيرها بعـد ذلك على التحقيق ، والظاهر أن سياستها كانت ترمي إلى مهادنة البرتغال وموالاتهم[2] .

وأما دبدو فمدينة قريبة من تازة وكانت تحكمها منذ عهـد بني مرين عائلة من بني ورتاجن وظلت كذلك حتى عهد الوطاسيين وحاولت جيوش محمد الشيخ أن تستولي عليها مرة وكانت الطريق إليهـا وعرة محفوفة بالمخاطر ، حتى إذا أبعدت عن كل نجدة محتملة هاجمها الورتاجنيون فهزموها ، ولكن محمد الشيخ قاد حملة جديدة بنفسه ضد دبدو سنة 904 (1499) فلم يسع أميرها محمد الوَرْتاجنّي

---

(1) مجلد 1 ص 119 .

(2) تاريخ تطوان 1 ص 123 .

إلا أن يعلن استسلامه، بيد أن محمد الشيخ وحلفاءه تركوه وأسرته يتولون أمور هذه القصبة ووثقوا صلاتهم بها عن طريق الصهر كما فعلوا مع امارات أخرى .

ومن المؤكد أن حكم الوطاسيين فتح مجالاً أوسع من ذي قبل لحكم العائلات واستبدادها حتى صار ذلك تقليداً لمن بعدهم .

وكانت شفشاون في يد بني راشد ، كما سبق في الكلام عن عهد محمد الشيخ ، وقد ظلوا فيها منذ اختطاطها سنة 876 إلى سنة 969 هـ حيث طردهم السعديون .

الجيش :

كان قواد الجيش يدعون بقواد الرحى ، وكان السلطان يقطع كلاً منهم حصناً أو قريتين يكون خراجهما مورداً شخصياً له ويتمكن من الإنفاق على عدد معين من الفرسان الذين يتم تجنيدهم في الحروب ، وهم في الواقع جنود نظاميون يظلون تحت إشراف قائد الرحى حتى في أيام السلم حيث يزودهم بكميات من القمح والزبدة واللحم وقليل من الدراهم فضلاً عن كسوة سنوية ، وكل ذلك على حساب موارده من الاقطاع المذكور . أما الجمال التي كانت تحمل المؤن والذخائر فيقودها أسرى مسيحيون .

وكان الجيش النظامي يتكون من ستة آلاف فارس من المرتزقة ، بالاضافة إلى خمسمائة بندقي ، وخمسمائة قواس ، وكلهم على استعداد دائم للحرب ، وهم في الواقع غير الصنف الذي تقدم ذكره ،وغير الفريق المحارب كان هناك بطبيعة الحال من يشتغل بالطبخ والتنظيف وتموين الدواب وغير ذلك من لوازم الجيش، كما أن هناك فرقة من الطبالة الذين كانوا يحملون طبولاً من النحاس عظيمة الحجم على جياد أصيلة ، ويحافظون عليها محافظة الجيش على الرايات ، وفي عهد الوطاسيين بدأ استعمال المدافع والبنادق ولو أن الأسلحة القديمة ظلت مستعملة إلى جانبها ، وقد أتقن الوطاسيون فن الحصار هجوماً ودفاعاً ، فقد تمكن محمد الشيخ من حصار فاس مدة سنتين قبل أن يستولي عليها ، كما أن حصار البرتغال بأصيلا استمر مدة طويلة حتى تمكن الجيش الوطاسي من اقتحامها سنة 914 وجرى بها قتال شديد بين الفريقين داخل الأزقة والأسواق ، وكان الجيش

يتكون من عدة عناصر كما كان الشأن في عهد الدول السابقة . أما القيادة فكان يتولاها في الغالب شخصيات سامية ، وربما قاد الحملات السلطان نفسه .

النظام المالي :

ظلت مهمة الجباة كذي قبل ، هي استخلاص الضرائب من السكان وتقديم حساباتها إلى القصر السلطاني الذي يتولى مباشرة فرض ضرائب جدد أو إلغاءها، ويتوفر القصر على خمسين فارساً مهمتهم الاخبار بالضرائب المقررة ، أما استخلاص المكس بالأبواب فيتولاه شخص يشتري هو نفسه حق استخلاص المكس من السلطان في المكان المعين له ، مقابل مبلغ محدد[1] ، وقد يشتري شخص واحد مجموع حق استخلاص المكس بالمغرب، وكان لهذا النظام سوابق في دول الشرق الإسلامي كالفاطميين وغيرهم ، مما كان يؤدي غالباً إلى عجز هذا الصنف من الجباة عن الإيفاء بتعهداتهم فتعمد الدولة إلى مصادرتهم وتشريدهم ، ومن أمثلة المصادرات التي حدثت بالمغرب في عهد الوطاسيين أن أبا العباس أحمد الوطاسي عين على امكاس المغرب رجلاً يدعى المنجور الإسلامي ، وكان يقدم إلى الدولة عن مكس فاس وحدها ألف دينار سنوياً ، ولكن عجزه عن الإيفاء بها أدى بالسلطان إلى أن ينكبه ويصادر أمواله [2] .

وكان الشخص الذي يتولى مهمة الجباية بفاس هو المحتسب الذي كان عليه أن يؤدي إلى الخزينة الملكية ثلاثين ديناراً يومياً،ويتعين عليه أن يقيم على أبواب المدينة حراساً وكتبة يتقاضون تعويضات حسب كميات البضائع الداخلة .

وكثير من الترتيبات المستعملة الآن بالمغرب كانت تطبق تقريباً بنفس الكيفية في العهد الوطاسي ، من ذلك أن حراس الأبواب كانوا يذهبون كما يفعل الدركيون اليوم إلى خارج المدينة للقيام بتفتيشات مباغتة للسلع التي تدخل بها البغال إلى المدينة ، ومتى ثبت أن التصريح بالبضائع غير مطابق لنتيجة التفتيش تعين على التاجر أن يؤدي المكس مضاعفاً ، وكانت مواد الإستهلاك الرئيسية

Léon l'A fricain : Description de l'Afrique 1. P 207. (1)

(2) تقييد عن البلديين بفاس — ورقة 4 للزياني .

من قمح وحطب ودجاج وبقر ، معفاة من الضرائب ؛ بينما يؤدى عن الأكباش المذبوحة بالمجزرة مبلغ معين عن كل كبش(1) ، وكذا الثياب المستوردة من أوروبا (2) .

2- الحياة الاجتماعية

السكان :

وصف الحسن الوزان حياة العرب البدو بالبؤس والفقر، وبينما استقر بعضهم بسهول الهبط والحوز استمرت كثير من قبائلهم تمارس حياة الرحل ، وكان أكثرهم نشاطاً يشتغل بالزراعة أو بالتجارة في المواشي خصوصاً الإبل وكذا الخيل التي كان يصدر الكثير منهـا إلى أوروبا ، وكان فيهم من يشتغل بصيد الوعل وحمار الوحش والنعام والمها واللمط .

وكان عرب الصحارى الجنوبيـة يصحبون نساءهم في الحروب وهـم الذين اشتهروا بالتجارة في الإبل والصيد البري . أما عرب السهول فقد كانوا أثرى من هؤلاء ، وكانوا يتوفرون على كمية كبيرة من البقر والغنم حتى إن المراعي كانت لا تكفيهم فيلجأون إلى النجعة . وقد امتاز عرب الصحراء بقرض الشعر سليقة ، يستخدمونه في الغزل والمدح والفخر والحماسة .

وكان تأثر الوطاسيين بالعروبة أكثر من بني مرين ، حتى لقد استحدثوا لقب « الشيخ » عوض « امغار » الذي كان أكثر استعمالاً قبلهم (3) .

وقد استقرت معظم القبائل العربية في الأماكن التي تستقر بها اليوم ، وكان أكثر سكان الخيام يعيشون في المناطق الشرقية أو الغربية ، ولم تكن الخيام قد انتشرت في المنـــاطق البربرية إلا في السهول الغربية بدكالة والشاوية ، حيث

Description de l'Afrique 1. P. 207 (1)

(2) مظاهر الحضارة 1 ص 80 لعبد العزيز بنعبد الله.

Cour Auguste: La Dynastic Marocaine de B. Wattes, p. 110 (3)

انصهرت العناصر البربرية والعربية في بوتقة واحدة ، وكان التأثير العربي هناك أكثر وأقوى ولو أنه لم يتم في العهد الوطاسي بل فيما بعد ، غير أن سكان القرى والضواحي قاسوا كثيراً من ظلم الأعراب الذين ظالما اعتدوا على مواشيهم وفواكههم ، كما أرهقوهم بالضرائب وساموهم الخسف [1] .

ومن المؤسف أن كثيراً من القرى والمدن بمناطق الغرب والحوز وتادلا قد تم تدميرها في هذا العهد واختفت أسماؤها بعده كتيط التي خربها عبدالله البرتغالي، والمدينة وهي بينها وبين آسفي في الداخل ، وأفزة من مدن تادلا ، وتنزة من مدن الأطلس، وكل هذه القرى والمدن المغربية كانت عامرة فضلاً عن ضواحيها التي كانت غنية بزروعاتها وتجارتها .

ومنذ عهد المرينيين استوطنت عناصر كثيرة من قبائل زناتة وهوارة بتامسنا حتى تضخم عددهم في العهد الوطاسي وقدرهم الحسن الوزان بنحو 260 ألف شخص بين فارس وراجل ، وقد شهدت أنفا وناحيتها الكبيرة ازدهاراً عظيماً في الماضي ، لكن خرابها على يد البرتغال جعل من بساتينها ومزارعها أرضاً موحشة ترتعي فيها الدواب ويخشاها الإنس .

وقد انضاف إلى السكان في هذا العهد عدد كبير من مهاجرة الأندلس الذين استقروا بفاس وتطوان وسلا والرباط ، ولو أن هجرة الموريسكيين في عهد السعديين كانت أكثر أهمية وأشد تأثيراً ، ومهما يكن من شيء فقد تساكن المسلمون واليهود في عدة مدن وقرى ، فضلاً عن المسيحيين الذين استوطنوا المغرب كتجار أو مستعمرين ، وقد قدر بعض المسيحيين عدد يهود فاس حينئذ بنحو أربعة آلاف ، وكانوا يؤدون جزية باهظة ، ومن الطبيعي أن تتكون في عدة مناطق من البلاد عادات وأعراف جديدة ومتنوعة إما بسبب التأثير البرتغالي في السواحل أو بسبب قدوم الأندلسيين الجدد ، أو لاحتكاك العرب بالبربر في عدة مراكز ، وقد حظي مهاجرة الأندلس خصوصاً الشرفاء منهم كالعراقيين والصقليين والقادريين بمكانة عظيمة لدى محمد الشيخ الذي

(1) الأمثلة على ذلك عديدة في الجزء الأول من « وصف افريقيا » للحسن الوزان .

آواهم بفاس[1] ، والشرفاء القادريون ينتمون إلى عبد القادر الجيلاني الذي ولد سنة 471 وذلك عن طريق ابنه إبراهيم[2] دفين واسط 572 هـ . أما سكان الريف الذين وصف الوزان عامتهم برثاثة الثياب ، كما وصفهم من جهة أخرى بالشجاعة فإن منطقتهم كانت فقيرة في هذا العهد شأنها اليوم ، وبينما كان انتاجها من القمح قليلاً ، كانت تتوفر على كميات كبيرة من أشجار التين والليمون ، كما كان يوجد بها الماعز والقردة والحمر ، ومعظم مراكزها العمرانية عبارة عن قصور ومداشر سكانها فقراء يسكنون أكواخاً من القش أو اللحى أشبه ما تكون باسطبلات القرويين بأوروبا ، غير أن هذه الصورة التي رسمها الوزان لا تنطبق بحق على السكان في المدن الساحلية الذين كانوا آخذين بنصيب وافر من الحضارة ، واليوم يعتبر بدو الريف على الرغم من فقرهم أرقى مدنية من بدو الشاوية أو الغرب مثلاً ، سواء من حيث السكنى أو غيرها من مظاهر الحضارة . أما مراكش التي نعمت بحضارة زاهرة في عهد المرابطين والموحدين ، والتي كانت يومئذ أكثر مدن المغرب سكاناً ، فقد تحولت في العهد المريني ثم الوطاسي على الخصوص إلى مدينة نقص عمرانها نحو الثلثين عن ذي قبل وكان سماط الكتبيين الذين بلغ عدد دكاكينهم نحو المائة في ذلك الحين قد تحول إلى مكان مقفر أشبه بما يكون عليه اليوم حيث ضاع أثره بجوار جامع الكتبيين ، وتحولت الدور والقصور التي عرفها العهد الموحدي إلى بساتين للكروم والفواكه ، ومع ذلك فقد بقي إلى هذا العهد نحو اثني عشر قصراً فخماً من بناء المنصور الموحدي ، أما الخزانة العظيمة التي كان يملكها الموحدون بمراكش ، فقد تحولت إلى محاضن وقنن ، بينما صار بستان القصر الإمبراطوري مستودعاً للازبال .

ومن المؤسف أن أمراء هنتاتة الذين استبدوا طويلاً بهذه المدينة لم يستطيعوا على الأقل أن يحافظوا على تراث أسلافهم وقد كان بحق جديراً بالصيانة والتخليد .

---

(1) La Dynastie Marocaine de B Wattas ص 103

(2) السناوي محمد : نتيجة التحقيق ص 4 كراسة 2 .

وقد تحولت الرباط التي نشأت وازدهرت في عهد المنصور إلى مدينة شبه خالية لا تكاد منازلها تتجاوز الأربعمائة .

أما فاس التي فقدت كثيراً من نشاطها في الماضي الذي عرفته في عهد المرينيين ، فقد احتفظت من حيث وضعها الإجتماعي بالطابع العام الذي عرفته آنذاك ، غير أن المارستانات العديدة تناقصت حتى قلت وسائلها وعنايتها بالمرضى وخصص واحد منها للغرباء وصفه الوزان بأنه يتوفر على عدد كاف من الموظفين الذين يتقاضون رواتب حسنة ، وسبق له هو نفسه أن عمل به كاتباً لمدة سنتين وكان يقوم بهذه المهمة أثناء الطلب كعادة كثير من زملائه . أما الفنادق التي كانت فخمة البناء والتي كان بعضها يحتوي على أكثر من مائة حجرة فقد كانت غير مفروشة لأن المكلفين بها لا يقدمون لزبائنهم أكثر من حصير وغطاء ، أما الطعام فيشتريه النزيل لنفسه . وأكثر هذه الفنادق يشغلها أرامل أو عزاب من الرجال ، وقد يشغل اثنان غرفة واحدة ، وبعض هذه الفنادق عبارة عن مواخير تقيم بها البغايا ويتعاطى زبناؤها الخمر بترخيص من الدولة [1] .

وفيما يرجع إلى النسبة العمرية ، فأكثر السكان قلما يطول عمره أكثر من خمس وستين أو سبعين سنة [2] ،غير أن الحسن الوزان لاحظ عدداً من الجبليين يبلغون الثمانين أو أزيد ، وهم يشتغلون بالزراعة بل ويشاركون في الحروب وينتصرون على الشباب ، وعلى العموم يضعف بصرهم عند الهرم كما تسقط أسنانهم خصوصاً سكان الصحارى الجنوبية الذين يتناولون التمر غذاء رئيسياً .

ولاحظ الوزان كذلك ، انتشار القرع وأمراض المعدة والمفاصل ، وعزا هذه الأخيرة إلى الجلوس على الأرض مباشرة دون سراويل ، كما ذكر أن استهلاك الزيتون والجوز والأطعمة الخشنة يحدث الجرب ، أما الجلوس على الأرض فيسبب شتاء كثرة السعال ، ومن الطريف أن يلاحظ الحسن الوزان أن المساجد تكتظ يوم الجمعة بالمصلين ، حتى إذا قام الخطيب فقد يحدث أن يسعل أحدهم

---

(1) Description de l'Afrique 1· P: 191

(2) لم يكن هذا هو متوسط العمر طبعاً ، بل كان الحد الأقصى إلا فيما تدر .

فيتلوه آخر ثم ثان إلى أن ينتهي الخطيب وقد فات الناس كلامه بسبب عدوى السعال .

وقد أكد الوزان أن داء الزهري لم يكن منتشراً بالمغرب ، بل كان أشبه بالمجهول حتى تم طرد اليهود من الأندلس سنة 1492 م ، وقدم عدد منهم إلى الشمال الإفريقي بما فيه المغرب ، فانتشر فيه عن طريق اليهوديات .

وقد نوه الوزان بتدين المغاربة على العموم ، وأبدى اندهاشه من صبرهم على تكرار الوضوء يومياً ، كما مدح ذكاءهم ووصفهم بالطيبوبة والصراحة والبطولة ، يحفظون الوعد ، ويغارون على الفضيلة ولا يرضون العار وهم نشيطون كثيرو التنقل في البلاد ، يوجد عدد منهم بمصر وبلاد العرب وفارس والهند والحبشة وغيرها ويقابلون بالترحيب حيثما حلوا . أما العرب وسكان الشاوية فهم كرماء شجعان مطيعون صبورون . أما سكان الصحراء فأكثر اهتماماً بعلوم الدين من سكان الجبال .

وفي مقابل هذه الخصال يرى الوزان أن سكان الشمال الإفريقي فقراء معجبون بأنفسهم حقودون سذج إلى حد أن يصدقوا المستحيل ، وهم إلى ذلك سريعو الغضب ، قل أن يخلو زقاق لا يوجد فيه منهم من يتضارب بالأيدي ، كما أنهم يجهلون طرق التجارة (كما كان يعرفها الأوروبيون خاصة تجار إيطاليا) ، وليست لهم مصارف . أما سكان الشاوية الذين يسميهم بالرعاة فهم قليلو الغيرة على بناتهم قل أن تتزوج إحداهن عذراء حتى إن الأب يرحب بعاشق ابنته ، وهم في الواقع ليسوا مسلمين ولا يهوداً حتى ولا نصارى[1]، إذ ليست لهم مساجد ولا صلوات يقيمونها .

اللبـــاس :

كان سكان حاحة يلبسون كساء من الصوف يلفون به جسمهم ، كما يسترون عورتهم بمنديل من صوف ويتعممون بعمامة من نفس الثوب ، وقل أن يستعمل

(١) يظهر أن التأثير البرغواطي ظل قائماً حتى هذا العهد بناحية الشاوية التي كانت تشكل حينذاك جزءاً من تامسنا . وإذا كان من السهل حدوث انقلاب سياسي فليس من السهل تغيير بعض الأوضاع الاجتماعية التي قد تمتد جذورها أحياناً الى مئات بل آلاف من السنين .

أحدهم قميصاً لجهلهم نسج الكتان وهم لا يزرعون هذه المادة ، وأغلب النســـاء سافرات الوجوه ، والعزاب يحلقون لحاهم ثم يرسلونها إذا تزوجوا .

وتلبس العربيات قميصاً أسود ذا كمين عريضـين يعلوه رداء من نفس الثوب يلففن به جسمهن ويتدلى طرفاه على الكتفين ، وتحمـل أذنا المرأة عدة أقراط من فضة ، كما يستعملن في أيديهن خواتم فضية ، وفي كعوبهن وسيقانهن أساور ، ويَلتثمن بثوب مثقوب من جهة العينين وذلك في حالة ظهورهن أمام غير أقاربهن.

ويلبس سكان جزولة صدرة بدون أكمام ، كما يتسلحون بخناجر معقوفـــة وعريضة ولكنها ماضية الحدين .

أما أعيان فاس فيرتدون في الشتــاء ثياباً من الملف المستورد [1] ، ولباسهم عبارة عن معطف يلتف بالجسم مباشرة وهو ذو أكمام نصفية ، أما فوق المعطف فيلبسون جبة مخيطة من الأمام وفوقها برنس (أو سلهام كما نسميه اليوم وهو في طريق الانقراض) ، ورؤوسهم يغطونها بطاقية تلتف بها عمامة خفيفة تمر من تحت الذقن، ولا يلبسون جوارب . أما السراويل فيرتدونها ، والطبقة الشعبية تلبس المعطف والبرنس من غير جبة ولا عمامة غير الطاقية .

ويلبس نساء فاس في الشتاء فساتين عريضة الأكمام مخيطة من أمام كجبب الذكور ، أما السراويل فتغطي حتى الساقين، ثم يلتففن بإزار (حائك) يغطي رأسهن وكل جسمهن ، كما يستعملن اللثام الذي يغطي من وجوههـن ما سوى العينين ، ويحملن في آذانهن أقراطاً كبيرة من الذهب ويتزين بالأحجار الكريمة والمصُوغات كأساور الذهب -- واحد في كل ساعد -- وقد يزن الواحد أكثر من ثلاثمائة غرام ، والطبقة الشعبية من النساء يتخذن المصوغات من الفضة .

المرأة :

معلوماتنا عن المرأة المغربية في هـذا العهد قليلة ، ولكن إذا تركنا جانبـاً شخصية الست الحرة التي سبق الحديث عن نشاطها السياسي ، فإننـا نعثر على

---

(١) كان الملف معروفاً قبل هذا العصر، إذ كان اللباس الشتوي الغالب بغرناطة أيام بني نصر المعاصرين لبني مرين كما يذكر ذلك ابن الخطيب في اللمحة البدرية ص 27 .

شخصية نسوية أخرى لعبت دوراً سياسياً كذلك ، وهي زهور الوطاسية التي تولت زمام الأمور بفاس بعد تنحية محمد الجوطي الذي بويع بفاس سنة 869 إثر مقتل آخر ملوك بني مرين ، وظلت زهور هذه تدبر أمور المدينة إلى جانبها القائد الشجيري حتى استولى محمد الشيخ على زمام الملك .

أما في الميدان الإجتماعي ، فإن أحسن وصف يهم بعض الجوانب المتعلقة بالمرأة ، هو ما سجله الحسن الوزان عن الزواج بفاس، ولكن من الأحسن تركه إلى الموضوع الآتي :

الحفلات والأعياد :

فضلاً عن الحفلات والأعياد الدينية الإسلامية ، كان سكان فاس يحتفلون بذكرى مولد[1] المسيح (أ) ويتناولون عشاء خاصاً في ليلة المولد ، وهو يتألف من حساء مكون من عدة خضر كالكرنب واللِفت والجزر ، كما يطبخون عدة خضر وقطان مجتمعة ويأكلونها ، وفي اليوم الأول من السنة ، يتقنع الأطفال بقناع، ثم يطوفون مرددين بعض الأناشيد،وطالبين بعض الفواكه من المحسنين .

ومتى نبتت الأسنان الأولى لأحد الأطفال دعا أبواه أطفالاً من أقرانه إلى مأدبة يقيمها لهم ، وكانوا يسمون هذه الحفلة بالسنية . ويعتبر الوزان مثل هذه الإحتفالات من التأثير المسيحي القديم ، على أن كثيراً من هذه الاحتفالات لم تختف بعد من عوائد المجتمع المغربي .

وفي جزولة كان يقام موسم سنوي بمناسبة المولد النبوي يستمر شهرين ، ويقدم فيه الطعام إلى الغرباء مهما كثر عددهم وإذا وافق الموسم وقت حرب عقدت هدنة بين الأطراف المعنية بالأمر، ويتولى ممثل عن كل فريق حفظ النظام بمساعدة عدد من حراس فريقه،ويتم قتل اللصوص حالاً ، وينصب الباعة خياماً أو عرائش ويتجمع أهل كل طبقة على حدة ، وبالرغم من المصاريف الباهظة التي يتكبدها المنظمون، فإن دخل الموسم يغطي المصاريف وتفضل أرباح كثيرة

(1) حسبما يذكره الوزان .

بسبب كثرة الوافدين إلى الموسم من مختلف قبائل جزولة وحتى من السودان ، ومن المعلوم أن جزولة كانت تطلق على الناحية الممتدة من تخوم حاحة إلى سفوح الأطلس بسوس .

وقد كان طلبة المدارس بفاس يحتفلون سنوياً احتفالاً خاصاً بهم وهو غير حفلة سلطان الطلبة التي لم تعرف إلا في عهد العلويين ، وكانوا يدعون أصدقاءهم فيخرجون إلى ظاهر البلد يصحبهم الموسيقيون بآلاتهم ، ثم يقتلعون عنصلة ويضعونها في زهرية جميلة من النحاس، ويغطونها بخوان صغير ، حتى إذا عادوا إلى المدينة وضعوا العنصلة في سلة وعلقوها على باب المدرسة هاتفين بقولهم : بهذه الزهرة تزدهر المدرسة ويكثر الإقبال عليها (ترجمة لكلام الوزان) .

أما الاحتفال بالزواج في فاس ، فإن والد الزوج يصحب عدلين وعدداً من أصدقائه إلى المسجد بعد موافقة والد الزوجة ، ويحضر الخطيبان اللذان تتم كتابة العقد أمامهما ، وإذا كان الزوج ضعيف الحال يقدم كصداق نحو ثلاثين ديناراً معجلة ، وجارية سوداء ، تبلغ نصف هذا القدر ثمناً وقطعة ثوب من حرير وكتان ، ومناديل من حرير (سبنيات) للرأس ، وتقضي العادة بأن يهدي ثلاثة قفاطين وثلاثة فساتين وعدة أقمصة ونعلا (شربيل) وأغطية للفرش مزخرفة ووسائد وثمانية فرش وأربع وسائد مطرزة توضع إلى جانب الصوانين بالإضافة إلى زربية وثلاثة أغطية لسرير النوم وأشياء أخرى .

ومعنى هذا أن جهاز المرأة كان يكبد الزوج المتوسط الحال نفقات باهظة لا تلبث أن تفقره ، أما والد الخطيبة فيتحمل من ذلك أضعافاً مضاعفة .

ومتى تمّ الاستعداد لخروج الخطيبة إلى بيت زوجها ، أدخلها هذا الأخير صندوقاً كبيراً مملوءاً بالثياب الحريرية والمديجة ، ثم يحمل الصندوق عدد من الحمالين ، ويتألف الموكب من أصدقاء والد الزوج والزوجة ، وهم يحملون ناياتهم وأبواقهم وطنابيرهم وعدة مشاعل ، ويتقدم الموكب أصدقاء والد الزوج ثم أصدقاء والد الزوجة ويمرون بسوق المدينة الأكبر، حيث يُحيّي الزوج والد الزوجة وأقاربها ، ثم يعود إلى منزله بانتظار زوجته التي يرافقها والدها وعمها

وأخوها إلى بيت العريس حيث يسلمونها إلى أمـــه ، وحينئذ يغلق العروسان الحجرة عليهما بينما يكون أهل العريس يعدون طعام المناسبة، وبعد فض البكارة تعلن ذلك خادم تقف بالباب بعد أن يسلمها الزوج منديلاً ملطخاً بالدم ، وقـد ظلت هذه العادة البغيضة البهيمية مسترسلة إلى وقتنا هذا في عدة أوساط ، ترى فيها دليلاً على محافظة الفتاة العروس على شرفها .

وتقام بمناسبة العرس ثلاث ولائم، أولاها ليلة قدوم الزوجة ، والثانية تقدم للنساء عشاء في اليوم الموالي ، والثالثة في سابع يوم الزفاف ويحضر فيهـا والد الزوجة وأقاربها حيث يقدم أبوها هدية مكونة من الحلوى وعدد من الخرفان ، أما العريس فيخرج في اليوم السابع من بيته فيشتري سمكاً ويعود فيقدمـه إلى أمه لتضعه تيمناً عند أقدام العروس .

وأما والد الزوجة فيقيم مأدبتين إحداهما ليلة اليوم الذي ستغادر فيه العروس بيت والدها ، ويحضر فيها أصدقاء العائلة ويعبرون فيهـــا عن فرحهم بالرقص والغنـاء ، وفي اليوم الموالي تحضر الماشطات لتزيين العروس وتخضيب يديهـا ورجليها بالحناء ، وتجلس على منصة عالية ليشاهدها الحاضرات ، وحينئذ تقدم المأدبة الثانية .

وعندما تدخل الزوجة إلى منزل الزوجية ، تتوارد على العريس هـدايا من أصدقائه وتتكون من أوان مليئة بالإسفنج وأخرى بالخرفان المشوية ، كما يقوم هو بدوره بتوزيع هدايا على أصدقائـه ، ويقضون ليلة بحضور جوق موسيقي يطربهم بنغمات الموسيقى الأندلسية كما يؤدي بعض الراقصـــين رقصات بنفس المناسبة ، وللنساء راقصات ومغنيات خاصات بهن .

وهذه المآدب إنما يستطيع أن يتحمل مصاريفهـا الموسرون ومن اليهم ، أما الطبقة الشعبية فيتكون طعامها بهـذه المناسبة من ثريد يشتمل على الخـبز والمرق واللحم .

أما العقيقة أو الختان فيحضر فيها حلاق يصحبه مساعده، كما يحضر أصدقاء الأب الذي يقيم مأدبة على شرفهم بعد أن يقـدم كل منهم هدية إلى الحلاق وهي

نحو دينار أو دينارين أو أكثر ، ثم يلصقه بخد مساعد الحلاق الذي ينادي باسم المهدي ويشكر له ، وإثر ذلك يختن الغلام، ثم يتابع الحفل على نغمات الموسيقى وإيقاع الراقصين ويتناول الجميع طعام الوليمة حول موائد مستديرة .

وان كثيراً من هذه المظاهر التي كانت بدون شك منتشرة بالمغرب بنفس الطريقة أو بما يشابهها ما تزال قائمة عندنا .

الغنـــاء :

امتاز هذا العهد بنمو الزجل الذي أصبح يسمى الملحون ، وهو مشتق من التلحين ، إذ هو شعر يتغنى به قبل كل شيء [1] . وقد يطلق عليه أيضاً لفظ « الكلام » ، ولغته على العموم راقية تأخذ من الفصحى والدارجة على الرغم من أن أغلب ناطقيه من العوام ، وفيهم أدباء وعلماء ، وهو ينظم في مختلف مناحي الحياة ، ومن المؤسف أن قصائد الملحون التي نظمت في العهد المريني لم يحافظ عليها بعد ذلك،وأقدم قصيدة معروفة هي قصيدة « الحربى » لابن عبود الفاسي في وصف معركة أبي عقبة بتادلا بين أحمد الوطاسي وأحمد الأعرج سنة (1536 م) 943 ه ، وقد أنشدت بين يدي أحمد الوطاسي ، الذي وضع رهن اشارة ابن عبود مكاناً لإنشاد قصائده يوم عيد المولد ابتداء من ذلك التاريخ ، وهو مسيد سيدي فرج بسوق الحناء بفاس ، وخلفه هناك عبد العزيز المغراوي الذي نبه ذكره في عهد السعديين وظل شعراء الملحون يجتمعون بهذه المناسبة لإنشاد قصائدهم حتى الآن .

وقد لاحظ السيد محمد الفاسي أن معظم شعراء الملحون النابغين ينتمون إلى تافيلالت بما فيهم عبد العزيز المغراوي المذكور .

أما تكوين قصائد الملحون واصطلاحاتها فيدخل في باب النشاط الفكري كما سيأتي .

والمهم أن شعراء الملحون كانوا كثيرين بهـذا العهد ، حسبما يفهم من كلام

---

(1) مجلة البحث العلمي عدد 1 ، الأستاذ محمد الفاسي ، وهو المرجع الرئيسي في هذا الموضوع.

الناصري على الأقل[1] . كما أن هؤلاء الشعراء إلى جانب أجواق الموسيقى الأندلسية ، هم الذين كانوا يطربون المدعوين في مختلف الإحتفالات والأعياد ، وكما رأينا في الموضوع السابق ، فإن مجال الرقص والموسيقى في الحفلات قد يكون أوسع وأنشط مما هو الآن في أوساط المجتمع المغربي .

وكان دور المغنين والراقصين أبرز من دور آلات الطرب التي كانت قليلة وبسيطة لا تتجاوز في الغالب نايات (غيطات) وطبولاً أو دفوفاً

الطعام :

يتألف طعام الطبقة المتوسطة والفقيرة من ثلاث وجبات يومية أولاها الفطور الذي يشتمل على الحريرة والخبز والفواكه، والغذاء الذي يحتوي على خبز وسلطة وزيتون وجبن ، أما العشاء فيتكون من الخبز والحليب أو الخبز مع بعض الفواكه ، وفي فصل الشتاء يستكثر من الكسكس ، أما الطبقة المترفة فتأكل اللحم يومياً وتنوع أطعمتها ، ولم يكن شاع استعمال السكاكين ولا المناديل أثناء الأكل .

وفي حاحة يتناول السكان خبز الشعير ودقيق الشعير الذي يطبخ في الماء ثم يوضع في آنية مجوفة القعر حيث يصب عليه زيت أركان ، أما في الصيف فيغلى هذا الدقيق مع الحليب والزبدة ، وقد يتناولون الخبز مع عسل أو زبدة ، كما يأكلون اللحم مطبوخاً مع البصل والفلفل أو الكسكس الذي شاع منذ قديم كطعام شعبي ، وكان الإسفنج معروفاً في هذا العهد بل كان للسفاجين دكاكين خاصة قبل المرينيين بفاس كما سجل ذلك صاحب زهرة الآس[2] .

(1) الاستقصاء 4 ص 153 .

(2) زهرة الآس ورقة 105 للجزنائي .

3 - الحياة الاقتصادية

رسم طيراس صورة مظلمة للاقتصاد المغربي في العهد الوطاسي(1) من غير أن يذكر لذلك أمثلة ولا حتى مصادر ، وما من ريب في أن الحياة الاقتصادية قد تعرضت لأزمات تشتد أو تخف حسب الظروف ، غير أن عدة مراكز ساهمت بنصيب لا بأس به في الازدهار الإقتصادي المحلي كما عرض ذلك الحسن الوزان في كتابه الجغرافي .

ففي منطقة هسكورة كانت تتوفر الأغنام بكثرة مما ساعد السكان على انتاج الجلود ودبغها ونسج الثياب الصوفية الجميلة ، كما كانت هذه الناحية تنتج الزيت بغزارة ويتعامل معها العرب المجاورون ، ويفد إليها التجار من فاس حيث يعقدون صفقات عظيمة الأرباح ، وكانت تتوفر على عدد كبير من الصناع والدباغين والسراجين ، فضلاً عن التجار الذين كان بينهم كثير من اليهود ، وقد كان يوجد في كل المدن والقرى تقريباً نسبة قليلة أو كثيرة من اليهود بل كانت نسبتهم في بعض القرى والأماكن أعلى من نسبة السكان المسلمين .

وفي آيت عياض بتادلا كان يوجد تجار وصناع يهود ، وكانت هذه القرية تتوفر على بساتين للعنب والتين والجوز والزيتون ، وكانت سهول الناحية خصبة بزروعاتها المتنوعة .

وكانت ناحية جزولة تنعم بماشية ودواب كثيرة وتنتج الشعير فضلاً عن النحاس والحديد ، حتى كانت أواني النحاس التي تصنع هناك تصدر إلى أقاليم المملكة ، وكانت أهم المناطق المعدنية توجد بتسنت وآقا ، وتيزونين وإغرم .

أما ناحية مراكش فكانت تنتج كميات وافرة من القمح ومختلف الحبوب ،

Histoire du Maroc T. 2 P. 154 (1)

وهي منطقة غزيرة المواشي والأنهار والعيون والفواكه من تمر وعنب وتين وإجاص وتفاح .

وكانت منطقة تيوت بسوس تنتج الشعير والحبوب والخضر فضلاً عن قصب السكر ، ويتعامل أهلها بالذهب تبْراً أو بقطع صغيرة من الثوب تبلغ قيمتها نحو دينار ، وتستورد من أوروبا خصوصاً البرتغال .

أما ناحية مليلية فكانت مركزاً لإنتاج الحديد والعسل بكميات وافرة .

وكانت ناحية تازة تنتج أطيب الفواكه ، وضمنها العنب الذي كانت تغطي كرومه مساحات كبيرة وفيه الأبيض والأسود والأحمر ، وكان بها نحو خمسمائة يهودي يشتغل كثير منهم بصناعة الخمر الذي وصفه الوزان بالجودة .

وفي ناحية مكناس كانت تتوفر بكثرة أصناف الفواكه والزيتون ، فكان بها أشجار البرقوق والتفاح الذي يعقد مرتين كل سنة ،وأنواع مختلفة من الإجاص والرمان والجوز والخوخ والعنب والتين الذي كان من أنواعه الاشكوز والشبلي والحمراء والغدان والحافر والنقال [1] .

وكانت منطقة حاحة كثيرة المعز والحمير ، كما كانت تنتج العسل والخوخ وزيت أركان .

أما منطقة السوس فكانت تنتج قصب السكر واللوز والحامض والتمر [2] وعدداً من البواكير التي كان كثير منها يصدر إلى الخارج تحت إشراف السعديين الذين كانوا حينئذ يتولون أمر هذه الناحية . ولم تكن مادة السكر تنتج قصباً فقط ، بل كانت تحول إلى مادة استهلاك عادية ، ومن المؤكد أن زراعة قصب السكر قد عرفت بزمن طويل قبل الوطاسيين ، ولو أن عملية تصفيته وتحويله كمادة استهلاك لا يعرف تاريخ بدئها بالضبط [3] . وقد تحدث البكري عن إنتاج السكر بالمغرب في القرن الخامس الهجري وذلك بإيغلي (سوس) التي

(1) الروض الهتون ص 3 لابن غازي

(2) La Petite Hist du Maroc T 1 - P 76 لجاك كايبي .

(3) مجلة البحث العلمي عدد 1 ، بول برليي .

كانت بها مزارع ومعامل إنتاج السكر كما تحدث عن استخراج زيت الهرجان (الأركان) - أنظر كتاب المغرب للبكري ص 162 .

وكان أعظم مركز صناعي هو فاس التي كانت تتوفر على أكثر من أربعمائة مطحنة ومصانع للأسلحة ، ومائة وعشرين معملاً للنسيج تتكون من عـدة طبقات تشبه القصور في كبرها . ويعتبر النسيج أهم صناعات فاس ، كما كانت تشتمل على مائة وخمسين مصبغة ، وعدد من معامل النجـارة الكبرى التي كان يعمل فيها مسيحيون ، ومعاصر الزيتون وغير ذلك .

وكان في المدينة البيضاء بفاس عدد من المصاغات يملك أكثرها اليهود ، ولم تكن توجد مصاغات بالمدينة القديمة ، وكانت المصوغات تطبع بطابع عند أمين الصياغة قبل بيعها بالثمن المعتاد ، ولا يقبل بيعها قبل طبعها .

أما التجارة بالعاصمة فقد كان لكل نوع من المعروضات باعـة يتجولون في سماط خاص بهم ، ولكل حنطة أمين ، وعلى رأس الجميع ، المحتسب الذي كان يراقب الأسعار ويعاقب على الغش ، فكان للكتبيين نحو 30 دكاناً ، وللحذائين مائة وخمسون ، وللفواكه نحو 50 ، وكان لكل من باعة الحليب والأزهـار والقطن والملح والجبس واللحم والخضر والدقيق سماط خاص ، وكانت دكاكين الخياطين تشغل ثلاثة أزقة ، وكان كل من العرض والطلب كثيراً ، حتى كان الحليب وحـده يباع منه نحو خمسة وعشرين برميلاً ، وكان يباع من الجزر واللفت أكثر من خمسمائة حمل يومياً ، وكان للحم مجزرة خاصة على جانب الوادي تحت مراقبة المحتسب ، وكان للصبانين سوق خاص كذلك .

أما سوق العطارين فقد عده الحسن أجمـل سوق للعطارين في عصره ، وفي هذه السوق نفسها كانت توجـد الصيدليات التي يسلم مستخدموها الدواء إلى المرضى مقابل وصفة طبية (1) ، كما هو الشأن اليوم وكان الأطباء يعدون الدواء مباشرة في منازلهم ، ويباع الدواء تحت إشرافهم .

وكان تجار الثياب ونحوها من أحزمة وأقمصة وما إلى ذلك تكون قيساريات

---

(1) Léon, Description de l'Afrique 1. P : 200

متقاربة ، وقد جاء استعمال لفظ قيسارية نسبة إلى قيصر ، وذلك أن الرومان في المنطقة الشمالية التي كانوا يحكمونها قبل الفتح الإسلامي خصصوا لكبار التجار أماكن خاصـــة منعزلة عن باقي المتاجر ، بحيث يمكن لمستخلصي الضرائب أن يتقاضوهـا في عين المكان ، كما أن دفاع التجار عن أموالهـم في حالة الخطر ، يضطرهم بطبيعة الحال إلى الدفاع عن كل المنطقة التجارية التي هم بها فيحمون بذلك أموال الدولة أيضاً . هذه المجموعة التجارية دعيت باسم القيسارية منـذ ذلك الوقت . وهذا التحليل ساقه الحسن الوزان في كتابه الجغرافي .

وكان بقرب سوق السراجين ميدان خاص بالحمالين الذين يبلغ عددهم نحو الثلاثمائة ، وكان لهم زي موحد ، ويعملون تحت إدارة أمين ويتناوبون العمل أسبوعياً ، ولهم صندوق يوزع دخله على مجموع العاملين ، ومتى توفي أحدهم ، وترك زوجة وأطفالاً تكفلوا بمصاريفهم إلى أن تتزوج الأرملة إذا شاءت ، أما الأطفال فإلى أن يكبروا ويتعلموا مهنة تدر عليهم مورداً . ومتى تزوج أحـد الحمالين أو ولد له طفل دعا زملاءه فقدموا إليـه الهدايا بهذه المناسبة . وكانوا يعفون من الضرائب وثمن خبز عجينهم . ومتى ارتكب أحدهم جريمة وعوقب عليها بالإعدام فإنه لا يعدم علناً كباقي الجمهور .

وكان من ضمن البضائع المستوردة من انجلترا ، العلف الذي يباع بكثرة في المغرب ، وقد ظل يستورد حتى الحرب العالمية الثانية حيث ندر استعماله ، كما كان يجلب منها بعض أنواع الثياب الحريرية فضلاً عن المدافع والبنادق وصفائح السيوف والبارود والرصاص والقنابل ، وكانت إنجلترا تتعامل إذ ذاك مـــع السعديين بسوس عن طريق مينـاء أكادير الذي كان تحت أيدي البرتغال في أواخر العهد الوطاسي (1) .

وكان أهم ما يصدره المغرب هو السكر ، ولكن بعد أن استولى السعديون على مجموع المملكة الوطاسية . وكان التجار الإيطاليون والإسبانيون يصدرون إلى بلادهم من المغرب نوعاً من البرانس السوداء لبيعها هناك ، وكانت هـذه

Caillé, La Petite Hist du Maroc T 1 - p: 76. (1)

البرانس تصنع بتفزة من ناحية تادلا . أما تجار سجلماسة، فكانوا يقومون بالتبادل التجاري مع مصر والسودان (1) .

وكان في سلا عدد كبير من التجار الجنويين والبندقيين والانجليز والفلامنديين، إذ كان ميناء سلا من أعظم موانىء المغرب بعد فترة ركود طويلة قبل أواخر العهد الوطاسي .

وكان أكثرهم نشاطاً الجنويون الذين كانوا يروجون تجارة واسعة بكل من فاس وسلا ، ولذلك كانوا يحظون برعاية السلطان ، إذ كانت تجارتهم تغل دخلاً كبيراً لخزينة الدولة ، وكانوا فيما يخص الوسق إلى الخارج ، يتعاونون فيعمل بعضهم لحساب الآخر . وقد وصفهم الحسن الوزان بالإخلاص واللباقة ، وكانوا ينفقون أموالاً طائلة في سبيل استمالة رجال البلاط وشخصيات الدولة حتى يضمنوا لأنفسهم حياة كريمة ، وكان أحدهم ويدعى طوماس دي مارينو ثرياً يحظى بإكرام السلطان ورعايته الخاصة ، حتى ان هذا الأخير نقل جثمانه بعد موته إلى جنوة ، تنفيذاً لوصيته وترك عدة أولاد أثرياء حظوا بنفس العطف من لدن البلاط .

وكانت تارودانت من أكثر المدن ازدهاراً ، فقد كان سكانها يبلغون تقريباً ثمانين ألف نسمة ، وكانت القوافل تحط بها من مختلف أنحاء المغرب ، وكانت الأسواق تعقد بها دورياً لتجارة الجلد والتبر وريش النعام والأسلحة والصمغ مما كان يحمله السود من السينغال ، وكانت معادن النحاس بالقرب من أكادير تستغل أحسن استغلال (2)

* * *

Raymond Mauny - Hespéris 3,4 - 1954 (1)
Les Portugais au Maroc - Page 13 (2)

4 - العمران وفن البنـاء

نظرة عامــــة :

ذكر لنا الحسن الوزان في وصف افريقيا كثيراً من المدن والقرى التي كانت آهلة في هذا العهد ثم خبا نجمها وقتئذ أو فيا بعد ، و كان من بين هذه المدن والقرى التي بنيت قبل الوطاسيين بزمن بعيد أو قريب :

1) تيد نيست بحاحا ، ومع أن قرية ما تزال موجودة بهذا الاسم هناك ، فليس من المؤكد أنها الموصوفة في كتاب الوزان ، وكانت تيد نيست آهلة باليهود الذين كانوا يؤلفون معظم سكانها ، ثم تهدمت منذ سنة 920 إذ غادرها السكان خوفاً من هجوم البرتغال .

2) تاكوليت وهي قريبة من الصويرة القديمة ، وقد تم خرابها أيضاً على يد البرتغال سنة 920 (1514) .

3) تنزة بناحية مراكش في جدميوة، وكانت تنتج حبوباً كثيرة ، ولكن هجمات العرب أضعفت من شأنها .

4) تاغوداست من إقليم دكالة وكانت توجد بها بساتين كثيرة للفواكـــه والزيتون ، وكان بها عيون دافقة ، وأهلها طيبو الأخلاق فيهم علم وفضـل .

ومن المؤكد أن هجمات البرتغال كان لها النصيب الأوفر في خراب هـذه المدن والقرى الآهلة حتى اننا لنعجب اليوم إذ نشاهد مناطق شاسعة من أرض المغرب لا أثر فيهـــا تقريباً لمدشر أو ساكن ، فهل يحق لنا أن نستخلص تأخر العمران من حيث الكم بالنسبة لهذا العصر البعيد ؟ (1) .

---

(1) في كتاب آسفي وما إليه ، ذكر عدد من المدن والقرى التي خربت في هذه الفترة كالغربية وتيط . وانظر أيضاً ليون الإفريقي .

المدن المستحدثة :

لا مراء في أن الوطاسيين لم يُنشئوا مدينة حقيقية تخلـد أثرهم كما فعلت كل الدول التي سبقتهم منذ الأدارسة ، فقد كانت خزينتهم تشكو على الدوام عجزاً خطيراً ، وكانوا أكثر انشغالاً بالحرب منهم بالسلم ، فأثرهم في العمران والبنـاء يكاد يكون معدوماً إذا اعتبرنا المدة التي قضوها في الحكم . وإذا كانوا لم يشاركوا بنصيب يذكر في هذا المظهر من الحضارة ، فقد شيدت في عهدهم عـــدد من المنشآت على يـد أمراء مستقلين أو على يد البرتغال الذين تركوا عدة آثار من هذا العهد .

ومن أهم المدن المستحدثة في العهد الوطاسي :

1) شفشاون : تقع بين وزان وتطوان ، وقد تم تأسيسها سنة 876 على يد موسى بن راشـد من نسل عبد السلام بن مشيش وهو الذي بنى قصبتها وكانت معسكراً تنطلق منه المتطوعة لمقاومة الإحتلال البرتغالي في سواحـــل البحر المتوسط وبلاد الهبط ، وقد بقيت شفشاون بيد بني راشد أزيد من قرن إلى أن طردهم منها السعديون .

2) تطوان الجديدة : تقدم أن بناء قصبة تطوان المرينية يرجـع إلى عهد يوسف بن يعقوب سنة 685 وأنها خربت بعد هجوم الاسبان سنة 1500 م ،وظلت كذلك إلى أن قـــدم فوج من المهاجرين الأندلسيين 889 بقيادة أبي الحسن علي المنظري ، من كبار ضباط جيش ابن الأحمر،فاستأذنوا مؤسس الدولة الوطاسية محمد الشيخ في بناء المدينة المذكورة ، أو على الأصح في إعادة بنائها بعـد أن عاينوا موقعها وأطلالها ، وعزموا على أن يتخذوها خطاً هجومياً ضد التدخل المسيحي . ولعلهم طمعوا في قربهم من المضيق أن يعودوا يوماً إلى أرض الوطن الذي غادروه مكرهين ، ولذلك أنشأوا أسطولاً للجهاد أمكنه أن يضايق لأمد طويل سفن البرتغال والاسبان في عرض البحر المتوسط . ولم يقبـــل الرئيس المنظري ولا بنوا راشد الهدنة التي عقدها محمد الشيخ وملك البرتغال ألفونس الخـامس عند احتلال هذا الأخير لأصيلا ، وتمكن بنوا راشـد المنظري من

تحطيم عـــدد من السفن البرتغالية في حوض أصيلا [1] .

وقد كانت البناءات الأولى لتطوان الجديدة لا تزيد على بضـع عشرات من الدور والمرافق ، بالإضافة إلى السور ، أما العمارة الكاملة فقد تمت قبـل نهاية القرن التاسع ، بعد أن تواردت أفواج جديدة من مهاجرة الأندلس ، وهكذا كانت تطوان بلداً مربع الشكل[2] ذات سور مزدوج يبلغ عرض جزئه الداخلي سبعة أذرع . وبنى المنظري قصبة جديدة في ركن المدينة والملاح ، قرب الجامع الأعظم ، ويدعى الآن بالملاح البالي ، أما الأبواب الثلاثة التي كانت مداخـل للقصبة فقد ضاعت آثارها تقريباً ، كما تخربت أو ضاعت معظم أجزاء السور .

وكانت المادة الأساسية من الحجر والآجر كما نشهد ذلك في بعض الأبراج ، وكانت القصبة التي يوجـــد موقعها الآن في جومة جامع القصبة أول ما بني من المدينة ، ولا يزال جامعها موجوداً . وكانت الدور في عهد المنظري تبنى معها حدائق ، ثم أبطلت هذه الطريقة بسبب ضيق المساحة داخل المدينة المسورة ، وقد بني مكان الجامع الأعظم الحالي مسجد صغير ظل يؤدي مهمته الدينية ، إلى أن هدمه سليمان العلوي سنة 1223 هـ ، وأعاد بناءه . (محمد الهلالي ــ دعوة الحق ــ عدد 1 ــ 1382 / 1962) .

3) الجديدة : على ساحل المحيط الأطلسي ، بنيت في مكان كان يسمى البريجة إذ كان يوجد هناك برج قديم[3] . وفي سنة 907 (1502) خرج الأسطول البرتغالي لشن الغارة على بعض شواطىء الشمال ، فألجأته العواصف إلى المحيط الأطلسي عند البريجة ، وبعـــد أن تركوا بعضهم هناك ، عجلوا بالرجوع إلى البرتغال حيث استأذنوا ملكهم في بناء برج هناك ، غير أن السكان منعوهم حتى كانت سنة 911 ، فاهتم مانويل بالأمر بنفسه ، وبعث بالخبراء والعمال ، فتمكنوا من بناء حصن مربع في وسطه مأجل لحبس الماء تبلـغ مساحة كل من جوانبه

---

(1) Auguste Cour, La Dynastie Marocaine de B. Wattas P.85-116

(2) مختصر تاريخ تطوان ص 18 وتاريخ تطوان 1 ص 91 لمحمد داود .

(3) الكانوني : آسفي ـ 46 وقيل إن الاحتلال كان سنة 1514 م .

36 خطوة . وكان بناء هذا المأجل سنة 1509 ، ثم بنوا سور المدينـــة والحصن مركزها ، وكان السور مزدوجاً وله ثلاثة أبواب أحدها يتجه نحو البحر .

التحصينات :

حصنت كثير من المدن والمراكز المستقلة ذاتياً كتطوان وشفشاون ودبدو وتازوطا وغيرها ، وكان من أهم المنشآت العلمية التي تمت على يد الوطاسيـــين قنطرة وادي الرصيف بفاس حيث قاموا بتجديد بنائها ، أما التحصينات التي امتازت بالجدة والأصالة فهي التي تمت على يد البرتغال ولصالحهم،وكان البرتغال يستخدمون مواد البناء الموجودة في عـين المكان ، وكانوا يضطرون إلى جلب بعضها من بلادهم[1] ،وهم أول من استخدم الأبراج الخاصة بالمدفعية بالمغرب ، وكانوا يبنونها في غاية المتانة حتى تقوى على ضرب المدافـع هجوماً ودفاعاً ، ويخصصون للمؤن والذخائر أهراء عظيمة أسفلها،وكان لهم مهندسون لهم خبرة عالية بهذا الفن ممن كانوا يستقدمون للمغرب لهذا الغرض .

واتخذ البرتغال ثلاثة نماذج على التتابع في بناء الحصون كما سجل ذلك طيراس، فكانت الأبراج على شكل نصف مستدير كما في سبتة وطنجـــة ، ثم صارت الأبراج مربعة بعد سنة 1431 كما في أصيلا . وفي أوائل القرن 16 صارت الأبراج عبارة عن تحصينات واسعة عظيمة كما في ازمور وآسفي وأكوز .

وكانت الجدران الخارجية تنتهي بمنحدرات قد خندق حولها ، وفي آسفي ظهر البرج المستدير المكون من عدة غرف ، أما الجدار الخارجي للجديدة فقد كان يمثل في شكله نجمة ذات أربعة فروع وأبراجه القوية تقع في أركانه .

وفي أكادير بنى البرتغاليون حصن فونتي قريباً من المرسى وكان بالحصن برج ضخم وعدد من الدور ، وتم لهم احتلال موقعه في عهد محمد الشيخ سنة 910 (1505) كما أخلوه سنة 947 هـ . وقيل إنه كانت توجد في أكادير قلعة من بناء أمراء حاحة قبل الإسلام[2]، ولا نعرف ما إذا كانت في مكان الحصن البرتغالي.

Terrasse, Histoire du Maroc, 2, 119. (1)

(2) آسفي وما إليه ص 56 للكانوني .

المـــدارس :

عرف هذا العهد انتشار المدارس بسوس خاصة ، على يد عدد من العلمـــاء والمحسنين ، أما الدولة الوطاسية فلم يكن لها نشاط ملموس في بناء المدارس التي كانت في العاصمة على الأقل قد بلغت الكفاية منذ عهد المرينيين. ولم تكن مدارس سوس ذات بناء نموذجي ، وإنما كان انتشارها يدل على مدى الإقبـال على العلم بهذه الناحية التي ازداد نشاطها الثقافي في العصر السعدي ثم في العصر العلوي . ومن مدارس سوس التي لمع اسمها في العصر الوطاسي[1] :

1) مدرسة آقا التي كان من علمائها محمد بن مبارك المتوفى سنة 920 هـ .

2) مدرسة تازمورت بسملالة ، أسسها أحفاد الإمام ابن العربي ابتداء من سعيد أكرامو المتوفى سنة 882 هـ .

3) مدرسة آل عمرو من أوائل القرن العاشر على يد أسرة آل عمرو .

4) المدرسة البرحيلية قريباً من تارودانت بأولاد برحيل (وهم عرب) ، ومن أوائل علمائها حسين الشوشاوي العالم الأصولي المتوفى أواخر القرن التاسع وتلميذه داود التونلي .

وبالإضافة إلى هذه المنشآت فقد بنى أحمد الوطاسي سداً عظيماً على وادي فاس بقي على متانته أكثر من نصف قرن حتى انهار في عهد المنصور السعدي سنة 1009 نتيجة لفيضان عظيم[2] .

★ ★ ★

(1) سوس العالمة ص 156 وما بعدها للمختار السوسي .

(2) نزهة الحادي ص 265 لليفرني .

5 - الحياة الفكرية

نظرة عامة :

لم تتوقف الحركة الفكرية في العهد الوطاسي ، ولكنها تراجعت من بعض الوجوه ، فلم ينجب المغرب في هذا العهد عدداً كبيراً من العلماء الفطاحل كما حدث في العصر الموحدي والمريني .

وقد ظل التعليم في الكتاتيب والمدارس شبيهاً من حيث المنهج بما كان عليه في الماضي . وقد انتشرت الكتاتيب في العهد الوطاسي حيث تكاثر حفظة القرآن، وكانت الآيات الكريمة تكتب في ألواح خشبية وتحفظ ثم تمحى لتكتب الآيات الموالية لها وهكذا إلى أن يتم حفظ مجموع السور كما هو الشأن حتى الآن في عدد من الكتاتيب القروية ، وبهذه الطريقة يحفظ التلاميذ رسالة أبي زيد القيرواني ثم ألفية ابن مالك أي بعد حفظ القرآن . أما الشرح فيقرأونه في منازلهم ، ويقضون في دراسة الألفية ما بين سنتين إلى أربع، وبالرغم من أن هذه الشروح تتضمن كثيراً من شواهد القرآن الذي حفظوه من قبل فضلاً عن النصوص الشعرية التي عليهم أن يحفظوها أيضاً ، فإن ذلك لم يكن يفيدهم مباشرة في التحرير وإصلاح نطقهم (1) .

وقد أكد الراهب نيكولا كلينار الذي درس بفاس وسجل عن مشاهداته وصفاً مدققاً ، أن المواد العلمية الأخرى كانت دراستها شائعة بتونس إلى جانب القرآن . أما في المغرب فبعد دراسة النحو وحفظ الرسالة يتفرغ الطلبة لدراسة علوم الفقه الذي يولونه كامل عنايتهم .

ومن المعلوم أن الراهب لا يصف سوى ما لاحظه بفاس ، ففي هذا الوقت

---

(1) Le Tourueau, Hespéris, 2-1934.

بالذات كانت دراسة الرياضيات قد شقت طريقاً واسعاً بإقليم سوس بعد ركود عام بالمغرب استمر عقوداً من السنين .

على أن كلام نيكولا كلينار ينبغي أن يؤخذ بعين الحذر فقد أكد أنه (حوالي سنة 1540 — 1541) لم يكن في فاس كتبيون ، أما ليون الافريقي (الحسن الوزان) الذي درس هو أيضاً بفاس وكتب عن المغرب وصفه ضمن كتاب (وصف افريقيا) سنة 1526 فقد أكد أنه يوجد بهذه المدينة نحو ثلاثين كتبياً ، فهل توقف الكتبيون عن بيع الكتب في متاجرهم بعد هذه المدة ؟

ويذكر كلينار أن الكتب كانت تباع وقتئذ بالمزاد العلني يوم الجمعة قرب جامع القرويين وكانت قليلة لأن نشاط النساخين قد فتر قبل ذلك بنحو مائتي سنة ، كما ارتفعت أثمانها حتى كانت تتخطفها الأيدي مهما بلغ ثمنها ، وكثيراً ما تباع مبتورة ويتعين شراء الكتاب أحياناً مرتين ليمكن سد بتر هذه النسخة بتلك ، وكان يباح لليهود دخول قاعة البيع مع احتمال تعرضهم للإهانة حسبما يدعيه الراهب ، ولا يزال بيع الكتب بالمزاد العلني جارياً حتى الآن بجامع القرويين ظهر كل جمعة .

وكان بفاس نحو مائتي كتاب (1) فضلاً عن المدارس والجوامع ، وكان التلميذ يتعلم القرآن في سنتين أو ثلاث ثم يعيد قراءته مرة أو أكثر حتى يحفظه عن ظهر قلب في نحو سبع سنوات ، وكان يتعلم الإملاء والنحو وباقي العلوم في المدرسة ، وكان للمعلمين جراية قليلة ، وبعد أن يختم التلميذ حفظ القرآن يقيم والده مأدبة على شرف المعلم والتلاميذ رفقاء ابنه ، وكذا أصدقاء رب المنزل الذي يقدم للمعلم كسوة جديدة كهدية بينما يقدم التلاميذ إليه شموعاً مزخرفة توقد فجراً وتطفأ عند شروق الشمس وقد يشترك في الحفل عدد من المادحين .

وكان لتلاميذ الكتاتيب والمدارس يَوْمَا عطلة أسبوعية .

وقد استمرت العناية بشؤون المدارس في هذا العهد حتى وإن لم يخلد الوطاسيون مآثر في بناء المدارس الجديدة على غرار مدارس المرينيين ، وهكذا

(1) Description de l'Afrique 1 - P 215.

كان فقهاؤها وخطباؤها يختارون من ذوي العلم والفضل كأبي عبد الله محمد بن القاضي المكناسي وعبد الرحمن بن محمد الزواري (1) المتوفى سنة 895 هـ

ومع ذلك فقد تقهقرت حركة التعليم بشكل واضح إذا قارناها بما كانت عليه في العصر المريني الذي كان فيه لكل مدرسة عدد كبير من العلماء حسب تخصصهم وكانت لهم رواتب محترمة بفضل الأوقاف المخصصة لهذا الغرض، والتي كانت موضع عناية القضاة، وبينما كانت لكل طالب منحة تكفل له المؤونة واللباس لمدة سبع سنوات، والسكنى بالمدرسة، لم يعد له في العصر الوطاسي سوى السكنى. أما المؤونة فيتصدق بها عليه المحسنون من سكان فاس وضواحيها (فيما يخص مدارس فاس).

وكان الطالب يسرد الحصة الدراسية على العادة التقليدية بحضر الأستاذ، في الكتاب المقرر، ويقوم هو بالشرح مع بعض التدخلات الخاصة وقد يناقش الطلبة بعضهم بعضاً بحضر الأستاذ.

والواقع أن هذه الطريقة من أجود طرق التعليم إذا قارناها بالدور السلبي الذي يمثله الطلاب في عدد من مدارس الدول الحديثة.

وفي هذا العهد بدأ الاهتمام بإنشاء الخزانات وتنظيمها وتنميتها على يد الأسر في إقليم سوس كخزانة الأسرة العمرية في بعقيلة قرب تزنيت، وخزانة تاجارجوست بتاليوين.

وقد كان من أهم مظاهر النشاط الفكري في هذا العصر ظهور عدد من كبار الفقهاء وعلماء التصوف، ونموُّ أدب المقاومة وشعر الملحون، كما انتقل الإهتمام بالعلوم الرياضية إلى إقليم سوس.

وقد تابع الوطاسيون والمحسنون في عهدهم تخصيص عدة أوقاف لكراسي التدريس بفاس، منها :

---

(1) درة الحجال 2 ص 360 لابن القاضي.

(2) سوس العالمة ص 169 و 173 لمحمد المختار السوسي.

1) كرسي ابن غازي 919 / 1513 لتدريس العمدة في الحديث ورسالة ابن زيدون وهو من وقف أبي فارس الورياغلي ، وقــد خصص للرسالة كرسيان آخران من نصيب عبد الرحمان المشترائي يدرس بهما تناوباً ، وقد توفي هـذا العالم سنة 962 / 1554 .

2) كرسي التهذيب بالمدرسة الصباحية وأستاذه عبد الواحد الونشريسي بعد موت والده أحمـد بن يحيى ، وكان له كرسي آخر للتفسير ومختصر ابن الحاجب في الفقه .

3) كرسي البخاري بشرح فتح الباري . أنشأه السلطان أبو العباس أحمد ابن محمد الوطاسي في منتصف القرن التاسع تقريبـاً بالقرويين وشغله أيضاً عبد الواحد الونشريسي [1] .

الأدب :

لا ريب في أن شأن الأدب قد ضعف في عهد الوطاسيين الذين كانت قلة ذات يدهم لا تسمح لهم برعاية الحركة الفكرية على نحو ما تنافست فيه الدول السابقة في مختلف الأقطار الإسلامية .

ولا يختلف النثر في هذا العصر عنه في العهد المريني من حيث الطول والتزام المحسنات البديعية والزخرف اللفظي ، إلا أن أسلوب المقالة والتأليف سَلِمَ من هـذا التكلف كما نلاحظ في أسلوب الشيخ زروق في كتابه « عدة المريد » ، ومن نماذجه [2] :

« أصول طريقتنا التي تنبني عليها عشرة أشياء ، خمسة ظاهرة وخمسة باطنة ، أما الخمسة الظاهرة فأولهـــا ملازمة السمع والطاعة لأمراء المسلمين وعامتهم وخاصتهم من أهل الله ، فلا يخالف عليهم بقول ولا بفعل ، بل إيمان وتسليم . الثاني لزوم الخمس في الجماعة بحسب الإمكان ، فإن كان في الجامع الأعظم فهو أولى ، وتكفي المرأة والصبي وأي كان من المسلمين في تحصيل فضلها » .

---

(1) محمد المنوني : دعوة الحق عدد 4 / 1385 ـ 1966

(2) نقلاً عن النبوغ المغربي ص 634

ومعظم رجال الأدب في هذا العهد من الفقهاء الذين جمعوا بين العلوم الدينية وقرض الشعر ولكن شعرهم تأثر كثيراً بعلمهم كما نرى في شعر محمد بن عبد الرحمان التازي المتوفى 920 حيث يقول :

مهما اشتدت أزمة تنفرج قد أبدل ضيقك بالفرج
مهما اشتدت بك نازلة فاصبر فعسى التفريج يجي

وكقول ابن غازي صاحب الروض الهتون :

طلقت مكناســـة ثلاثاً والشرع يأبى الرجوع فيه
ليست بدار سوى لقاض أو عامل الجور أو سفيه

على أن الأدب الذي يصور بطولة الشعب وصراع الدولة للاحتلال الأجنبي قد شاع في هذا العصر معبراً بصدق عن الحماس الذي كان يذكيه الشعراء في نفوس الأمة وأبطالها حتى يتابعوا صراعهم ضد المحتل ، قال محمـــد بن يحيى البهلولي مخاطباً محمد البرتغالي :

ظهر الرمل مرادي والسكر يا كرام
نفسي على الجهاد سلبت والسـلام

وقال يحث على الجهاد أيضاً :

قم للجهـــاد رعاك الله منتهجاً نهج الرشاد إلى الأقوام لو فهموا
من بعد أندلُس ما زال محتدماً لو كان يكنني بالليــل أحتزم

أما في المدح ، فنلمس في أكثر الأحيان عدم المبالغة ، ونرى الفقهاء يشاركون مرة أخرى في تعداد محامد بعض السلاطين كقول عبد الواحد الونشريسي مهنئاً أبا العباس ببناء قنطرة الرصيف :

جسر الرصيف أبو العباس جدّده فخر السلاطين من أبنـــاء وطاس
فجاء في غاية الإتقـــان مرتفقاً لمن يمر بــــه من عدوتي فاس

وأرقّ من هذا الشعر الذي لا يمثل صورة أدبية تذكر قول أحمد بن سعيد

---

(1) الأدب المغربي ص 289 لعفيفي وابن تاويت .

الحباك المتوفى 870 ، ولو أن شعره مجرد أوصاف معتادة :

بلغت آمـالاً ونلت مقاصـداً	وغدوت ترجى في الأنام وترهب
بهرت محاسنك الأنام فأصبحت	أخبـار جودك عن سعودك تعرب

هذا مع الملاحظة بأن هذا الشاعر ينتمي إلى العصر المريني المتأخر، ولم يكن العهد الوطاسي سوى استمرار له .

الفقه والحديث :

نبغ في العهد الوطاسي فقهاء كثيرون على المذهب المالكي وتخصص بعضهم في الفتوى التي كان لها دور مجيد في حل المشاكل القضائية ، أما المؤلفات الفقهية فمعظمها يدور حول متن خليل والمدونة شرحاً وتعليقاً .

ومن أهم المؤلفات التي وضعت في هذه الفترة : 1) تحفـة الحكام لابن الزقاق المتوفى 912 وهو جد عبد الوهاب الزقاق المشهور . 2) رسالة الإخوان من أهل الفقه وحملة القرآن لابن ميمون الإدريسي 917 هـ . 3) المفيد في الفقه لإبراهيم الفكيكي 900 هـ . 4) شرح مختصر ابن الحاجب لسعيـد الكرامي السملالي . 5) الكليات الفقهية لابن غازي . 6) شفاء الغليل بشرح خليـل لابن غازي .

ومن أبرز فقهاء هذا العصر :

1) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن غازي أصله من مكناس التي درس بها ثم بفاس على الفقيه الصغيـــر والإمام القوري أبو عبد الله وعبد الرحمان القرموني وغيرهم . وكان إلى جانب ضلاعته في الفقه ، مشاركاً في علوم أخرى كالحساب الذي وضع فيـــه « منية الحساب » والحديث الذي وضع فيه « التعلل برسوم الاسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد » ، والنحو الذي ألف فيه شرح الألفية ، وغـير ذلك ، وكان خطيب جامع القرويين ورافق الوطاسيين في حروبهم ضد البرتغال ، وكان من جلساء محمد البرتغالي ، ومولده بمكناس ووفاته بفاس سنة 919 هـ .

2) أبو مالك عبد الواحد الونشريسي ولد بفاس ودرس على والده وأبي الحسن الزقاق وابن غازي ، وكان من تلاميذه أحمـــد المنجور وعبد الوهاب الزقاق ، وتولى القضاء بفاس مدة 17 عاماً ، وكان يجمع بين القضـاء والفتيا والتدريس كما ذكر ابن عسكر(1) ، وكان كثير الجرأة على السلاطين الوطاسيين ولكنه أخلص لهم حتى قتل بسبب ذلك إذ يروي ابن عسكر أن أبا عبد الله محمد الشيخ السعدي لما حاصر فاساً وامتنعت عليه قيل له : لا تبايعك فاس إلا إذا بايعك الونشريسي فبعث إليه رسولاً فكان جوابه : بيعة هذا الرجل (أي السلطان الوطاسي) في عنقي ولا يحل لي خلعها إلا بموجب شرعي وهو غـير موجود ، فأغرى محمد الشيخ جماعة من المتلصصين الذين ترصدوا له بجامـع القرويين ثم سحبوه من مجلس التدريس وقتلوه خارج الجامع بعد أن رفض أن يتبعهم إلى مجلس الملك السعدي ، وكان مقتله سنة 955 هـ .

وقد وضع الونشريسي منظومات في الفقه كشهادات السماع ومفوتات البيوع الفاسدة، وموانع الإقالة ، وله أيضاً فتاو محررة وشرح للبخاري غير تام (2) .

3) عبد الوهاب بن محمد الزقاق الفاسي : تلمذ على عمه أبي العباس وعبد الواحد الونشريسي وابن هارون والحباك، كما درس عليه الإمام المنجور ويوسف الفاسي وغيرهما ، وجده علي هو واضع منظومة تحفة الحكام ، التي ظلت تدرس بالمعاهد التقليدية حتى يومنا (في بعض نواحي المغرب كسوس) .

وكان عبد الوهاب الزقاق من المناهضين للدولة السعدية كأستاذه الونشريسي لذلك أعدمه محمد الشيخ السعدي بعيد وفاة آخر ملوك بني وطاس سنة 961 ، ومات ضرباً بالسياط وقيل قطع رأسه بشاقور .

ومن فقهاء هذا العصر كذلك : أبو الحسن علي بن موسى بن هارون خطيب القرويين المتوفى سنة 951 هـ ، وعلي الورياغلي المتوفى سنة 962 هـ ، وأبو القاسم الماجري المتوفى بفاس سنة 911 هـ .

---

(1) دوحة الناشر ص 50 لابن عسكر .
(2) شجرة النور الزكية ص 282 ـ 283 لمحمد بن مخلوف .

ولم يخل هذا العصر من علماء الحديث الذين كان من أبرزهم :

1) أبو محمد عبدالرحمان سقين السفياني تلميذ ابن غازي وزروق والقلقشندي (بمصر) وتولى الخطابـــة بجامع الأندلس بفاس كما قام بجولة في جنوب المغرب والسودان وتوفي سنة 956 هـ .

2) ابن هلال المتوفى سنة 903 وهو صاحب « اختصار فتح الباري » .

علوم اللغـــة :

ضعف الإهتمام بعلوم اللغة في هذا العصر ولم تتق الهمم إلى الإبتكار في التأليف أو إدخال تغييرات جديدة في الدراسات اللغوية ، وكان معظم رجال اللغة فقهاء من حيث اختصاصهم الرئيسي كأبي القاسم محمد الماجري النحوي المتوفى سنة 911 بفاس وهو أستاذ عبد الرحمان بن الملجوم ، وكيعقوب بن يوسف الرميكي أستاذ بتمانارت بسوس والمتوفى سنـــة 965 هـ ، وموسى بن سعيد الحافظي الزواوي المقرىء المتوفى سنة 931 هـ .

التـــاريخ :

تعتبر الدولة الوطاسية حتى الآن أسوأ دول المغرب حظـــاً من حيث قلة المصادر التاريخية التي تعالج فترتها السياسية ، إذ تكاد تكون كل المصـادر التي يعتمد عليها في هذا الباب من تأليف مؤرخين لم يشهدوا العصر الوطاسي نفسه ، ومع ذلك فنحن بفضل التقارير التي دوّنها عدد من المسافرين والمبعوثين الأجانب ، نعرف أشياء غير قليلة عن نشاط الدولة السياسي خاصـــة من حيث الملاقات الخارجية ووضع الأجانب بالبلاد كتقارير باستيا ودي فرجاس البرتغالي وبيير دوبيطون الفرنسي .

أما المصادر المغربية الأصيلة فمن أهمها :

1) مشاهير بيوتات فاس الكبرى لمؤلف مجهول من تلاميـذ أبي عبد الله محمد بن قاسم وقد عاش المؤلف إلى ما بعد بداية القرن التاسع ، واختصر كتابه أبو زيد الفاسي[1] .

(1) دليل مؤرخ المغرب الأقصى جزء 1 ص 10 لابن سودة .

2) ذيل القرطاس في ملوك بني وطاس لأبي عبد الله محمد بن أحمد بوراس المعسكري ، وهو غير موجود حتى الآن .

وهناك مصادر لم توضع إلا مؤخراً عن الدولة الوطاسية . أهمها ضوء النبراس لدولة بني وطـــاس لمحمد بن محمد علي الدكالي ، أما كتاب الحسن الوزان «Description de l'Afrique» ففيه كثير من المعلومات التي تفيـد في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي وحتى السياسي للدولة الوطاسية ، وهو في تصميمه العام جغرافي أكثر منه تاريخيا .

الجغرافيـــا :

لم يشهد العصر الوطاسي رحالة يداني رحالة العصر المريني في طول الرحلات التي قاموا بها ولا في دقة الوصف الذي سجلوه عن أسفارهم ، غير أن العهـــد الوطاسي امتاز بظهور أدق كتاب جغرافي تم تداوله ألا وهو كتاب الحسن الوزان الذي سبق ذكره .

وقد كان الحسن الوزان نفسه أهم رحالة عالمي ظهر في هـذه الفترة ، وهو أندلسي المولد مغربي النشأة والتكوين ، واسم والده محمد الزياتي ، وكان ازدياده بغرناطة فيما بـين سنة 1489 م و 1495 ، أما لقب الوزان فقد أطلق على أحـد أسلافه إذ كان يقوم بمهمة الوزن العمومي ، ولما استولى الاسبانيون على غرناطة سنة 1492 هاجرت عائلة الحسن الوزان إلى فاس حيث تابع هذا دراسته بالقرويين ، واستعان على المعاش بالعمل ككاتب في مارستان فاس ، وقد قام الحسن الوزان بأسفاره الأولى بالمغرب إذ أدى عدة مهمات لحساب السلطان محمد البرتغالي وهو ما يزال حدثاً ، وخلال هذه الأسفار جمع أشعاراً نقلها من قبور الموتى في مختلف الأماكن وقدمها إلى أخي السلطان ، كما سافر وهو صغير السن إلى القسطنطينية ، وفي سنة 1514 كلفه محمد البرتغالي القيام بمهمة الاتصـــال بحاكم آسفي البرتغالي ، والظاهر أن ذلك يرجع إلى معرفته المبكرة للغة البرتغالية وهو من أصل أندلسي وقبل هذه الفترة أمكنه أن يزور تمبكتو بصحبة عمـه وكان الحسن لا يتجاوز 17 سنة ، حيث قام عمه هذا بسفارة لدى ملك السودان أسكيا محمد توري وبعد

أن قام بأسفار أخرى غير المغرب ، توجه إلى مصر عن طريق شرقي التشاد ، ثم عاد إلى المغرب عن طريق البحر بعد أن بلغ به المطاف إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج أواخر سنة 1515 ، وأثناء ذلك زار القسطنطينية .

وقد قام الحسن الوزان بنشاط دبلوماسي وسياسي عظيم لحساب الوطاسيين وهكذا شارك في مفاوضات بين أمير هنتاتة الناصر بن يوسف الهنتاتي ومحمد البرتغالي ، كما فاوض أمير سوس وحاحة أحمد الأعرج أول ملوك السعديين ، وحاكم آسفي البرتغالي (سنة 1514) وأمير دبدو المريني واتصل بعد ذلك بأمير تلمسان أبي عبدالله محمد وبالقرصان عروج التركي ، ثم تابع سفره إلى تونس ولكنه لم يتمكن من مقابلة سلطانها الحفصي. وقد تابع طريقه إلى القسطنطينية وكان قدومه إلى مصر سنة 1517 ، وفي رجوعه إلى المغرب توقف في طرابلس الغرب سنة 1518 ولما وصلت السفينة التي كانت تقله إلى جربة اعترضها قراصنة من صقيلية وقادوها إلى إيطاليا ، ثم قدموه هدية إلى البابا ليون العاشر في يناير 1520 (927 هـ) وسموه بجوهانس ليود ميديسيس Johanius leo de Medicis . أما هو فلقب نفسه بيوحنا الأسعد الغرناطي ، ثم دعاه الإيطاليون فيما بعد بليون الافريقي .

ثم استقبله البابا استقبالاً طيباً وأعجب بثقافته ،وتمسح الحسن الوزان لأسباب نجهلها ، كالضغط أو بجرد الرغبة في رضا البابا الذي عاش الحسن تحت كنفه ثم تحت رعاية أحد الكرادلة وكان يعلمه العربية التي كان يقوم بتدريسها أيضاً في جامعة Bologne ، وأثناء ذلك درس اللاتينية والإيطالية ثم قام بتأليف عدد من الكتب التي تعتبر فذة في بابها ومنها :

1) قاموس عربي عبراني لاتيني ألفه ببولوني سنة 1524 لأحد الأطباء اليهود.

2) كتاب عن مشاهير العرب وضعه سنة 1527 .

3) تاريخ حديث عن أفريقيا ، ولا تزال الجهود متواصلة على العثور على نسخة كاملة منه لنشرها .

4) وصف افريقيا وهو الكتاب الوحيد الذي تم تداوله من بين كتبه حتى

الساعة وقد ألفه وهو في نحو الأربعين من عمره وحصل هـذا الكتاب على شهرة فائقة لدى المسيحيين وقد تم نشره منذ سنة 1550 بالبندقية على يد أحد المفكرين الإيطاليين (Jean Baptiste Ramusio) ومن المؤكد أن الحسن الوزان قد ألفه بالإيطالية لكنه اعتمد على مؤلفات مخطوطة بالعربية وقد ضاع أثرها، وفي سنة 1556 ظهرت ترجمة لاتينية وأخرى فرنسية لهذا الكتاب، واعتبرت الترجمة اللاتينية رديئة ، وكان المخطوط الإيطالي الذي وضعه الحسن الوزان نفسه هو الذي تم نشره على يد Ramusio ولكن النسخة الأصلية تعد مفقودة حتى الآن، وإنما ظهر مخطوط بالمكتبة الوطنية بروما منذ 1931 م منحط في أسلوبه عن طبعة راموسيو ، وقد ترجم الكتاب من جديد إلى الفرنسية عن هذه النسخة مـع مقابلتها بنشر راموسيو على يد « A. Epaulard » ونشر بباريس سنة 1956 مع تعليقات في منتهى الأهمية .

والكتاب في الأصل يتألف من ثلاثة مجلدات ضخمة خصص أحدها لآسيا وثان لأوروبا وثالث لافريقيا ، وهو الذي أكسب المؤلف شهرة خالدة على أنه ليس من الممكن في إطار هذه الدراسة المحدودة إعطاء نظرة كافية عن كتاب وصف افريقيا الذي لم ينشر بعد بالعربية .

ومجمل القول أنه يتألف من تسعة أقسام :

1) معلومات عامة عن افريقيا جغرافياً وإجتماعياً .

2) وصف ناحية حاحة وسوس ومراكش وجزولة ودكالة وهسكورة وتادلا .

3) وصف ناحية تامسنا وإقليم فاس وازغار والهبط والريف والصحراء الشرقية والحوز .

4) وصف ناحية تلمسان .

5) مملكة بجاية وتونس .

6) نوميديا (الصحراء الجنوبية لشمالي افريقيا) وصحراء ليبيا .

7) السودان .

8) مصـــر .

9) أهم أنهار ونباتات وحيوانات وأسماك ومعادن افريقيا .

والأقسام الثلاثة الأولى هي التي تهـــم المغرب بالذات ، وتمثل نحو نصف صفحات الكتاب المذكور وطريقة العرض لديه أن يتحدث في نظرة عامة جد مقتضبة عن الناحية التي سيصفها ، ثم يتناول مدنها وقراها وجبالهـا واحداً واحداً ، وقلّ أن يخلو وصفه لمدينة أو قرية من ذكر عدد سكانها ، كما يعطي نظرة كافية عن حياتها الإجتماعية من سكنى وملبس وطعام وعادات ويصف نشاطها الإقتصادي ، وقد يتحدث عن حكامها وعن أصل بنائها وكثيراً ما يصف حيواناتها ونباتاتها وأخلاق أهلها ، وإذا كانت مدينـــة كبيرة تعرض لوصف عمرانها وآثارها ، ولعل أبدع ما قدمه في هذا الباب وصفه لمدينة فاس وسكانها ، فقد شغل هـذا الوصف صفحات عديدة وتناول كل ما يتعلق بالمظهر التاريخي والاجتماعي والفكري للمدينة ، وهكذا تحدث عن بنائها وتطورهـا السياسي ووصف بدقـــة أسواقها ومساجدها ومتاجرها وعاداتهـا في المطعم والملبس وحفلاتها وألعابها وطريقة التعليم بمدارسها واختصاصات الموظفين بها وبلاط الملك بها ، ومستشفياتها وحماماتها وفنادقها الخ ...

ويعتبر كتاب الوزان في وصف افريقيا إلى جانب كتابَيْ مرمول وليفيو سانوطو Livio Sanuto أهم المصادر الرئيسية التي اعتمد عليها الأوروبيون في اكتشاف النواحي المجهولة بافريقيا [1] .

ومن أسلوبه في الوصف قوله [2] :

« تيدسي مدينة عظيمة ذات أربعة آلاف موقد (أي عائلة) وقد بناها الأفارقة على بعد ثلاثين ميلاً من شرقي تارودانت وستين ميلاً من البحر وعشرين ميلاً من جبال الأطلس ، وهذه الناحية ذات خصب وإنتاج ، وينبت بها عدد من المزروعات وقصب السكر والنيلة ، وبها ناس يتجرون مع بلاد السودان ،

---

(1) Walchenaer : Recherches geo-graphiques. P. 42

(2) Description de l'Afrique T. 1 P. 93

والسكان يعيشون في أمن ، والرجال طيبون متحضرون والحكم عندهم جمهوري إذ السلطة في يد ستة أشخاص بالاقتراع ويغيرون كل ستة أشهر .

وبجانب المدينة يمر نهر سوس الذي يبعد عنها بثلاثة أميال وبها كثير من الصناع اليهود كالصياغين والحدادين وغيرهم ، وفيها مسجد يتوفر على قومة ومستخدمين والقضاة والأساتذة والفقهاء تؤدي الجماعة أجورهم ويقام بها سوق كل سبت يجتمع به العرب والقرويون وسكان الجبال ، وقد استسلمت تدسي سنة 920 إلى الشريف (السعدي) التي أقام بها إمارته .

أما فيما يتعلق بنهاية الحسن الوزان فإن بعض المراجع تؤكد أنه لم يقم طويلا بإيطاليا إذ رجع منها حوالي سنة 1528 إلى تونس وعاد إلى الإسلام . أما الطبعة الرابعة من نشر راموسيو فتقول أنه مات بروما قبل سنة 1550 [1] .

ومن أجود المراجع في الجغرافيا المحلية كتاب محمد بن غازي المكناسي (الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون) وهو في نحو الثلاثين صفحة ، ولكن معلوماته في الجغرافيا الإقتصادية ذات أهمية بالغة ، فقد وصف مختلف أنواع الفواكه والمزروعات التي عرفتها مكناس في عهد الموحدين ثم المرينيين فبني وطاس ، كما وصف تطور عمرانها وأحياءها وأحوالها السياسية .

الطب :

بالرغم من وجود عدد من الأطباء بعاصمة الوطاسيين فاس ، فإن أحداً منهم لم ينل شهرة علمية تذكر ، إلا أن بعض العلماء الواسعي الثقافة كانت لهم مشاركة في الطب كعبد الوهاب الزقاق الذي سبق ذكره بين الفقهاء وعبد الرحمان سقين المحدث الذي كان يقوم بتدريس ألفية ابن سينا في الطب بفاس وقد عدّهما بعض الباحثين من رجال العصر السعدي مع أنهما عاشا تحت كنف الوطاسيين [2] .

---

(1) المراجع عن الحسن الوزان: La Petite Histoire, 1, 48 ودائرة المعارف الإسلامية، وحياة الوزان للحجوي ، ومقدمة كتاب : Description de l'Afrique

(2) الطب والأطباء بالمغرب لعبد العزيز بن عبد الله ص 57 و 59 والنبوغ المغربي ج 1 ص 246 لعبد الله كنون .

الرياضيات :

بقدر ما قلّ الاهتمام في العهد الوطاسي بالعلوم الطبيعية ، بقدر ما اشتدت العناية بالرياضيات خصوصاً الحساب الذي كان الهدف منه إتقان الفرائض مما كان ضرورياً للاشتغال بمهنة التوثيق والقضاء ، ومن الرياضيين :

1) عمر بن عبد الرحمان الجزنائي المتوفى في أوائل القرن العاشر .

2) عبد الله بن عمر المطغري تلميذ محمد بن قاسم الغوري وأستاذ المهدي السعدي ، وقد توفي بدرعة سنة 927 هـ .

3) يعقوب بن يحيى اليدري الذي جمع بين الفقه والنوازل والرياضيات .

4) عبد الحق المصمودي تلميذ أبي عبد الله اليفرني المكناسي جمع أيضاً بين الفقه والرياضيات ، وتوفي سنة 955 هـ .

إلا أننا لا نشهد في هذا العصر حركة تأليف في الرياضيات تستحق التنويه ، وإنما كان أكثر المشتغلين بالرياضيات من المدرسين الذين درس عليهم طلبة برزوا في العهد السعدي ، فكان لهم فضل ازدهار هذا العلم دراسة وإنتاجاً .

الموسيقى :

تقدم الكلام عن الحياة الاجتماعية (موضوع الغناء) معنى الملحون الذي انتشر في هذا العهد ، وكان نتيجة لتطور فن الزجل ، كما سبقت الإشارة إلى أن أقدم قصيدة ظهرت من الملحون هي قصيدة «الحربَى» لابن عبود الفاسي ، والشاعر كما يقول الأستاذ الفاسي هو في نفس الوقت موسيقار أي يلحن شعره بنفسه [1] .

وأقسام القصيدة تبلغ من أربعة إلى عشرة ، وقد تصل إلى الخمسين في « الغزوات » ، والقسم يتكون من بيتين فأكثر ، أما البحور فخمسة :

1) المبيت وهو أكثر شيوعاً ، ويتركب فيها البيت من شطرين إلى خمسة ،

---

(1) مجلة البحث العلمي عدد 1 ص 47 والمعلومات مستمدة من أبحاث الأستاذ الفاسي فقط نظراً لانعدام المصادر ، ولأنه أول من توصل إلى استنتاج قواعد الملحون بدقة وتعمق .

وبعد كل قسم توضع لازمة تسمى حدبة ، وقد يفصل بين أقسام القصيدة بقطع تسمى العروبي ، وقد تكون على نمط أقسام المبيت ولكن أبياتها أقل ، وفي هذه الحالة تدعى نواعير .

2) مكسور الجناح وهو أقسام تختلف قوافيها وترتيب أبياتها ، ويفتتح كل بحر منه بشطر يسمى الدخول، لأن لكل بحر رئيسي عدة بحور ، وهو يتركب من عشرة تقاطيع تتلوها أشطار صغيرة تسمى الكراسي .

3) المشتب : ويبتدىء على طريقة المبيت ، ثم يوتّى بكراسي بعد الشطر الأول .

4) السوسي : يبتدىء القسم ببيت واحد من شطرين ، وليس فيه حرص على التقفية وهو يستخدم في الحوار بين العاشق ومحبوبته ، والتوصل إليها عن طريق الحراز أي الذي يمنعها منه ، ومنه اشتقت قصائد الحراز .

5) الذكر : وبحوره كالمبيت وهي خمسة وعشرون ولكنه ينشد على طريقة خاصة . ويستعمل لدى الطائفة العيساوية .

أما موضوعات شعر الملحون فمتعددة منها شعر الغزوات ، ويسمى الايوبية، وقد يكون هذا النوع وصفاً لسير الأنبياء والصلحاء، والألغاز ويسمى السولان، والفكاهة، والرحلات الخيالية حيث يصفون طائراً يزور البقاع المقدسة، ويعرض المراحل التي مر فيها ، وكذا الهجاء ، والمدح ، والرثاء ، وغير ذلك .

ومن المؤسف أن قصائد الملحون التي نظمت في العهد الوطاسي لم يعن أحد بتدوينها ، وإنما كانت أساساً حقيقياً لما بعدها، والملحون لفظة مشتقة من اللحن بمعنى الغناء . ومن أغرب الظواهر التي تكاد تكون خاصة بشعراء هذا الفن أن بعض هؤلاء ترد عليهم أفكار وعواطف لا يحسنون صوغها نظماً على الطريقة التقليدية فيقصدون ناظماً ويكلون إليه مهمة صوغها في قالب الملحون ، ويدعى هذا الناظم بالخياط .

وكان ابن عبود المتقدم ذكره معاصراً للملوك الوطاسيين المتأخرين ، وكانت قصيدة «الحربّي» تدور حول معركة بين أحمد الوطاسي وأحمد الأعرج بناحية

تادلة سنة 943 هـ / 1536 م . ومن أقدم شعراء الملحون في هذه الفترة محمد بن يحيى البهلولي الذي شارك بإنتاجه في تمجيد المقاومة ضد التدخل البرتغالي [1] .

وقد تنوعت موضوعات شعر الملحون التي شملت، غير ما تقدم القصص والشعر التمثيلي وما يسمى بالمسخ الذي يقلب الجد إلى هزل [2] (Parodie) .

والملحون مع هذا لا يخضع حتماً لنظم البحور العادية ، فقد يبتكر الشاعر بحراً أو « قياساً » آخر ، وحينئذ قد يقلده فيه غيره أو ينفرد به ،فتسمى قصيدته هذه بالفريزة لأنها تفرز ويضيق مجالها ، وهناك كثير من الأساليب والتشبيهات والمقاييس اللغوية الخاصة بالملحون،لجأ إليها شعراؤه تحرراً من تقييد الفصحى على عادة الأدب العامي واللغة العامية ،وإن كان يحدث التلاقح والتفاعل بين الفصحى والعامية كما هو معروف في علم اللغة ، ومن هذه المقاييس المذكورة استعمال الجمع بمعنى المفرد كرياض ، وقبور (لهجة فاسية) وجنان ، وإدخال جموع لبعض الكلمات غير معتادة مثل جمع قصيدة على قصدان وكأس على كيوس ، وقد يستعملون المركب الإضافي للتدليل على معنى معين مثل أمير الحشا بمعنى القلب ودم العنقود بمعنى الخمر إلى غير ذلك ، واستوعب الملحون أسماء الأزهار والألوان والأسلحة والأثاث والأدوات وغير ذلك مما وصفه الأستاذ محمد الفاسي بأنه من عوائق تفهم اللغـــة وتذوقها بالنسبة لمن ليست لهم خبرة بالانتاج المذكور [3] .

★ ★ ★

(1) عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ الحضارة 2 ـ 60 .

(2) محمد الفاسي : نظرة عن الأدب الشعبي بالمغرب ـ مجلة البينة عشت 1962 .

(3) محمد الفاسي : لغة الملحون ـ مجلة البحث العلمي ع 4 ـ 5 سنة 1385 .

السعديون

(1658 - 1510) 1069 - 915

1) العالم في هذا العصر .

2) نشأة الدولة : أصل السعديين ومواطنهم عوامل تأسيس الدولة الملوك الأولون : 1) محمد القائم (915 — 923) . 2) أبو العباس أحمد الأعرج (953 — 946) - الجهاد ضد النصارى – فتح مراكش – خلع أبي العباس . 3) محمد الشيخ المهدي (946 — 964) صفاته ونشأته حكومته – الاستيلاء على أكادير – الفتح الأول لفاس غزوة تلمسان – عودة أبي حسون ثم فتح فاس ثانياً التحالف مع اسبان الجزائر – اغتيال محمد الشيخ – السياسة الدينية – السياسة الخارجية – السياسة الداخلية العامة . 4) أبو محمد عبد الله الغالب (964 981) : صفاته ونشأته – حكومته غزوة الأتراك للمغرب فتح شفشاون – محاولة النصارى نسف جامع المنصور – وفاة الغالب – السياسة الدينية – السياسة الخارجية – السياسة الداخلية العامة 5) أبو عبد الله محمد المتوكل (981 — 983) . 6) أبو مروان عبد الملك المعتصم (983 986) صفاته – مطاردة المتوكل – معركة وادي المخازن .

3) دور العظمة : أحمد المنصور الذهبي (986 — 1012) : صفاته ونشأته حكومته – بيعته – تولية محمد الشيخ ولياً للعهد غزو الصحراء – فتح السودان الثورات الداخلية وفاة المنصور سياسته الداخلية سياسته الخارجية

4) **دور الضعف** : زيدان بن المنصور (1012 — 1032) : شخصيته — بيعته — الثورات ضد زيدان : (1) ثورة أبي فارس. (2) ثورة محمد الشيخ . (3) ثورة ابن أبي علي . (4) ثورات فاس. (5) ثورة سوس — وفاةزيدان— أبو مروان عبد الملك بن زيدان (1032 — 1040) . الوليد بن زيدان : (1040 — 1045) — محمد الشيخ الأصغر (1045 - 1064) . العباس بن محمد الشيخ (1064 — 1069) .

الحركات الاستقلالية : (1) حركة الجهاد البحري . (2) العياشي . (3) الدلائيون .

5) **عوامل سقوط الدولة السعدية .**

6) **أهمية أعمال الدولة .**

7) **السياسة الداخلية .**

8) **علاقات المغرب الخارجية :**

(1) مع البلاد العربية . (2) مع الدولة العثمانية . (3) مع البرتغال واسبانيا . (4) مع فرنسا . (5) مع انجلترا . (6) مع هولندة .

9) **الحياة الدينية** : تطور الحركة الصوفية — حياة بعض كبار المتصوفة : (1) أحمد بن موسى الجزولي. (2) عبدالله بن حسون. (3) يوسف بن محمد الفاسي . (4) أحمد بن عبد الله ابن أبي محلى — متصوفة آخرون — اليهود والنصارى.

1 - العالم في هذا العصر

العالم الغربي :

صادف ظهور السعديين ومدة حكمهم حدوث تغيرات عظيمة في سير الأحداث بأوروبا ، ففي هذا العصر بدأت نية فرنسا تتجه إلى إصلاح جهازها العسكري والإداري وازدهرت الحياة الأدبية بهذه البلاد حتى سمي هذا العصر بالنسبة إليها عصر النهضة ، كما تم طرد المسلمين نهائياً من اسبانيا في أول نشأة الدولة السعدية بسوس ، وانفصلت البرتغال عن المملكة الاسبانية ، بينما كان الصراع على أشده بين انجلترا واسبانيا في أمريكا من أجل النفوذ السياسي والاقتصادي ، وكانت هذه الفترة عهد اصطدام بين البروتستانية والكاثوليكية ، في عدة بلاد كانجلترا وفرنسا واسبانيا وألمانيا .

العالم الاسلامي :

استمرت الدولة العثمانية في فتوحها وتوسعها السياسي ، وكان من ملوكها شخصيات عظيمة كالسلطان سليم الأول الذي قهر جميع أدعياء العرش من اخوته ، وفتح تبريز عاصمة العجم وقضى على السلطان الغوري ملك مصر والشام وضم مملكته إلى نفوذه . أما ولده سليمان فقد استولى على المجر ورودس ، وقهر جيوش النمسا وألمانيا والصرب ، وتمكن ولده سليم الثاني من القضاء على الحفصيين بتونس سنة 983 هـ - 1574 م ، وفي هذه الفترة خضع العالم الإسلامي كله تقريباً للحكم العثماني المباشر ، وما لم يكن خاضعاً بهذه الصفة ، اعترف بالنفوذ الرمزي للخليفة العثماني . أما المغرب فلم يشذ هو أيضاً عن التقرب إليهم ، حتى ولو ظل متمسكاً باستقلاله السياسي كما سنرى .

2- نشأة الدولة

السعديون : أصلهم – مواطنهم – عوامل تأسيس دولتهم – الملوك الأولون

أصل السعديين ومواطنهم :

تُرْوَى عن نسب السعديين روايات كثيرة ، أهمها ما يلي :

1) قيل انهم من بني سعد بن بكر بن هوازن الذين تنتمي إليهم حليمة السعدية مربية الرسول (ﷺ) ، وهي رواية المقري صاحب (نفح الطيب) .

2) قيل انما لقبهم العامة بالسعديين تيمناً لأنهم سعدوا بدولتهم ، وهذه من روايات اليفرني[1]

3) قيل انهم من ولد النفس الزكية ، فهم والحالة هذه أبناء عم العلويين يجتمعون في محمد بن القاسم بن محمد . وجميع هذه الروايات ساقها الناصري في الاستقصاء ، في أول كلامه على الدولة السعدية ، ويصحح هذه الرواية الأخيرة ما ذكره صاحب الترجمان المعرب حيث قال[2] : « والذي سمعته من مولانا أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله لما جرى ذكرهم ، وذكرنا له الخلاف في نسبهم ، قال : أسكت ، ولا تعد لهذه المقالة ، فإنهم أخوالنا وبنو عمنا ، وجدنا وجدهم واحد ، وقريتنا وقريتهم بالينبوع واحدة يقال لها بنو ابراهيم ، وجدهم أحمد ، خرج للمغرب قبل جدنا الحسن بنحو الثلاثين سنة وهما أخوان ، لكنهم لما ملكوا لم يعاملونا معاملة الاخوان ، واقتصروا على التعظيم

---

(1) نزهة الحادي ، ص 14 - لليفرني .

(2) الترجمان المعرب ، ص 343 - للزياني .

والاحترام ، فكان سلفنا يحقدون عليهم اهمالهم لجانبنا ... هذا موجب طمن سلفنا في نسبهم ، وإلا فالحق أحق أن يتبع » .

وبناء على ما نسبه الزياني إلى السلطان محمد بن عبد الله ، يتبين أن الدعاية التي شاعت حول نسبهم من حيث عدم انتمائهم إلى البيت العلوي ، إنما تولى كبرها الأشراف العلويون أنفسهم لأن السعديين أقصوهم من المراكز الرئيسية في الحكم ، ثم عادوا إلى الاعتراف بشرفهم على لسان السلطان المذكور ، على أن بعض خصومهم يتهمون أعظمهم وهو المنصور بأنه كان لقيطاً ، ولم يكن ابناً شرعياً لمحمد المهدي [1] .

وتروى عن سبب قدومهم إلى المغرب قصة تفيد أنهم قدموا في أوائل القرن الثامن الهجري في عهد بني مرين بطلب من بعض سكان درعة الذين يبدو أنهم اتصلوا بهم وقت أداء مناسك الحج حتى يتيمنوا بوجودهم في استصلاح زروعهم وثمارهم ، وهكذا استقروا منذ التاريخ المذكور قرب زكورة عند تاكمدارت .

عوامل تأسيس الدولة :

كانت الدولة السعدية قبل كل شيء ، على أساس ديني سياسي .

1) السعديون أشراف فهم يرون أنهم أحق بالملك من بني وطاس الذين فشلوا كلياً في ضم المغرب في وحدة سياسية متماسكة ، وهكذا لجأوا إلى إقناع الناس بشرف نسبهم حتى يبرروا أن لقيام دولتهم أساساً دينياً وأنهم ليسوا مجرد مغتصبين خلفوا مغتصبين آخرين .

2) كان من الضروري توحيد صف المقاومة الشعبية التي تصدى لها على الخصوص الصلحاء والمتصوفة ولم يكن بين شخصيات المغرب أحسن مقاماً من الأشراف الذين كانت لهم في نفوس المغاربة مكانة عظيمة ، فكانوا في نظر كثير

(1) عبد الودود التازي ، نزهة الأخبار 105 .

من العامة أحق الناس بتولي الملك، وبالتالي بتنظيم المقاومة الحربية ضد الأجانب الذين استولوا على معظم موانىء المغرب .

3) كان الخطر الأجنبي على البلاد قد تفاقم حتى لم يعد للمقاومة الشعبية فائدة تذكر إذا لم تبادر دولة محكمة الجهاز إلى تبنيها وتنسيقها .

الملوك الاولون

محمد القائم

(915 — 923 هـ / 1510 — 1517 م)

استقرت أسرة السعديين كما تقدم بنواحي درعة ، حتى ظهر من بينهم أبو عبد الله محمد القائم ، وكانت هذه الأسرة لا تمارس في عهد بني مرين ولا الوطاسيين سلطة رسمية ثابتة ، ولكنهم كانوا معظمين لدى السكان في الجنوب شأن بني عمومتهم العلويين ، وفي أوائل القرن العاشر الهجري قام محمد القائم بأداء فريضة الحج ، فبشره بعض الصلحاء بالمدينة بأن ولديه سيملكان المغرب ، وذلك تأويلا لرؤيا كان قد رآها محمد القائم .

ثم عاد القائم إلى المغرب يخبر بما بشره به الرجل المذكور حتى إذا كانت سنة 915 هـ / 1510 م تمت مبايعة محمد القائم بالسوس ، وكان البرتغال قد استقروا بشمال هذه الناحية حيث بنوا حصن أكادير سنة 1515 ، ولما رأى السوسيون خطر التدخل البرتغالي ، اتصلوا بأحد صلحائهم وهو محمد بن مبارك من آقا في أقصى الجنوب السوسي وطلبوا أن ينصبوه أميراً عليهم حتى يجمع كلمتهم ويعمم سيادته على باقي التراب المغربي، ولكنه رفض ذلك وأشار عليهم بتنصيب محمد القائم بأمر الله ، وكان مؤذناً ، فقبل محمد هذه البيعة واستقر بتيدسي فتمت بيعته بها سنة 915 هـ ، وهي قرية قرب تارودانت، وكانت توليته باعتراف الشيوخ والقضاة والفقهاء من المصامدة ، في عهد أبي عبد الله البرتغالي الوطاسي .

وهكذا تم تنصيب محمد القائم بمساعدة محمد بن مبارك تلميذ الإمام الجزولي ، وكانت له سلطة روحية عظيمة على سكان سوس ، وكانت له بأقا زاوية شهيرة

وكان أول عمل قام به محمد القائم أن هاجم البرتغال عند أكادير ، وكانت له انتصارات أولية رائعة هناك ، عكس ما يذكره طيراس من أنه لم يحصل على أي انتصار هام ، بدليل أن سكان الشياظمة وحاحة سرعان ما استقدموه ليقود جيوش المقاومة ضد البرتغال بهذه المناطق ، وذلك بعد أن عقد البيعة سنة 918 هـ لابنه أبي العباس الأعرج كولي للعهد بتيدسي التي سبق أن نصب هو بها أميراً . وقد شارك أبو العباس الأعرج بنصيب وافر في قيادة الحملات ضد النصارى في عهد والده ثم بعد تنصيبه ملكاً ، وقد استجاب القائم لنداء حاحة والشياظمة ، وترك ابنه محمد المهدي بالسوس يدبر شؤونها بينما صحبه ابنه أبو العباس ، وتقول بعض الروايات أن ولدي القائم سبق لهما أن اتصلا بمحمد البرتغالي الوطاسي قبل أن يشتهر أمر والدهما بسوس ، وكانا يتلقيان العلم بفاس ثم أصبحا من مشاهير المدرسين بها حتى تمكن محمد المهدي من أن يصير مؤدباً لأبناء السلطان ، وأقنعه كل من الأخوين بالدعاية للجهاد فندبهما لذلك ، وصارا يتصلان بالسكان ويبثان الدعوة لأسرتهما بشكل غير مباشر فينتقدان سياسة الدولة وضعف الوطاسيين عن مجابهة المسيحيين ، مما مكنهما من إقناع الناس بضرورة إسقاط الدولة الوطاسية .

وعلى كل حال ، فقد كان تدخل السعديين بحاحة والشياظمة حوالي 922 هـ حيث استقر القائم بأفوغال قرب شيشاوة وتوفي بها سنة 923 هـ ، وأثناء ذلك استولى الأتراك على المغرب الأوسط ، ، وقد تم نقل رفات كل من السلطان القائم والإمام محمد بن سليمان الجزولي في عهد أبي العباس الأعرج إلى مراكش .

أبو العباس أحمد الأعرج

(923 ـ 946 هـ / 1517 ـ 1550 م)

الجهاد ضد النصارى 924 هـ :

ولد أبو العباس أحمد الأعرج سنة 891 هـ (1486 م) وبويع ولياً للعهد سنة 918 هـ كما تقدم ، وكان أول عمل بادر إليه هو تعبئة الجيوش لجهاد النصارى .

وكان البرتغال يؤيدهم أحد زعماء عبدة ، واسمه يحيى بن تاعفوفت ، وكان قد تنصر وصار له نفوذ قوي لدى البرتغال ، وقد اهتدى أبو العباس الأعرج بفكره الثاقب إلى ضرورة التخلص من هذا الزعيم الوصولي في أسرع وقت ، فعمل أولاً على الدس له لدى قادة البرتغال المحليين وبذلك تمكن أبوالعباس من كسب انتصار جدي على البرتغال بآسفي حيث قتل عاملهم لوبيز « Lopez Barriga » ، ثم قتل يحيى المذكور أثناء مهاجمة السعديين لآسفي ولعله مات اغتيالاً ، ويقول طيراس معلقاً على هذه الحملة الموفقة التي اضطر البرتغال خلالها إلى التحصن بآسفي ، ان موت يحيى قد وضع حداً للسياسة الكبرى للحماية التي بسطها البرتغال على المنطقة الساحلية ، وكذا زحفهم نحو الداخل .

ومهما يكن من شيء ، فقد بدأ انسحاب البرتغال من الشواطىء المغربية منذ أواسط عهد أبي العباس الأعرج ، وكان خروجهم من آسفي حوالي سنة 933 هـ / 1526 م ، وربما كان خروجهم من المراكز الرئيسية على دفعات حسبما يستفاد من اختلاف التواريخ في مختلف المصادر ، وعلى أي حال فقد احتفظوا ببعض المراكز في أيام السعديين .

فتح مراكش 930 هـ :

زحفت جيوش أبي العباس زحفاً سليماً أثناء حرب البرتغال،وذلك بدعوى الاستنجاد على هؤلاء بأميرها الهنتاتي ناصر بو شتنوف الذي سرعان ما أمدهم بنجدات دون أن يعرف نواياهم الحقيقية ، ثم دخلوها ثانية سنة 930 ، ربما

باتفاق مع أمراء آخرين من هنتاتة كانوا يرغبون في تسليم الملك إليهم ، بيد أن أبا العباس لم يكاشف أمير مراكش العداوة بل خرج به إلى الصيد ودس له السم في الطعام فتخلص بذلك من خصم خطير ، وبادرت مراكش حينئذ إلى الدخول في طاعته ، ثم عمد أبو العباس إلى تسمية نفسه أميراً ، ونقل رفات والده ورفات الشيخ الجزولي من آفوغال إلى مراكش .

وقد اعترف أبو العباس الأعرج بالسلطة الاسمية للسلطان الوطاسي دهاء منه حتى يقوي أنصاره ويتم تدبير خطته ، ولكن الوطاسيين لم يقبلوا تدخل السعديين في مراكش ، ونشبت الحرب بين الفريقين في أثناء سنة 935 ، وبعد تدخل العلماء والصلحاء بينهم تم الاتفاق على أن يعترف بسيادة الوطاسيين على الجزء الواقع فيما بين تادلا والمغرب الأوسط ، وبسيادة السعديين على ما بين تادلا والسوس ، ولكن هؤلاء نقضوا هذا الميثاق وهزموا الوطاسيين في معركة ساحقة عند مشرع أبي عقبة بتادلا سنة 943 هـ (1536 م)

خلع أبي العباس 946 هـ (1540 م) :

كان محمد المهدي أخو أبي العباس الأعرج يباشر شؤون منطقة السوس في غيبة أخيه ، وكان المهدي أصغر من أبي العباس وأذكى منه وأكثر جرأة ، ومع ذلك كان أبو العباس يستشيره ويدبر خططه باتفاق معه ، إلى أن دب النزاع بينهما بسبب سعايات بعض رجال الحاشية ، وتحول النزاع إلى حرب حقيقية انتهت بانتصار محمد المهدي وخلع أبي العباس سنة 646 هـ حيث أودعه أخوه السجن ومعه سائر أسرته ، وذلك بمراكش التي ظل بها حبيساً يعامل بإكرام إلى أن قتل سنة 964 كما سيأتي ، وقد تمكن من مغادرة مراكش في ظروف غامضة ثم أعيد إلى الاعتقال وكانت حكومته تتألف من شخصيات سوسية في الغالب ، وقيل ان ابنه زيدان بويع بعد خلعه بسجلماسة ولكنه لم يملك ، وقد مات قبل والده .

محمـــد الشيـخ المهـدي

(946 - 964 هـ / 1539 — 1556 م)

صفاته ونشأته :

ولد محمد المهدي سنة 893 هـ (1488 م) ، وكان يعرف بالشيخ أو بأمغار ، وقد تلقى بسوس وفاس ، ومن شيوخه علي بن عثمان التامَلّي المؤرخ ، وعلي بن هرون أستاذه في الأدب ، وعبـــد الله بن عمر المظغري الذي كان من الدعاة الرئيسيين للدولة السعدية ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد اليَسْتيتَنْني المشارك في عدة علوم وخصوصاً التفسير .

وكان محمد المهدي يحفظ القرآن وديوان المتنبي عن ظهر قلب ، وينقض بنفسه فتاوى بعض العلماء مما يدل على اطلاع غزير ومقدرة على الاستنباط ومقارعـة الحجة بالحجة ، وكان كثير البر بوالدته التي يقبل شفاعتها [1] ، وكان له عـــدة أولاد أشهرهم أنجـاله الثلاثة الذين تعاقبوا على الملك ، وهم : عبد الله الغالب وعبد الملك المعتصم وأحمد المنصور ، وكذا ابنه البكر محمد الحران الذي تولى القيادة العسكرية في عهد والده .

حكومتـــه :

من أشهر وزرائه علي بن أبي بكر أزيكي الحاحي وموسى بن أبي جُمادى الغمري ، وقد قام محمد المهدي بتغييرات جوهرية فيما يخص النظام المالي والاداري كما سيتبين ذلك فيما بعد .

الاستيلاء على أكادير 948 هـ (1542 م) :

لم يتمكن القائم بأمر الله ولا أبو العباس الأعرج من مطاولة البرتغال حتى النهاية ، فظل هؤلاء يشكلون خطراً محققاً على منطقة السوس ، إذ ظلوا محتلين لأكادير ، أو حصن فونتي كما كانوا يدعونه إلى أن طردهم منه نهائياً محمد المهدي

---

(1) المنتقى المقصور ورقة 109 لابن القاضي .

سنة 948 هـ ، وكانت مهاجمته بواسطة المدفعية ، وبعد اخلاء أكادير تزوج محمد المهدي ابنة حاكمها البرتغالي واسمها دنيا ميشيا (Donia Mi:ia) ولكنها لم تلبث أن توفيت من آلام الوضع ، وقد تردد صدى هذا الانتصار المظيم ليس في المغرب فحسب،بل حتى في البرتغال التي عزمت منذئذ على التخلي عن مراكزها بالمغرب واحداً إثر واحد ، وفي هذه السنة نفسها تم اختطاط مرسى أكادير على يد محمد الشيخ .

الفتح الأول لفاس 956 هـ (1549 م) :

اقتضت سياسة محمد الشيخ أن يتخذ من مراكش عاصمة الدولة السعدية حتى يظل قريباً من أنصاره أهل سوس الذين على عاتقهم قامت هذه الدولة ، فاستقر بها سنة 951 هـ ، بعد أن ظل أهلها اثر خلع أبي العباس الأعرج مترددين بـين الولاء للوطاسيين والسعديين،وظلت مراكش عاصمة السعديين حتى نهاية دولتهم، ثم تابع محمد المهدي فتوجه عبر الشمال مستولياً على مكناس سنة 955 هـ بعد أن افتتح حصن قشتالة ، ثم حاصر فاس إلى أن تمكن من فتحها سنة 959 هـ ثم قام بتغريب الوطاسيـين ، وألحق الجنود الأتراك والمسيحيين الذين كانوا في عسكر الوطاسيين بجيشه ، وقد نجا من الأسر أبو حسّون علي بن محمد الشيخ الوطاسي الذي ذهب يستنجد بالأتراك بعـد أن أخفق مسعاه في استمداد البرتغال والاسبان ، وبعد أن اعتقل أحمد الوطاسي ، ارتأى محمد المهـدي أن يطلق سراحه مقابل اعتراف هذا الأخير بنفوذه على مكناسة وعودة السلطان الوطاسي إلى فاس ، ولكن المراجع غير متفقة فيما يتعلق بهذه العودة .

غزو تلمسان 957 هـ (1551 م) :

كان التجاء أبي حسون إلى الأتراك ، باعثاً لمحمد المهدي على أن يغزو هؤلاء في عقر دارهم بالجزائر ، وقبـل أن يبزغ عام 957 هـ بدأ محمد المهدي حصاره لتلمسان وكان بها يومئذ سلطان من بني عبد الواد تحت حماية الاسبان المباشرة ، واستمر حصار المدينة تسعة أشهر انتهت باستيلاء السعديين على المدينة بعد أن

قتل محمد الحران أثناء الحصار وكان قد تمكن من الاستيلاء على مستغانم، وجاء نجدات تركية أرسلها حسن باشـــا بقيادة حسن كورسو الذي سرعان ما هـ الجيش السعدي بعد أن مات قائده الجديد عبد القادر ابن السلطان محمد المهد ثم اســترد الأتراك تلمسان ، وحاول محمد المهدي أن يجرب حظه في الاستي على تلمسان من جديد ولكنهلم يوفق مما جمله يعتزم التخلي عن فكرة ضم المغر الأوسط ، وقد كان يتعين عليه والحالة هـذه أن يجابه صراع الأتراك والاسب هناك ، فضـلاً عن الوطاسيين وأرباب الزوايا وبقايا البرتغال بالمغرب الأقصى ولذلك اضطر محمد الشيخ إلى عقـد حلف مع إسبـان الجزائر ضد الأتر كما سيأتي .

عودة أبي حسون ثم فتح فاس ثانياً 961 هـ (1554 م) :

منـذ سنة 956 هـ بذل أبو حسون جهوداً جبارة لاستعادة ملكه ، فبعد اتصل بنائب الملك في اسبانيا التجأ إلى شارلكان بألمانيا ، ولما لم تفلح مساع هناك ، استنجد بالبرتغال الذين زودوه أخيراً بست بواخر ، ولكنـه سرع ما وقع في قبضة الجيش التركي بعرض البحر المتوسط ، ثم أقنـع الرئيس صا التركي بمساعدته ، وتوجه معـــه في جيش مؤلف من عناصر جزائرية وتركية وعبثاً حاول محمد المهدي الشيخ أن يصد هجوم الجيش التركي عند تازة، ثم فا التي لم تلبث أن سقطت تحت الاحتلال التركي ، واستقبلت أبا حسون استقبـ حماسياً رائعاً ، لأن سياسة المهدي السعدي المبنية على امتحان الفقهاء والصلح لم تكن تتفق وميول سكان فاس. وهكذا عاد الوطاسيون إلى الحكم بفاس أوا صفر 961 هـ ؛ إلا أن الأتراك لم يحسنوا السلوك تجاه سكان فاس الذين ضجوا اعتدائهم على الأعراض والأموال ، بينما التجأ محمد المهدي إلى مراكش ، وقد أبو حسون إلى الجيش التركي تعويضات ضخمة .

والظاهر أن أبا العباس الأعرج قـد تمكن من الانضمام إلى أبي حسون ظروف غير واضحة وذلك لينتقم من أخيه الذي اعتقله عدة سنوات ، ولكـ يعزل محمد المهدي أبا حسون ، فقد أشاع أنـــه قد وقع في قبضته ، وهر الأعرج إلى أخيه مستسلماً من جديد ، أما أبو حسون فقد قتل في معركة ـ

السعديين بتادلا أواخر سنة 961 ، وبذلك تم القضاء كلياً على الدولة الوطاسية ، بعد أن عمد محمد المهدي إلى قتل بقايا الأسرة المالكة من أبناء أبي حسون وغيرهم .

التحالف مع اسبان الجزائر :

لكي يتقي محمد المهدي عواقب فتح واجهات حربية عديدة ، عمد إلى التحالف مع الاسبان المستقرين بالجزائر ، بعد أن صفى أمر الوطاسيين بالمغرب ، وكانت ظروف الأتراك بالجزائر مضطربة بسبب تغير القادة العسكريين وانشغال القسطنطينية بالدفاع عن التراب العثماني الذي كانت تهدده أساطيل الدول المسيحية ، وتم الاتفاق بين الاسبان ومحمد المهدي على غزو الجزائر (المدينة) غير أن صالح الرئيس استولى على بجاية ، وتابع مهاجمة الاسبان بعد وفاته حسن كورسو الذي لم يلبث أن استبدل بحسن بن خير الدين على رأس الجيش التركي بالمغرب الأوسط ، إلا أن الاسبان سرعان ما تخلوا عن حلفائهم السعديين الذين هاجموا تلمسان وكادوا يستولون عليها للمرة الثانية لو وفقوا إلى التوصل بنجدات من الجيش الاسباني المرابط بوهران ، وهكذا تخلى محمد الشيخ نهائياً عن غزو الأتراك بعد فشله هذا

اغتيال محمد الشيخ 964 هـ (1557 م) :

لم يفكر محمد الشيخ يوماً ما في الاعتراف ولو رمزياً بالسيادة العثمانية على المغرب ، وكان يدعو السلطان سليمان العثماني الملقب بالقانوني (1520 – 1566) بسلطان الحواتة . لأن البواخر العثمانية كانت تجوب بكثرة عرض البحر المتوسط ، ولما تم لمحمد الشيخ أمر الاستيلاء على فاس والقضاء على الدولة الوطاسية ، بعث إليه سليمان القانوني بسفارة وخطاب يدعوه فيه إلى الدعاء له على منابر المغرب ، واستقبل محمد المهدي هذا الوفد وما كاد يعلم فحوى الخطاب حتى بادر إلى السفير العثماني قائلاً : قل لسلطان الحواتة : لا أجيبه حتى أكون بمصر إن شاء الله .

وحينئذ لجأ السلطان العثماني بإشارة حاشيته إلى إرسال جماعة من الأتراك لاغتيال محمد المهدي ، وفي هذه الأثناء ، كان حسن بن خير الدين قد اهتدى إلى خطة مشابهة ، فبعث بأحد ضباطه واسمه صالح بن الكاهية إلى المغرب متظاهراً بفراره من الجيش العثماني واتصل هذا الضابط بمحمد المهدي فألحقه بحاشيته ، وصـار من أكبر مستشاريه ، ثم التحق الفتاك المذكورون بصالح بن الكاهية وسلموه خطاباً من سليمان القانوني الذي يدعوه إلى مساعدتهم على اغتيـال السلطان السعدي ويمده بالأموال الطائلة ، وحينئذ أبلغ صالح محمد المهدي أن وفداً من كبار الضباط التركي قد فروا من الجزائر ورغبوا في الالتحاق بحاشية السلطـان حتى يساعدوه على تملك المغرب الأوسط ، فاستقبلهم محمد المهدي بغاية الترحاب ، ودعا شيوخ القبائل إلى إكرام كل من حل منهم بينهم ، وظلوا يلازمونه في غدواته وروحاته ، إلى أن تمكنوا من مهاجمـة خبائه واغتياله بأكلكال قرب تارودانت في آخر سنة 964 هـ ،ثم حملوا رأسه إلى البلاط العثماني، وبقي معروضاً بباب القلعة بالعاصمة إلى أن اتصل ابناه عبد الملك وأحمد المنصور بالسلطان سليم فسلمه إليهما ، أما أبو العباس الأعرج الذي كان قـد أعيد إلى الاعتقال بمراكش ، فقـد بادر عامل مراكش علي بن أبي بكر إلى قتله وسائر أسرتـه خشية أن يدعو لنفسه فينتقم منه ، وذلك بمجرد أن علم بمقتل محمد المهدي ، وقـد تم دفن جثتي الأخوين بمراكش (جثة المهدي بقبور السعديين وجثة أبي العباس قرب ضريح الإمام الجزولي قبل نقلها إلى مقبرة السعديين) .

أما الحامية التركية بتارودانت فقد تحصنت بهـا إلى أن تمكن الغالب بالله من استدراجها لتتبع جيشه في انسحاب مصطنـع ، ثم ليكر عليها فيأتي عليها تماماً .

السياسة الدينية :

على الرغم من أن دور الصلحاء في قيـام الدولة السعدية كان دوراً أساسياً إيجابياً ، فإن محمد الشيخ كان يعاملهم بكثير من الحذر ، وكان يلجأ إذا اقتضى الحال إلى امتحانهم كما فعل تجاه الفقهاء أيضاً . وقد دلت اجراءات الاعدام التي

اتخذها ضد عدد منهم على مبلغ قسوته وعدم اكتراثه لموقف الشعب ، كما دلت الاجراءات أيضاً على مدى حرصه على نفوذه ومركزه كملك ، وهكذا أرسل سنة 958 هـ (1552 م) جيشاً إلى الأطلس وآخر إلى سوس لمحاربة ثورة تزعمها بعض الصوفية ، وقد هزم الجيش السعدي في الأطلس وكان فيه أتراك وعلوج ، وقد أسر معظم العلوج وعاملهم البربر كأسارى ، وزوجوهم بناتهم وبدأوا يصنعون لهم الأسلحة والبارود ، أما ثورة سوس التي تم القضاء عليها فقد قتل زعيمها سيدي بو زيد بعد اعتقاله [1] ، وكان من جملة من امتحنهم المهدي الشيخ محمد الكوش الذي نقله إلى فاس وأخلى زاويته بمراكش ، كما دس إلى الشيخ عبد الواحد الونشريسي جماعة من الفتاك الذين اغتالوه سنة 955 هـ أثناء حصار فاس الأول وقد رفض التخلي عن بيعة الوطاسيين .

وحكم بالاعدام على الفقيه عبد الوهاب بن الزقاق الذي حاكمه شخصياً ، كما أمر بإعدام الشيخ حزروز المكناسي خطيب أحد جوامعها ، وكلاهما كان ضد قيام الدولة السعدية لا يرى في القضاء على الوطاسيين مبرراً شرعياً ، وقد تم إعدامهما سنة 961 هـ ، والغريب أن قتل ابن الزقاق والسلطان محمد المهدي تم بنفس الطريقة حيث قطع رأس كل منهما بشاقور .

السياسة الخارجية :

أنف محمد الشيخ من التقرب إلى الأتراك الذين آزروا بالسلاح والجنود خصمه أبا حسون ، كما حاولوا أن يلزموه بمبايعة الخليفة العثماني ، ولا يستبعد أن تكون معلومات محمد المهدي عن قوة العثمانيين وسعة نفوذهم ، قليلة أو خاطئة ، بيد أن محمد المهدي حاول أن يتحالف مع الاسبان ضدهم ولو أن الحلف كان يتسم بكثير من الحذر وعدم الثقة المتبادلة ، وقد استفاد منه السلطان السعدي على كل حال لأنه ضمن عدم تمالؤ الفريقين عليه .

أما الخطر البرتغالي فقد ضمن صده أو مواجهته على الأقل الصلحاء الذين عمل

Auguste Cour, L'établissement des dynasties des Chorfa, P,102 (1)

أكثرهم لفائدة السعديين وبذلك أتيح للسعديين أن يزحزحوا البرتغال عن كثير من مراكزهم بالمغرب وخصوصاً أكادير التي أجلاهم عنها محمد الشيخ سنة 947 هـ ، وعلى الرغم من أن الجيوش السعدية أبعدت مرتين في المغرب الأوسط ، فلم يحاول البرتغال أن ينتهزوا الفرصة لتسديد ضربة قاضية إلى المراكز السعدية بالمغرب حتى يطعنوا خصومهم من خلف ، وهذا دليل على أنهم كانوا يخشون المقاومة الشعبية حتى في غيبة السعديين . وكانت للمهدي مع هذا علاقات تجارية مع بعض الدول الأجنبية خصوصاً انكلترا التي أمدته بالأسلحة والثياب مقابل السكر والقمح وغيرها من المنتجات المحلية .

السياسة الداخلية العامة :

كانت النفقات العسكرية التي تتكبدها الدولة تقتضي وضع سياسة مالية جديدة ، من شأنها أن تضمن مزيداً من الموارد للحكومة ، ولقد اعتادت قبائل كثيرة في عهد الوطاسيين أن لا تدفع لهم من الضرائب شيئاً أو أن تؤدي أقل مما يلزم ، فكانت موارد الوطاسيين لا تفي والحالة هذه بحاجياتهم العسكرية والمدنية ، ولذلك لجأ محمد المهدي إلى وضع نظام (النائبة) الذي يهدف إلى تنسيق عملية الضرائب وأدائها .

وكان عبد المومن الموحدي أول ملك مسلم بالمغرب فرض الخراج على الأراضي التي أسقط منها الجبال والأنهار ، بحجة أن الأراضي المذكورة قد افتتحها المسلمون عنوة ، وأقر المرينيون نظام الخراج على السهول ، ولما كان عهد محمد الشيخ المهدي ألزم سكان الجبال أيضاً بدفع الخراج ، واستصدر بذلك فتوى من العلماء ، وأعدم شيوخ البربر الذين رفضوا تبني سياسته هذه ، كما أرغم حتى أرباب الزوايا على أداء نصيبهم من هذه الضريبة التي دعيت بالنائبة . وكان القائم قد سبق أن أحدث ضريبة مشابهة على سكان سوس وهي بيضة ودرهم لكل دار . أما المهدي فجعل مبلغها صحفة شعير وعشرين مداً من القمح لكل نائبة وصاع سمن وكبشاً لكل أربع نوائب (أي أربع دور أو أسر) .

وقد أحدث فرض النائبة قلقاً عظيماً في كثير من الأوساط خصوصاً بدرعة

التي امتحن من أجلها أرباب الزوايا سنة 958 هـ ، ولكن السكان اعتادوها بعد ذلك في عهد كل من الغالب والمعتصم ، ثم حولها المنصور إلى ضريبة نقدية .

وقد اتسمت سياسة السعديين على العموم بالشدة في استخلاص الضرائب والاكتتابات ، ولكنهم في مقابل ذلك قاموا بأعمال عمرانية وعسكرية جديرة بالتمجيد .

وقد كان محمد المهدي أول من وضع للتشريفات الملكية نظاماً خاصاً،وذلك بمعرفة شخص يدعى قاسم الزرهوني الذي دله على الترتيبات الملائمة في الاستقبال والاتصالات وما إلى ذلك . كما نظمت العريفة بنت خجو عوائد السلطان الداخلية .

وقام محمد المهدي بأعمال عمرانية من بينها تحصين تارودانت وبناء مرسى أكادير وإنشاء عدد من المساجد خصوصاً بسوس .

أبو محمد عبد الله الغالب

(964 — 981 هـ / 1557 — 1574 م)

صفاته ونشأته :

ولد عبد الله الغالب بن محمد الشيخ بتارودانت[1] سنة 933 هـ ، وكان مستدير الوجه ، يميل إلى القصر ، أسود العينين . وقد حفظ القرآن في صباه ، كما تعلم علوماً مختلفة .

وكان مستقيم السلوك ، عادلاً في أحكامه محباً للصلحاء ، كثير الاعتقاد فيهم حتى تردد مراراً على الشيخ أحمد بن موسى السملالي يستدر بركته . وكان مع ذلك قاسياً على بعض أرباب الزوايا .

---

(1) هذا ما سجل على قبره ، أما صاحب نزهة الحادي فيذكر أن مولده بعد 920 هـ .

حكومتــــه :

اعتمد الغالب بالله على وزراء مقتدرين على العموم ، ومن بينهم ابن أخيـه محمد بن عبد القادر بن محمد الشيخ وقاسم الزرهوني وعبد الكريم بن مومن ، كما عين في مختلف الأقاليم قضاة أكفاء ، وقد تلقب بالخليفة منـذ بيعته . وكان عاملاً على فاس أيام والده ، مما سهل ممارسته للادارة والسياسة .

وعلى الرغم مما وصف به من استقامة تجاه الرعية ،فقد كان قاسياً في معاملته لأقاربه حتى أمر بقتل أحدهم وكان عاملاً على مكناس وأعدم أخاه عثمان كما اعتقل كثيراً من الموظفين الذين كانوا ضد سياسته ، وعلى العكس من ذلك كان حليماً تجاه بعض وزرائه وكبار موظفيه ممن كانوا يتهمون بشرب الخمر وتعاطي الملذات المحرمة .

غزو الأتراك للمغرب 965 هـ (1557 م) :

لم تكد تمضي سنة على تنصيب الغالب خليفة حتى قام الجيش التركي بهجوم على التراب المغربي بقيادة حسن بن خير الدين باشا ، واصطدم الفريقان عنـــد وادي اللبن ، وانهزم الأتراك منسحبين إلى المغرب الأوسط ، وكانت مراكبهم قد نزلت بسبتة وطنجة حسبما يذكره صاحب الترجمان المعرب .

وبينما تتحدث بعض الروايات المسيحية عن هجوم مضاد قام به الغالب ، على مدينة تلمسان ، فإن الروايات العربية لا تكترث لهذا الهجوم . وتفصيل ذلك أن الغالب ظل ملازماً لحلفه مع الاسبان الذين جابهوا الأتراك في مستغانم التي خسروها سنة 1558 م ثم هاجموا المراكز التركية بأساطيلهم ومشاتهم ، مما مكن الغالب بالله من الانقضاض على تلمســـان التي استطاع أن يحتلها ثم يجلو عنها (1) سنة 967 (1560) . وقد أثار هـذا التحدي غضب الأتراك الذين لم تسعفهم الظروف الداخلية بالمغرب الأوسط ،بشن عمليات حربية واسعة النطاق بالمغرب .

---

(1) أنظر طيراس : Hist. du Maroc T II P : 181 نقلا عن :
Chronique anonyme de la dynastie saâdienne.

فتح شفشاون 975 هـ (1567 م) :

كان بنو راشد يتعاونون مع (القراصنة) الأندلسيين والمغاربة الذين اتخذوا من ميناء مارتين ميناء لهم، وبما أن هؤلاء (القراصنة) كانوا يضايقون السفن الاسبانية، وأن الاسبانيين كانوا يتعاونون بدورهم مع الغالب، فقد قام الأولون بتخريب الميناء المذكور، وعمد الغالب إلى احتلال شفشاون سنة [1] 975، حيث انجلى عنها بنو راشد بعد أن استقروا بها قرابة قرن وكانوا هم الذين أنشأوها سنة 876 هـ، وقد هاجر آخر أمرائها محمد بن راشد إلى المدينة المنورة .

وحاول الغالب في سنة (969) أن يطرد البرتغال من الجديدة التي كانت ما تزال تدعى البريجة غير أنه لم يوفق، على الرغم من الجموع الغفيرة التي انضافت من متطوعة الحوز إلى جيشه النظامي .

محاولة النصارى نسف جامع المنصور 981 هـ (1573 م) :

حاول أساري البرتغال بقصبة مراكش أن يستغلوا فرصة أداء المسلمين لصلاة الجمعة بجامع المنصور لينسفوا المسجد ويقتلوا من فيه، فحفروا حفرة ببعض جوانبه وملأوها باروداً ثم أوقدوه فانهدت قبة بيت الصلاة وتشققت الصومعة التي لا تزال آثار الشقوق بها حتى[1] الآن، وقد أتى عليهم السلطان قتلاً، أما المسلمون فلم يلقوا ضرراً .

وفاة الغالب 981 هـ (1573 م) :

أصيب الغالب بمرض الضيقة فتوفي منه في رمضان من السنة المذكورة، ودفن بمقبرة السعديين بمراكش .

السياسة الدينية :

امتازت سياسة الغالب الدينية، بمحاربة أصحاب البدع وعدم التحرر الفكري أيضاً . وهكذا فإن الفقيه الأندلسي أبا عبد الله محمد الذي أمكنه

---

(1) النبذة التاريخية (ملحق مختصر المناهل ص 252) .

(2) وقع تجديد الصومعة قبيل سنوات .

أن يوفق إلى إقناع كثيرين من المغاربة بالعمل بالمذهب الظاهري خصو
بمراكش ، حاربه المالكيون بشدة مما أدى إلى تدخل الغالب وقتل ا
المذكور[1] سنة 980 .

وتقرب الغالب مقابل ذلك إلى بعض الصلحاء وخصوصاً أتباع الإمام الج
كأحمد بن موسى السملاني وأضرابه . وحارب إلى ذلك طائفة الشراقة ا
ينتسبون إلى أحمد بن يوسف الراشدي من صلحاء الجزائر ، وكان هو نفسه
منهم لأنهم كانوا يتهمون بالإباضية . على أن كثيراً من أرباب الزوايا
الجزولية منها لم ينجوا من بطش الغالب . وهكذا استولى على بعض زوا
كزاوية تامصلوحت ، وكان ضد سياسته عدد من أرباب الطرق الذين اك
إلى ذلك الحين بموقف سلبي في انتظار فرصة سانحة ،وقد بطش بإخوته وأب
الذين لم ينج منهم إلا عبد المؤمن الذي لجأ إلى حسن بن بربروس فزوجه اب
وجعله حاكماً لتلمسان ولم يلبث أن اغتيل[2] .

السياسة الخارجية :

صمد الغالب في وجه الأتراك بشدة ، ووفق في قهر جيوشهم بالمغرب ،
أحيان كثيرة بالمغرب الأوسط ، وكان يرمي من وراء الاستيلاء على ب
المراكز بهذا القطر ،إلى إحداث خط أمامي ، يمكنه من مراقبة تحركات الأ
عن كثب ، وليس من شك في أنه كان يطمح إلى توسيع رقعة نفوذه خ
المغرب ، ورفض مطلقاً أن يعترف بالسيادة الرمزية للعثمانيين كما فعل والد
قبل ، واتخذ هو نفسه لقب الخلافة ، ولكي يحافظ على توازن سياسته الخار
لم ينفك عن موالاة الاسبان بالمغرب الأوسط فناصروه أحياناً ، ووقفوا
موقفاً سلبياً ، في أحيان أخرى ، وقد سلم إليهم حجر باديس بالشمال .

---

(1) هذه رواية الناصري ، أما رواية درة الحجال فتؤرخ وفاته بسنة 984 ونزهة ا
بسنة 985 ، فقتله تم على يد الغالب أو المتوكل أو المعتصم .

(2) Hoffer : Empire du Maroc page 353 .

يتخذوه مركزاً لمراقبة الأتراك ، وقد أثار ذلك سخطاً جديداً في الأوساط المغربية [1] .

وكانت للغالب بعض المحاولات السرية في مد يد المساعدة إلى الموريسكيين الذين استقبل عدداً منهم ، كما وجه إليهم مبعوثاً ، ولكن الاسبان اعتقلوه وقتلوه ،ومن الممكن أن يكون الغالب قد اتفق مع هؤلاء على أن يُرحّل عدد من الموريسكيين إلى الشواطىء الشمالية ، وبعضهم يلحقون بالكتائب السعدية بمراكش وفاس . وهذا ما نقله طيراس عن مصدر مجهول المؤلف (تاريخ الدولة السعدية ..)

وقد ظل التجار الانجليز يزودون المغرب في عهده ببضائع بلادهم ويصدرون منه السكر والمنتجات وبعض المصنوعات المعدنية

السياسة الداخلية العامة :

على الرغم من التشدد الذي أظهره الغالب بالله في سياسته تجّاه بعض أرباب الزوايا فقد كان يتقرب إلى أرباب الطريقة الجزولية ، ولم يقم الغالب برد فعل يذكر ، ضد البرتغال الذين ظلوا مستقرين ببعض المراكز ، فلم يُبْد اهتماماً جدياً بالاستيلاء على البريجة مثلاً ، ولم يلتفت إليهم في باقي المراكز .

أما في الميدان السلمي ، فقد شهد عهد الغالب أعمالاً عمرانية هامة ، فبنى بمراكش مارستاناً وجدد مدرسة جامع ابن يوسف التي بناها أبو الحسن المريني ، كما بنى بمجموعة المواسين من مراكش ، جامع الاشراف ، وهو لا يزال قائماً ، وقيل إنه بني مكان مقبرة لليهود ، كما شاد حصن أكادير [2] سنة 1572 .

* * *

(1) أنظر بحثاً مترجماً في الموضوع تحت عنوان من زوايا التاريخ المغربي للسيد محمد بن تاويت مجلة تطوان 1960 .

(2) Hoffer : Empire du Maroc P. 23

أبو عبد الله محمد المتوكل

(981 – 983 هـ / 1573 – 1575 م)

كان محمد المتوكل قد ولاه أبوه عهده ، وبعد موت والده بويع بفاس أولاً [1] ثم بمراكش . وهو ابن أمة وكان من أنبغ خلفاء السعديين ثقافة ، ولا سيما في الأدب وقرض الشعر . وقد عرف بالمسلوخ ، لأن المنصور أمر بسلخ جلده وحشوه جلداً بعد موته .

واشتهر المتوكل بقسوته مثلما كان محمد المهدي والغالب بالله ، إلا أنه لم يهنأ بالملك طويلاً ، وذلك أنه منذ وفاة محمد المهدي التجأ كل من أحمد المنصور وأخيه عبد الملك إلى الجزائر ، ولما تولى محمد المتوكل عزما على أن يخلعا ابن أخيهما هذا عن العرش ، فاتصلا أولاً بالسلطان سليم ومعهما والدة أحمد فأحالهما على والي الجزائر الذي كان منشغلاً بإعداد الجيوش لغزو تونس ، فاقترح الأخوان عليه أن يشاركا في هذه الحملة التي انهزم فيها الاسبان، ثم عادا إلى القسطنطينية يبشران الخليفة العثماني بالفتح ويطلبان منه إمدادهما بالجيوش لانتزاع الملك من يد المتوكل ، فأحالهما مرة أخرى على والي الجزائر الذي وجه إليه بهذا الصدد ، تعليمات كتابية ، وبعد أن ألح الوالي في أن يتكفلا بنفقة الجيش مقدماً ، تنازل عند رغبتهما في أن يعوضا الجيش مادياً بمجرد تحقيق الانتصار على المتوكل ، وهكذا رافقتهما فرقة من خمسة آلاف مقاتل ، ثم التقى جيش المتوكل بالعساكر التركية شمالاً عند وادي سبو سنة 983 . وكان في جيش المتوكل فرقة من جند الأندلس بقيادة الدغالي الذي لم يلبث أن تخلى عنه لينضم بجنده إلى عبد الملك ، ثم انهزم المتوكل مرة أخرى عند وادي الريحان قرب سلا ، بعد أن سهل على عبد الملك أن يدخل إلى فاس دخول الظافر في أواخر 983 هـ ، وبفضل الغنائم التي استولى عليها من محلة المتوكل والمساهمة الاجبارية التي أداها أثرياء فاس تم تسديد تعويضات الجيش التركي وتقديم هدايا للسلطان العثماني . أما المتوكل فقد نهب خزائن مراكش ثم صار يبحث عن ناصر جديد .

---

(1) نزهة الحادي 102 لليفرني .

أبو مروان عبد الملك المعتصم

(983 – 986 هـ / 1575 – 1578 م)

صفاتـــه :

أبو مروان عبد الملك بن محمد الشيخ المهدي تمت بيعته بفاس بعد فرار ابن أخيه المتوكل ، في الأيام الأخيرة من ذي الحجة 983 هـ . وكان أبيض اللون ، أسود اللحية ، يتزيا بالزي التركي ويقلد عادات الأتراك لأنه خالطهم طويلاً بكل من الجزائر وتركيا ، وكان يعرف الاسبانية والتركية إلى جانب اتقانه للعربية .

وكان يقيم بسجلماسة مع أخيه أحمد المنصور في أيام محمد المهدي والدهما ، ثم لجأ إلى المغرب الأوسط منذ تولية الغالب . وقد اهتم بالتنظيم العسكري لجيشه الذي جمع عناصر بربرية وعربية ، كما كان يضم فرقة من جند الأندلس وأخرى من الأتراك الذين تخلفوا بفاس ، وأسس أسطولاً وزع قطعه على موانىء الشمال والعرائش وسلا .

مطاردة المتوكل :

بينما كان أبو مروان يتقبل بيعة سكان فاس ، كان المتوكل يباشر أمر الاستيلاء على مراكش بمساعدة بعض الرعاع ، ولكنه عجز عن اقتحام القصبة التي كانت تستقر بها مريم أخت أبي مروان ، ومعها ثلاثة آلاف بندقي ، أما المدينة فقد بايعت المتوكل ، وحينئذ قدمت جيوش أبي مروان الذي حاصر مراكش إلى أن تمكن من اقتحامها بمساعدة بعض أعيانها ، بينما فر المتوكل عبر الشمال .

وتقول بعض المراجع (1) إن السوس ظلت متمسكة بدعوة المتوكل مدة سنة إلى أن التجأ إلى البرتغال ، ثم استمر تمرد هذه المنطقة على أبي مروان الذي وجه إليها أخاه أحمد المنصور .

---

(1) الزياني ، الترجمان المعرب ، ص 354 .

معركة وادي المخازن 986 هـ (1578 م) :

لم يلتجىء المتوكل إلى الأتراك ، لأنهـم هم الذين نصروا عبد الملك المعتصم وخلعوه هو عن عرشه ، ولم يلتجىء إلى اسبانيا التي حافظ المعتصم على علائق ودية معها ، بل استغاث بدون سباستيان ملك البرتغـال الذي تذكر الولايات المسيحية أنه لقي معارضة من حاشيته ، ولكنه كان أكثرهم تحمّساً ، ليس فقط لمساعدة المتوكل ، بل لقيادة الحملة البرتغالية بنفسه أيضاً .

ويذكر صاحب نزهة الحادي أن الاتفاق تم بين المتوكل ودون سباستيان على أن يتخلى الأول للبرتغال عن الشواطىء المغربية ويحتفظ هو بالداخل .

ثم عبرت الجيوش البرتغالية إلى طنجـــة ، ومنها توجهت إلى أصيلا التي عسكرت بها . وكانت خطة أبي مروان ذكية للغاية ، لأن المنطقة الشمالية كانت معرضة على الدوام لخطر التدخل الأجنبي ، وكانت بعض المراكز بيد البرتغال كأصيلا وسبتة مثلاً . فارتأى أبو مروان أن يفسح المجال لجيش البرتغال حتى يتوغل قليلاً في الداخل ويبعـــد عن المراكز التي يمكن أن تصلها الامدادات بسرعة أو أن ينسحب منها بسهولة. وقد بالغت كل من المصادر الأجنبية والعربية في تقدير عدد جيوش ومعدات الفريق الآخر .

وهكذا قيل إن مجموع جيش البرتغال كان يبلغ 125 ألفاً وقيل مائة ألف كما قيل 60 ألفاً أو 14 ألفاً . أما جيش المغرب فأغلب الاحتمالات أنـه كان يتقارب عدداً مع جيش النصارى . فأوسط التقديرات أن الأول يبلـغ ما بين 40 و 50 ألفاً ، والثاني حوالي ستين ألفاً . وفي الواقع لم يكن للاعتبار العددي معنى في هذه المعركة التي كان للمدفعية فيها أكبر دور ،وكانت مدافع البرتغال 36 وهو تقريباً نفس عدد مدافع الجيش المغربي .

واشترك في المعركة من الجـانب البرتغالي متطوعة من الاسبـان والفرنسيين والايطاليين والألمان وغيرهم ، ومعهم بطبيعة الحـال محمد المتوكل الذي نصحهم باحتلال تطوان والعرائش قبـل التوغل في الداخل ولكنهم لم يفعلوا وفضلوا الاصطدام المباشر بجيش عبد الملك . وكان معهم قليـل من المسلمين الموالين

للمتوكل ، وضمنهم محمد بن عسكر الذي قتل في المعركة ، وهو صاحب دوحة الناشر .

وأخيراً تحركت القوات المسيحية متقدمة نحو منطقة قصر كتامة ومتخطية قنطرة وادي المخازن . وفي الضفة الجنوبية لهذا الوادي ، التقى الجيشان يوم آخر جمادى الأولى 986 هـ (1578 م) رابع غشت . وما كاد البرتغاليون يعبرون القنطرة حتى عمدت القوات السعدية إلى دكها لتتم الخطة المدبرة ضد المسيحيين حتى يتعذر عليهم الانسحاب من غير خسارة محققة للسعديين .

وكان الجيش المغربي يتألف من عناصر عديدة فيها بربر وعرب وأتراك ، وحضر المعركة عدد كبير من الصلحاء والعلماء حباً في الجهاد ، كما حضر عبد الملك المعتصم وأخوه أحمد المنصور ، إلا أن الأول كان مريضاً قيل دس إليه المتوكل أو الأتراك من سمه ، وكان ذلك فيما قيل بتدبير من القائد رضوان العلج الذي كان في حاشية المعتصم .

وكانت القوات المسيحية والمغربية ، تتقدمها المدفعية التي تحمي المشاة بينما تحيط بهم الخيالة من الجناحين ، وبينما انغلقت صفوف البرتغال في شكل مربع متماسك ، اصطف الجيش المغربي على شكل نصف دائرة ، متخلياً بذلك عن الطريقة العتيقة التي سلكها اسلافهم والتي لم يكن يشذ عنها البرتغال في هذا اللقاء ، على الرغم من أن المدفعيين أصبحوا يمثلون دور الرماة .

ومهما يكن من شيء ، فلم تكن القوات العددية هي السبب المباشر في تحديد الانتصار أو الهزيمة ، وإنما كان دون شك ، الحماس الديني العظيم الذي قابل به المغاربة أعداءهم ، وإن كان المسيحيون حضروا بروح صليبية أيضاً . وكان للصلحاء دور فائق في حمل المسلمين على الثبات . وهكذا تم اندحار المسيحيين الذين تراجعوا نحو النهر فوجدوا القنطرة قد اندكت ، وتراموا إلى النهر فغرق كثير منهم وبينهم دون سباستيان ، كما غرق محمد المتوكل . وفي أثناء المعركة توفي عبد الملك المعتصم متأثراً فيما قيل بالسم الذي دس إليه ، وكان محمولاً في

Hoffer : Empire du Maroc P. 353 (1)

محفة وهو مريض حتى يتشجع المسلمون بوجوده ، ولما مات كتم سائس المحفة خبر وفاته عن المسلمين إلا عن أخيه المنصور ، وبقي السائس يبلغ الأوامر إلى قواد الجيش باسم عبد الملك، إلى أن تم انتصار الجيش السعدي . وهكذا مات في هذه الوقعة ثلاثة ملوك هم عبد الملك المعتصم ومحمد المتوكل ودون سباستيان ، ولذلك يسميها المسيحيون « معركة الملوك الثلاثة » ويسميها المسلمون معركة وادي المخازن . وهذا الوادي هو فرع من نهر اللكوس الذي يصب قرب العرائش .

وبمجرد أن تم انتصار الجيش المغربي وانسحاب فلول المسيحيين إلى أصيلا أعلنت وفاة المعتصم الذي نقل جثمانه إلى مقبرة السعديين بمراكش ، كما أعلنت بيعة أحمد المنصور . أما المتوكل فقد سلخ جلده وحشي تبناً ولقب من أجل ذلك بالمسلوخ . وأما جثمان دون سباستيان فقد افتداه خلفه وخاله فيليب الثاني مع من افتدى من أسرى البرتغال ، وقيل إن المنصور لم يأخذ عن دون سباستيان أي فدية كما سيأتي في موضوع أنظمة الدولة .

وكتب المنصور إلى الخليفة العثماني بالفتح ، وقصدته الوفود مهنئة من القسطنطينية ومصر والجزائر وتونس وفرنسا واسبانيا ، بعد أن كان قائد الجيش العثماني بالجزائر يتهيأ لحملة جديدة ضد المغرب ، وذلك قبيل التدخل البرتغالي الفاشل .

وكان لهذه المعركة آثار بعيدة المدى ، ليس فقط بالمغرب ، بل في العالم الإسلامي والمسيحي أيضاً ، فبالنسبة إلى المغرب ، استعادت الوحدة الوطنية قوتها طيلة حكم المنصور السعدي ، كما فرضت الدولة الحاكمة هيبتها ، وأمكن لها أن تحقق أعمالاً عمرانية وتوسع نطاق النشاط الاقتصادي وتبذل جهوداً موفقة في الميدان الفكري بموازاة العمل الشعبي الرائع .

وأما بالنسبة للعالم الإسلامي فقد اغتبط المسلمون كافة بهذا الانتصار العظيم الذي اتخذ إلى حد ما طابعاً دينياً ، فماذا يكون مصير المغرب لو سحق جيشه في هذه الوقعة ؟ لقد كان من المرجح أن يعمد البرتغال إلى سلوك سياسة

التنصير قهراً وبدون هوادة ، كما كان من غير المستبعد أن يوسعوا أطماعهم شرقاً فيحتلوا المغربين الأوسط والأدنى وقد يتعاونون في ذلك مع أجناس أوروبية أخرى ليرغموا الأتراك على الانسحاب منهما .

أما بالنسبة للمسيحيين فقد تحولت كلياً نظرة الازدراء التي كانوا ينظرون بها إلى المغرب وسكانه وصارت دولهم تتنافس في خطب وده وتتقرب إليه بعقد المعاهدات والتسهيلات التجارية ، وتبعث إليه بالسفراء محملين بالهدايا إلى السلطان ، وتوقفت الأطماع السياسية الأجنبية لأمد طويل عن الجرأة على سيادة المغرب .

★ ★ ★

3 - دور العظمة

أحمد المنصور الذهبي

(986 - 1012 هـ / 1578 — 1603 م)

صفاته ونشأته :

أحمد بن أبي عبد الله الشيخ محمد المهدي ، ولد بفاس سنة 956 هـ من أم تدعى مسعودة بنت أحمد الوزكيتي الورززازي ، وكان جميل الصورة طويل القامة أسود الشعر واسع المنكبين يميل لونه إلى الصفرة .

وكان من أساتذته في النحو ومواد اللغة : أبو العباس أحمد بن قاسم الأندلسي وأبو مالك الحميدي ومحمد الحارثي . وأخذ الفقه عن أبي عمران السوسي وعبد العزيز بن إبراهيم الدمناتي وأحمد بن علي المنجور، والحديث عن أبي نعيم رضوان الجنوي ، وقرأ على أساتذة آخرين ، وكان يجمع بين علوم كثيرة ، كما كان يقرض الشعر ويتذوق فنونه .

وكان المنصور مشهوراً بحزمه وتتبعه لأخبار رعيته ، وقد أسس مجلساً للشورى كان يجتمع يوم الأربعاء وكان يسميه يوم الديوان . وهو أول من استعمل المنصورية في لباسه ثم شاع استعمالها خصوصاً بين الفقهاء والوجهاء ،

---

(1) من أهم المصادر عن شخصية المنصور : 1) نزهة الحادي لليفرني . 2) درة الحجال لابن القاضي . 3) المنتقى المقصور لابن القاضي . 4) نشر المثاني لمحمد بن الطيب القادري . 5) الاستقصا للناصري . 6) الترجمان المعرب للزياني . 7) La Petite Hist . du Maroc لكابي . 8) Hespéris عدد 2 سنة 1924 و 1 و 2 سنة 1953 . 9) تاريخ السودان لعبد الرحمن السعدي . 10) مناهل الصفا للفشتالي الخ . . .

وكانت والدته ذات شغف بالعمران والبناء ، وأوعزت إليه ببناء عدة منشآت . وكان شديد الحنو على أولاده ، وقد اتخذ الاحتفال بعيد المولد كعيد رسمي ، وكانت له علاقات طيبة مع عدة دول ، وكان إلى ذلك إدارياً ممتازاً لا يقبل تهاوناً في الرد على العمال والولاة ، ويلزم الكتاب بالحضور والخروج من مكاتبهم في أوقات معينة. وكان إلى ذلك ذا طموح بالغ حتى قيل لقد راودته فكرة غزو اسبانيا وحتى الهند .

حكومته :

تألفت حكومة المنصور من وزراء ذوي ثقافة عالية ومن مساعدين عهد إليهم بمهمة الكتابة الخاصة أو القيام بسفارات مؤقتة . وكان من بين وزرائه أبو فارس عبد العزيز الفشتالي الأديب المؤرخ وعبد العزيز المزوار ، ومن كتابه أبو عبد الله بن عيسى ومحمد بن عمر الشاوي وعلي بن أحمد الشامي .

بيعته :

بويع أحمد المنصور بوادي المخازن غداة الموقعة التي تقدم الحديث عنها ، ثم جددت بيعته بفاس التي توافد عليه فيها أعيانها وأعيان مراكش وغيرها ، وكانت بيعته بفاس بعد مرور عشرة أيام على قدومه إليها ، والظاهر أن المنصور عجل بالذهاب إلى فاس قبل مراكش، خشية أن تحدث بها ثورة ضده . ولم يكد يستقر بفاس حتى توافدت عليه وفود من أوروبا والبلاد الإسلامية كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، وقدمت إليه هدايا نفيسة من طرف وفود هذه الدول .

تولية محمد الشيخ المامون العهد 987 هـ (1579 م) :

على إثر مرض عضال كاد يذهب بحياة المنصور ، رشح محمد المامون ولده لولاية العهد بإشارة جماعة من الوزراء والأعيان ، وتم عقد البيعة في آخر شعبان 987 هـ (1579 م) بمحضر عدد من العلماء والوجهاء ورؤساء القبائل الذين توافدوا من فاس ومراكش وغيرهما ، ثم جددت البيعة بحضور المامون في صفر 987 خارج مراكش،وقد أدت هذه البيعة إلى ثورة داود بن عبد المؤمن بن محمد الشيخ

بجبل سكسيوة ثم بهوزالة ، وطارده القائـد محمد بن إبراهيم إلى أن اضطره إلى الانسحاب إلى الصحراء ملتجئاً عنـد بني معقل ، ولكنه لم يلبث أن توفي هناك في سنة 988 .

غزو الصحراء 989 هـ (1581 م) :

كانت منطقة توات وتيكورارين قد بعد عهدها بالخضوع لسلطـة الدولة ، فوجه المنصور إليها جيشاً بقيادة أحمد بن بركة وأحمد بن الحداد الغمري المعقلي، وبلغ الجيش إلى هذه الناحية بعد شهرين ونصف تقريباً من السير ، ثم أخضعت قبائلها بالقوة بعد أن رفضت الاعتراف بسلطة المنصور. وهكذا أعيد ضم هذه المنطقة إلى المغرب سنة 989 هـ .

فتح السودان 999 هـ (1591 م) :

يمكن حصر الأسباب التي أدت إلى فتح المنصور للسودان ، فيما يلي :

1) عامل التوسع السياسي :

فالمنصور السعدي كان يعتبر نفسه خليفة ، ويستمد سلطة الخلافة من نسبه ، وشجعه فتح تيكورارين وتوات على التمادي في فتوحه جنوباً لأنـــه أمن كل مضايقة من الخارج ، ولم تكن بلاد ما وراء الصحراء قد فتحت بعـد صدرها للأجانب غير الأفارقة .

2) العامل الإقتصادي :

كانت موارد المغرب أدنى من أن تتسع لسـد حاجيات الدولة من نفقات عسكرية ومنشآت عمرانية وإجتماعية، وكان معروفاً عن السودان أنها تتوفر على معادن الذهب التي طمع المنصور في استغلالها .

3) العامل العسكري :

لم تكن السودان تتوفر على قوة عسكرية حديثة التنظيم والتسليح ، فليست للجيش مدافع ، حتى ولا بنـادق ، وعلى العكس من ذلك ، الجيش المغربي الذي كان بالرغم من قلة أفراده مجهزاً على أحدث طراز بالنسبة لذلك العصر .

هذه هي الأسباب الرئيسية التي شجعت المنصور على غزو السودان . ولكن يتبين من خلال المراجع المعاصرة ، أن المنصور قام بمحاولات تمهيدية لإخضاع السودان سلميـــاً ، وعن طريق معاهدة اقتصادية وسياسية دون اللجوء إلى تدخل عسكري .

أما المراحل التي مرت بهـا عملية الفتح منذ بداية التفكير فيها فهي كما يلي :

1) المناوشات الأولى من أجل الملح :

في نهاية القرن التاسع الهجري توجـه محمد سكية إلى الحج ، وهو أول من ملك من آل سكية الذين قيل إن أصلهم من صنهاجة، ثم اتصل بالخليفة العباسي بمصر واستأذنه في أن يحكم باسمه بلاد السودان ، وأثنـاء إقامته بمصر درس على بعض علمائها واقتبس بعض عوائدها ، وكانت مملكته تجاور نهر النيجير ، ولمـا كان عهد سكية اسحق طلب منه محمـــد المهدي الشيخ أن يتنازل له عن ممالح تيغازي ، فرفض سكية اسحق ، واشتبكت قوات من الطوارق مـع جيوش السعديين بدرعة ، ثم انسحب الطوارق بعد أن قاموا بعمليات السلب والنهب في غيبة الملك السعدي ، وكان ذلـك على التقريب في أواخر الثلث الأول من القرن العاشر الهجري . وعلى كل ، فقد دخلت تغازّى منذ عهد المهدي في حكم الدولة السعدية كما أوضح ذلك الفشتالي في المناهل (مختصر المناهل 55) .

2) مبايعة ملك برنو 990 هـ :

في سنة 990 هـ وجـه ملك برنو إلى المنصور خطاباً يطلب فيه منه أن يمده بقوات من المغرب وأسلحة تمكنه من إخضاع بعض قبائل السودان، وذلك بعد أن أخفق في مسعاه لدى السلطان العثماني وأرفق ذلك بهدايا ضمنهـــا عدداً من النساء والرجال ممن كانوا يعتبرون رقيقاً يومئذ ، فرد عليه المنصور بهدية أخرى وأصحب الوفد مبعوثاً إلى أبي العلاء ادريس ملك برنو مشترطاً عليه الدخول في طاعته أولاً، وكتب له نص البيعة . ولم يلبث ملك برنو أن وجه جوابه بالموافقة ، وبعث المنصور بدوره إلى برنو بعض كبار موظفيه للقيام بجولة استطلاعية في عين المكان وزوده في نفس الوقت برسالة إلى اسحق بن داود في شأن ملح تغازى

3) اتصال ثائر من السودان ، بالمنصور (990 هـ ؟) :

يقول مصدر اسباني مجهول[1] ، إنه في سنة 1591 [2] ورد على مراكش أسود فرّ من غينيا ، وكانت مهمته أن يتصل بالمنصور الذي كان بفاس حينئذ، فاتصل به وأخبره أنه أخ لسلطان كاو ، وهو سكية اسحق وزعم أن هذا قد اغتصب منه الملك ، وأنه سيسلم إلى المنصور أموالاً طائلة ، إذا ساعده على استرجاع ملكه منه ، وبين له إمكانية فتح السودان بسهولة ، وأنه سيؤدي إليه ضريبة سنوية إذا فتح بلاده ، وكان يدعى ولد كبريفيل (قرنفل[3]) ولم يكن ينتسب عن طريق الدم إلى العائلة المالكة ، بل كان خادماً لها ، وُلِد من أمة بالقصر الملكي ، وكان سيده سكية اسحق قد غضب عليه لأنه كان خليعاً فسجنه بتغازّى من مملكة سنغاي ولكنه فر من السجن إلى مراكش وأثار طموح المنصور ، الذي كتب على الفور الرسالة المشار إليها ، والتي بعث بها إلى سكية اسحق يخبره فيها بأن ممالح تغازى تدخل ضمن حدود مملكته ، وأنه سيفرض ضريبة على ملحها المستخرج ، كما ينهي إليه وصول الثائر المذكور . ولا بأس بذكر نص هذه الرسالة فيما يلي، وهي من أسلوب أبي فارس عبد العزيز الفشتالي:

« إلى كبير كاغو ، ومالك زمام أمورها وتدبيرها ، والمرجوع إليه عند خاصتها وجمهورها ، الأمير الأجل ، الأثير الأحفل ، الأمير سكية ، وصل الله كرامته ، وجعل التقى سمته وعلامته .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

أما بعد حمد الله ، مسهل المرام وميسر أسباب الكمال والتمام ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد شفيع الأنام ، المبعوث بالحنيفية السمحاء ، إلى الخاص والعام ، والرضى ، عن آله الأئمة الأعلام وخلفاء الإسلام ، وعن أصحابه

(1) نقلا عن هسبريس عدد 1 و 2 سنة 1953 لـ Georges Pianel

(2) ربما قبل هذه السنة ، لان فتح السودان تم في أوائل 1591 بالذات .

(3) ضبطه عبد الرحمن السعدي هكذا (كرنفل ـ بكسر الكاف والراء والفاء) تاريخ السودان ص 276 .

الذابين عن كلمته بالسنان والحسام ، ومواصلة الدعاء لهذا الجناب الكريم بالعز السامي المقام ، والنصر المنشور الرايات والأعلام ...

فإنا كتبناه إليكم من حضرة فاس المحروسة بالله ، وعنايةُ الله وارفة الظلال ، ونواسم النصر والاقبال دائمة الهبوب بالبكر والآصال . لله المنة .

هذا ، وموجبه إليكم ، سدد الله طريقكم ، وجعل التقى رفيقكم ، إعلامُكم أن معدن الملح بتغازى التي من إيالتنا وفي محكم إمامتنا ، هو كما لا يكاد يخفاكم من جملة المعادن التي يختص بيت مال المسلمين بخراجها المستفاد ، وللإمام فيها النظر والاجتهاد .

وبحسب هذا ، فإنا رأينا ، إن شاء الله من الرأي السديد ، والنظر المبارك الرشيد ، أن نضع عليه خراجاً يعود إن شاء الله بمزيد النفع على المسلمين ، وبالضرر على أعداء الله المشركين ، وهو أن فرضنا مثقالاً على كل جمل من سائر الإبل التي ترده ، وتؤمه من سائر الجهات وتقصده ، وقصدنا بما يحصل من ذلك ، صرفه إن شاء الله في سُبل الغزو والجهاد ، وفي أرزاق ما لنظرنا العلي من العساكر والأجناد ، التي جعلناها لنكاية عدو الدين بالمرصاد ، وأعتدناها للذب عن كلمة الإسلام ، وحياطة البلاد والعباد ، وهي جنود الله التي لولا ما حجزت بينكم وبين طواغيت الشرك سيوفها القاصمة ، وضربت في وجه الكفر دونكم بأسوارها العاصمة ، وخضدت من شوكة الشرك ، باستئصال حماته وأنصاره ، ومنازلته على الدوام في عقر داره ، لفاض عليكم طوفانه الهائل ، وسال على أرضكم منه شؤبوب هاطل ، وكفحت عنكم عنان الكفر حتى نمتم في كفالتها آمنين ، وفي حياطتها وادعين مطمئنين ، وأنفذنا إليكم هذا الخطاب الكريم ، لتعلموا ما وقاكم الله بسيوفنا التي أقرتكم في سكون وهدوء ، في جنات وعيون ، وتقابلوا ما رأيناه من النظر الكريم ، بالإسعاف والإسعاد ، جرياً على مقتضى إشارتنا العلية في إصلاح البلاد والعباد ، وأن لا تسعوا فيما يبطل هذه الفريضة العائدة بالنفع على الإسلام ، وتؤيد حزب الله على مواصلة قتال عبدة الأصنام .

ثم اعلم أن أخاكم الذي قد نزل بنا ، واستجار بحرمنا الكريم النبوي ،

وأمّ إلى هذا الجناب العَلي العلوي قد وصل إلى حضرتنا المراكشية ، وأناخ منها على أبوابنا الشريفة ، وعتباتنا السامية المنيفة ، وكتب لمقامنـا العلي من هنالك لأول وصوله ، ومناخه ونزوله ، وها كتابه يصلكم طي هذا المكتوب الكريم لتتأمله وتقف على ما قصـــده من جانبنا العَلِي وأمَّلَه ، وها نحن أمهلناه في الجواب ، وعاملنا بمـا نعامل به كل من يرد على مقامنـا العلي من القبول والبر والترحاب ، حتى نرى إن شاء الله ما يبدو منكم ، ويصل في أمره عنكم ، وبهذا وجب الكَتْب إليكم ، والله يرشدكم بمنته ، والسلام » .

وبعد هذا الخطاب استمرت إنذارات المنصور ومراسلاته بشأن الدخول في طاعته توجه من آن إلى آخر، والأمير السوداني لا يحفل بهذه الإنذارات إلى أن تقرر تجهيز حملة لإخضاع بلاده،وقيل إن جوابه على الخطاب المذكور كان قبيحاً إلى حد أنه أرفقه بحرشان ونعلين من حديد [1] .

4) الحملة الأولى 999 هـ (1591 م) :

بعد أن فشلت محاولات المنصور السلمية في إقناع آل سكية ببيعته ، فكر في غزو السودان [2] ، ولكنه قبل أن يقدم على ذلك ، جمع العلماء والمستشارين الذين يركن إلى وجهات نظرهم ، واستشارهم في توجيه حملة إلى السودان،فاستقر رأيهم على العموم ، على ما يلي :

أولاً – لا ضرورة لغزو هذه البلاد ما دامت مسلمة .

ثانياً – إن بُعد المسافـة سيكبد الجيش المغربي خسـائر لا بد منها مهما كانت النتائج .

ثالثاً – إن هذه المحاولة لم تكن لهـا سابقة من لدن المرابطين ولا الموحدين

---

(1) عبد الرحمن السعدي - تاريخ السودان ص 137 .

(2) سبقت حملة 999 هـ حملةاستطلاعية أولية ابتدأت سنة 992 بقيادة محمد بن سالم وعبدالمولى ابن عيسى وقد توغل الجيش المغربي في الأراضي الساحلية حتى وصل نهر النيجير وقد دانت له بالطاعة عدة قبائل ثم قفل راجعاً . (الفشتالي : مختصر المناهل 58) . وهناك أيضاً محاولات للتدخل من عهد المهدي (حضارة المغرب في العصر السعدي ، للمؤلف) .

ولا المرينيـــين ، لأن محاولة أبي بكر بن عمر كانت تلقائية وانفرادية ، وكان للمرابطين الفضل في نشر الإسلام هناك قبل أن يكونوا دولتهم .

إلا أن المنصور لم يقتنع بهذه المبررات جملة، فقد صارح مستشاريه بأن غزو السودان ذو نتائج محققة ، وهو يقصد بذلك ما ستدره على الدولة من ذهب ، أما من حيث بعد المسافة والمخاطر، فقد رد عليهم بأن التجار يغامرون فرادى وجماعات ويتوجهون إلى هذه البلاد من أماكن قاصية من غير أن يقدروا مقدماً نتائج مغامراتهم، وفيما يخص عدم انشغال الدول المغربية الماضية بفتح السودان، فقد رد على ذلك بأن كلا من المرابطين والموحدين كانوا مهتمين بحرب الأندلس، أما المرينيون فقد جابهوا حروب بني عبد الوادي . وهكذا اقتنع المستشارون بفكرة المنصور ، ولكن توجيه الحملة مع ذلك ، تأخر إلى مطلع سنة 999 هـ (1591 م) بعد أن استمر الاستعداد لها عسكرياً مدة ثلاث سنوات .

وقد تم إعداد كل ما يلزم لهذه الحملة من خيل وبغال وإبل وبارود ومدافع ومهاريس وبنادق وخشب للمراكب ومقاذيف وحديد وقنابل وبراميل للمــاء وغير ذلك من اللوازم .

وتم استعراض الجيش في سادس عشر من ذي الحجـــة بظاهر مراكش سنة 998 هـ (1590 م) ، ولكنه لم يتحرك إلا يوم فاتح سنة 999 هـ ، وأسندت قيادته إلى جؤذر ،وهو من أصل إسباني من إحدى قرى غرناطة «Las Cuevas» وكان قد التحق مع أخيه محمود باشا بجيش المنصور وصارا من كبــار قادته وقد ساهمت قبائل المغرب إجبارياً في تزويد الجيش بالمؤونة والعتاد .

وبلغ عدد أفراد الجيش السعدي ما بين أربعة آلاف و 5000 من الخيــالة ، فيهم نصارى ومسلمون من الأندلس ، بالإضافة إلى ألفي راجل و 1500 عربي مسلحين بالرماح و 100 أبّال وحوالي ألفين من قوات المدفعية والبحرية ، ولا يوجد اتفاق بين المؤرخين حول مجموع الجيش الذي يتراوح حسب الروايات بين ثلاثة آلاف فقط واثنين وعشرين ألفاً ، وكان يصحب الجيش حوالي 8000 جمل

وألف من الخيل تحمل بالأمتعة ، على أن تقديرات الروايات المسيحية أقـل من هذا بكثير .

وبلغ مجموع قادة هيئة أركان حرب الجيش السعدي عشرة عينهم جميعـاً المنصور ، إلى جانب جؤذر باشا

وقطـع الجيش وادي درعة حيث تزود من جديد بالمـاء والقمح والشعير ودقيق الثمر ثم مر عـبر تندوف وتغازى وتاودني ، وكارابارا وتمبوكتو ، ثم قصدوا كاغو عاصمة آل سكية بعد أن استغرقت رحلتهم أزيد من أربعة أشهر ونصف ، وكان عـدد أفراد الجيش السوداني يتراوح بين 80 ألفاً ومائة ألف مسلحين بالرماح والسيوف والسهام ، ويصحبهم عـــدد من السحرة ، وكان في مقدمته عدد من الثيران التي اقتادها ليحتمي بها من قصف المدافع، وعلى مقربة من كاغو بنحو ثلاثين كيلو متراً شمالاً بتُنْنديبي التقى الجيشـان يوم 16 جمادى الأولى 999 الموافق لـ 13 مارس 1591 ، وكانت الثيران التي احتمى بهـا السودان أول من تخلى عن مكانه فزعاً من قصف المدافع التي قتلت عديداً من السودان ، ولم يدبر النهار حتى وقعت الهزيمة على الجيش السوداني الذي فتكت به القنابل شرّ فتك ، وبدأوا يتصايحون : نحن مثلكم مسلمون ! نحن مثلكم مسلمون ! ودخل الجيش السعدي توا إلى كاغو بعـد أن نهب أسلاب السودان ، وخابت آمال جؤذر بعد ان لم يجد بكاغو ما كان يتوقعه من كنوز الذهب ، ووجـــد بالمدينة أرزاً وعسلاً وزبداً !.

أما سكية اسحق فقد عرض على جؤذر أن يدخل في طاعة المنصور على أن يؤدي إليه حالاً مائة ألف ثقال ذهباً وألف عبد ، وأن يؤدي ضريبة سنوية ، وكل هذا بعد مراسلات ومفاوضات كان الجيش السعدي ينهب خلالها ما تقع عليه عيناه وما تصل إليه يده من ممتلكات السودان، كما عرض الأمير السوداني على جؤذر أن ينسحب الجيش السعدي في مقابل هذه التنازلات .

ثم كتب جؤذر إلى المنصور بذلك مستأذناً ، ووجه إليه مع الرسول هدايا

قيمة ، ولكن المنصور رفض هذا العرض غاضباً ، وبعث حالاً بالقائد محمود باشا ابن زرقون مع كتيبة من الجيش

5) الحملة الثانية 1000 هـ (1591) :

قد يكون جؤذر نفذ شروط الصلح فعلاً ، إلا ما كان من انسحاب الجيش المغربي ، ولذلك اشتد غضب المنصور الذي بادر بتوجيه محمود أخي جؤذر ، وطلب منه أن يحتفظ به لمساعدته ، وفي هذه الحملة التي تم اللقاء فيها من جديد بين الجيشين في مطلع سنة 1000 هـ ، انهزم سكية اسحق واحتل محمود كاغو وترك بها أخاه ، ثم كان لقاء ثان وثالث بجيش سكية الذي اضطر أخيراً إلى الانسحاب حيث اغتاله بعض رعيته في السنة الموالية .

وليس صحيحاً أن محموداً تخلص من أخيه جؤذر بقتله في إحدى المعارك ، لأنه طمح فيما قيل إلى الاستبداد بالرئاسة ، إذ نراه مرة أخرى يتولى قيادة بعض جيوش زيدان كما سنراه من جملة وزراء عبد الملك ابنه .

وقد بعث محمود زرقون إلى المنصور يبشره بأخبار هذه الانتصارات .

وحوالي سنة 1003 هـ – 1594 م حدثت ثورة بتومبوكتو ضد الجيش المغربي ، فعمد محمود إلى اعتقال وجوه أهل السودان وكبار علمائهم ، ومنهم أحمد بابا الشهير ، ثم بعث بهم مصفدين إلى المنصور ، بعد أن صادر أموالهم وأملاكهم ، وتومبوكتو نشأت على أيدي الطوارق من مسوفة في القرن الخامس الهجري ، وقد عمرت بالمغاربة القادمين من الشمال ، خصوصاً صنهاجة ، كما سكنها مصريون ومهاجرون من ليبيا وإفريقية وغيرها [1] .

فما هي إذاً ، النتائج التي ترتبت عن هذا الفتح ؟

1) لقد وسع المنصور رقعة نفوذه ، فشملت مجموع الأراضي الواقعة شمال نهر النيجير ، كما وطد نفوذه في الأجزاء القاصية من الصحراء ، والتي كانت موئلاً للثورة والمغضوب عليهم من قبل الدولة ، كما شملت سيادته مملكة بورنو

---

(1) عبد الرحمن السعدي ، تاريخ السودان ، ص 20 .

المتاخمة لحدود السودان الشرقي ، ولم يعمد الأتراك إلى الرد بالعنف على هـذه السياسـة التي سلكهـا المنصور ، فقد رفضوا من قبل مساعدة ملك بورنو على القيام بإخضاع بعض القبائل التي رغبت في الإطاحـة بعرشه ، وقـد كانوا لا يستصوبون الزج بجيوشهم في أماكن قاصية ، كناحية تشاد ومالي والنيجير ، وكانت الدول الأوروبية في حالة تكتل ضد الباب العالي الذي استولى على أجزاء هامة من بلادها ، مما شكل أكبر خطر على مصير الدولة العثمانية نفسها

2) أصبح المنصور يتوفر بحرية على معادن الذهب التي تحتوي عليها أراضي السودان ، والتي طالما هفت نفسه إلى الإستيلاء عليها ، وبذلك حقق ما كان يصبو إليه من تنمية اقتصاد المغرب، وإحداث عملة ذهبية ثقيلة صارت لها قيمة دولية ، حتى قيل إن أربعمائة وألف مطرقة كانت معـدة باستمرار لضرب الدينار الذهبي في دار السكة بمراكش ، وأن الذهب عم انتشاره بالمغرب حتى صنعت منه أوان وحلية لا تعد حصراً ، ولذلك أطلق لقب « الذهبي » على أحمد المنصور، وقيل كان معروفاً به قبل هذه الغزوة . وتكاثرت بفضل هذا الذهب، المنشآت العمرانية والصناعية ، كما نشطت الحركة التجارية مع الخارج بشكل لم يعرف له مثيل فيما سبق . وقد تشكك أندري جوليان فيما إذا كان المنصور قد استطاع أن يستغل معادن الذهب لبعدها ، وإنمـا الذي مكنه من الحصول على كميات وافرة من الذهب ، هو في نظره ، ما حصل عليه من مصادرة أعيان تومبوكتو ، ومن واردات الملح[1] .

3) لم يجن المنصور ربحاً معنوياً يذكر ، فقد تسلطت جيوشه بمنتهى القسوة على مسلمين أبرياء غير متكافئين معهم تسلحاً وتنظيماً .

وكان من الممكن قبول الشروط التي تراضى عليهـا ملك كاغو والقائد جؤذر منذ الحملة الأولى ، ولكن أهداف المنصور لم تكن عسكرية وسياسية

---

(1) استنتاج خاطىء كما سيأتي .

فحسب ، بل كانت كذلك اقتصادية . ولم تتحقق آمال المنصور في القيام بعمل عسكري حاسم ضد الإسبان والبرتغال في عقر دارهم .

4) لم يستفد أهل السودان شيئاً يذكر من خضوعهم للدولة السعدية ، بل خلت تومبوكتو التي عرفت عصراً علمياً زاهراً ، من معظم مثقفيها ، وكذلك الشأن بالنسبة لكاغو .

وقد اقتبست السودان عن الجيش المغربي هندسة البناء ، وكان أول عمل قام به الجيش هو بناء قصبة تومبوكتو ، دون أن يقوم بنقل فن البناء الأندلسي ، وإنما اكتفى بنقل هندسة مباني الجنوب المغربي . ولا زلنا نجهل لحد الساعة ، مدى الدور الذي يمكن أن يكون هذا الجيش قد قام به في ميدان نشر الإسلام بين القبائل الوثنية هناك . وعلى كل حال ، فقد استقر أعقاب الجيش المغربي بالسودان ، وانصهروا في أهله عن طريق النسب . ومع ذلك ، فتدخل الجيش السعدي لا يخلو من مزايا في النطاق الاجتماعي والإنساني ، إذ لا يمكن أن يقاس بالتدخل الاستعماري الغربي الذي جعل من الإفريقيين مجرد أداة لخدمة أهدافه .

الثورات الداخلية :

لم يخل عهد المنصور من بعض الثورات الداخلية التي لم يكن لها أثر طويل الأمد ، باستثناء ثورة محمد الشيخ المامون . ومن الثورات التي ينبغي تسجيلها :

1) ثورة داود بن عبد المؤمن بن محمد الشيخ سنة 987 هـ ، وكانت احتجاجاً على تولية محمد المامون العهد ، من لدن والده أحمد المنصور .

2) ثورة عرب الخلط ، الذين رفضوا أن يشتركوا في فتح تيكورارين ، فجردهم من الخيل والسلاح وشردهم [1] .

3) ثورة الحاج قراقوش ، وهو بربري ثار بغمارة التي كانت في الماضي من أكبر مناطق الثورة ، وقد سمى نفسه خليفة ، لكن ما لبث أن تم قتله

(1) الفشتالي ، المناهل ، ص 109 .

والقضاء على ثورته فوراً سنة 993 أو 996 هـ [1]

4) ثورة الناصر بن عبد الله الغالب سنة 1003 هـ ، وكان قد التجأ إلى الاسبان منذ وفاة عبد الملك المعتصم عند نشوب معركة وادي المخازن، واستغل هؤلاء الفرصة، فحرضوه على تدبير محاولة لقلب عرش المنصور في السنة المذكورة، بعد أن رأوا ما وصل إليه ملكه من سعة وفخامة، خصوصاً بعد فتح السودان، واستطاع الناصر أن يحصل على سند في منطقة الريف وتازا وناحية مكناس حيث تتكاثر العناصر الزناتية التي ظلت تتوق إلى السلطة من جديد . وقد تمكن جيش المنصور بقيادة المامون من سحق جنوده ومطاردته إلى أن اعتقله ثم احتز رأسه سنة 1005 هـ .

5) ثورة محمد المامون بن المنصور، وكان والده قد ولاه عهده سنة 987 هـ ، ثم جدد له العهد سنة 992 هـ ، وعينه نائباً له بفاس ، ولكنه كان سيىء السيرة ، يبتز أموال السكان ، ولا يحفل بواجباته الدينية ، كما أنه اتخذ بعض كتائبه من العرب الذين خصص لهم أعطيات كثيرة من غير إذن والده الذي حاول أن يرجعه باللين عن سلوكه ، ولكن توجيهاته ذهبت أدراج الرياح حيث إن المامون كاد يلتجىء إلى تلمسان ليستعين بالأتراك ، وأخيراً ظفر به المنصور بعد مطاردة طويلة وسجنه بمكناس التي ظل منفياً بها إلى أن فر من السجن في عهد زيدان ، واستمرت ثورته إذ ذاك سنوات عديدة .

وفاة المنصور 1012 هـ (1603 م) :

تسلط على المغرب وباء هلك من أجله آلاف من السكان ، واستمر من 1007 إلى 1016 هـ (1599 — 1607 م) ، كما أهلك عديداً من الشخصيات البارزة ، ومن بينها أحمد المنصور الذي توفي ودفن بفاس الجديد في ربيع الثاني 1012 هـ (غشت 1603 م) ، بعد أن استمر في الملك ستاً وعشرين سنة ، ونقل رفاته إثر ذلك ابنه زيدان إلى مراكش حيث دفنه بقبة « الأشراف » . وتقول رواية

(1) الفشتالي ، المناهل ، ص 46 .

أخرى إنه مات مسموماً ، سمته زوجته عائشة بنت أبي بكر الشيبانية أم ابنه زيدان لأنه أوصى ببيعة ابنه أبي فارس ، وهكذا بويع الأول بفاس والثاني بمراكش . ومات المنصور في الطريق من فاس إلى مراكش ، فكتم موته جؤذر حتى دخل العاصمة . وهذا هو سياق الرواية الأخيرة [1] .

سياسة المنصور الداخلية :

فتر نشاط الصلحاء في الميدان السياسي ، وبينما استمروا يمارسون نشاطهم الروحي ، فقد كان بعضهم يترقب الفرصة للتدخل السياسي ، وعلى الخصوص ضد الاحتلال الأجنبي الذي عاد يركز نفسه من جديد بعد موت المنصور، وبوجه عام ، فإن البرتغال ، وهم إلى ذلك الحين أعداء المغرب الرئيسيون ، لم يجرأوا على القيام بأية حركة في التراب المغربي غير ما كانوا قد احتفظوا به ، وذلك طيلة عهد أحمد المنصور الذي وطد انتصار المغرب في معركة وادي المخازن سمعته الشخصية ، وهيبة أسرته كدولة حاكمة .

وأحدث المنصور عادات خاصة في الاحتفال بعيد المولد الذي كان فرصة لاجتماع الصلحاء والأولياء من مختلف بقاع المغرب، حيث يتم الاحتفال بمراكش وغيرها في غاية الأبهة ، ويخرج الصحافون بالشموع في جولة طويلة بالمدينة .

وكان من أبرز مظاهر الضعف في سياسة المنصور ترشيح ابنه محمد المامون ولياً للعهد ، وإقراره بهذه الصفة مدة طويلة ، رغم ما كان يعرفه عنه من سوء سيرة ، كما أنه عمل على تقسيم المغرب بين أبنائه ، مثلما فعلت من قبل ، زوجة إدريس الأول ، كما سنوضح ذلك في موضوع العمال والولاة ، ولحسن الحظ ، فإنه تمكن من القضاء على أخطر ثورة قامت في عهده ، وهي ثورة الناصر بن الغالب التي استمرت حوالي سنتين .

أما في الميدان المالي والاقتصادي ، فقد حول المنصور ضريبة النائبة إلى ضريبة نقدية ، وأقرّ الخراج ، وأحدث عدة مكوس تجارية ، وقلل من التعامل

(1) عبد الرحمن السعدي ، تاريخ السودان ، ص 203 .

بالعملة الفضية ، بعد أن كثر الذهب بخزائنه ، وكان التجار الأجانب يتهافتون على تهريب العملة الذهبية المغربية التي كانت قد اكتسبت سمعة دولية حقيقية ، واحتكر المنصور صناعة السكر التي عرفت نشاطاً واسعاً. وكان لا يترك فرصة تمر دون أن يبحث عن مزيد من الموارد لخزائنه التي نما دخلها بشكل لم يتقدم له نظير ، وذلـــك بفضل المصادرات والفدية التي أداهــا البرتغال لتحرير أسراهم إثر معركة وادي المخازن ، فضلاً عن الضرائب المذكورة وموارد استغلال الذهب .

وبالرغم من القيمة النقدية التي اكتسبتها عملة أحمــد المنصور ، فإن المغرب عرف سنوات من الغلاء المفرط نتيجة لارتفاع الضرائب وكثرتها، حتى قيل إن السكان رحبوا بثورة الناصر وآزروها بسرعة ، تخلصاً من الضغط الذي عاشوه في الميدان الإقتصادي على الخصوص ، ولكن عهد المنصور عرف أيضــاً فترات من الرخاء والازدهار الشامل .

وقد نشط العمران وحركة البناء في عهد هذا العاهل ، وإن انصب الاهتمام على قليل من المدن الرئيسية دون اعتبار لضرورة تعمير عــــدد من المناطق المهجورة والمدن المخربة سيما على الساحل الأطلسي . ومن أهم البنــاءات الخاصة ، قصر البديــع بمراكش . وقد أقيمت جملة قناطر لتنشيط حركة المواصــلات ، سيما على وادي سبو ووادي أم الربيــع التي شادت على كل منهما قنطرة والدة المنصور التي نسب إليها جامع باب دكالة بمراكش وغيره .

وأحدث المنصور مصانــع جديدة للسكر بحاحا ومراكش وشيشاوة ، كما بنى أكبر قسم من مقبرة السعديين بمراكش ، وعدداً من الحصون والمعاقل بمدن مختلفة .

السياسة الخارجية :

عمل المنصور على تقوية علاقاته مع الدول الإسلامية والمسيحية على السواء ، فوافته رسلها بالتهاني والهدايا منذ انتهاء معركة وادي المخازن، ولكن الرئيس

علي علوج الذي كان يمثل الباب العالي بالجزائر ، حاول أن يقنع السلطان مراد بغزو المغرب إثر حادث دبلوماسي عرف المنصور كيف ينقذ نفسه من عواقبه المحتملة . وتفصيل ذلك ، أن أحمد المنصور لم يبد احتفاء لائقاً بالوفـــد العثماني الذي جاء لتهنئته بالمناسبة المذكورة ، بحجة أن هدايا السلطان العثماني دون مقام الملك المغربي ، واستغل الرئيس علوج الفرصة لإعداد حملة عسكرية ضد المغرب ، فبادر المنصور بوجه وفداً إلى الباب العالي ، محملاً بهدايا نفيسة سنة 989 هـ — 1581 م ، ومنذئذ ، والعلاقات مستقرة بـين الطرفين ، سائر حياة المنصور .

وكان للمنصور مراسلات مع أمراء مصر والحجـاز ، ولم ينس أن يستجيز أكابر فقهاء مصر الذين سجلوا في حقه شهادات تنويه قيمة .

أما البرتغال ، فقد سلموا إلى المنصور تلقائياً مدينـة أصيلا ، التي أخلوها سنة 997 هـ – 1589 م ، وتم التسليم رسمياً سنة 1592 بعد أن خشي فيليب الثاني أن ينجد المنصور أحد المطالبين بعرش البرتغال التي كانت قد ألحقت بإسبانيا ، ومـع ذلك فكرت إسبانيا مراراً في الاستيلاء على العرائش التي كانت حينئذ أعظم موانىء المغرب (1) . وفي مقابل ذلك ، وطد المنصور علاقاته بالمملكة اليزابيث البريطانية ، حتى لقـد اتفق الطرفان قبيل وفاة المنصور على غزو إسبانيا وتقاسمها . وكانت بريطانيا قـد غزت قادس سنة 1595 إلى جانب هولندا ، بينما عرض المنصور على الأولى إمدادها بثلاث بواخر حربيـــة ، فامتنعت بلباقة . وكان التجار الرحالة الإنجليز يتوافدون بكثرة على المغرب ، ولم تكن الحكومة البريطانية تتبنى مباشرة التجارة مع المغرب ، بل كانت هناك شخصيات إنجليزية توفد عنها وكلاء لاستيراد السكر والجلود وغيرها من البضائع المغربية ، مقابـــل الثياب التي أغرقت الأسواق المغربية ، ثم

(1) كان ملك إسبانيا في هذا العهد هو فيليب الثاني الذي شمـــل نفوذه إسبانيا وهولندا وإيطاليا فضلاً عن البرتغال والمستعمرات الأمريكية .

حاول التجار أن يتجمعوا في إطار مؤسسة ضخمة . وقـد كانت للمنصور مراسلات كثيرة مع البلاط الإنجليزي [1] تدل على ما كان بين الطرفين من ودّ ومجاملة .

وفي عهـد المنصور توارد على المغرب بعض قناصل فرنسا التي لم تتمكن مـع ذلك من ربط علائق متينة مع المغرب ، بسبب الحروب الدينية التي مزقتها ، والتي استغرقت أربعين سنة بين الكاثوليك والبروتستانت ، وعمّ خطبها عدة بلدان مسيحية

★ ★ ★

(1) أنظر De Castries, Sources inédites (Collection Angleterre)

4 - دور الضعف

زيدان بن المنصور

(1012- 1037 هـ / 1603 - 1627 م)

شخصيته :

كان زيدان أذكى أبناء المنصور ، وأحقهم بالملك من حيث قوة الشخصية ، ولكنه لم يكن مستقيم السلوك في حياته الخاصة ، كما كان يوصف بالشدة والعنف شأن أكثر أسلافه .

وقد كان زيدان نائباً عن والده بتادلا وأحوازها ، ذلك أن المنصور وزع عمالات المغرب في حياته على أنجاله اتقاء لتناحرهم على السلطة بعـده ، فكان ما حدث عكس ما أمّل .

وكان زيدان ذا ثقافة عامة متينة ، تخصص في العلوم الدينية مع مشاركة في فنون الأدب . وكانت له خزانة ضخمة نهب قراصين الإسبان منها ثلاثة آلاف مجلد كان زيدان قد عمل على نقلها في بعض أسفاره إلى آسفي عندمـا عزم على اللجوء إليها أثناء بعض الثورات المحلية . وتمثل هـذه المخطوطات اليوم أهم محتويات الإسكوريال قرب مدريد .

بيعتـه :

توفي المنصور وولي عهده الرسمي (محمد المامون) في سجن بمكناس، وهكذا تم تنصيب زيدان بفاس بتدبير من المفتي محمـد القصار والقاضيين ابن أبي نعيم وعلي السلاسي، وبموافقة قواد الجيش وشخصيات فاس . أما محمد المامون الملقب بالشيخ ، فقد نقل بتدبير من جؤذر باشا إلى سجن مراكش تحت مراقبة أخيـه

أبي فارس عبد الله الذي بايعه أهـل مراكش لأنهم لم يوافقوا على تولية زيدان الذي لم يكونوا يعرفون عنه شيئاً كثيراً .

الثورات ضد زيدان :

لم يهنأ زيدان بالملك طول مدته ، فقـد تـكاثر الثوار والمطالبون بالعرش من كل جانب ، وعاد أرباب الزوايا إلى نشاطهم السياسي ، بعد أن لمسوا تناحر الأمراء على العرش ، وفغر الاستعمار البرتغالي أفواهه الشرهـة من جديد . وفي هذه الفترة نشطت حركة الجهاد الشعبي البحري التي اتخـذت هدفاً مزدوجاً : المقاومة الوطنية ، وإضعاف السفن المسيحية اقتصادياً .

وعلى الرغم من أن زيدان أظهر كثيراً من الحزم في محاربة الثوار ، فقـد كان هو نفسه ضحية سياسة والده الفاشلة ، فيما يتعلق بتوزيع المملكة بين أنجاله الذين لم يتعاونوا معه ، فضاعت كل جهوده في سبيل إقرار الوحـدة الوطنية ، وضاعت معها النتائج الإيجابية التي كان سيجنيها المغرب لو استقر النظام والوحدة الوطنية على ما كانت عليه أيام المنصور .

1) ثورة أبي فارس 1012 هـ :

كانت بيعة أبي فارس عبد الله بمراكش ، نذيراً بإعلان الحرب بينه وبـين زيدان ، فأطلق سراح أخيه محمد الشيخ ، وبعثه لمجابهـة جيش يقوده جؤذر باسم زيدان ، ومرة أخرى يدبر هذا الإسباني مكيدة ضـد زيدان ، فينهزم أمام محمد الشيخ المامون بحضور زيدان الذي شهد هزيمة جيشه بنفسه عند وادي أم الربيع ، فلاذ بالفرار إلى فاس التي لم تلبث أن تخلت عنه بدورها لتبايع محمد الشيخ المامون . ومنذ هذه الفترة تصبح هناك مملكتان سعديتان إحداهما بفاس والأخرى بمراكش ، ولكن هذه تظل نسبياً ، أوسع نفوذاً وأكثر استقراراً . وأمام خروج كل من فاس ومراكش عن بيعته ، اضطر زيدان إلى اللجوء إلى تلمسان في انتظار ما ستسفر عنه الأحداث.

2) ثورة محمد الشيخ 1015 — 1022 :

انقلب محمد الشيخ ضد أخيه أبي فارس ،باستيلائه على فاس التي بايعه أهلها ،

ثم بعث بابنه عبد الله في جيشٍ من ثمانية آلاف مقاتل ، فاستولى على مراكش وأساء بها السيرة هو وجيشه ، مما جعل أهلهـا يستقدمون زيدان ويبايعونه ، غير أن عبد الله بن محمـد المامون عاد معززاً بكتائب أخرى من فاس ، ولقي عسكر زيدان عند تيفلت وكان يقوده مصطفى باشا ، فانهزم عسكر زيـدان واسترجع عبد الله بن المامون مراكش، فاستباح أموالها ونساءها ، فثاروا عليه ونصبوا عليهم محمد بن عبد المومن بن محمـد المهدي الشيخ ، ثم عادوا يستقدمون زيدان مرة أخرى ، فاستعاد مراكش سنة 1016 ، ثم هزم جيش عبد الله عند وادي أبي رقراق ، واستولى على فاس ، فالتجأ محمد الشيخ إلى الإسبان يطلب منهم نصرته . وفي هذه الأثناء حدثت ثورة بمراكش ، فتوجه إليهـا زيدان ، وانتهز الفرصة عبد الله بن الشيخ ، فاحتـل فاساً ، وقتل القائد مصطفى باشا سنة 1018 ، وكان أبو فارس برفقة ابن أخيه ، عبد الله ، وقد أصبح مجرد أمير تابع لأخيه محمد الشيخ المامون ثم لابنه هـذا ، وبدأ يدبر الخطة ليملك فاساً ، فقتله ابن أخيه خنقاً سنة 1016 .

وعاد زيدان إلى فاس يحتلهـا وينكب أهلها ، ثم زحف عبد الله بن الشيخ لقتاله عند رأس الماء ، فاندحر جيش زيدان سنة 1019 . وحينئذ ، تخلى زيدان نهائياً عن فاس التي تركها وشأنها وركز جهوده في مراكش وعدد من المنـاطق التابعة لها شمالاً وجنوباً .

على أن زيدان حاول أن يستعـين على خصومه بالدولة العثمانية التي جهزت إليه أسطولاً من اثني عشر ألف جندي ، فغرقت كل قطعه إلا غرابان اثنان ، وذلك بعـد أن أدى إلى السلطان العثماني هدية تحتوي على عشرة قناطير من الذهب (1) .

أما محمد الشيخ المامون فقد عاد من اسبانيا بعد غيبة سنتين ، حيث اتفق

---

(1) محمد بن اسحق العثماني ، تقييد في تاريخ الدولة العثمانية ، ص 258 ، والقصة ذكرها أيضاً كل من اليفريني في النزهة ، والناصري في الاستقصاء ، وكان المبعوث المكلف من لدن زيدان هو الكاتب عبد العزيز التفلي .

مع ملكها على أن يتخلى له عن العرائش مقابل إنجاده بالسلاح والرجال لاسترجاع فاس ، وسلمت المدينة إلى الإسبان سنة 1019 هـ — 1610 م ، إذ كانت خارجة عن نفوذ زيدان . وقد أغضب هذا العمل كل العناصر الوطنية ،وامتحن محمد المامون عدداً من الشخصيات الفكرية التي رفضت الموافقة على التنازل عن العرائش ، كما اختفى بعضها عن فاس تجنباً لبطشه . وفي نفس السنة استولى المامون على تطوان ، وبقي سكان الشمال يتربصون به الفرصة إلى أن اغتالته بعض عناصرهم سنة 1022 هـ - 1613 م . وكان من أقبح أبناء المنصور سيرة ، يسكر جهاراً ، ويغتصب أموال الناس قهراً ، ولا يبالي بعواقب مظالمه .

3) **ثورة ابن أبي محلى 1022 هـ — 1613 م :**

أحمد بن عبد الله بن أبي محلى ،من مواليد سجلماسة سنة 967 هـ ، تلقى دراسته الأولى بفاس ، ثم لازم الشيخ محمد بن مبارك الزعري مدة ثمانية عشر عاماً ، وهكذا تحول من فقيه إلى صوفي ، وعاد إلى سجلماسة يدعو إلى نبذ الدعوة السعدية ، وسار يتنقل في النواحي الجنوبية الشرقية ، حيث أشاع أنه المهدي المنتظر ، وشنع على أولاد المنصور تناحرهم ، مما أدى إلى اختلال شؤون الدولة ، وانتشار الفساد ، ثم جمع جيشاً قوامه أربعمائة مقاتل ، تمكنوا من سحق 4000 من جنود زيدان قرب سجلماسة ،وسرعان ما دخل ابن أبي محلى إلى هذه المدينة ، ثم ألحق بها درعة بعد أن هزم جيشاً بعثه زيدان بقيادة أخيه عبد الله ، وأخيراً زحف إلى مراكش التي استولى عليها بمؤازرة بعض الخونة من قواد زيدان ، وحينئذ استنجد زيدان بفقيه سوس أبي زكريا يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي ، وكانت له مكانة عظيمة بين سكانها ، فحشد له منهم جيشاً ، ثم كان اللقاء قرب مراكش ، فانهزم جند ابن أبي محلى الذي قتل في أول الوقعة سنة 1022 هـ ، وكان زيدان لاجئاً بآسفي أثناء احتلال ابن أبي محلى لمراكش .

ومن الراجح أن مؤازرة سجلماسة لابن أبي محلى لم تكن ذات طابع سياسي أو ديني محض ، فقد بدأت هذه المدينة تفقد أهميتها الاقتصادية العظيمة التي

كانت لها في الماضي كممر للقوافل التجارية المنطلقة من السودان حتى مصر ؛ فهنـــاك المضايقات البرتغالية على شواطيء الأطلسي والوجود التركي في كل من الجزائر وتونس ، وهكذا كان للعامل الاقتصادي أثر في هذه الانتفاضة .

أما أبو زكريا أحمد ، فقد كاد يستبد بمراكش ، ولكن جنده اختلفوا معه بشأن رواتبهم ، فعاد إلى سوس متخلياً عن مراكش لزيدان ، بعد أن أخذ منه ميثاقاً أن لا يعود إلى ما افتضح من شذوذه الجنسي ، وقد كانت بينهما مراسلات كثيرة تدل على أن زيدان كان يرهب جانبه .

وقد استولى الإسبان سنة 1022 هـ على المعمورة (المهدية) في عهـد فيليب الثالث ، فأسند زيدان إلى أبي عبد الله العياشي قائده السابق بأزمور مهمـــة مقاومة المحتلين في منطقة دكالة أولاً ، وهنا تبدأ صفحة ناصعة من تاريخ النضال المغربي بزعامة هذا الصوفي الشعبي الذي هدد الوجود البرتغالي بالمنطقة ، حتى إن قادة الاحتلال بها أفسدوا ما بين العياشي وزيدان ، وألانوا موقف هذا بالهدايا والتحف حتى انسحب العياشي إلى سلا مستجيباً لنصح العاطفين عليه .

4) ثورات فاس 1020 — 1033 هـ (1611 — 1623 م) :

أما فاس فقد استبد بها عبد الله بن الشيخ بعد مقتل والده ، وسرعان ما ثارت ضد جنوده من شراقة ابتداء من سنة 1020 هـ ثم عينت ولاة محليين إلى سنة 1027 حيث عادت إلى تنصيب عبـد الله بن الشيخ ، بينما بايع سكان الهبط أخاه محمد المعروف بزغودة الذي تمكن من الاستيلاء على فاس ، ثم استرجعهـــا عبد الله وبقيت فاس تتأرجح بينه وبين الثوار المحليين إلى سنة 1033 وفيها توفي عبد الله .

5) ثورة سوس :

بينما كان زيدان يعمل على استرجاع مراكش من يد ابن أبي محلي ظهر بسوس ثائر سوسي هو أبو حسون علي بن محمد ، حفيد أحمد بن موسى السملالي الصوفي ، وكان أبو حسون يعرف أيضاً ببو دميعة ، وقد تمكن من الظهور بسوس بمؤازرة قبائل جزولة التي ينتمي إليها ، وهكذا احتل تارودانت ، مما جعل الفقيه يحيى

الحاحي يحاربه ويسترجع منه تارودانت ، على أن أبا حسون عاد إلى الظهور من جديد إثر وفاة يحيى سنة 1035 هـ ، فدانت له بجموع المنطقة السوسية ، بإضافة سجلماسة ودرعة ، وهي كلها مناطق متكاملة اقتصادياً وجغرافياً ، وكانت الدولة السعدية في طريقها نحو الاضمحلال . واتخذ أبو حسون إيليغ بسوس عاصمة لحكومته .

وفاة زيدان 1037 هـ — 1628 م :

توفي زيدان في مطلع 1037 هـ ، ودفن بمقبرة « الأشراف » بمراكش بجانب والده . وقد كانت لهذا السلطان علاقات دبلوماسية مع عدة دول .

والجدير بالذكر أن الثورات التي حدثت في عهد زيدان تتخذ ثلاثة اتجاهات حسب المناطق أو الوضع السياسي :

1) ثورات في الأسرة الحاكمة ، وتتركز مبدئياً في المدن الكبرى خصوصاً فاس ومراكش .

2) ثورات شعبية ذات طابع محدود ، وتنشأ غالباً بسبب سوء سيرة الولاة كما حدث في سلا .

3) ثورات ذات صبغة وطنية أو إقليمية قام بها صوفية أو فقهاء كالعياشي وابن أبي محلى ويحيى الحاحي وأبي حسون السملالي . ومعظم هذه الثورات منطلقها الجنوب .

أبو مروان عبد الملك بن زيدان
(1037 — 1040 هـ / 1627 — 1630 م)

بويع عبد الملك بن زيدان إثر وفاة والده زيدان بمراكش ، وتمكن من إلحاق فاس بمملكته بينما ثار عليه أخواه أحمد والوليد ، أما الأول فقد اعتقله عبد الملك في سجن فاس لمدة طويلة ، وأما الوليد فقد استعان بقواد الجيش على تمهيد الأمر لنفسه ، وحاول أن يستولي على الملك بالقوة في البداية ،

ثم عمد إلى اغتيال أخيه عبد الملك بتعاون مع القواد المذكورين ، سنة 1040 هـ . وكان عبد الملك سكيراً فاسقاً ، وقد تم دفنه أيضاً بضريح السعديين بمراكش .

الوليد بن زيدان

(1040 — 1045 هـ / 1630 — 1635 م)

لم يكن الوليد بأحسن سيرة من أخيه عبد الملك ، فقد بطش بعدد كبير من أفراد أسرته ، وهي سنة درج عليها جلّ ملوك السعديين ، كما اعتقل أخاه محمد الشيخ الأصغر ، خوفاً من أن يثور عليه ، وكان الوليد مع هـذا مولعاً بالسماع سخي اليد ، ولكنه كان قليل الاهتمام بشؤون شعبه سكيراً كسلفه ، وقد اغتاله العلوج من جيشه بعد أن رفض أداء رواتبهم . وإليـه تنسب قصبة الوليدية . وتقول رواية افرنجية إنه كان محبوباً من رعيته ، كمـا تذكر خطأ أنه حكم اثنتي عشر عاماً [1] . وقـد قتل خمسة عشر من إخوته وأبنائهم وأبناء أعمامه .

محمد الشيخ الأصغر بن زيدان

(1045 — 1064 هـ / 1635 — 1653 م)

كان محمد الشيخ الأصغر سجيناً بمراكش أيام أخيـه الوليد ، فأخرج من معتقله ، ونصب غداة موت الوليد . وكان مستقيماً في سلوكه ، لكنـه على الرغم من طول عهده لم يحاول أن ينقذ بحزم ما خرج من المملكة عن سلطته ، فقد استولى الدلائيون على فاس ، واستفحـل أمرهم حتى هزموه في أبي عقبة سنة 1048 هـ ، بينما شملت سلطة العياشي سلا ومنطقة الغرب ، وبدأ العلويون يتحفزون لنشر دعوتهم . وكانت تحت حكمه ، المناطق الممتدة بـين الأطلس

(1) Hoffer : Empire du Maroc p. 356 . وانظر بشأن سيرته :
Fagnan, Extraits inédits, p. 445

وآسفي وأزمور ومراكش ، وكان أكثر مستشاريه علوجاً أو عناصر غير وطنية . وتوفي بمراكش حيث دفن بمقبرة السعديين سنة 1064 هـ — 1653 .

العباس بن محمد الشيخ الأصغر

(1064 — 1069 هـ / 1653 — 1658 م)

هو آخر ملوك السعديين ، ولم يلبث طويلاً في الملك بعد تنصيبه ، لأن أخواله من الشبانات رغبوا في أن يحولوا الملك إلى أسرتهم ، حتى حاصروه مدة طويلة بمراكش ، ثم عمدوا إلى اغتياله سنة 1069 هـ — 1658 م ، واستولى عبد الكريم الشباني وهو كبيرهم على الملك ، حيث صفت له الأحوال بمراكش وأحوازها مدة إحدى عشرة سنة ، وشذت عن نفوذه آسفي بالإضافة إلى سائر أنحاء البلاد ، وكان يلقب بكروم الحاج ، وقد تم اغتياله هو أيضاً سنة 1079 هـ فخلفه ولده أبو بكر الذي انتهى أمره على يد السلطان رشيد العلوي .

★ ★ ★

الحركات الاستقلالية الكبرى

في عهد السعديين

1 – حركة الجهاد البحري الشعبي[1]

هجرة الموريسكيين :

منذ أن دخلت إمارة غرناطة تحت الحكم الإسباني سنة 898 هـ – 1492 م في أوائل عهد الوطاسيين استمر المسلمون لفترة قصيرة يؤدون طقوسهم في عين المكان مع شيء من الحرية . على أن عدداً آخر من المسلمين كانوا يعيشون في كنف الممالك الإسبانية منذ عهد المرابطين ، وكان الإسبان يسمونهم يومئذ بالمدجنين ، وهم أرقى حضارة من المسيحيين . أما إمارة غرناطة ، فقد أطلق الإسبان على سكانها المسلمين إسم الموريسكيين ، ثم عمموا هذه التسمية على سائر المسلمين . على أن سكان غرناطة لم ينعموا طويلاً بهذه الحرية الدينية التي خولتها لهم شروط تسليم غرناطة . فقد عرف القرن السادس عشر أفظع مظاهر الاضطهاد الديني ليس فحسب في إسبانيا ، بل في معظم البلاد المسيحية التي تطور التناحر فيها

(1) أنظر حول هذا الموضوع : الناصري ، استقصا ، ج 6 ص 11 ، 24 ، 73 ، 84 ، الافرنسي ، نزهة الحادي ، ص 435 . محمد داود ، تاريخ تطوان ، ج 1 . بوجندار ، مقدمة الفتح من رباط الفتح . أبو أملاق الخبر عن ظهور العياشي .

— De Slane, Revue africaine, T 1 n. 4 / 1856
— R. Coindreau, les Corsaires de Salé.
— De Castries, les sources inédites.
— Juan Peuella, Erudes sur les marisar audalous au Truisie.
— J. Caillé, la ville de Rabot, T 1. La petite his oire du Maroc.
— R. Ricard, Hespéris, 1,2 / 1935.
— Ch. Penz, les Captifs français.
— H· Terrasse, Histoire du Maroc, T. 2

بين الكاثوليكية والبروتستانية ، إلى حد أن امتدت الحروب الأهلية في بعضها أربعين سنة ،وأخيراً، كان التحمس للكاثوليكية يكتسي طابع التعصب المفرط في البلاد الإسبانية التي قرر ملكها فيليب الثاني أن يشهر الحرب ضد جميع الأمم التي لا تتمذهب بالكاثوليكية ، وأحرق من أجل ذلك في إسبانيا حوالي عشرة آلاف شخص في مدة ثمان عشرة سنة ، وأحدث محاكم التفتيش التي كان ضحيتها المسلمون أيضاً ، فقد اتهموا بالتآمر على الدولة ، وألزموا بالدخول قهراً في المسيحية . وفي غمرة هذا القمع ، كان معظمهم يحتفظ بتقاليده ودينه الذي يضطر إلى ممارسة شعائره خفية ، على الرغم من أنهم قد تخلوا مكرهين عن اللغة العربية التي احتفظوا منها بالخط ، وكانوا يكتبون به الإسبانية أو اللهجة العامية . ففي سنة 1568 م ، وقبل طرد المسلمين بأكثر من ثلاثين عاماً أمر أسقف غرناطة أن يلزم أبناء المسلمين ، ابتداء من الخامسة من عمرهم إلى سن الخامسة عشرة بتعلم الإسبانية وتلقي تعاليم الديانة المسيحية (1) ، وظلوا مع هذا متمسكين بحبهم لوطنهم بشكل غريب ، حتى إنهم حاولوا بعد أن أهينوا في أنفسهم ودينهم وأموالهم ، أن يشهروا الحرب على النصارى ، فتكتلوا بزعامة محمد بن أمية ، الذي يحتمل أن يكون من سلالة أمويي الأندلس ، وكانت ثورتهم بضواحي غرناطة في جبل البوشرات ، ولكن حب الرئاسة أعمى أحدهم ، وهو المدعو ابن عبو ، لينفرد بزعامة المسلمين ، ومن ثم أصبحوا أكثر تعرضاً للاضطهاد الديني والسياسي ، خصوصاً بعد أن استغاثوا بالأتراك فلم ينجدوهم وقد كانوا هم أنفسهم في حرب مع الإسبان في حوض البحر المتوسط . وهكذا أرغموا على مغادرة الأندلس في فترات متعاقبة ، ابتداء من السنوات الأولى للقرن السابع عشر الميلادي ، وقد هاجر معهم عدد كبير من اليهود .

وقد تقاطر الموريسكيون على عدة أقطار إسلامية كمصر والشام وتركيا ، ولكن إفريقيا الشمالية استقبلت أكبر عدد منهم ، سيما شمال تونس وشمال المغرب ، وتعرض كثير منهم للنهب وسبي بناتهم من قبل الأعراب ، قبل أن يتمكنوا

(1) de Chénier, Recherches historiques p. 370

من الاستقرار نهائياً بالمراكز التي اختاروها،وتوجهت فئة منهم إلى تطوان التي كانت بها جالية أندلسية قدمت في عهد الوطاسيين ومارست الجهاد البحري منذ مطلع القرن 10 هـ / 16 م ، وكانت تطوان توجه في نفس الوقت حملاتها ضد البرتغال المجاورين لها بسبتة وطنجة وأصيلا .

أما أهم مركز استقر به الموريسكيون فهو الرباط وسلا حيث قاموا بنشاط عظيم في غزو البواخر الأجنبية والاستيلاء عليها .

وكان المغاربة يطلقون على جميع المسلمين واليهود القادمين من الأندلس نسبة الأندلسيين . وكان الموريسكيون على جانب عظيم من الحضارة ، متفوقين في الميدان العسكري والعمراني ، وقد قدموا إلى المغرب وغيره من الأقطار الإسلامية يحملون شعوراً مزدوجاً بالحنين إلى وطنهم الأصلي والتشبث بدينهم وتقاليدهم ، وكان اختلاف الأوضاع الإجتماعية عما ألفوه في إسبانيا يحدو بهم إلى حب الانعزال والتكتل وكراهة الخضوع لغيرهم ، وكانت لهم مهارة خاصة في الفلاحة والصناعة ، وبفضلهم شهدت إسبانيا نمواً كبيراً في حاصلاتها الزراعية ومنتجاتها الصناعية من ثياب وأوان وزجاج وزيت وغير ذلك مما كانت هذه البلاد تصدره إلى الخارج،حتى إن إسبانيا بعد طردها للموريسكيين قد تأخرت كثيراً في زراعتها وصناعتها، ولولا الذهب الذي درته عليها أمريكا ثم دولاراتها في الفترة الأخيرة لاستمرت إسبانيا تشهد تضعضعاً كبيراً في اقتصادها وتأخراً مذهلاً في مجتمعها .

وقد استخدم الملوك السعديون كثيراً من الموريسكيين في الجيوش المحاربة في السودان والمغرب ، على الرغم من أن العنصر الموريسكي لم يقم على إخلاص دائم للدولة كما سيتضح ذلك في هذه الدراسة .

جمهورية الرباط – سلا :

كان القادمون من الموريسكيين إلى البلاد الإسلامية :

1) من بلنسية ، وهم أول من قرر في حقهم الطرد سنة 1609 م .

2) من قشتاله وإستramadura (Estramaduro) ، وكان بين الوافدين من

هذه الناحية موجة وردت من حرناشو Hornacho ، وهي مدينة في الجنوب الشرقي لماردة، وكانوا يزوّرون العملة الإسبانية وغيرها ، ولما خشوا من معاقبة محاكم مدريد ، هاجروا طواعية إلى الرباط ، فاستقروا به أواخر 1609 م .

3) من أراغون وجنوب الأندلس سنة 1610 م .

4) من قطلونيا سنة 1611 .

5) من مرسية سنة 1614 .

وقد استقر الحرناشيون بقصبة الأوداية ، فانضموا بذلك إلى الجالية الأندلسية التي هاجرت إليها من قبل ، ثم استقدموا موريسكيين آخرين من مختلف نواحي المغرب ، وعمروا مدينة الرباط ، كما استقر عدد منهم بسلا .

وكان الحرناشيون ذوي ثروة ضخمة ، ومهارة في استعمال الأسلحة النارية، مما جعل زيدان بن المنصور يجند منهم حوالي أربعمائة لمحاربة أبي حسون السملالي في ناحية درعة ، وبما أن السلطان السعدي أبطأ في أداء رواتبهم فقد فروا من الجيش عائدين إلى الرباط وسلا ، وبمجرد استقرارهم أخذوا يمارسون عمليات اعتراض السفن المسيحية والاستيلاء عليها ، ويقدمون عشر مواردهم إلى السلطان زيدان الذي اعترف لهم بهذه الطريقة ، بممارسة العمليات المذكورة ، ولكن عدم مساعدتهم له عسكرياً ، جعلته يلجأ إلى الغض عن هجوم العياشي على جمهوريتهم .

وكانت علاقات مجاهدي هذه الجمهورية مع إخوانهم مجاهدي الجزائر طيبة ، بل علاقة تعاون ، فكثيراً ما انطلقت سفنهم في أسطول واحد لمهاجمة السفن الأجنبية في عرض البحر ، وكانوا مع هذا يتبادلون الزيارات ، وكثيراً ما لجأ مجاهدو الجزائر بسفنهم إلى العرائش يتزودون المواد ويصلحون سفنهم في ترسانتها .

وكان الأندلسيون قبل قدوم الحرناشيين يقبلون سلطة القائد الذي تعينه

---

(1) Coindreau, Les Corsaires de Salé, p. 48

(2) Ibid. p. 63

الدولة ، دون أن تكون له عليهم سلطة حقيقية . ولما قدم الحرناشيون سكان قصبة الأوداية ، اختلفوا مع سكان سلا ثم كونوا في الأخير مجلساً للحكم نصف أعضائه من الرباط والنصف الآخر من سلا بعد أن استبد الحرناشيون بالحكم لفترة . وهكذا تكونت جمهورية حقيقية بحوض أبي رقراق، ابتداء من 1614 م ، وكان من حق ديوان الجمهورية تنفيذ جميع العقوبات إلا الإعدام الذي كان البت فيه راجعاً إلى السلطان .

النزاع بين العياشي وجمهورية الرباط – سلا :

محمد بن أحمد المالكي الزياني المعروف بالعياشي ينتمي إلى أسرة بني مالك بن زغبة من قبائل بني هلال التي استوطنت المغرب ، وهو تلميذ عبد الله بن حسون أحد أولياء سلا . وفي سنة 1013 هـ بُعَيْد وفاة المنصور استقر بناحية آزمور ، حيث شاع هناك فضله ورغبته في الجهاد حتى ولاه زيدان قيادة آزمور وناحيتها بناء على طلب السكان ، وهناك تصدى لحرب البرتغال الذين كانوا يقيمون بالجديدة ، فوفق في الحصول على غنائم كثيرة منهم ، كما كان يبعث بالأسرى منهم إلى زيدان . ولكن حاشية السوء أوعزت إلى السلطان بالقضاء عليه حتى لا يتسع نفوذه، فبعث زيدان أربعمائة فارس بقيادة محمد السنوسي، ولكن القائد أشفق عليه فأشار عليه بالافلات ، وحينئذ انسحب العياشي إلى سلا من جديد، فاجتمع عليه سكانها وحثوه على أن يقود حركة الجهاد ضد البرتغال الذين كانوا يحتلون المعمورة ، ويجرأون على التحرك بناحية الغرب حتى وادي المخازن ، كما كانوا ينبثون بالغابة المجاورة ويقتطعون خشبها ويستصلحونه لحاجياتهم كصناعة السفن وغير ذلك ، ووفق في حملته الأولى إلى أن يقتل منهم عدداً كبيراً ، فلم يجرأوا على مغادرة المعمورة . وحينئذ أمر زيدان قائده الزعروري بالقبض على العياشي ، ولكن الزعروري لم يعجل بذلك ، بل أطلق عليه جماعة من الجواسيس لتتبع حركاته ومعرفة نواياه ، وأثناء ذلك جرى نزاع بين الجالية الأندلسية وقائد سلا ،حيث رفضوا المشاركة في حملة جديدة وجهت إلى درعة، ونهبوا دار القائد ، ثم قتلوا خلفه عجيبا . أما العياشي فقد انسحب إلى داره

ملازماً للصمت ، فتواردت عليه الشكايات من التجار والمسافرين الذين صاروا عرضة للنهب ، وكانت سلا قد أصبحت بدون وال، فطلب منهم العياشي ومن رؤساء القبائل الوافدين أن يوقعوا له ميثاقاً يلتزمون بموجبه بمساعدته وترشيحه عن طواعية لتدبير شؤونهم. وهكذا ضمن العياشي لنفسه وجوداً قانونياً كحاكم سياسي وإداري يمتد نفوذه من تامسنا [1] إلى تازا ، ثم هاجم البرتغال بالمعمورة، كما هاجم العرائش والجديدة وطنجة .

الحرب بين العياشي وحركة الجهاد البحري :

ومعظم حملاته كان يساعده فيها قبائل العرب ، أما الموريسكيون فقد عملوا في أغلب الأحيان لحسابهم في عرض البحر حتى تفاقم خطرهم على السفن الأجنبية واضطر القبطان الإنجليزي Mainwaring إلى أن يفاوضهم في شراء كل أسرى المسيحيين . وكانوا يبلغون في تحركاتهم شواطىء إسبانيا ويحملون الأعلام الإسبانية فيخدعون السفن التي تصادفهم . وفي الواقع لم يكن المسلمون وحدهم يحتكرون تجارة الأسرى ، فقد كان الجنويون يزودون بلاط الشراكسة والبلاط المغربي بالنساء المسيحيات ، بينما كان أرباب السفن من الجنويين أنفسهم يخدمهم بربريات [2] .

أما موارد الحركة الجهادية فكانت تقتسم هكذا : عشرة في المائة لديوان سلا، و 45 في المائة لصاحب المركب أو رئيسه ، و 45 في المائة للربان وقائد المدفعية والجراح والبحارة والضباط . وعندما يخضع المجاهدون مباشرة للسلطان ، يتقاضى منهم الخمس، ثم نصف الباقي بوصفه صاحب المركب،والبحارة والضباط يقتسمون النصف الآخر [3] .

ولقد كان السلطان زيدان يشجعهم وكان معجباً بنشاطهم حتى لقد فكر أن يعهد إلى أحدهم وهو يوسف بسكاينو بقيادة اتافيلالت أو السودان ، ثم

(1) اليفريني ، نزهة الحادي ، ص 440 .

(2) Coindreau Les dorsaifes de Salé, p. 27

(3) Op. Cit. p. 64

رغب أن يستفيد من مواهبهم العسكرية ، فجئند منهم كما تقدم حوالي أربعمائة لمحاربة أبي حسون ، ولكنهم رفضوا التجنيد في حملة ثانيـة ، وعمدوا إلى قائد سلا فقتلوه سنة 1034 هـ (1624) ، حتى إذا أصبحوا سادة البلاد طردوا سكانه الأصليين ، وكوّنوا مجلساً سموه بالديوان ، وعينوا حاكماً ينتخب لمـــدة سنة . وكانت انجلترا أول من اعترف بالجمهورية الجديدة ، مما جعلهم يحررون أزيد من 190 أسير انجليزي ، وكان دور الحرناشيين كما سلف بارزاً في نشاط هـــذه الجمهورية ، وقد رحب العياشي بثورتهم على السلطان زيدان ، بينما ساعدوه من جهتهم على مهاجمة الإسبان مدة ، ثم ملوا مواصلة الحرب إلى جانبه ، واختاروا البقاء مستقلين .

وفي سنة 1039 هـ (1630 م) توصل الحرناشيون والأندلسيون إلى اتفاق يقضي بأن يقطن القائد المنتخب بالقصبة وأن ينتخب كل من الطرفين نصف أعضـاء الديوان على أن يجتمعوا كافة بالقصبة .

وأثناء مهاجمة العياشي للمعمورة تأكد له أن الموريسكيين لم يكونوا متحمسين لمحاربة النصارى ، وأنهم على العكس من ذلك كانوا يبطلون خططه ويقدمون إليهم المؤونة حتى استصدر فتوى بجواز مقاتلتهم بعد أن لاحظ خيانتهم .

وكان ممن أفتى بذلك الشيخ العربي الفاسي والشيخ عبد الواحـد بن عاشر الذي لمس عن كثب موقفهم . وهكذا اضطر إلى أن يعلن عليهم الحرب خصوصاً بعد أن رفضوا أن يمدوه ببعض المدافع لمهاجمـة المعمورة ، وحينئذ اقتحم سلا القديمة سنة 1040 هـ (1631 م) ، وبقي يحرس الميناء بينما استقر ولده بشالة دون أن يكون لتدخله نتائج إيجابية . إلا أن توليـة الوليد في نفس السنة جعلتهم يفضلون الخضوع لحكمه ومهاداته ، وكان هو نفسه من أم اسبانية ، ولكن حصار العياشي للموريسكيين لم يزدهم إلا عناداً ، وقد أمدهم الإسبان بالمؤن أما العياشي فأخذ يخفف من ضغطه عليهم شيئاً فشيئاً عاملاً على استرجاع ثغور أخرى .

وفي سنة 1045 هـ (1636 م) حدث نزاع بين الحرناشيين والأندلسيين الذين

طردوا هؤلاء من القصبة ، فالتجأوا عندئذ إلى العياشي ، ولكنه كان مشغولاً في جهات أخرى،مما جعل حاكم سلا الجديدة عبد الله بن علي القصري ينتهز الفرصة للاستيلاء على سلا القديمة . وأثناء ذلك قدمت بواخر انجليزية لحصار الموريسكيين بعث بها ملك انجلترا شارل الأول لفك عدد من أسرى بلاده ، ثم زحف محمد الشيخ الصغير في نفس السنة المذكورة متجهاً نحو الرباط وسلا . أما العياشي فقد اكتفى بتخريب نواحيها واعترض جيوش السلطان التي لم تتمكن من تجاوز فضالة . وفي سنة 1046 هـ (1637 م) انقسم قراصنة أبي رقراق إلى ثلاث فرق : إحداها مستقلة بزعامة القصري ، والثانية تناصر السلطان ، والثالثة تناصر العياشي، وأخيراً اعترف القراصنة جميعاً بسيادة السلطان الذي عفا عن القصري ورده إلى قيادته . أما العياشي فقد اشتبك في حرب مع نصارى الجديدة وقتل حاكمهم في إحدى المعارك سنة 1640 م ، ثم عاد إلى محاربة الموريسكيين الذين التجأوا إلى الاستنجاد بالدلائيين ، وبعد محاولات سلمية قام بها الدلائيون لإقناع العياشي بالعدول عن قتالهم اشتبكوا معه في حروب متواصلة إلى أن هزموه بأزغار ، فالتجأ إلى الخلط الذين اغتالوه[1] سنة 1051 هـ (1641 م) . وأصبحت سلا والرباط تحت سلطة الدلائيين إلى أن خضعت للدولة العلوية . ومع ذلك فقد استمر الموريسكيون يباشرون حركة الجهاد البحري إلى أواسط القرن التاسع عشر .

ولقد نشط الأندلسيون للجهاد في مراكز أخرى غير أبي رقراق ، ولا سيما أهل تطوان الذين كانت لهم علاقات دبلوماسية وتجارية مع عدة دول أجنبية . إلا أن القضاء على حكم أولاد المنظري ثم أولاد النقسيس لم يمكنهم من الاستمرار في نشاط الجهاد على غرار أندلسيي أبي رقرار الذين كونوا رأسمال الحركة بفضل الثروات الطائلة التي قدموا بها من اسبانيا .

---

(1) دفن العياشي رحمه الله بفشتالة .

قوة غزاة البحر :

لم تكن لدى موريسكيي أبي رقراق فيما ترويه بعض الوثائق أكثر من أربع بواخر سنة 1617 م (1026 هـ) ثم أصبحت في سنة 1036 هـ (1626 م) تبلغ الستين . وقد اقترح قائد أسطول فرنسي على ريشيليو وزير فرنسا المشهور أن يسمح بإغراق باخرة فرنسية في حوض ميناء أبي رقراق حتى يضطر السلطان إلى عقد اتفاق مع فرنسا من شأنه أن يوقف القرصنة الموريسكية التي كانت حسب هذا القائد تستولي على أكبر عدد من البواخر الفرنسية بالقياس إلى مراكز القرصنة الأخرى . وهكذا يضطر القراصنة إلى تحرير الأسرى الفرنسيين ،وعلى الرغم من أن الأسطول الفرنسي طبق هذه الخطة فعلاً فإنها لم تؤد إلى نتيجة .

ثم نزل عدد البواخر الأندلسية إلى 22 سنة 1044 هـ (1635 م) وإلى عشرين سنة 1058 هـ (1647 م) ، وكانت بواخرهم تجلب في الغالب من أوروبا ، كما كانوا يصنعون عدداً منها بمساعدة الهولنديين في عين المكان ، وكانوا يصلون في مغامراتهم إلى الشواطىء الإنجليزية ويهاجمون السفن الأجنبية على غرة لأنها تأمن جانبهم حيث كانوا يرفعون الأعلام الإسبانية وغيرها إيهاماً .

علاقة الموريسكيين بالنصارى :

كانت للموريسكيين علاقات دبلوماسية مع كل من هولندا وفرنسا وانجلترا ، وقد كان لليهود دور بارز في السمسرة التجارية بين الموريسكيين وهولندا ،وكان هؤلاء يضايقون أشد مضايقة سائر المراكب التي تخرج للصيد في عرض المحيط الأطلسي ، مما جعل فرنسا تفكر في عهد لويس الثالث عشر أن تضمن سلامة صيدها بحراسة قوية كل سنة ، تمنع خروج المجاهدين من سلا أيام الصيد ، ولكن فرنسا اضطرت إلى أن تعقد اتفاقاً في عهد لويس الثالث عشر سنة 1038 هـ (1629 م) و 1039 هـ (1630 م) يقضي بإرجاع كل باخرة احتجزها أحد الطرفين من الآخر ، وأن تفتح موانىء كل من الفريقين لتجارة الطرف الآخر ، ويسمح باستقرار قنصل فرنسي بالرباط ، ولا يباع الأسرى الفرنسيون بسلا .

ومنذ سنة 1626 م قدم مبعوث عن البلاط الإنجليزي واسمه جون هاريسن بقصد الاتصال بالمجاهدين حول القيام بهجوم مشترك ضد اسبانيا ، وكان ملك انجلترا في ذلك الوقت هو جاك الأول ، وكان ضمن شروط الاتفاقيـــة تحرير أسرى الانجليز وتسليم أربعة عشر مدفعاً مع ذخيرة إلى المجاهدين ، وقد عاد المبعوث في السنة الموالية يقدم ستة مدافع وكمية من الذخيرة ، ولكن قضيـة الحلف ضد اسبانيا لم تقبلها الحكومة البريطانية التي لم ترتح إذ ذاك لمساعـدة المجاهدين الذين كانوا قد قطعوا علاقتهم مع السلطان زيدان ، وحينئذ تم تحرير أسرى الانجليز بعـد أن توصلت جمهورية أبي رقراق في مقابل ذلك بالأسلحـة المتفق عليها .

وفي عاشر ماي 1036 هـ (1627 م) تم الاتفاق بين الجمهورية وجون هاريسن على أن تفتح كل من موانىء الطرفين لترويج بضائع الطرف الآخر مـــع عدم التعرض لسفن أي منهما والتزام انجلـترا بتحرير جميع الموريسكيين الأسارى بمملكتها ، وتعهد جمهورية أبي رقراق بمساعدة انجلترا حربياً على أعدائهـا . وكان الذي أمضى الاتفاق عن الجمهورية إبراهيم بركاش ومحمد باركو ، غير أن شارل الأول رفض توقيع الاتفاق. ولم يمض قليل حتى استولت السفن الانجليزية على باخرة للمجاهدين ، ورد الموريسكيون بالاستيلاء على عـدد من البواخر الانجليزية، وعلى الرغم من أن جون هاريسن عاد إلى المغرب يؤكد باسم ملكه أنه يتبرأ من مسؤولية تصرفات السفن الانجليزية التي استولت على البـاخرة الجمهورية ، فإن المجاهدين قد اشتد غضبهم على المبعوث حتى رفضوا أن يسمحوا له بالنزول من باخرته ، وقد قضى جون هاريسن ست سنوات في التردد بـين أبي رقراق وبلاده (من سنة 1626 – 1631) حتى يعمل على تحسين العلاقات بين الجانبين ، ولكنه لم يوفق إلى ذلك كثيراً .

ولقـد وصف قبطان انجليزي يدعى جون سميث في رحلة له عن المغرب ما كانت تعانيه السفن الانجليزية من مجاهدي أبي رقراق ، حتى لقد كان

لكثير من العائلات الانجليزية أقارب أو أصدقاء في الأسر لدى هؤلاء ، وكانت تقام صلوات عمومية من أجلهم ، وتلقى الخطب استدراراً للعطف عليهم .

وقد كانت حركة الجهاد البحري التي يسميها الأوروبيون بالقرصنة كسائر أنواع القرصنة نشاطاً دولياً ذا طابع قومي لدى مجاهدي المغرب الإسلامي ، وفي الوقت ذاته ، كان القرصان لا يراعي مصلحة وطنه في أي بلد كان ، بل يعتز بانتمائه إلى أسرة القراصنة أكثر مما يعد نفسه انجليزياً أو هولندياً أو فرنسياً أو اسبانياً بل حتى مسيحياً أو مسلماً [1] .

3 — الدلائيون [2]

الدلائيون نسبة إلى دلاء ، قبيلة من صنهاجة ، ومنها فخذة آل مجاط الذين كانوا يقطنون أعالي وادي ملوية ، ثم استقر جدهم أبو بكر بن محمد المجاط الملقب بالوجاري والزموري بتادلا حيث بنى الزاوية الدلائية المشهورة وذلك بشرقي خنيفرة في قبيلة آيت اسحاق. وكان رئيس الزاوية يسمى أحياناً صاحب جبل درت . وقد ولد أبو بكر هذا سنة 943 هـ (1536 م) ولمع نجمه في عهد المنصور ، وكان ذا فضل وعلم ، فأصبحت زاويته ملجأ لرجال الدين ، وبدأت الوفود تتوارد عليه حتى اشتهر أمره . ومع أن المنصور لم يرق له ظهور الدلائيين ، فقد أبدى عطفه على حركتهم كرجال دين ، ولكن سرعان ما اتخذت هذه الحركة اتجاهاً سياسياً بعد موت المنصور. وكانت وفاة أبي بكر

---

(1) مجموعة دوكاستري ـ هولندا مجلد 1 .

(2) أنظر Sources inédites لدوكاستري (فرنسا مجلد ٣) ـ La Betite Hist. du Maroc لكايبي ج 1 ـ البدور الضاوية مخطوط خزانة عامة بالرباط رقم 1454 ـ نشر المثاني ـ Historia del Rif . وقد صدرت منذ سنوات دراسة جديدة عن الدلائيين للسيد محمد حجي من أساتذة الجامعة بالرباط .

هذا سنة 1021 هـ (1612 م) ، ومن تلاميذه أحمد بن يوسف العياسي، وقد اشتهر أبو بكر الدلائي بكرمه .

محمد بن أبي بكر (1021 — 1046 هـ / 1637 م)

خلف محمد والده أبا بكر وقد توفي سنة 1046 هـ (1637 م) بعد أن عاش حوالي ثمانين سنة . وفي أيام محمد بن أبي بكر امتد نفوذ الدلائيين إلى جنوب الأطلس الكبير ، وطلب بنو الزبير من تبوعصامت بتافيلالت أن يساعدهم ضد مولاي الشريف وسيدي علي بن محمد السملالي ، غير أن الجيشين تقابلا عند سجلماسة من غير قتال سنة 1041 هـ (1632 م) .

ولقد أصبحت الزاوية الدلائية في عهد محمد بن أبي بكر مركزاً سياسياً ودينياً وعلمياً في آن واحد . وكانت الدراسة لا تنقطع بها . أما ثقافة محمد بن أبي بكر فكانت تتناول خصوصاً العلوم الدينية ،حيث نبغ في التفسير والحديث والفقه ، واتصل به عدد من كبار العلماء كمحمد ميارة وابن عاشر وأبي العباس المقري . وكان سكان المغرب يتواردون عليه في عيد المولد فتلقى بين يديه القصائد والأمداح النبوية ويجيز عليها .

محمد الحاج (1046 — 1079 هـ / 1637 — 1668 م)

هو أبرز رؤساء الزاوية وأطولهم عهداً ، لقب بالحاج لأنه حج مراراً مع والده وجده ، وقيل إنه أمّ بالناس مرة في يوم عرفة ، وهو ابن محمد بن أبي بكر .

وفي عهده امتدت سلطة الدلائيين إلى مكناس وفاس وكل مناطق تادلا ، وهو الذي هزم جيش محمد الشيخ الأصغر في بو عقبة سنة 1050 هـ . وقد توافد عليه الأندلسيون من سلا فارين من انتقام العياشي الذي استصدر فتاوي بتكفيرهم . ولما انتصر العياشي على جيش البرتغال سنة 1640 م ، زحف نحو سلا فطلب الأندلسيون مساندة الدلائيين الذين حاولوا فض النزاع سلمياً بين

العياشي والأندلسيين ، ولكنه تمسك بقتالهم ، فأشهر عليه الدلائيون الحرب ، وبعد انتصارات متعددة كسبها العياشي هزموه في أزغار ، ثم اغتاله الخلط سنة 1051 هـ كما تقدم . وهكذا تمكن محمد الحاج من الاستيلاء على سلا وأكثر ناحية الهبط ، وأنزل حامياته بأصيلا والقصر الكبير وسلا التي أنزل بها قوة كبيرة لمراقبة الأندلسيين ومهاجمة نصارى المعمورة ، واستعمل عليها ولده عبد الله الحاج .

وأثناء ذلك ، كان العلويون يمدون نفوذهم إلى أعالي وادي ملوية ، وبعد معارك متوالية ألجأهم الدلائيون إلى سوس سنة 1050 هـ (1641 م) فأصبح محمد الحاج سيد تافيلالت ودرعة والصحراء ، ثم حاول الفريقان أن يخططا حدوداً تفصل بين مناطق نفوذهما وهي أن يكون ما بين الصحراء وجبل عياش في ملك العلويين ، وما وراء الأطلس الكبير في ملك الدلائيين ، ولكن ما لبث النزاع أن احتدم من جديد بعد أن نشبت ثورة بفاس على عامل الدلائيين أبي بكر التاملي ، فاستغاث سكان فاس بمولاي محمد الشريف ، ولكن سرعان ما انهزم أمام محمد الحاج الذي عين على المدينة عاملاً جديداً هو ابنه أحمد سنة 1061 هـ ، وقد ضبط شؤونها هو وأخوه الذي ولي بعده .

وفي هذه الأثناء ظهر الثائر الخضر غيلان أحد رفقاء العياشي . ظهر بالهبط واحتل القصر الكبير سنة 1063 هـ ، وتتابعت قبائل الغرب تخضع لنفوذه ، بينما قتل مولاي محمد في معركة مع أخيه مولاي الرشيد سنة 1075 هـ بعد أن اغتيل بمراكش آخر ملوك السعديين سنة 1069 هـ ، ثم سقطت فاس في قبضة مولاي الرشيد سنة 1076 هـ . واشتبك الدلائيون في حروب متوالية مع الرشيد إلى أن احتل زاويتهم سنة 1079 هـ (1668 م) . وبقي محمد الحاج مكرماً مدة بفاس إلى أن ذهب هو وأسرته إلى تلمسان بطلب من السلطان رشيد . وكانت وفاته بتلمسان سنة 1082 هـ ، ودفن بضريح محمد السنوسي . وهكذا

قضت أسرة الدلائيين قرابة ثلثي القرن الحـادي عشر في حكم جزء كبير من المغرب . وكانت جهودها السياسية تمثل آخر محاولة لإعادة صنهاجـة إلى الحكم ، بعـد محاولات بني غانية وبني وطاس (إذا ثبت أن الأخيرين صنهاجيون وهو ما نرجحه) .

وقد أمكن للدلائيين بفضل نفوذهم على عدد من موانىء المغرب خصوصاً ميناء أبي رقراق أن يعقدوا بعض المعاهدات مع دول أجنبية وخصوصاً هولندا التي كانت قد اتسعت تجارتها الخارجية في هذه الحقبة .

★ ★ ★

5 - عوامل سقوط الدولة

لقد توافر من عناصر سقوط الدولة السعدية أكثر مما توافر في عهـــد الدول الماضية . فقد تفاقم خطر التدخل الأجنبي براً وبحراً ومن كل جهات المغرب عدا الجنوب . ولم يكن يكفي في هذه الظروف أن تتولى شخصية ذات كفاءة عليا أمر الملك لتصلح البلاد ويلتئم شملها . بل كان لا بـد مع ذلك أن تخف أطماع الدخلاء لتتفرغ هذه الشخصية المرموقة للشؤون الداخلية ولكن الدولة السعدية مع الأسف لم تسعفها الظروف لا بملوك أكثرهم أهل الملك ، ولا بالأمن من كل خطر أجنبي . وهنا ما يمكن بسطه فيما يلي :

1) **مشاكل العرش :**

كل الملوك السعديين قبل المنصور اهتموا بوضع الأسس الحقيقية للدولة ولكن المتوكل أحدث مشكلة وراثة العرش قبل أن تقف الدولة على أقدامها ، وأخطر من ذلك أنه لجأ في حلها إلى التدخـــل المسيحي . أما المنصور فعلى الرغم من الأمجاد التي حققها في مختلف الميادين ، أساء إلى الدولة نفسها بتوليته العهد أحد أسوأ أبنائه سيرة ، ففتح بذلك خرقاً استحال رتقه ، وقضت الدولة قرابـة نصف عمرها في نزاع مسلح على العرش منذ وفاة المنصور ، وهـذا النزاع عطل كل جهود الدولة تقريباً عن العمل السلمي المجـــدي وعن مواجهة المحتلين الدخلاء ، وكان تقسيم المغرب بين أبناء المنصور أكبر مشجع لهم على التمرد وعدم الامتثال للملك المنصب .

2) **الاعتماد على العلوج في الجيش :**

كانت القيادة العسكرية كثيراً ما توكل إلى العلوج ومن على شاكلتهم كالمملوك عجيب وجوذر وأشباههما . وكان في الجيش عناصر مسيحية كثيرة من عدة أجناس ، مما جرأ أدعياء العرش على أن يستنجدوا مراراً بالمسيحيين ، وبذلك فقدت الثقة في العناصر الوطنية التي كانت توجد في الغالب تحت قيادة أتراك أو

مرتزقة من أصل مسيحي . وقد رأينا كيف كان مصير عدد من ملوك هـــذه الدولة على يد الأتراك كمحمد المهدي وعبد الملك بن زيدان ، والوليد بن زيدان . أما الأتراك فكان منهم كثير في الجيش ، وهم أيضاً قاموا بدور ملحوظ في الدس للدولة وإحباط كل خطة تهدف إلى تقويتها وتركيز دعائمهـا كما فعلوا في تسميم عبد الملك المعتصم والاتصال سراً بأتراك الجزائر وقتل المهدي الشيخ .

3) التدخل الأجنبي :

كان التدخل الأجنبي من عوامل قيام الدولة ، كما كان من عوامـل سقوطها أيضاً فمنذ بدأ القائم بنشاطه السياسي تصدى لحرب البرتغال الذين لم يتوقف الصراع ضدهم إلا في عهد المنصور ليستأنف بعده على يد الصوفية . وقد تبنى فيليب الثاني سياسة الدس والحقد التي سلكها البرتغال من قبل ومن بعد ، فدبر مع الثائر محمـد الشيخ الخطة للاستيلاء على العرائش . ثم استولى فيليب الثالث على المعمورة . وتعاون الإسبان أحياناً مع الموريسكيين على حساب المغرب ، ولولا محمـد العياشي والدلائيون لفقد المغرب كل مؤانئه على الأقل . أما الباب العالي فلم يستطب أن يشذ المغرب عن الاعتراف بالسيادة العثمانية ، وراح يدبر المكيدة لقتل المهدي بينما غزا جيشه أرض المغرب سنة 965 هـ من غير أن يحالفه الحظ ، ولكن المنصور وأخاه عبد الملك اضطرا إلى الاستنجاد به لخلع المتوكل سنة 983 هـ ، ودخلت القوات التركية من جديد لتخلع ملكاً وترفـع آخر إلى العرش . ثم كانت المحاولة الأخيرة من الباب العالي في تهديد عرش المغرب منذ تولية المنصور الذي عرف كيف ينقذ الموقف ، فبادر بتوجيه بعثة ود مصحوبة بأنفس الهدايا إلى الخليفة العثماني ، وتوالت الصعوبات بعـــد ذلك على العثمانيين الذين انشغلوا بحرب الدول الأوروبية وبصراع الإسبـان في الجزائر ، وبذلك أمن المغرب جانب الخطر التركي إلى حين .

4) الحركات الاستقلالية :

كانت الحركات الاستقلالية نتيجـــة لضعف الملوك عن ضبط شؤون الدولة ومواجهة التدخل الأجنبي ، وبدأت هذه الحركات تبرز إلى الوجود بسبب ثورة

أبي فارس ومحمد الشيخ ، وعلى كل حال فقد أدت إلى إضعاف هيبة الدولة وحدّت من مواردها ومزقت صفوفها . وعلى الرغم من أن محاولات التمرد ظهرت في عهد المنصور ، إلا أن هذا الأخير كان يقضي عليها في مهدها لولا أنه كان ضعيفاً جداً في موقفه تجاه ابنه محمد الشيخ .

أما باقي حركات الانشقاق فكلها تقريباً كانت تحت قيادة الصوفية . وكان من الصعب في بلد متمسك بتقاليده الدينية كالمغرب أن يبرز فيه زعماء ذوو نفوذ قوي من غير أن يكون لهم سند ديني ، فكان الصوفية والحالة هذه أحق الناس بقيادة الجهاد . وكان كل ثائر لا يستند إلى نفوذ روحي يستحيل عليه أن يجد في أوساط الشعب آذاناً صاغية . ومن المؤسف أن المؤرخين الأجانب كثيراً ما يضعون قضية الصوفية كمشكل سياسي عجزت أكثر دول المغرب عن حله . مع أن الصوفية لا يتطور اتجاههم إلى حركة سياسية وعسكرية إلا عندما تختل أوضاع الدولة الحاكمة ويحيد ملوكها عن سبيل الشريعة ويقفون موقفاً سلبياً من خطر التدخل المسيحي مع أن واجبات هؤلاء كانت سياسية ودينية معاً .

ومن الاتجاه الذي اتخذته حركة العياشي والدلائيين وثورة ابن أبي محلى وأبي حسون السملالي نفهم أن هؤلاء جميعاً قد دفعهم إلى الانفصال منذ البداية لا حب الملك والرئاسة ، ولكن أداء الواجب الديني الذي هو إما جهاد النصارى وإما العمل على جمع شتات المسلمين وتوجيههم توجيهاً سليماً في الميدان الروحي بعد أن لمسوا في بعض ملوك الدولة ما لمسوه من سوء أخلاق وخروج عن الفضيلة وهم ليسوا إلا مثالاً للرعية على كل حال .

5) السياسة المالية :

أكثر السعديون من الضرائب التي أثقلت كاهل الشعب . وكان السكان ينتظرون ظهور أول فرصة تسنح ليمدوا يدهم إلى أي شخص يمكن أن يعمل على تخفيف الضرائب عنهم . وقد كانت فاس مثالاً بيناً على ما كان سكانها يأملونه من تغيير في السياسة المالية . وكانت ثروة أهلها تشجع الملوك والحكام على مصادرتهم وإلزامهم بالمساهمة بنصيب عظيم في النفقات العسكرية .

6 - أهمية أعمال الدولة

وقف السعديون بكثير من الشدة في وجه الخطر المسيحي والتركي على السواء، وذلك إلى غاية وفاة المنصور، ووفقوا عدة مرات في صد الهجوم الأجنبي، ويكفي أن معركة وادي المخازن قد أعادت للمغرب اعتباره في الخارج والداخل على السواء.

ولحسن الحظ فإن السعديين لم يبقوا مكتوفي الأيدي أمام تطور الأساليب العسكرية في دول أوروبا، فجهزوا جيوشهم بأحدث الأجهزة المعروفة في ذلك العصر، واتخذوا الجيوش النظامية، وعملوا على تدريبها أحسن تدريب.

وكانوا أذكياء في علاقاتهم الديبلوماسية، ففتحوا موانئهم للتجارة الأجنبية، واقتادوا من دول أوروبا آلافاً من الأسرى وتردد مبعوثوهم بين المغرب وتركيا والشرق الإسلامي وهولندا وانجلترا والبرتغال وغيرها، ولكن كان ينقصهم في الغالب وزراء ذوو شخصية يمكنهم أن يحدثوا توازناً في سياسة الدولة كلما بدرت بادرة ضعف وأن يسدوا النقص الذي اتسم به سلوك عدد من الملوك.

وقد كان الملوك الأولون ذوي طموح سياسي عال، فذهبوا في تحركاتهم العسكرية متوغلين في الجزائر وفي وسط افريقيا، فاكتسبوا بذلك مزيداً من الهيبة في الخارج ولو أنهم لم يوفقوا إلى طرد النصارى كلياً من المغرب.

واقتبس السعديون عن الأتراك عادات وأنظمة جديدة، فقلدوهم في الزي والاستقبالات والحفلات والتنظيم العسكري. وبلغت التجارة الخارجية أقصى ما تكون رواجاً إذا قيست بما كانت عليه في عهد دول المغرب الماضية، كما نشطت الحركة الصناعية نشاطاً ملموساً، وضرب الملوك أحسن مثال في الأخذ بنصيب وافر من المعرفة والثقافة، كما شجعوا رجال الفكر وأنشأوا الخزائن ونشروا العلم.

7 ـ السياسة الداخلية

1) احترم السعديون جانب الصوفية بوجـــه عام ، ولكنهم عجزوا عن إخضاع أخطر حركاتهم وهي حركة العياشي والدلائيين .

2) بطش عدد من الملوك بأفراد أسرتهم ، وكانوا لا يتورعون عن سفك الدماء أحياناً من غير مبرر .

3) قام السعديون بالتنظيم العسكري لجيوشهم ، ولكنها كانت في الغالب دون الكفاية من حيث العدد،وكانت العناصر الوطنية تمثل دور التبعية بالنسبة للعناصر الأجنبية ، وأبرز قادة الجيش غير عرب ولا بربر .

4) لم يعتمد السعديون على هيئة سياسية وطنية تساندهم في تدبير الشؤون وتشير عليهم بمـا تقتضيه مصلحة الدولة ، ولسوء الحظ فإن محاولة المنصور لم تتكرر ، إذ من المعلوم أنه أسس مجلساً استشارياً كان يجتمع بصفة دورية ولا نعلم عن مصير هذا المجلس شيئاً بعده .

5) قامت الدولة على عاتق أهل سوس الذين ناصروهـا بالدعاية وبالرجال والأموال وكانت أول ضريبة فرضها ملك سعدي تؤدى بإقليم سوس،ولكن السوسيين الذين لم يتحملوا الخضوع لملك غير محظوظ وهو زيدان ، لم يلبثوا أن انقلبوا على الدولة بزعامة أبي‌حسون السملالي خصوصاً وقد فقد الملوك السعديون كثيراً من الحماس الديني الذي امتاز به الأولون منهم .

6) لم تستند الدولة إلى عنصر قبلي أو مذهبي معين سوى النسب العلوي ، بل استندت إلى العون الإقليمي الذي أمدها به السوسيون كما تقدم .

7) قامت سياسة الدولة المالية على توحيد الضرائب وأداء قيمتها بالعملة ، وكان هذا إصلاحاً جذرياً ،ولكن فداحـــة الضرائب وكثرتها أثارت أزمات اقتصادية وأغضبت السكان الذين كانوا ضحية لمطامع الملوك .

8 - علاقات المغرب الخارجية[1]

1) مع البلاد العربية :

كان المنصور السعدي أكثر ملوك دولته اهتماماً بربط العلاقات مع الدول العربية بوصفها دولاً إسلامية . وكان في جملة من وفد عليه بعد انتصار المغرب في معركة وادي المخازن وفد عن مصر وآخر عن تونس بقصد التهنئة . وكان المنصور لبقاً فمتن علاقاته بمصر عن طريق استجازة علمائها ليكتسب بذلك مزيداً من السمعة . وكان ممن أجازه الإمام محمد البكري وبدر الدين القرافي ، وقد أورد الناصري نص إجازة الأول ، وبعضاً من إجازة الثاني فلا حاجة إلى نقل ذلك هنا ، وقد كانت له معهما مراسلات عديدة حتى كان يخبرهما بفتوحاته ، وقد أوصاهما مرة بمساعدة بعض من بعثهم لشراء كتب لخزانته .

كما كتب إلى أمير مكة والحجاز حسن بن أبي نمى إيصاء لصالح رئيس الركب المغربي في الحج ، ومما جاء في هذا الخطاب بعد الديباجة :

« ... هذا وإن شيخ الركب المغربي وهو المرابط الخيّر الحاج محمد بن عبد القادر ، لما أزمع إلى المعاهد الشريفة الرحيل لتجديد رسم الطاعة الذي ليس بعافٍ ولا محيل ، وهبّ له من محارم الله نسيم جميل ، وآن للمطايا أن تعمل

---

(1) أنظر كتاب الاستقصا ـ درة الحجال لابن القاضي ـ النفحة المسكية للتمكروتي ـ تاريخ تطوان للأستاذ داود ـ مجلة تطوان ـ

Histoire du Maroc (Terrasse) - Hespéris - la Petite Hist. du Maroc (J. Caillé). Sources Ynédites (De Castries) -

نزهة الحادي لليفريني ـ معطيات الحضارة المغربية لعبد العزيز بنعبد الله ـ

Lebel : les Voyageurs Français - Ch. André Julieu ; Histoire de L'Afrique du Nord.

الوخد والذميل ، مَدّ إلى عَلِيّ مقامنا أكف الرغبة في كتاب كريم يتشرف بحمله ، ويتعرف منـه السعادة بحول الله في مرتحله وحله ، يتضمن الإيصاء به إليكم في المورد والمصدر، ومدة مقامه من جواركم بحرم الله تجاه البيت والمشعر، فحملناه هــذه العجالة لترعوا له إن شاء الله عنها الحق المعتبر ، وتولوه من جانبكم بما يصدق به الخبر وتُدنوا له من آماله قطوف كل فن مهتصر ... »

ثم طلب منه بعد هذا أن يدعو له بالبيت الحرام ، ومما ورد في ذلك قوله :

« ... أن يؤيدنا الله على عدو الدين بفضله ، وينجز لنا وعـده الصادق في إظهار دينه على الدين كله ، ويسهل لنا بفضله ومعونته أسباب فتح الأندلس وتجديد رسوم الإيمان بها ... » .

والفقرة الأخيرة تؤكد ما كان للمنصور من رغبة ملحة في فتح الأندلس وفي توسيع فتوحاته بوجه عام .

وممن ترددوا من المغاربة على البلاد العربية بقصد الدراسة :

1) محمد بن علي الدادسي (999 هـ) وقد درس على الصفوي المقدسي .

2) أبو القاسم بن سلطان وهو قسنطيني الأصل ، وقـد درس بالمغرب على أحمد المنجور وبالمشرق على أبي زيد التاجوري وأبي الحسن البكري وغيرهما .

3) محمـد الجزولي الدرعي سفير المنصور (988 هـ) درس على ابن فهد في مكة وعلى محمد العلقمي ونجم الدين الغيطي بمصر .

2) مع الدولة العثمانية :

دشنت العلاقات العثمانية المغربية بعهد محمد الشيخ المهدي منـذ أن التجأ أبو حسون الوطاسي إلى الجزائر ، فعمد محمـــد المهدي إلى غزو تلمسان سنة 957 هـ (1551 م)، وكان رد الأتراك أن احتلوا فاساً في صفر 961 هـ ونصبوا أبا حسون، ولكن لم يلبثوا أن انسحبوا بعد أن حصلوا على تعويضات هامة . وفي سنـة 964 هـ (1557 م) تَمّ اغتيال محمد المهدي على يد جماعة من فتـاك الأتراك الذين أرسلهم السلطان سليمان القانوني وساعدهم على ذلـــك ضابط التحق من الجزائر

لنفس الغاية بجيش المهدي . وكان السلطان العثماني قد بعث إليه بوفد يهنئه بملك فاس ويطلب منه الدعاء له على منابر المغرب ، فأنف من ذلك ورد الوفد أسوأ ردّ . والواقع أن تركيا حاولت منذ عهـد سليمان القانوني أن تقضي على الملوك السعديين أو على الأقل أن تخضعهم ، وظلت على ذلك مـدة مائة سنة وكانوا يعرضون مساعيهم الحميدة لمجرد نزاع تافه عن طريق العون المادي ومقابل صك اعتراف بسيادة الباب العالي (1) .

وقد هاجم الأتراك المغرب بقيادة حسن بن خير الدين باشا ولكنهم انهزموا عند وادي اللبن وذلك في عهـد الغالب سنة 965 هـ ، ولم يقبـل الغالب بدوره الاعتراف بالخلافة العثمانية .

أما عبد الملك وأحمد المنصور (أخوا الغالب) فقد التجآ منذ وفاة والدهما إلى البلاط العثماني الذي أمدهما بجيش قوامه خمسة آلاف مقاتل من أتراك الجزائر ، وبفضل هذا الجيش احتل عبد الملك فاساً ، بينما انسحب الأتراك مقابل تعويضات التزم الأخوان من قبل بأدائها وكان ذلك سنة 983 هـ .

وقد دشن المنصور علاقاته بالبلاط العثماني كملك بمجرد تنصيبه ، فكتب يبشره بهزيمة المسيحيين في معركة وادي المخازن سنة 986 هـ ، وحينئذ بعث إليه السلطان مراد بتهانئه التي حملها وفداً خاصاً مع هدية هي عبارة عن سيف صقيل محلّى . ولمّا كانت الوفود الأخرى قد قدِمت بهدايا أعظم وأهم ، فإن المنصور لم يراع مقام الوفد العثماني ، وكان من عادة المنصور أن يتقبل الهدايا ويحتفـل لذلك أعظم احتفال . وقـد أغضب هذا الموقف الخليفة العثماني خصوصاً وقد أوعز إليه الرئيس علي علوج قائد الترك بالجزائر أن يأذن له بمحاربتـه وطلب لذلك تجهيزاً إضافياً . إلا أن المنصور بادر يعتذر عن غلطه على لسان كاتبه أحمد ابن يحيى الهوزالي الذي حمـل إلى الخليفة العثماني هدية عظيمـة من المنصور . ثم ترددت الوفود بعـد ذلك بين المنصور والباب العالي وبقيت العلاقة بينهما

---

(1) Auguste Cour, L'établissement des dynasties des Chorfas au Maroc, P, 155

حسنة إلى وفاة المنصور . وقــد كررنا ذكر هذه النقطة هنا لأهميتها .

ومن أهم وفود المنصور إلى تركيا سفارته التي ترأسها أبو الحسن التمكروتي الدرعي الذي قضى بها حوالي سنتين . وقد خصص لرحلته إلى تركيــا كتاباً ضمنه ارتساماته ومشاهداته خلال القيام بمهمته هذه من سنة 997 إلى 999 هـ ، وسيأتي تلخيصها بإيجاز في موضوع الحركة الفكرية . على أن أبا الحسن هذا لم يتمكن من مقابلة السلطان العثماني إلا مرتين الأولى إثر قدومه والثانية قبـل رجوعه ، وقد عاد مصحوباً برسل الخليفة العثماني مع رسالة وهدايا إلى المنصور ، وقد فترت العلاقات المغربية التركية بعد موت المنصور بسبب المشاكل الخاصة التي شغلت كلاً من الطرفين .

3) مع البرتغال واسبانيا :

منذ سنة 920 هـ دشن القائم بأمر الله عهد الصراع بين السعديين والبرتغال ، وكان البابا قد خوّل للبرتغال حق فتح البلاد المغربية ، وكانوا في الواقع قـد دشنوا احتلالهم للمراكز المغربية بالاستيلاء على سبتة منذ عهـد المرينيين سنة 818 هـ ، وتوالى فتحهم للموانىء بعد ذلك . وقـد وفق أبو العباس الأعرج في طردهم من آسفي سنة 933 هـ (1526 م) ومن أكادير 947 هـ (1541 م) .

وبمجرد القضاء على الوطاسيين عقـد محمد المهدي حلفاً مع الإسبان يتعاونان بموجبه على طرد الأتراك من الجزائر ، ولكن عدم تبادل الثقة بين الطرفين لم يضمن أي نتيجة مرضية ، وواصل الغالب بالله محالفة الإسبان حيث تمكن بفضل مساعدتهم من احتلال تلمسان لمدة قصيرة 967 هـ (1560 م) . أما محمد المتوكل فقد حالف البرتغال قبيل معركة وادي المخازن على أن يتخلى لهم عن الموانىء المغربية ويحتفظ هو بالداخل في مقابـل مساعدته على استرداد ملكه . ولكن هزيمة البرتغال سنة 986 هـ (1578 م) وضم مملكتهم إلى اسبانيا حتى سنة 1640 م جعل علاقات المغرب مع شبه الجزيرة الإيبيرية تدخل في طور جديد ، فكان الوفد الإسباني في مقدمة الوفود التي هنأت المنصور بالانتصار وقدم بهدايا عظيمة إلى المنصور سنة 1579 م كانت تقودها العربات ، كما كانت هدية الوفد الإسباني

تنافسها قيمـــة وكان ضمنها صندوق من الدر ويواقيت وقضبان من الزمرد .

وكان رئيس الوفد الإسباني حاكماً سابقاً بمليلية ،وكان من المهمات التي كلف بها مفاوضة المنصور بشأن تسليم العرائش إلى فيليب الثاني ! وكان المتوكل قد وعد بها دون سباستيان فيما سبق ، وقد نزل الوفد بأسفي ، ثم بعث المنصور بأحـد قواده لمرافقته إلى مراكش ، وعلى أبواب أسفي اتصل القائد في ستمائة من الجيش المجهز بالمدافع بالسفير الإسباني الذي تقدم الموكب ثم تبعـه القائد والحرس ، واستغرق سيرهم ستـــة أيام في حرارة شديدة ، وكان في استقبالهم أوروبيو العاصمة وحوالي مائتين من جنود اللفيف الأجنبي يتقدمهم القائد رضوان ومعـه عشرون قائداً، وبعد تبادل السلام الودي سار الحاجب رضوان مع السفير جنباً إلى جنب ، ثم وضع تحت تصرف هذا الأخير ثلاث دور فخمة ، ووجدوا ست موائد قد جهزت على الطريقة الإسبانية ،وأخيراً استقبل الوفد من طرف المنصور الذي كان يحمل سيفاً وخنجراً من ذهب ويتزيى هو وحاشيته بالزي التركي وكان في عنقه طوق من الذهب مرصـــع باللآلي والجواهر . وصحب السفير ترجمانه وعدد من موظفيه ومعه قريبان له ، واستقبل الخليفة السفير وقريبيه ووصيفيه ، وبعد أن أدى السفير التحية أبلغ المنصور تشكرات فيليب له على إرجاع جثة دون سباستيان ، وأنه قدم له باسم ملكه كمية من الحجارة الكريمة كدليل على المودة لا كجزية ، ثم تسلم القائد رضوان الهدية،وبدأ الخليفة يريها لحاشيته قطعة قطعة وهو يظهر ابتهاجه وارتياحه ، وبعـــد ذلك قدم إليه السفير رسالة من فيليب الثاني وقبل هو وقريباه ووصيفه يد الملك . وقـد استقبل من طرف المنصور مرتين أخريين بعد هذه. وظلت العلاقة طيبة بين إسبانيا والمغرب طيلة عهد المنصور،وتنازلت الأولى عن أصيلا التي سلمتها إلى المغرب رسمياً سنة 1592 م، وكان المنصور مع ذلك قد حاول أن يتعاون مع إنجلترا منذ سنة 1595 م على غزو إسبانيا ، إلا أن وفاته ووفاة اليزابيث ملكة انجلترا حالت دون قصده .

وفي سنة 1019 هـ (1610 م) تخلى محمد الشيخ المامون الثائر على أخيه زيدان، عن مدينة العرائش لإسبانيا وبذلـك حققت إسبانيا حلماً راودها قبـل ذلك

بسنين ، إذ كانت العرائش أعظم ميناء بالمغرب ، وقد أثار ذلك غضب الشعب المغربي ، ولم يلبث المامون أن اغتيل بالشمال سنة 1022 هـ (1613 م) ، وفي هذه السنة بالذات استولى الإسبان في عهـد فيليب الثالث على المعمورة (المهدية) ، وقد قام العياشي بدور مجيد في غزو المراكز التي احتلها الإسبان والبرتغـال وأمكنه على الأقل أن يحدّ من توسع هؤلاء ،وقد احتفظت إسبانيا بعد استقلال البرتغال سنة 1049 هـ (1640 م) بالعرائش وسبتـة والمعمورة ، بينما احتفظت البرتغال بالجديدة وطنجة .

4) مع فرنسا :

لم تكتس العلاقة في هذا العهد بين فرنسا والبلاط السعدي صفة ديبلوماسية على الدوام ، فقد تتناول أحياناً مسألة تبادل الأسرى أو استخدام بعض الرعايا الفرنسيين كأطباء أو فنيين ، ومهما يكن ،فإن العلاقة بين المغرب وفرنسا ترجع إلى أيام علي بن يوسف [1] المرابطي .

وقد تعرف الملك المعتصم خلال مقامـه بالجزائر كلاجيء ، بفرنسي يدعى لويس كابريط أحد أرباب السفن المغامرين ، ولما تولى المعتصم أسند إليه مهمـة تبليغ رسالة إلى هنري الثالث الفرنسي يخبره فيها بتنصيبه وكان ذلك سنة 1576 م ، وحينما كان المعتصم بالقسطنطينية اتصل به حلاق جراح يدعى « غيوم بيرارد » فعالجه من مرض كان به سنة 1574 م ، ثم صار طبيباً رسمياً له بعد أن تولى الملك ، وندبه المعتصم سنة 985 هـ (1577 م) لعقد اتفاق بينه وبـين فرنسا ، كما تدخل في نفس الوقت لدى هنري الثالث لاعتماده قنصلاً لفرنسا ، وقد وافق هنري على هذا الطلب ، وصار غيوم أول معتمد دائم لهذه البلاد بالمغرب .

ولمّا حدثت ثورة ابن أبي محلى 1022 هـ (1613 م) والتجأ السلطان زيدان إلى آسفي مرافقاً بعض أمتعته عهد بنقل ثلاثة آلاف كتاب إلى القنصل الفرنسي بآسفي واسمه جان فيليب كاسطيلان الذي كانت له سفينة بميناء هذه المدينة ،

---

(1) أنظر موضوع العلاقات الخارجية في عهد بني مرين في هذا الكتاب .

وكان الاتفاق بينهما على نقـل الأمتعة والكتب من آسفي إلى أكادير مقابل ثلاث آلاف دوكة ، غير أن السلطان لم يؤد المبلغ قبل إنزال الشحنة بأكادير ، فرفض رب السفينة التفريغ قبل تسلم المبلغ ، ثم عاد متجهاً بالأمتعة والكتب نحو فرنسا ، ولكنه ما كاد يقرب من سلا حتى سطت على سفينته بعض البواخر الإسبانية ، وأثنـــاء ذلك بعث زيدان بأحمد الجزولي سفيراً عنه إلى فرنسا لاسترجاع الأمتعة وذلك قبل أن تسقط في أيدي الإسبان ، وكان يرافقه ناصر الكارطة وعدة خدم ، ونزل السفير أولاً بهولندة،أما فرنسا فقد رفضت مطلقاً استقبال المبعوث المغربي ، وحتى مساعي هولندا لم تجد لدى البلاط الفرنسي ، وعاد أحمد الجزولي من هولندا من غـــير جدوى . وهكذا سلّمت الكتب إلى فيليب الثاني الذي حبسها على كنيسة عظيمة بناها بالإسكوريال قرب مدريد .

وفي سنة 1029 هـ (1619 م.) قدم « كلود دي ماس » الفرنسي بقصد تحرير أسرى بلاده ، فاشترط زيدان حل مشكلة أمتعته أولاً ، فعاد دي ماس يرافقه سيدي فارس كمبعوث مغربي ، ولكن هذا المبعوث احتجز في الدار التي نزل بها ومنـــع من الخروج منها مدة أربعة أشهر وعاد هو أيضاً من غير فائدة .

وكان في بلاط زيدان فرنسي يدعى انطوان دو ساليت الذي عمل في كل من فرنسا والمغرب كعسكري أو ربان أو قرصان وأحياناً سفيراً أو مهندساً أو مستشاراً فنياً ، وظل نديماً للسلطان اثني عشر عاماً ، كما كان في بلاطه أيضاً شخص يدعى سان ماندريى الذي أتى في البداية مبعوثاً عن دوق سافوا لمحاولة إقناع المجاهدين ببسط حماية سافوا على المعمورة ، ثم صـار مستشاراً لزيدان ، وقيل إنه عمل على تحسين وسائل صناعة السكر عن طريق التصفية ، كما أنشأ بالمغرب صناعة مسحوق البارود .

وقد بدأ إرسال المبعوثين الرسميين الفرنسيين إلى المغرب في عهد محمد الشيخ المهدي، حيث قدم إلى المغرب سنة 949 هـ (1543 م) مبعوث عن فرانسوا الأول ويدعى باكلون جان بغيـة مفاوضة المهدي في أن يقدم إلى فرنســا كميات من القصدير مقابل المواد اللازمة لصناعة المدافع .

وفي سنة 966 هـ (1559 م) افتتحت مفاوضات بين عبد الله الغالب وملك نافار حول حلف عسكري بين الطرفين ، ذلك أن الغالب طلب من انطوان دو بوربون أن يجعل تحت تصرفه 500 جندي مسلحين مقابل تسليم القصر الصغير إليه ، وهو مرسى صغير بين طنجة وسبتة أخلاه البرتغال سنة 967 هـ (1550 م) وكان من الشروط أيضاً أن تزود المدينة بحامية مغربية وأن يسمح السلطان بعقد سوق أسبوعية بها وتسخير الوسائل اللازمة للعمال والفنيين النصارى ، ويكون المرسى كمركز انطلاق هجومي يوجه ضربته إلى السفن التي تحاول اغتصاب التراب المغربي .

ولم تقتصر بنود الحلف المقترح على هذه الشروط فقط ، بل تضمنت السماح للبواخر الفرنسية بالرسو في الموانيء المغربية مقابل السماح للسفن المغربية بالرسو في موانيء فرنسا . ومن أجل تحقيق هذه الشروط التي تراضى عليها الطرفان مبدئياً ، قدم مبعوث عن أمير نافار سنة 968 هـ (1560 م) إلى المغرب وهو مونتفور مع وسيط برتغالي ، ولكن القصر الصغير لم يتم تسليمه على الرغم من أن الأمير زود السلطان المغربي ببعض الفنيين والأسلحة .

وبعث شارل التاسع سنة 969 هـ (1561 م) مبعوثاً يدعى روبير بوردو الذي كان تاجراً ، وذلك من أجل مفاوضة الغالب في شأن احتكار فرنسا لتصدير النحاس والسكر ، إلا أن الحروب الدينية بفرنسا وسائر أوروبا أوقفت هذه المفاوضات .

وفي سنة 985 هـ (1577 م) عين غيوم بيرارد قنصلاً عاماً لفرنسا بصفة رسمية لدى عبد الملك المعتصم،وظل غيوم بيرارد في نفس الوقت طبيباً رسمياً للسلطان إلى وفاة هذا الأخير . وكانت مهمته السياسية الأساسية ، هي حماية السفن الفرنسية والتجارة الفرنسية من حركة الجهاد البحري ، وقد نجح في حمل الموريسكيين عن طريق تدخل السلطان على إرجاع عدد من البواخر الفرنسية إلى أربابها،ولكنه كان يلاقي صعوبات من مواطنيه التجار في استخلاص ضريبة اثنين في المائة ، المفروضة على جميع البضائع التي يصدرها الفرنسيون من المغرب

وغيره ، وتمثل تكاليف القنصلية . وكان غيوم شـــأن خلفائه ، يزود بلاده بمعلومات عن معاملات المغرب مع دول أوروبا ، وفاوض السلطان سنة 987 هـ (1579 م) حول سلف من المغرب لفرنسا وتزويد هذه بأربعة آلاف طن من النحاس والفولاذ ، و 2500 طن من ملح البارود ، ولم تؤد مفاوضاته هـذه إلى نتائج إيجابية ، ولكنه مع ذلك أحسن تمثيل بلاده التي ظل ممثلا لها بالمغرب إلى سنة 997 هـ (1589 م) .

وفي سنة 996 هـ قدم ليل أرنول ليخلف غيوم بيرار الذي يمكن أن يكون قد تأخر بالمغرب حوالي سنة بعد ذلك، ثم حضر أرنول مرة أخرى سنة 1015 هـ (1606 م) كقنصل أيضاً ، وظل بالمغرب إلى سنة 1607 م حيث قام بمفاوضـة الموريسكيين في تحرير أسرى بلاده التي كان ملكها آنذاك هنري الرابع .

وكان ممثلو فرنسا بالمغرب بعد هذا التاريخ جان فيليب كاسطيلان الذي أفسد العلاقات بين البلدين بسبب قضية أمتعة زيدان وكتبه ، وقد تقدم ذكرها ، وورد بعده جاك فابر يحمل رسالة من لويس الثامن عشر حول تحرير الأسرى الفرنسيين ، ولكن زيدان رفض المفاوضة إلا بعد حل مشكلة الأمتعة ، ثم عمل لحساب السلطان الذي أوفده إلى هولنـدا ليطالب بدين له عليها ، وليسهر على تذويب عدد من المدافع بأحد مصانع روتردام ، وانتهت مهمة هذا الممثل بعد عامين من قدومه الذي كان سنة 1023 هـ (1614 م) .

وفي سنـة 1029 هـ (1619 م) رفض زيدان مفاوضة المبعوث الفرنسي « كلود دوما » حول تحرير الأسرى الفرنسيين ، قبل الحصول على ترضيات بشأن أثاثه وكتبه ، ولكن دوما عاد إلى المغرب في نفس السنة ، فبنى كنيسة بآسفي ، وسلم إلى الإسبان تصميم بناء ميناء « أيِّر » فاعتقله السلطان ، إلى أن مات بعد عام من اعتقاله سنة 1034 هـ (1624 م) .

وفي عهد عبد الملك بن زيدان تم تحرير مائة أسير فرنسي بمراكش وحوض أبي رقراق ، على يد أحد فرسان فرنسا ، واسمه إسحق دو رازيلي . وفي عهد الوليد سنة 1040 هـ (1631 م) عقدت معاهدة سلمية بين لويس الثالث عشر والوليد ،

كان المفروض أن يتم بمقتضاهـا تحرير 180 أسيراً على يد « دوشالار » الذي عاد إلى المغرب سنة 1044 هـ (1635 م) لمفاوضة الوليد وجمهورية أبي رقراق في تحرير كافة الأسرى الفرنسيين . وهكذا وفق إلى تحرير أزيد من ثلاثمائة أسير ، بعد أن أخفق مبعوث سابق في هذه المهمة ، ذلك أن الوليد كلف اليهودي « داود بالاش » بأن يتسلم من لويس الثالث عشر نسخـة من معاهدة 1631 م ممضاة من قبَله ليقدمها إلى العاهل المغربي ، ولكن اليهودي عاد إلى المغرب من غير أن ينجز هذه المهمة ، فبعث لويس الثالث عشر « أنطوان كابيرون » ليقدم للوليد نسخة من المعاهدةالمذكورة ويطالب بمعاقبة اليهوديالذي تهاون في أداءواجبه ، غير أن الوليد اكتفى بسجن اليهودي بالاش ، ولم يقم بالتنفيذ الفوري لنصوص المعاهدة ، مما جعل لويس يرسل مفاوضاً جديداً هو « دوشالار » المذكور الذي أدى مهمته بنجاح .

5) مع انجلترا :

يرجح أن العلاقات التجارية بين البلدين ، تعود إلى أيام محمد المهدي الشيخ ، والوطاسيون لا يزالون في الحكم ففيسنة 1551 م قدمت بواخر بريطانية بقيادة «طوماس ويندهام » فأفرغت مجموعة منالأسلحة والبضائع بآسفي لتوجيهها إلى مراكش ، ثم تابعت طريقهـا إلى أكادير حيث أفرغت باقي البضائع وحملت شحنات من السكر والتمر واللوز ، وعادت إلى لندرة بعد أن أفلتت من قبضة قراصنة البرتغال في طريقها . ثم اتسع نطاق المبادلات التجارية بعـد ذلك ، فبدأت السفن الإنجليزية تجلب إلى المغرب الأسلحة والملف وسائر الثيابالثمينة ، في مقابل منتجاته الخاصة . وكان تصدير الأسلحة وبعض قطع السفن موضـع انتقاد واحتجاج من لدن بعض دول أوروبا خصوصاً البرتغال التي كانت تعتبر المغرب من مناطق نفوذها ! واستمرت العلائق متوترة لمدة طويلة بـين انجلترا والبرتغال بسبب تصدير الأسلحة المذكورة،وتعاون انجلترا معالمغربفيالميدان الاقتصادي ، وأوّلت البرتغال ذلك بأنه مساعدة عسكرية للمغرب على حساب البرتغال التي تضررت من الضغط على مراكزها بهذه البلاد بسبب تقوية الجيش المغربي .

ولم تمض بضع سنوات على أول تعامل تجاري بين المغرب وإنجلترا عن طريق تجار محنكين حتى تكاثرت البضائع الإنجليزية بالأسواق المغربية، نتيجة لتعاطي عدة أشخاص لمهمة التجارة، وفيهم نساجون وصناع وبحارة وغيرهم، وكان يحتكر التبادل باسم المغرب وملكه يهوديان فحسب، وبعد أن كان تجار الإنجليز يتناولون أثمان بضائعهم أول الأمر عملة ذهبية أجبروا على أن يبادلوا البضاعة بالبضاعة، مما جعل جماعة منهم يتكتلون ويطالبون بتدخل ملكتهم سنة 1567 م لتمنع على التجار الذين ليس لهم خبرة، مزاولة نشاطهم ومزاحمتهم للرعايا القدماء. وفي نفس السنة منع عبد الله الغالب استيراد نوع من الثياب الزرقاء من بريطانيا.

ولم يلبث التعامل التجاري بين البلدين أن دخل في طور الرسميات أكثر من ذي قبل، فكتب الغالب إلى إيزابيلا طالباً منها أن تسمح لسفنه التي كان يقودها في الغالب مسيحيون، بحمل البضائع المغربية إلى إنجلترا لترويجها هناك، كما طلب منها أن تزود ربابنته بصك تأمين حتى لا تعترض طريقه السفن الإنجليزية، وجاء في خطاب الغالب قوله:

« الحمد لله وحده، ولا معبود سواه، الواحد الأحد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤاً أحد.

من عبد الله تعالى أمير المؤمنين، المؤيد بالنصر والتمكين، والظفر والفتح المبين، الشريف الحسني، أيد الله بعزيز نصره أمره، وأعز بتأييد نصره وأسعد زمانه المبارك وعصره، وأبقى في مراقي المجد الأسمى فخره، وأعلى أمره في الخافقين وأظهره.

إلى ملكة لنجلطرة وإيرلانظا المعظمة الشهيرة الأثيلة، إيزابيلا بنت السلطان إنريك، سلك الله بها سبيل الخير والهداية، وحفظ صحتها بحسن الرعاية.

سلام على من اتبع الهدى،

أما بعد، فموجب كتابنا هذا إليك، أن خديم أبوابنا التاجر « لوز » رغب منا الكتب إليك في تأمين أجفان صاحبه التاجر سلبدروس نتيس، في قدومه

برسم التجارة لبلادنا ، وانصرافه عنها، بحيث لا يتعرض أحد ممن تحت حكمهم بسوء ولا إذية ، ولا يقرب ساحتهم بمكروه ولا نكاية ، في ورودهم وبعد رجوعهم ، وتعطونهم تأميناً يتصرفون به من غير معارض،فكتبنا إليكم تكميلاً لرغبته وإسعافاً لطلبته ، لأجل تعلقه بجانبنا ، وخدمته لأبوابنا ، وكل ما يتعرض لكم من المآرب والأغراض ، يُقضَى لكم على أكمل المراد إن شاء الله . »

وقد وافقت إيزابيلا على طلب الغالب ، ولكنها اضطرت تحت ضغط البرتغال الديبلوماسي إلى منع تصدير الأسلحة إلى المغرب من بلادها ، وعبثاً حاولت البرتغال أن تحملها على منع كل تعامل تجاري مع المغرب .

وبعثت اليزابيث ملكة بريطانيا أول سفير لها إلى المغرب سنة 1577 م في عهد عبد الملك المعتصم ، وهو « إدموند هوجان » الذي تمكن من الحصول على ضمانات جديدة لرعايا انكلترا وخصوصاً التجار ، وكانت اليزابيث أكثر جرأة من إيزابيلا حيث كانت تبعث إلى المتوكل السلاح مقابل ملح البارود . مع كثير من الحيطة ، خشية غضب المسيحيين،وعقدت مع هذا الملك اتفاقاً بشأن التعامل التجاري والبحري بين الطرفين ، ويسمح لإنجلترا بتوجيه مبعوث دائم إلى المغرب « باشادور » .

وفي عهد أحمد المنصور ازدادت العلاقة تحسناً بين البلدين ، وقد تم إنشاء الشركة المغربية Barbary Company سنة 993 هـ بقصد احتكار تصدير منتجات المغرب إلى إنجلترا ، وعينت اليزابيث ، هنري روبير أحد أعضائها ، فجمع بين التمثيل الدبلوماسي والتجاري ، وقد كتب هذا المبعوث عن مقامه وصفاً ممتعاً تضمن الحديث عن نزاعه مع تجار اليهود والشركة المغربية ، وعن مختلف مشاهداته ، وعاد روبير هذا بعد ثلاث سنوات إلى بلاده بصحبة الرئيس مرزوق موفداً من قِبَل المنصور إلى اليزابيث . ولم توفق الشركة المذكورة كثيراً إلى لمّ شتات التجار الإنجليز الذين فضل بعضهم أن يعمل مستقلاً عنها . وقد كتب المبعوث الإنجليزي المذكور إلى جاك الأول الذي خلف اليزابيث ،

مذكرة يقترح فيها عليه القيام بغزو المغرب والاستفادة من ثرواته الطبيعية ، مع العلم بأن جاك الأول لم يعاصر المنصور .

وقد سجل كثير من التجار الإنجليز مذكراتهم عن حياتهم بالمغرب، وتعرضوا لأحداثه السياسية ووضعيته الاجتماعية ، وعلى الرغم من أن الباحث غير ملزم بتصديق أو تكذيب كل ما تورده هذه المذكرات التي حفظت خزائن المغرب وإنجلترا بعض ما نشر منها ، فإنهـا تلقي مزيداً من الضوء على أحوال المغرب في هذه الفترة .

ومن أشهر المغامرين الإنجليز « طوماس ستوكلي » الذي خدم في عدة دول ، حتى ورد على المغرب في عهد زيدان ، واتصل بأخيه أبي فارس في مراكش موفداً من قِبَل امبراطور النمسا بقصد عقد حلف مشترك ضد تركيا ، ولكنه لم ينجح بطبيعة الحال ، نظراً لظروف المغرب حينئذ .

ومن المغامرين الذين قدموا في عهد زيدان أيضاً « أنطوني شيرلي » الذي وفد إلى المغرب بعد سنتين من تولية هذا السلطان ، ونزل بآسفي سنة 1015 هـ (1606 م) ، واستقبله أبو فارس بعد خمسة أشهر من مقامه . وقد أظهر بذخاً عظيماً في حياته الخاصة ، وفيما قدمه من الهدايا لضيوفه ومرافقيه من خدم وموظفين وغيرهم ، حتى أثار بذلك دهشة المغاربة والأوروبيين المقيمين بالمغرب.

وبما أن « شيرلي » صادف بالمغرب ظروفاً غير ملائمة ، فإنه لم يستطع أن يحصل على مساعدة عسكرية لرودولف الثاني الذي بعث به من براغ ، وكان رودولف يرغب في عقد معاهدة حربية مع المغرب ضد تركيا .

ومهما يكن من شيء ، فقد كان شيرلي لا يعمل لحساب بريطانيا إلا في إطار محدود ، إذ كان مجرد مغامر يتنقل هو أيضاً بين الدول . وقد دوّن بدوره مذكرة قدمها إلى امبراطور بلاده مقترحاً فيها تحويل « الصويرة » و « فضالة » إلى ميناءين للصيد مع تحصينهما .

الاضطرابات التي شهدها المغرب في عهد زيدان كانت انجلترا تتعامل

رأساً مع الموريسكيين في تطوان وسلا ، ومع المجاهـــد العياشي[1] ، وكانت تتبادل معهم المراسلات والهدايا والمبعوثين، وكانت العلاقة تتناول مسألة التجارة، واستعمال مينائَيْ تطوان وسلا ، وعرض العياشي على انجلترا فكرة القيام بحرب مشتركة لطرد الإسبان من المعمورة .

وفي عهد الوليد بن زيدان جددت معاهدة الود والصداقة بـين البلدين سنة 1044 هـ (1634 م) .

وقد كان التعامل لحساب المغرب ، يستفيد منه في الغالب ، اليهود والملك شخصياً . ولا ريب أن أحسن فترة مرت بها العلاقات الدبلوماسية هي عهـــد المنصور الذهبي ، وقد أوشك أن يمهد عملياً لغزو مشترك مع بريطانيا في كل من بريطانيا ومستعمراتها ، ولكن المنية اخترمته هو وامبراطورة انجلترا قبل أن يتم تحقيق هذا المطمح .

وعلى الرغم من فترة الفوضى التي سادت بالمغرب في أيام زيدان وخلفائه ، فإن النشاط التجاري بين المغرب وانجلترا لم يتوقف ، وكان أكبر خطر تتعرض له السفن البريطانية ، هو الاستيلاء عليها من قِبَل الموريسكيين ، وكانت علاقة انجلترا بأندلسيي تطوان أحسن منهـــا كثيراً بالنسبة إلى العلاقة البريطانية بجمهورية أبي رقراق ، وكان الملك المغربي يضطر كثيراً إلى التدخل لحسم النزاع بـين الموريسكيين والتجار الإنجليز ، ولو أن سلطته عليهم كانت رمزية في الغالب ، وعندمـــا هاجمت بواخر بريطانيا مدينـــة قادس اتخذت ميناء تطوان قاعدة لها ، إذ كان الأندلسيون يرون في مهاجمة الشواطىء مساعدة لهم غير مباشرة .

6) مع هولنـــدا :

لقي الهولنديون عنتاً كبيراً من الاستعمار الإسباني ، فلما أن تم تحرُّرهم من

(1) أورد دوكاستري في وثائقه الخاصة بانجلترا عدداً من نصوص الرسائل المتبادلة بين البلاط الإنجليزي من جهة ، والموريسكيين والعياشي من جهة أخرى ، وانظر أيضاً في تاريخ تطوان ج 1 لمحمد داود ترجمة عدد من هذه النصوص .

هذا الاستعمار ، حتى كان المغرب أحد البلدان الأولى التي ارتبطوا معها بعلاقات تجارية وسياسية ، وكانت إسبانيا عدواً مشتركاً للبلدين .

وعندما غزا الهولنديون بالاشتراك مع الأسطول البريطاني مدينة قادس وفتحوها ، وجدوا بها مغربياً من أعيان فاس تحت قبضة الإسبان ، فبعثوا به إلى أحمد المنصور سنة 1596 م .

وكان المنصور يتتبع باهتمام وإعجاب أنباء انتصارات الهولنديين في بلادهم على الغزاة الإسبان ، حتى إنهم سلموا فيما بعد إلى ابنه أبي فارس سنة 1013 هـ ؛ 1604 م) مائة أسير مغربي وجدوهم في اسبانيا بعد أن غزوا شواطئها .

على أن أهم حادث دشنت به العلاقات بين البلدين هو أن الهولنديين أجروا مفاوضات مع المنصور على يد أحد أبناء « دون أنطونيو » وأثاروا خلالها موضوع تسليم قادس إلى المغرب ليمكن عن طريقها إعادة فتح الأندلس،إلا أن خلافاً نشب بين أسطولي هولندا وانجلترا منع من تحقيق ذلك.

وفي أوائل القرن السابع عشر الميلادي بدأت هولندا تستورد من المغرب السكر والزيت واللوز والعسل والتين والشمع والجلود ، وتصدر إليه الأسلحة والأقمشة .

وكان أول قنصل رسمي لهولندا بالمغرب هو « بيتير مارتينز كوي Peter Martentz Coy » الذي عين من سنة 1605 إلى 1609 م ، وكانت مهمته سياسية وتجارية ، وقد استقر بمراكش ، وبذل جهوداً عظيمة لتوثيق الروابط بين المغرب وبلاده .

على أن أهم شخصية تدخلت في العلاقات بين البلدين هي شخصية صمويل بالاش (بباء مثلثة) ، وهو يهودي من أصل أندلسي قام بمهمات سياسية في عدة دول ، إذ كان من المعتاد أن يتنقل بعض الأشخاص المشهورين بالمغامرة والذكاء للعمل في هذا البلاط أو ذاك ، حتى إن بالاش هذا عمل في البداية لصالح هولندا ، ثم صار ممثلاً للمغرب فيها ، وقامت أسرته بمهمات مماثلة وكانت مع هذا تحتكر التجارة بالمغرب خصوصاً التجارة الخارجية .

ونادرا ما كانت سفن المجاهدين تتعرض للبواخر الهولندية ، ذلك أن عدداً كبيراً من اليهود المهاجرين من الأندلس استقروا بهولنـدا التي كانت تدعى بالولايات العامة ، وهم الذين كانوا يقدمون القروض لحركة الجهـاد البحري الشعبي من أجل التسلح .

كما تعاملت هولندا رسمياً مع الدلائيين وجمهورية أبي رقراق ، واستقبلت عدداً من ممثليهم ، حيث إن الدول الأجنبية كانت ترعى مصالحها الاقتصادية أكثر مما تراعي الاعتبارات الإنسانية .

★ ★ ★

9 ـ الحياة الدينية

تطور الحركة الصوفية :

بعد أن كان الصلحاء يكتفون في عهد الدول التي سبقت الوطاسيين،بالتدخل السياسي أحياناً لحمل الدولة على الاهتمام بشؤون الدين والرعية ، دون أن يلجأوا إلى التدخل الحربي إلا في ظروف محدودة ومن غير أن تكون لهم مطامع سياسية، تغير موقف بعضهم أيام الوطاسيين ، فمالوا إلى قيادة حركة الجهـاد ، وقويت هذه الرغبة لديهم أيام السعديين ، فكان أنصار الجزولي أول من ساند السعديين في تكوين دولتهم ، ووقفوا موقفاً محايداً في عهد المنصور السعدي الذي استغل نتائج انتصار وادي المخازن لصالحه كملك بقدر ما استغلها لصالح دولته وشعبه .

وعلى الرغم من أن الصوفية ساندوا الدولة السعدية في أول نشأتها فإن الشيخ محمد المهدي وعبد الله الغالب سلكا سبيل الشدة ضد كثير منهم ، وكان المهدي أشد قسوة على بعض الفقهاء،وهكذا قتل عبد الواحد الونشريسي وعبدالوهاب الزقاق والشيخ حرزوز على يـــد المهدي . وكان هؤلاء لا يرون في القضاء على الوطاسيـين مبرراً شرعياً ، كما أن عدداً من أرباب الزوايا الذين كانوا ينتقدون سلوك المهدي والغالب امتحنوا بشـدة من قبَلهما وإن كانا يتقربان إلى أرباب الزاوية الجزولية .

وقد اتخـذ السعديون من الانتماء إلى السلالة النبوية وسيلة لكسب مزيد من احترام الشعب وتقديسه ،وكان هذا الانتماء إحدى الدعائم الكبرى التي ارتكزت عليها الدولة حين قيامها ، ولكن سوء السيرة وسياسة البطش التي سلكها أغلب أنجال المنصور أفقد هـــذا الانتماء العلوي قيمته وكان السبب الرئيسي في تمرد أرباب الزوايا من جديد فقاموا يباشرون بأنفسهم إلى جانب عـدد من الزعماء الشعبيين،حركة الجهاد، وبعضهم عمل على إحداث بديل للدولة القائمة كما رأينا .

وهكذا كانت أول ثورة عسكرية قادها صوفي في عهد زيدان بن المنصور ابتداء من سنة 1022 هـ ، وهو أحمد بن عبد الله بن أبي محلى الذي سترد ترجمته .

وفي نفس الوقت تقريباً حدثت ثورة أبي حسون السملالي الذي قام هو أيضاً ضد السعديين بسبب الفراغ السياسي الذي كان يعيشه المغرب في هذه الفترة ، وكان الذي قضى على ثورة الأول وأوقف ثورة الثاني هو الفقيه يحيى بن عبد المنعم الحاحي ، غير أن أبا حسون لم يلبث أن عاد إلى الظهور من جديد بسوس .

والجدير بالذكر أن جزولة التي ساندت السعديين في استيلائهم على السلطة انطلقت ثورتها الأولى للقضاء على الوطاسيين من منطقة سوس ، ثم صارت هذه المنطقة معقلاً من معاقل الثورة على السعديين أنفسهم وبقيادة جزولة أيضاً .

أما محمد العياشي فقد وجه همه قبل كل شيء ، إلى طرد النصارى من شواطىء الغرب ودكالة ، كما حارب الموريسكيين الذين اتهمهم بالتعاون مع الإسبان.

ومن خلال النشاط المتواصل الذي أبداه العياشي قرابة أربعين سنة حتى وفاته يمكن القول بأن رغبته في الجهاد وإصلاح الوضع كانت صادقة لأنه لم يهاجم جيوش الدولة السعدية إلا في حالة الدفاع .

أما الدلائيون الذين أسسوا زاويتهم قرب خنيفرة ، قاموا في البداية بقصد نشر المعرفة ولمّ شمل الصوفية الذين كانوا يتوافدون عليهم من كل بقاع المغرب ، فلم يلبثوا أن تحولوا إلى العمل السياسي المباشر . ومن المؤسف أن حركتهم لم تهدف إلى عمل إيجابي حاسم ضد الاستعمار البرتغالي ، فقد صارعوا جيوش الدولة السعدية وهي تلفظ آخر أنفاسها ، كما قضوا على حركة العياشي التي ربما كانت نتائجها من حيث نشاط المقاومة تفوق نتائج الحركة الدلائية . وأخيراً ، جابهوا مؤسسي الدولة العلوية في كفاح طويل إلى أن قضت هذه نهائياً على حركتهم في عهد السلطان رشيد العلوي .

ولقد أصبح للصوفية في هذا العهد نفوذ على العامة لا يكاد يصدق ، ونسبت إليهم كرامات تتفق والظروف السياسية ، ونذكر منها على سبيل المثال أن الولي المحجوب أبا الرواين جاء إلى محمد الشيخ المهدي وقال له : اشتر مني فاساً

بخمسمائة دينار ! فأجابه : إن الشريعة لم تأت بشيء من هـذا ! فقال : والله لا دخلتها هذه السنة ... ثم أدى إليه المال بعد إلحاح من بعض أنجاله ، ففرقه أبو الرواين على المحتاجين ، ودخل السلطان فاساً بعد انقضاء السنة .

وقد تنبأ الشيخ عبد الله بن حسون بمستقبل العياشي ، كما تنبـأ أبو عمرو القسطلي بمقتل أبي العباس الأعرج ... وقصص الأولياء في هذا الموضوع كثيرة .

وفي هـذا العهد انتشرت الزوايا على نطاق واسع ، وكانت تتخذ للذكر والعبادة ، وأحياناً لدراسة العلم ونشره أيضاً . وقد يتخذ بعض أربابها أوراداً وأدعية خاصة في التصوف ، فينشؤون من أجل تعميمها مزيداً من الزوايا بهدف نشر الطريقة . ومن أشهر الزوايا في هذه الحقبة :

1) الزاوية الفاسية ، نسبة إلى يوسف الفاسي الفهري الذي ستَرد ترجمته ، ومركزها فاس ، ولها عدة فروع .

2) الزاوية الناصرية ، ومؤسسها ناصر بن ناصر الدرعي ، وهو عربي الأصل (1011 — 1085 هـ) وقد ذاع صيته في أواخر السعديين وأوائل الدولة العلوية .

3) الزاوية المصلوحية التي نسبت إلى عبد الله بن حسين (977 هـ) ولكن بناء مقرها نفسه تأخر إلى العهد العلوي على يد بعض مريدي طريقته .

4) الزاوية الجزولية ومركزها بسوس ، ولها طريقة وعدة فروع ، وتأسست في عهد الوطاسيين على يد الشيخ محمد الجزولي ، ولكنها لم تشتهر إلا في عهـد السعديين حيث شمل نشاطها الميدان الفكري والسياسي .

5) زاوية محمد الكوش بمراكش .

6) الزاوية الدلائية ، وقد أسسها بخنيفرة أبو بكر بن محمد المجاط المتوفى سنة 1021 هـ .

7) الزاوية العيساوية ، منسوبة إلى شيخ الطريقة العيساوية أبي عبـد الله محمد بن عيسى المهدي السفياني أو السملالي[1] . وقيل هو من أولاد أبي السباع الأدارسة ، سكن بمكناس ، حيث يوجد ضريحه غربها ، ويفد إليه أصحابه من

---

(1) الكتاني ، سلوة الأنفاس ، 1 ، 186 . عباس بن إبراهيم المراكشي ، الإعلام ، 4 ، 147 .

سائر أقطار المغرب في المولد النبوي ، وطريقته جزولية شاذلية ، وقال عنه البعض : إنه كان آية في المحبة الإلهية ، حتى قيل : المحبة عيساوية ، والسنة مسناوية ، وكانت وفاته سنة 941 هـ .

وكانت هذه الزوايا مأوى للوافدين ، خصوصاً المريدين والأنصار ، وكان أربابها والمشرفون عليها يتلقون الهدايا والصدقات والتبرعات من مختلف الوافدين والعاطفين ، فكثرت بذلك أرزاقها وضرب المثل بكرم بعضها . وعلى سبيل المثال ، كانت زاوية الكوش تتوفر على قدور ضخمة يسع كل منها ثورين، وتقدم الكسكس إلى الوافدين في جفان ضخمة . واشتهر محمد بن أبي بكر الدلائي بأنه كان كثير العطاء ، يقدم لزواره يومياً ما يعادل 25 صحفة من الزرع ، وكان السمن ينصب في زاويته من قواديس تحمله من قدور نحاسية ضخمة [1] ، ونَدَع صاحب البدور الضاوية يصف هذا الكرم بأسلوبه إذ يقول :

« وكان يجعل قيمات من النساء على الطعام ، تحت كل قيمة عدد كبير من إماء الحرفة ، وكان له بُرْمتان لإطعام المساكين ، لكل واحدة قيم يخصها ، وتسع كل منها بقرتين أو ثلاثاً ، والكسكاس الذي يوضع على كل واحدة يسع أكثر من وسق ... والجفنة التي كانوا يتناولون فيها الطعام تكفي المئين من الناس، وتدعى فركة... وكان في سنة من سنيّ الغلاء يطعم كل يوم سبعة آلاف من أهل المرقعات الواردين عليه . »

ومن الملاحظ أن هذا العصر امتاز في الميدان الديني بثلاثة أشياء :

1) ظهور طائفة الشراقة الذين يسمون أنفسهم بالطائفة اليوسفية ، نسبة إلى أحمد بن يوسف الراشدي من أهل مليانة ، وقد غالوا في تقديس إمامهم هذا إلى حد أن وصفوه بالعصمة ، بل نسبه بعضهم إلى النبوة، على الرغم من أنه كان مجرد ولي ككثير من معاصريه ، وكانت وفاته سنة 930 هـ ، وكان مثقفاً فاضلاً ، ولكن الشراقة (وهم في الأصل بدو من عرب ناحية تلمسان) قدموا إلى المغرب عاملين على نشر الدعوة باسم وليهم المذكور حتى نسبوا إليه الخوارق التي

---

(1) سليمان الحوات ، البدور الضاوية ، ص 148 .

تبرأ منها ، وقاتلهم عبد الله الغالب حتى أخمد حركتهم ، وكانوا يبيحون ترك الصوم والصلاة .

2) ادعاء ابن أبي محلى للمهدوية،حتى انقاد إليه كثير من العامة في الجنوب وتمكن من الاستيلاء على مراكش ، وألجأ السلطان السعدي إلى آسفي ، وقد تمّ قتله في الظروف التي تقدم ذكرها في الحديث عن عصر زيدان .

3) ظهور الفقيه أبي عبد الله محمد الأندلسي بمذهب ابن حزم الظاهري وانتقاد المذاهب الأربعة ، ومحاولته إرجاع الناس إلى العمل بنصوص الكتاب والسنة ،وقد عدّ خصومه من الفقهاء هذه الأفكار تضليلاً للعامة ،مما أدى إلى قتله .

وقد وقف الفقهاء بوجه عام موقفاً مشرفاً من القضايا الوطنية ، بالرغم من تعرضهم لأخطر العقوبات ، وكان محمد المامون قـــد استصدر فتوى من بعض فقهاء فاس بشأن تسليم العرائش إلى الإسبان ، وقد خشي الفقهاء بطش المامون ومن بينهم محمد بن القاسم بن القاضي . على أن أهل فاس تربصوا به مدة طويلة قبل أن يتمكنوا من اغتياله سنة 1040 هـ . وكان ممن عارضوا محمد الشيخ المامون وانتقدوه بشدة ، أبو الحسن علي الأغصاوى الذي تمّ إعدامــه ، بينما تملص من الفتوى أكثر الفقهاء والمثقفين كأبي العباس المقري والعربي الفاسي وعلي البطوئي ، وعلي الحسن الزياتي ، وابن عاشر ، ومحمد الجنان ، وأحمد الفاسي .

وقد رحب كثير من الفقهاء والمثقفين بحركة العياشي بعـــد أن لمسوا عجز الدولة عن جهاد النصارى واشتغال ملوكها بشهواتهم .

حياة بعض كبار الصوفية

أحمد بن موسى الجزولي السملالي (1) :

ولد ببو مروان في إيدا وسملال بسوس، وأمه « لالاّ تاوَنـْشُوت » ، وتنسبه بعض الزوايا إلى زروال الجزولي .

(1) إبراهيم الحساني،ديوان قبائل سوس ، ص 14 ، و 159 . ابن القاضي ، درة الحجال . الكوسي ، مناقب الحضيكي ، ورقة 1 . المراكشي ، إعلام ، 2 ، 26 .

وهو تلميذ أحمد بن يوسف الملياني وعبد العزيز التباع وأحمد الدجاني وقيل إن شيوخه يتجاوزون الثلاثمائة. وكان مقامه بتازروالت بسوس، ومن الخوارق التي نسبت إليه أن رجلاً شكا إليه الفاقة، فأخذ شيئاً من الرمل ووضعه في صرة ثم أمره أن يذهب به إلى صائغ، فلما أتى به إليه وجده تبراً فسكه له.

وتجعل منه بعض الأغاني الشعبية القديمة بهلوانياً في طفولته يساهم في جماعة من البهلوانيين الصغار، فورثت ذريته ممارسة البهلوانية كحرفة، ولا زالوا كذلك، وهو جد أبي حسون السملالي الذي قاد ثورة شعبية في إقليم سوس عندما تردّت الأوضاع السياسية في العهد السعدي. وكانت وفاة أحمد بن موسى سنة 971 هـ (1563 م)، ومدفنه بإيدا ولتيت، وكان الغالب السعدي يعظمه حتى قيل إنه أقام في ضيافته أياماً يستمد بركته.

عبد الله بن حسون [1] :

عبد الله بن أحمد بن الحسن الخالدي السلاسي نسبة إلى «سلاس» قرب فاس، كان مولده بهذه الناحية في أوائل الدولة السعدية. درس على عليّ بن هرون وأحمد الحبّاك وعبد الواحد الونشريسي وآخرين، ثم انتقل إلى سَلا، بسبب ما كان يدب من نزاع وما ينشب من قتال بين أهل « سلاس ». ثم اشتغل بالخطابة في الجامع الأعظم بسلا حيث كان يكتب الحروز أيضاً. ومن تلاميذه محمد العياشي المالكي ومحمد بن سعيد العتابي الذي دفن إلى جانبه في ضريحه بسلا، وكل هؤلاء الثلاثة من كبار الصوفية والمتضلعين في العلوم الدينية.

وكان بعض محبيه يهدون إليه الكساوي الفاخرة فيهملها في حجرة مغلقة حتى تأتي عليها الأرضة، وقد وصفه ابن القاضي معاصره، بأنه لا يخاف في الله لومة لائم. وبلغ من تقديره لدى أهل سلا أن كانت الطبول تقرع على باب داره كل يوم. وكانت وفاته سنة 1013 هـ (1604 م).

---

(1) ابن القاضي، درة الحجال، رقم 346. الأفرني، نزهة، ص 436. صفوة من انتشر، ورقة 10. ابن علي الدكالي، الإتحاف الوجيز، ورقة 144. إتحاف أشراف الملا، ص 42. اليوسي، محاضرات.

يوسف بن محمد الفاسي[1] :

أبو المحاسن يوسف بن محمد الفاسي من أسرة بني الجد المعروفين بالأندلس[2]. استقرت عائلته بفاس في أواخر القرن 9 هـ (15 م) ، ثم اشتغلت بالتجارة في القصر الكبير حيث ولد يوسف بن محمد سنة 937 هـ (1530 م) ، وارتحل مع والده من جديد إلى فاس، فدرس على عبد الوهاب الزقاق ، ومحمد بن عبدالرحمن ابن جلال التلمساني وعبد الرحمان بن إبراهيم الدكالي وخروف التونسي وغيرهم، ثم درس التصوف على جماعة من شيوخه كعبد الله الهبطي والحسن بن عيسى المصباحي وعبد الرحمن المجذوب . كما تلمذ على يده كثير من الصوفية كمحمد أنوار وعلي أبي الشكاوي . وقد توفي يوسف الفاسي سنة 1013 هـ (1604 م) بفاس حيث يوجد ضريحه قرب باب « الفتوح » . وألف ابنه العربي كتاباً في مناقبه ومناقب شيخه المجذوب ، وهو « مرآة المحاسن » ، كما وضعت في ترجمته كتب أخرى .

أحمد بن عبد الله بن أبي محلى[3] :

ولد أحمد بن عبد الله بن أبي محلى بسجلماسة سنة 967 هـ (1559 م) وهو ينسب نفسه إلى العباس بن عبد الله بن عبد المطلب ، ويجهل هو نفسه سبب تكنية جده بأبي محلى .

وقد انتقل ابن أبي محلى إلى فاس لمتابعة دراسته بها سنة 980 هـ فاشتغل بدراسة النحو والفقه ، وأخيراً ، صحب الشيخ محمد بن مبارك الزعري (نسبة إلى زعير ، وهم عرب كانوا يستقرون بسهل سوس) ، وظل في صحبته مدة ثمان عشرة سنة ، وهو الذي حول اتجاهه الفقهي إلى التصوف . ومن شيوخه ، سالم السنهوري وأحمد المنجور وأحمد بابا .

ثم سلك ابن أبي محلى طريق التصوف حتى شاع خبره في الجنوب ، وصار

---

(1) محمد العربي الفاسي ، مرآة المحاسن . القادري ، نشر المثاني ، 1 ص 89 .

(2) أنظر عن هجرة هذه الأسرة المالقية : مرآة المحاسن المذكورة ، ص 142 .

(3) اليوسي ، محاضرات . القادري ، نشر المثاني 1 ، 121 . المراكشي ، الإعلام ، 1 .

يكاتب الولاة ورجال القبائل ويحضهم على اتباع السنة ، ويسمي نفسه المهدي المنتظر . وبقدر ما كانت أوضاع المغرب تقتضي إصلاحاً متعجلاً وشاملاً ، بقدر ما كان ابن أبي محلى يخفي طموحاً نحو القيادة المباشرة لهذا الإصلاح . وهكذا تولى عبء الدعوة لنفسه في مناطق الجنوب ، وباشر العمل المسلح ضد السعديين إلى أن استولى على مراكش سنة 1022 هـ (1613 م) ، وحينئذ استنجد زيدان بالفقيه يحيى الحاحي الذي كان له نفوذ قوي على مجموع المنطقة السوسية ، حيث استطاع أن يفرض سلطته بفضل تخلي السوسيين عن الولاء للسعديين بعد ظهور عجزهم ، وقد أنجد زيدان بعد أن اشترط عليه شروطاً منها أن يتخلى عن شذوذه الجنسي . وقد تم قتل ابن أبي محلى أثناء المعركة التي جرت على أبواب مراكش ، سنة 1022 هـ فدفن بروضة أبي العباس السبتي .

وقد وضع ابن أبي محلى جملة من التآليف ، منها : 1) الإصليت الخريت . 2) منجنيق الصخور في الرد على أهل الفجور . وجل ما ألفه في تأييد دعوته والرد على معارضيه . وقد بقي بعض أتباعه ينتظرون ظهوره مدة طويلة كما حدث بالنسبة لكثيرين ممن ادعوا المهدوية .

متصوفة آخرون :

ومن أبرز صوفية هذا العهد أيضاً :

1) محمد المالكي العياشي (1051 هـ (1641 م) وقد تقدمت ترجمته .

2) أبو عمرو القسطلي دفين مراكش 974 هـ (1566 م) .

3) رضوان بن عبد الله الجنوي وهو من أب نصراني من جنوة ، وأم يهودية ، توفي ودفن بفاس 991 هـ (1583 م) .

4) أبو زيد عبد الرحمن بن عياد الدكالي الصنهاجي المعروف بالمجذوب ، دفين ظاهر مكناس 976 هـ (1568 م) .

5) أبو الشكاوي علي بن منصور دفين شالة 1003 هـ (1594 م) .

6) أبو زيد عبد الرحمن الفاسي 1036 هـ (1626 م) .

اليهـود والنصـارى

كان ضمن الموريسكيين الذين هاجروا من الأندلس إلى المغرب في أوائل القرن 11 هـ (17 م) أفواج من اليهود الذين نشطت حركتهم الاقتصادية، وكادوا يحتكرون إلى جانب اليهود القدماء ، التجارة الداخليـة فضلاً عن التجارة الخارجية ، فقد حظوا بعطف بالغ من لدُنْ ملوك الدولة السعدية ، على الرغم من أنه لم يكن لهم نفوذ سياسي مباشر بعيد المدى كما كان الأمر في أيام ضعف الدولة المرينية، وقد كان لأسرة بالاش دور أساسي في علاقات المغرب الاقتصادية مع الخارج .

وقد حظيت الأحياء اليهودية بحماية الملوك مباشرة ، وكان أغلب النصارى القادمين من الخارج في مهمات دبلوماسية أو تجارية أو غيرهـا ينزلون بالملاح . وعلى الرغم من أن اليهود قد منعوا من بناء بيعهم في بعض جهات المملكة (1) ، فإن العهد السعدي على العموم ، امتاز بتسامحـه الديني . وسواء في مراكش أو الجهات التي يكثر بها المسيحيون واليهود في الشواطىء المحتلة فقد تعايش المجتمع المغربي الإسلامي مع اليهود والمسيحيين من غير أي حرج في ظروف السلم التي لم تكن مستمرة على كل حال . وقد تكاثر عدد النصارى الذين تواردوا من عـدة بلاد ، وفيهم تجار وأسرى وأرقاء أو سجناء، وكان لكل دولة أجنبية بآسفي مقر أو دور خاصة بها .

وعندما تم سحق الأسطول الإسباني في قادس على يد الهولنديين والإنجليز كانت جاليـة الطرف المنتصر تطوف في مراكش حاملة المشاعل فرحاً بهـذا الانتصار ، دون أن تلقى إزعاجاً من الأهلين (2) .

على أن المقاومة العنيفة التي لقيها النصارى لم تكن في واقعها إلا كفاحاً ضد الاستعمار وما كانت صراعاً دينياً إلا في حدود المقاومة الوطنية، ولم يكن كذلك موقف الطرف المعادي من المسيحيين ، والدليل على ذلك ، أن التاريخ لم يسجل

(1) الناصري ، الاستقصا ، 6 ، 79 .

(2) Champion, le Maroc et ses villes d'art, p, 113

انتقاماً من نصارى الجالية البرتغالية وغيرها من الجاليات المسيحية بعد انتصار وادي المخازن ، بل من المؤكد أن الاضطهاد الديني الذي عرفته أوروبا بين الكاثوليكية والبروتستانتية في القرن 16 م ، قد جعل أفواجاً كثيرة منهم تفد على المغرب حيث يعملون في الجيش أو يزاولوا مهمات تقنية أو تجارية كما رأينا ذلك بالنسبة إلى الجالية الهولندية التي كان لها مكان الصدارة بين الجاليات المسيحية .

وفي هذا الوقت بالذات كان اليهود يلاقون عنتاً شديداً في أوروبا على الرغم من أن كروموبل الذي ارتقى إلى منصب رئيس الجمهورية بانجلترا سنة 1649 م حاول أن يقبل اللاجئين منهم إلى هذه البلاد ، وتعصبت الكنيسة ضدهم فلم توافق على هذه الهجرة (1) .

وكان لليهود بالمغرب محاكمهم الخاصة ، وسجنهم الخاص أيضاً . وقد ذكر الرحالة المسيحي « ماندوصا » أنه زار أحد سجون اليهود ، فوجد به شخصاً متمتعاً بالعافية ، ولما استخبره عن أمره أكد له أن إخوانه اليهود سجنوه لأنه لا يحتمل إهانات المسلمين الذين كان يرد عليهم بالضرب دون أن يخشى عقاباً (2) .

وبلغ عدد اليهود بمراكش وحدها ستة آلاف في عهد أحمد المنصور ، وقد لعبت البيع بالنسبة إليهم دوراً لا يقل عن دور المسجد بالنسبة إلى المسلمين ، فقد كانت إلى جانب مهمتها كأماكن للعبادة ، معاهد للدراسة ، ومنتديات ومراكز لإدارة الشؤون الدينية والاجتماعية ، وفيما كان يحكم بالتكفير على المرتدين من اليهود .

وكما قام السعديون برعاية حقوق اليهود ومنحوهم حمايتهم الخاصة ، فقد منعوا على المسلمين كل تعصب ضد الأوروبيين الذين كان يمكنهم أن يتجولوا بكل حرية .

وقد أدخلت على الكنيسة الموحدية تحسينات كثيرة سنة 1579 م حتى

---

(1) léon Paliacov, Du Christ aux Juifs, p, 224

(2) R. Ricard' Hespéris, 3, 4 - 1957, p 179

يمكنها أن تستقبل نصارى البرتغال لا سيما الأشراف من أسراهم ، ولم تكن تحمل جرساً ، فكان القومة عليها ينادون للصلاة بواسطة نداء ديني خاص .

وكما يقول دوفردان ، فقد كان السعديون أكرم من الرومان ، إذ سمحوا للمسيحيين أن يتخذوا مقابرهم الخاصة ، ومنها أرض الكنيسة وما جاورها (1) ، وتنفيذاً لهذه السياسة المبنية على التسامح وحسن التعايش ، فقد عرف اليهود أجمل حقبة في تاريخهم ، لا بمراكش وحدها كما يقول « دوفردان » ، ولكن في كل أرجاء المغرب ، وفي أقصى بقاعه كما سيتضح في الفصول التالية .

★ ★ ★

---

(1) Deverdun, Marra kech, 1, 446 - 450

(2) Ibid. p. 454

الحضارة في عهد السعديين

1) **الدولة ونظامها** : الملك - ولي العهد - الوزراء والحجاب - الكتاب - القضاة - العمال والولاة - الجيش - النظام المالي.

2) **الحياة الاجتماعية** : السكان - اللباس - المرأة - الغناء - الحفلات والأعياد - الطعام والمسليات .

3) **الحياة الاقتصادية** : الفلاحة - الصناعة - التجارة .

4) **العمران وفن البناء** : نظرة عامة - المدن - الحصون - القناطر - قصر البديع - المدارس - المساجد - الزوايا - ضريح السعديين .

5) **الحياة الفكرية** : نظرة عامة - الأدب - العلوم الدينية - علوم اللغة - التاريخ - الطب - الرياضيات والهيئة .

1 ـ أنظمـــة الدولة

الملـــك :

لم يبادر أبو عبد الله القائم بأمر الله باتخـــاذ ألقاب الخلافة بوصفه مؤسساً للدولة التي تنتمي إلى الأشراف ، بل اكتفى بلقب الأمير بعد احتلاله مراكش ودرعة [1] ، وأول من اتخذ لقب الخليفة محمـد المهدي الشيخ [2] ، ثم سار على ذلك خلفاؤه [3] . وهكذا نجد لقب أمير المؤمنين في مختلف مراسلات أحمـد المنصور وإخوته وذريتهم ، ونرى أن ننقل فيما يلي فقرة من إحـدى مراسلات المنصور إلى سكية إسحق بشأن إقناع هذا الأخير بالخضوع لسلطة ملك المغرب، وفي هذه النبذة ، يتجلى طموح أحمـد المنصور وآماله البعيدة من وراء إشادته بالخلافة النبوية .

تقول الرسالة [4] :

« ... وإذا تقرر لديكم ، أن من البر اقتفاء الأبنـــاء أثر الآباء والجري في المآثر الجميلة على جادتهم البيضاء ، وأخبرتم أن جدكم ابن ذي يزن [5] أول من آمن بجدنا المصطفى (ﷺ) وصدق، وبشر جده شيبة الحمد بما أمره قد تحقق، وأتحفه لذلك بأجل التحف ، وخصه من بين عشيرته بمزية الفضل والشرف ... فأحرى أن تؤمنوا أنتم باتباع شرائعه « ﷺ » التي هي بعد البعثة أوضح من

---

(1) الناصري ، استقصا ، 5 ، 11

(2) Terrasse, Histoire du Maroc, 2, 175

(3) Ibid. p. 66

(4) Georges Pianel, Haspéris, 1, 2 - 1953

(5) اشارة الى أصـل « سكية » الحميري ، لأنه ينحدر من صنهاجـة التي ينسبها بعضهم الى حمير .

شمس الظهيرة ، وأضوى من الكواكب المستنيرة ، وأمره « ﷺ » قد لاح كالفلق ، وطلع طلوع البدر في الغسق ، وتأتموا بهذه الإمامة المقدسة التي عمت أنوارها مشارق الأرض ومغاربها ، وجابت جيوب البسيطة ومناكبها ، وتمتثلوا أوامره الشريفة ،فيما افترض الله لهذه الخلافة النبوية من السمع والطاعة والانخراط بمبايعتها في ملك الجماعة ، وتساجلوا جدكم في هذا المضمار ، وتقتفوا أثره في هذا الارتقاء إلى ذروة هذا المنار ، والاستضاءة بهذه الأنوار ، وتحرزوا ببركتها خير الدارين في الإيراد والإصدار ، وتنتظموا في سمط حزب الله الملحوظ بعين العناية والاعتبار ... »

وإذا كان قيام الدولة قد بدأ بتنصيب القائم بأمر الله سنة 915 هـ « 1510 م » فقد تطلب افتتاح المراكز الرئيسية بالمغرب لتصبح جهازاً حقيقياً مدة لا تقل عن نصف قرن ، فباستثناء دولة الموحدين ، وإلى حد ما دولة المرابطين،لم تلجأ أي دولة مغربية أخرى إلى دعاية منظمة للاستيلاء على الحكم وتدعيم النظام ، فكان العمل العسكري والحالة هذه ، الوسيلة الفعالة لقهر السلطة القائمة . وهكذا فلم تخضع كل مناطق المغرب للسعديين بسهولة .

وبلغت الامبراطورية السعدية أوج فتوحها في عهد المنصور بعد صراع تجاوز ثلاثة أرباع قرن،وخضعت مملكة بورنو الشاسعة لحكم المنصور لأسباب سياسية وبصفة تلقائية، بينما اقتضى ضم السودان تدخلاً عسكرياً .

واتخذ السعديون "مراكش عاصمة لهم ، هذه المدينة العظيمة التي أفل نجمها أو كاد إبان العصر المريني المتأخر ، وأيام الوطاسيين ، ولم يكن قربها من سوس حيث منطقة أنصار الدولة الأولين هو السبب الوحيد في اتخاذها عاصمة ، ولو أنه فعلاً عامل رئيسي ، فهناك أيضاً آمال ملوك الدولة في مد فتوحهم جنوباً حيث المنطقة الوحيدة التي تتوفر فيها كل عوامل الخضوع بسهولة ، إذا راعينا الأساليب العسكرية حينئذ . فعلى الرغم من أن أطماع السعديين في التوسع شرقاً قد تجسمت في وقت مبكر نسبياً ، ودولتهم لم يقر بعد قرارها في الداخل ، فإنهم سرعان ما تخلوا عن مضايقة الأتراك بعد موت الغالب ،

وبذلك أقاموا دولة شاسعة الأطراف بعيدة عن منطقة نفوذ الدولة العثمانية .

وقد كان من الاعمال الاولى التي يباشرها السلطان السعدي ، الاعتقال الاحتياطي لبعض أقاربه تجنباً لتمردهم [1] . ومع ذلك ، فإن الذين كانوا يتمتعون بحريتهم وامتيازاتهم الأميرية أكثر خطراً على العاهل ، من هؤلاء المعتقلين .

وكان على السلطان أول بيعته أيضاً ، أن يفرق المال على العساكر والفقهاء والمساكين ، ويعين ولاة جدداً [2] ويتلقى البيعة مراسلة وحضوراً [3] .

ولكل ملك مهما ضاق نفوذه لقب وكنية فضلاً عن الاسم ، من ذلك مثلاً : أبو فارس عبد الله الواثق بالله . وهكذا [4] فإن أول ملوك الدولة لم يتخذ لقب السلطان ولا الخليفة ، ولكن كان له كنية ولقب ، فهو أبو عبد الله محمد القائم بأمر الله ، وهذا يعني إعلاناً للملكية في وقت مبكر ، وبصفة غير مباشرة .

ويختلف مكان البيعة بحسب الظروف ، فمؤسس الدولة مثلاً بويع بتيدسي قرب تارودانت بسوس ، التي بويع بها أيضاً أبو العباس أحمد الأعرج ومحمد المهدي الشيخ ، على أن هذا استطاع أن ينتزع اعتراف مراكش والوطاسيون لا يزالون في الحكم ، بينما تمت بيعة الغالب وعبد الملك المعتصم وزيدان وعبد الله بن الشيخ بفاس ، والمتوكل وأبي فارس بمراكش ، كما بويع المنصور بوادي المخازن ثم بفاس ، أما الملوك الثلاثة الأخيرون فقد بويعوا بمراكش حيث انحصر نفوذ السعديين قبيل سقوط دولتهم ، وذلك بالإضافة إلى الجهات المجاورة . وبين الأمراء من أعلنوا أنفسهم ملوكاً بطريق غير شرعي كمحمد المامون وعبد الله ابنه . وحيث إن مشكلة العرش واكبت حياة الدولة السعدية منذ تأسيسها ،

(1) مؤلف مجهول ، تاريخ الدولة السعدية ، ص 29 .
(2) ن. م. ص 40 .
(3) الناصري ، استقصا ، 5 ص 8 ، 15 ، 18 ، 21 ، 38 ، 57 ، 91 .
(4) الافرنسي ، نزهة ، ص 309 .

فقد كان أهم مظهر لها أن البيعة لم تنعقد على شخص واحد دائماً ، فقد رأينا ما حدث من نزاع بين أبي العباس أحمد الأعرج وأخيه محمد المهدي الشيخ ، ثم ما فعله المتوكل من لجوء إلى البرتغال،وهم من الوجهة السياسية أعداء المغرب ، غير أن أخطر مشكلة حول وراثة العرش إنما أحدثها أحمد المنصور بتقسيم البلاد إلى إمارات بين أبنائه ، تلك السياسة التي سلكها الأدارسة قديماً بإشارة زوجة إدريس الاول ، فلم يكد الشعب يطلع على وفاة المنصور حتى أعلنت كل من فاس ومراكش ملكاً بها ، فقد كان التنافس على أشده بين المدينتين في العهد السعدي،وظلت فاس محط أنظار الدول الحاكمة منذ ما قبل هذا العهد بقرون ، نظراً لمركزها الاقتصادي والاجتماعي والعلمي ، لذلك كان تخلف إحدى المدينتين عن بيعة ملك ، يعني انتصار قسم كبير من السكان لجانب المدينة المتخلفة .

وقد كانت البيعة تتم بحضر القضاة والفقهاء والوجهاء ، ويسجل نصها كتابة حتى يصبح نصها صكاً ملزماً ، وقد جرى هذا الإجراء قبل قرون ، سواء بالمشرق أو المغرب ، حيث توقع الشخصيات الأكثر تمثيلاً للسكان ، من فقهاء وزعماء وقضاة وغيرهم على نص البيعة .

ومن أهم عقود البيعة ، النص الذى كتبه أبو فارس عبد العزيز الفشتالي عن المنصور بمناسبة موافقة ملك بورنو على الدخول في طاعته [1] ، ونلاحظ إسهابه وتأكيده لقرشية الخليفة وانتماء المنصور إلى الأسرة النبوية ، وفيه يلتزم ملك بورنو شخصياً ، وباسم رعيته ، بمبايعة أحمد المنصور ، مع التأكيد بواسطة اليمين على إقرارهم مقدماً ، بالتحلل من الإسلام في حالة خروجهم عن طاعة الخليفة . وقد كتب نص البيعة أول سنة 990 هـ « 1582 م » .

وكان ملوك السعديين يتخذون نواباً عنهم في المدن الكبرى من أمراء الأسرة الحاكمة [2] ، ويحمل كل منهم لقب خليفة (أي الذي يخلف العاهل في تدبير شؤون الإقليم) .

---

(1) الناصري ، الاستقصا ، 5 ، 106 .

(2) م. م. تاريخ الدولة السعدية ، ص 33 . الافرني ، نزهة ، ص83 . الناصري ، استقصا ، 5 ، 38

وكان من التنظيمات البارزة التي أحدثها أحمـــد المنصور مجلس استشاري أطلق عليــه اسم الديوان أو مجلس الملأ ، على أن لفظ « الديوان » استعمــال فارسي ثم عربي ، ولكن كان يقصد بــه في العصور الاسلامية الماضية الإدارة أو المصلحة .

أما أحمد المنصور فقد استمد فكرة الديوان وحتى التسمية نفسها من تقاليد العثمانيين الذين كان لهم في كل من إفريقية والمغرب الأوسط ، ديوان هو عبــارة عن مجلس عسكري ، مهمته مراقبـــة تصرفات الباشا وموافاة الباب العالي بما يهمه من أخبار في هذا الصدد . وكان يجتمع ثلاث مرات في الأسبوع ويتولى النظر في المظالم والشؤون الادارية والعسكرية والسياسة الخارجية [1].

أما ديوان المنصور فكان يجتمع مرتـــين في الأسبوع : الأربعاء والإثنين ، ويستعرض مختلف القضـــايا السياسية والعسكرية وغيرها من قضايا الساعــة . ويتركب الديوان من شخصيات كثيرة ، فيهم ممثلو السكان والقواد العسكريون وعدد من القضاة والفقهاء والموظفين السامين . وهذا المجلس نفسه هو الذي بت في قضية إشهار الحرب على السودان وترشيح محمد المامون ابن المنصور ولياً للعهد ، كما أثبت ذلك الفشتالي في المناهل ، والأفرني في النزهة . ومن أعضاء هـــذا الديوان : القائد مومن بن الغــازي الغماري [2] ، والوزير عبد العزيز الفشتالي ، والمفتي أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف السجلماسي [3] .

وكان الديوان ينظر في المظالم التي كانت أهم ما يعرض عليه من القضايا أيام السلم ، وقد كان المنصور يوليه أهمية بالغة [4] .

وقد كان لهذا الديوان نظير بجمهورية الرباط ـ سلا بعد أن تحول حوض أبي رقراق إلى يد الأندلسيين ، ومن مزايا هذا الديوان المحلي أنه كان منظمــاً عن طريق الانتخاب ، بينما كان ديوان المنصور عن طريق التعيين .

---

(1) Mercier, l'Afrique Septentrionale, 3, 134

(2) الأفرني ، نزهة ، ص 148 .

(3) الناصري ، استقصا ، 5 ، 111 .

(4) ن. م. ص 179 .

والجدير بالذكر أن هذا المجلس الشوري الذي اهتدى المنصور وحده من بين ملوك السعديين إلى تأسيسه لم يكن أول من ابتكره من بين ملوك المغرب ، إذ لا يخفى أن كلا من المرابطين والموحدين والمرينيين اعتمدوا على مؤسسات استشارية تختلف اختصاصاتها وكفاءاتها .

وفي القضايا ذات الأهمية القصوى كان مجلس المنصور يضاف إليه شخصيات فكرية أو ذات مكانة اجتماعية ، من فاس ومراكش وسائر المدن والبوادي[1] .

واشتهر عن المنصور خاصة أنه كان في مقابلاته يتحدث إلى الناس من وراء حجاب حتى انتقد عليه العالم أحمد بابا هذا الإجراء ورفض أن يتحدث اليه قبل أن يرفع حجابه[2]. والراجح أن الملوك السعديين غيره لم يتخذوا الحجاب .

وتزودنا عدد من المراجع المعاصرة بتفاصيل عن حياة الملوك الخاصة ومظاهر الملك بوجه عام ، مما يلقي مزيداً من الضوء على تصرفات هؤلاء وسلوكهم تجاه الرعية ، حتى إن مظاهر بعض الاحتفالات الراهنة نجد لها صورة طبق الأصل مما جرى عليه السعديون قبل أربعة قرون .

وكان للعاهل عدد من كبار الموظفين ومساعديهم يتولون القيام بمهات مختلفة خاصة بالبلاط أو الملك نفسه ، وفي مقدمتهم المشرف على الحفلات العامة ومنظم المجلس الملكي والمسؤول عن تنفيذ العقوبات والمصادرات التي يقررها القضاة ، وهناك خمسون جندياً يركبون المهارى ، وهم مدربون أحسن تدريب ، ويقومون بتبليغ أوامر الملك إلى العمال وكبار الموظفين ، وبلغ عدد الحرس الخاص في أيام « مرمول » وهو شاهد عيان ، خمسين ألف رجل ، وهناك عدد من حملة الرايات إلى جانب المكلف بخيام الملك ، وعلاّف الدواب والسائس الذي كان تحت يده ستون ألفاً (؟) من الإبل ، وللجيش عدد كبير من الطبول النحاسية

(1) ابن القاضي ، لقط الفرائد ، ص 178 .
(2) الكوسي ، مناقب الحضكي ، ورقة 16 .

التي يُعنى بها عناية خاصة ، ويخصص لأصحابها جياد خفيفة ، وكان من العار أن يسقط طبل أو راية [1] .

ونقل السعديون أكثر عوائد البلاط الداخلية عن الوطاسيين ، من طريق العريفة بنت خجّو التي نظمت حياة الملوك الداخلية في مطعمهم ومشربهم ولباسهم وعلاقاتهم بالحريم ، منذ عهد محمد الشيخ المهدي ، وكانت من قبل في خدمة البلاط الوطاسي [2] .

كذلك يعود الفضل في تنظيم التشريفات والاستقبالات إلى شخص عمل بالبلاط السعدي في أيام العاهل المذكور ، ويدعى هذا الشخص قاسم الزرهوني [3] .

ولقد رسم « دوفران » صورة مظلمة عن حياة البلاط السعدي الذي قال عنه إنه كان مسرحاً للفضائح المختلفة والرشوة والخيانة ، أما الشعب في العاصمة ، فكان كما يقول : لا يرى إلا قصبة تموج بالحياة : مواكب ضخمة من الأشراف ، بطنابيرها وراياتها وزيها التركي الرائع ، وحرسها من العلوج وذلك في المناسبات الدينية ، بينما كان هو نفسه ، يعاني الكثير من البؤس والضنك [4] .

وعلى الرغم من أن كلام دوفران أقرب ما يكون إلى الحقيقة فإن شعوب العالم في كل الجهات لم تكن أسعد حالا في جملتها من الشعب المغربي ، كما أن البلاطات الغربية في هذه الحقبة كانت تعيش في بذخ دونه بذخ البلاط المغربي بكثير .

وكان من موظفي القصر أيضاً ، القهرمانة (أمينة المال بالقصر) ، وصاحب الثياب [5] وعدد من الفتيات المغربيات والمسيحيات اللواتي يصحبن نساء الملك

---

(1) Marmol, Histoire des Chérifs, p. 172

(2) الافرني ، نزهة ، ص 55 .

(3) ن. م. ص

(4) Deverdun, Marrakech, 1, 417

(5) الناصري ، الاستقصا ، 5 ، 181 .

عند خروجهن [1]. ومن مظاهر الملك التي اتخذها الملوك السعديون بالمغرب لأول مرة ، الاحتماء من عوارض الجو بواسطة مظلة يحملها موظف من البلاط ، وكان أحمد المنصور أول من فعل ذلك في خرجاته الرسمية [2] .

والتزم ملوك السعديين ببعض التقاليد المعينة في استقبال السفراء ، لا سيما أحمد المنصور الذهبي الذي توافد على بلاطه سفراء وشخصيات من بلاد كثيرة ، كتركيا وفرنسا وبورنو والحجاز وبيت المقدس واسبانيا والبرتغال وغيرها [3].

ومن أشهر البعثات الدبلوماسية لدى البلاط السعدي ، سفارة فيليب الثاني إلى أحمد المنصور ، برئاسة « دون بيدرو فينيكاس » سنة 1579 ، وقد وفدت محملة بهدايا إلى العاهـــل المغربي وتطلب منه أن يتنازل لإسبانيا عن ميناء العرائش (!) كما تشكره على تسليم جثة دون سباستيان دون مقابل [4] .

وتضم السفارة راهباً مترجماً ، مع العلم بأن أحمد المنصور لم يكن يجهل الاسبانية ، وعدداً كبيراً من الملحقين ، ونحو خمسين خادماً ، وقد نزل هذا الوفد بميناء آسفي في 11 يوليوز حيث حيته كوكبة من الحرس الشرفي من مائتي جندي ، وصدحت موسيقى الكوكبة ، كما قصف المدفع بمجرد نزول الوفد إلى الميناء . وبعد مقامه أسبوعاً بدار خصصت له قدم قائد باسم المنصور لمرافقته إلى مراكش ، وقد استغرق السفر ستة أيام ، وقبل وصوله بمرحلة ، وجد خيلاً مطهمة بسروج مذهبة غير التي قدم بها من آسفي . وما كاد يدخل مراكش حتى هب الأوروبيون القاطنون بهـا لتحيته ، كما استقبلهم القائد رضوان وبمعيتـه عشرون من قواد المملكة الرئيسيين ، وهم جميعاً بلباس تركي . وهناك خصص

---

(1) Marmol, Histoire des Chérifs, p. 173

(2) الافرني ، نزهة ، ص 198 و 200 . وقـد كان العبيديون من أسبق الملوك بالشمال الافريقي الى اتخاذ المظلة .

(3) ن. م. ص 211 .

(4) De Castries, Sources inédites, France, 3. Champion. Le Maroc et ses villes d'art, p. 97. J. Caillé, la petite histoire du Maroc, p. 88

للوفد ثلاث دور بما فيها منزل السفير . وفي 30 يوليوز ، مثل الوفد بين يدي المنصور الذي كان يرتدي حلة مذهبة ويحمل سيفاً وخنجراً من الذهب كما يضع في عنقه طوقاً ذهبياً مزخرفاً بالجواهر واللآلىء .

غير أن أحمد المنصور لم يستقبل من شخصيات الوفد إلا السفير وقريبين له رافقاه وترجمانه، والباقون ظلوا في ساحة مقابلة لقبة الاستقبال، بحيث يشاهدون ويسمعون ما يجري بها من مراسيم وأحاديث ، وكانت القاعة مغطاة بالزرابي ويحرس مدخلها أسودان يرتدي كل منهما قفطاناً من الديباج .

ثم تقدم السفير ، فأظهر المنصور كأنه يهم بالوقوف تشريفاً له ، ثم انحنى بين يديه ، فوضع المنصور يده على رأسه ، ودعاه إلى الجلوس بقربه على زربية ، وبعد أن أعرب السفير عن امتنان ملكه لمبادرة المنصور بشأن جثة دون سباستيان ، طلب منه أن يقبل هديته الودية التي لا يعتبرها جزية أو فدية ، وهي مجموعة أحجار كريمة ذات قيمة عالية ، وقد سر لها المنصور كثيراً ، وكان يريها لحاشيته قطعة قطعة بحضر الوفد الاسباني .

وقد تقابل دون بيدرو مرتين أخريين مع العاهل المغربي ، وكانت الثالثة مقابلة وداع . ولم تنتج هذه السفارة نتيجة تذكر في الميدان السياسي ، ولكنها وطدت العلاقات الودية بين البلاطين .

وكان أحمد المنصور يصحب في أسفاره فسطاطاً عظيماً يمكن فكه ، حيث يتألف من عدد كبير من الحجرات والحواجز ، وكان يدعى بـ « السياج [1]». ولم يكن المنصور الذهبي أول من اتخذ هذا القصر المتنقل كما ذكر اليفرني وغيره ، فقد سبقه الوطاسيون إلى ذلك كما سبق في الحديث عنهم ، غير أن « السياج » كان أعظم وأجمل .

وفيما يخص جهاز الحكم ، لم يحدث تغيير يذكر بالنسبة لشكل الحكومة المرينية وهكذا فإن الموظفين الأساسيين ظلوا هم : الوزير والحاجب وقاضي

(1) الافرني ، نزهة ، ص 204 .

الجماعة ، إلى جانب عدد كبير من الكتاب [1] .

وحظي أهـل سوس بنصيب لا يستهان به من وظائف الدولة ، فكان فيهم قواد جيش وسفراء ورؤساء شرطة وحتى الحرس الخاص [2] .

وكانت الدولة بجموع أجهزتها تعرف باسم « المخزن » كما كانت قبـل ذلك بقرون . غير أن الطبقة المحافظة من أقصى اليمين كانت تكره العمل في وظائف الدولة التي لا تلجأ إليها إلا اضطراراً [3] .

ولاية العهـــد :

لم تنظم وراثة العرش أو ولاية العهد بشكل يضمن أكـــثر ما يمكن من الاستقرار للدولة . لذلك فإن أدعياء العرش من الأسرة المالكة كثروا بشكل لم يتقدم له مثيل في أي دولة سابقـــة ، حتى إن قاضي فاس ابن أبي النعيم ، ومفتيها القصار أصدرا فتوى من نص الحديث : « إذا بويع لخليفتين ، فاقتلوا الأخير منهما » . وكان ذلك حكماً صريحاً ضد مبايعة أبي فارس بمراكش خلفاً للمنصور الذهبي . وكان أهل فاس قد بادروا بمبايعة زيدان ، وعرضوا على أهل مراكش بيعته فرفضوها مبايعين أبا فارس [4] .

وقد حاول مؤسس الدولة ، القائم بأمر الله أن ينظم ولاية العهد عن طريق ترشيح ابنه الأكبر أبي العباس الأعرج ليخلفه ، ولكن الظروف لم تكن مواتية لتتخذ هـــذه المبادرة صفة إجماعية ، إذ لم يكن نفوذ السعديين يتجاوز حينئذ منطقة سوس (سنة 918 هـ 1512 م) كما أن كلاً من أحمد المنصور وأخيه أبي مروان عبد الملك لم يقرّا بيعـة ابن أخيهما المتوكل ، بينما اهتدى بعض كبار الدولة إلى ترشيح محمد المامون وليـــاً للعهد بعد سنة من مبايعة والده ملكاً (أي عام 987 هـ 1579 م) . وكان المامون سيىء السيرة ، وقد جددت بيعته

---

(1) Deverdun, Op, Cit.

(2) محمد المختار السوسي ، سوس العالمة ، ص 20 .

(3) محمد العربي الفاسي ، مرآة المحاسن ، ص 170 .

(4) الافريني ، نزهة ، ص 310 . الناصري ، استقصا ، 6 ، 4 .

ولياً للعهد سنة 992 هـ « 1584 م » ، ولكنه لم ينعم بالملك أبداً ، إذ ظل في حرب مستمرة مع زيدان حتى هلك سنة 1022 هـ « 1613 م ».

ولم تنقطع ثورة أدعياء العرش قط ، فإن محمد المامون الملقب بزغوده نصبه أهل الهبط بمحضر الشيخ الحسن بن ريسون ، غـــير أن أخاه عبد الله قضى على ثورته بعد جهد جهيد سنة 1030 هـ « 1620 م » ولو أن قتله تأخر سنوات ، وثار أبو العباس أحمد بن زيدان سنة 1036 هـ « 1627 م » فاستولى على فاس وسمى نفسه سلطاناً وضرب السكة باسمه، وهو الذي قتل ابن عمه المذكور الملقب بزغودة (1) سنة 1037 هـ « 1627 م » .

وعلى الرغم من الاحتياطات الكثيرة التي كانت تتخذ في عهد الملوك الأولين لضمان أكثر ما يمكن من الاستقرار عن طريق الترشيح المبكر لمن سيخلف الملك القائم فمن المؤكد أن الاختيار كان غير موفق في الغالب بسبب تعدد الأدعياء من جهة ، وعدم إعداد ولي العهد للملك إعداداً لائقاً وشعبياً من جهة أخرى ، كما كان الشأن في عهد المرابطين ، ولمدة سبعين سنة من عهد الموحدين . وهكذا فإن تأهيل ولي العهــد للعرش لم يكن يكفي أن يكون بطريق تعيينه عاملا أو « خليفة » للملك في منطقة من البلاد ، ذلك أن وراثة العرش لم يكن لها ضابط قانوني ولا تراعى فيها مصلحة الأمة . فإذا كانت هناك ردود فعل عنيفــة لدى السكان فإن في داخل القصور وكواليس الدولة تحبك مؤامرات لا تعبأ بمصلحة الأمة ، وحتى نساء القصور وأمهات الملوك وكلهن تقريباً من أصـــل مسيحي لعبن دوراً لا يستهان به في تدبير المؤامرات والتضريب بين الإخوة والأقارب .

على أن الملوك الأولين باشروا وهم أولياء للعهد ، مهمة الصراع ضد الاحتلال الأجنبي كما تولوا مناصب سياسية وإدارية . وهكذا قاد أبو العباس الأعرج إلى جانب والده ، حمـلات لطرد البرتغال من الشواطىء الأطلسية ، وكان المتوكل الملقب فيما بعد بالمسلوخ ، عاملاً على فاس من قبل والده الغالب ، وكان المنصور عاملاً بها في أيام أخيه عبد الملك المعتصم .

---

(1) Mercier, l'Afrique Septeutrionale, 3, 201 et 219

وقد حاول أحمد المنصور أن يجعل من شخص ولي العهد ملكاً أصغر ، أي يتوفر بصورة مصغرة على جميع مظاهر الملك ، فيكون له هو أيضاً عدا وزيره الخاص ، قائد للمحلة وحاجب وكاتب سر وصاحب مشور وصاحب مظالم ، وما يلزمه من الجند والرماة وغير ذلك ، اقتداء بالدول السابقة . غير أن المامون لم يكن في مستوى مسؤوليته ، وقد كان من بوادر استخفافه بهـذه المسؤولية أن اتخذ كتّاباً لا يحسنون الإنشاء حتى انتقد عليه ذلك والده إذ كان على هؤلاء أن يحرروا المراسلات إلى عدة دول فضلاً عن المراسلات الداخلية [1] .

ومن مستحدثات المنصور الذهبي التي أصبحت بعـده تقليداً متبعاً ، إلزام الذين يعنيهم أمر البيعة بأداء اليمين على المصحف وصحيحي البخاري ومسلم [2].

الوزراء والحجاب :

سبقت الإشارة إلى أن السعديين لم يقوموا بتغيير يستحق الذكر في جهـاز الحكم الذي ظل في شكله العام كما تركه المرينيون والوطاسيون .

على أن أول ظاهرة يمكن أن نلاحظها بهذا الصدد أن الملوك الأولين كثيراً ما اتخذوا الوزراء من أقرب أقربائهم ، فقد كان أبو العباس أحمد الأعرج بمثابة وزير وحاجب لوالده القائم بأمر الله قبل أن يتولى هو نفسه الملك . وكان محمد المهدي يتولى مهام الوزير المستشار لدى أخيه الأعرج ، وكان أبو محمد عبدالقادر الحران وزيراً لوالده المهدي الشيخ [3] ، وقد توفي في حياة والده سنة 959 هـ ، كما أن محمداً ابن هذا الوزير استوزره عمـه الغالب بالله [4] الذي كان له وزير آخر أيضاً يسمى ابن شقراء [5] . على أن الناصري سمى في الاستقصا بعض الحجاب

---

(1) الناصري ، الاستقصا ، 5 ، 174 .
(2) الافراني ، نزهة ، ص 174 .
(3) الافراني ، نزهة ، ص 69 .
(4) نزهة ، ص 97 ، وعباس المراكشي ، إعلام ، 4 ، 172 .
(5) الناصري ، م. س ، ص 54 .

وزراء للغالب أيضاً وهو غير ما في نزهة الحادي [1] .

ومن وزراء المنصور عبد العزيز المزوار ، ومولاه مولود ،والناصر بن علي بن شقراء ، وأبو سالم إبراهيم السفياني [2] ، وعلي بن منصور الشيظمي [3] .

ومن وزراء زيدان ، الباشا محمود ، ويحيى أجانا الوريكي ، ومن وزراء عبد الله بن الشيخ ، أحمد الثائرين بفاس : القائد حمو بن عمرو والقائد أحمد ابن عميرة .

ومن وزراء عبد الملك بن زيدان : جؤذر باشا ومحمود باشا ويحيى أجانا الوريكي الذي وزر هو وابنه محمد ، لمحمد الشيخ بن زيدان .

ويختلف هؤلاء الوزراء مقدرة وكفاءة ، كما يختلفون سيرة وسلوكاً ، فقد كان ابن شقرا وزير الغالب مثلاً ، خليعاً ، يسكر جهاراً ويرتدي أزياء متخنثة [4] ، في وقت ضرب فيه الصلحاء المثل في الزهد والقناعة . وكان عبد العزيز المزوار وزير المنصور من رجال العلم والحرب معاً ، حتى لقد زعموا أنه جمع خزانة تحتوي على خمسين ألف مجلد [5] . وكان من بين الوزراء ذوي الشخصية القوية [6] .

وكان بعض الوزراء يكلفون بمهات حربية ، حتى ليمكننا أن نقول إن محمود باشا قائد حملة السودان ووزير زيدان وعبد الملك ابنه ، كان بمثابة وزير الحربية والقائد الأعلى للجيش في عهدهما . والواقع أن هذه الشخصية العسكرية السياسية بحاجة إلى دراسة خاصة أكثر تفصيلاً، وقد شغل هذا الرجل فيما سبق، أي في عهد أحمد المنصور مهمة أمين المال أي أمين الخزينة العمومية ، كما كان

---

(1) ن. م ، ص 57 . ونزهة الحادى ، ص 99 .
(2) ناصرى ، ص 169 .
(3) ن. م. ص 152 .
(4) الافرني ، نزهة الحادى ، ص 87 و ص 357 .
(5) ن. م. ص 274 .
(6) ن. م. ص 294 و 318 ، ناصرى ، 5 ، 66 ، 116 ، 178 .

مدير صندوق القصر الخاص [1] وقائد العلوج ، وهو من الوزراء القليلين في الدولة السعدية ، الذين وفقوا إلى أن يحظوا بثقة ثلاثة ملوك على التوالي ، غير أنه من المؤكد أن الملوك السعديين لم يحظوا في الغالب بوزراء مقتدرين يستطيعون أن يفرضوا وجودهم في دولة مزق شملها تطاحن الأدعياء وانحراف الأمراء ، وعلى العموم ، فهؤلاء الوزراء هم مستشارون أكثر مما هم ذوو نفوذ حقيقي واختصاصات محددة .

وكان لأنجال الملوك وزراؤهم الخاصون ، لا سيما المرشحين المنتظرين للملك ، أو الذين توكل إليهم مهمات سامية في الدولة . وعلى سبيل المثال كان القائد عبد الرحمن بن تودة وزيراً لمحمد المتوكل أيام والده السلطان الغالب [2] .

أما الحجاب ، فكانت مهامهم لا تختلف في شيء عن مهمات الحجاب أيام الوطاسيين ، ومن الحجاب الأولين في عهد أبي العباس الأعرج : محمد بن علي الأنكراطي اليملالي ، ومحمد بن أبي زيد المزاري ، ومن حجاب محمد المهدي الشيخ : علي بن أبي بكر أزيكي الحاحي ، وهو الذي فتك بأبي العباس الأعرج وأسرته ، وموسى بن جمادى الغماري .

ومن حجاب عبد الله الغالب : عبد الكريم بن موسى الجندي ، والقائد بن تودة الذي تقدم ذكره ، وأصله من العلوج الذين دخلوا الإسلام كما ذكر الأفرني ، ثم قاسم الزرهوني الذي عمل من قبل في البلاط الوطاسي وأحمد الهبطي .

ومن حجاب عبد الملك المعتصم : رضوان العلج ، وهو من قواد الجيش .

ومن أبرز حجاب المنصور ، أبو محمد عزوز بن سعيد الوزكيتي [3] .

ومن حجاب الملوك المتأخرين ، محمد بن قدار [4] (1037 هـ) .

---

(1) افرني ، ص 196 ، 198 .

(2) ناصري ، 5 ، 42 .

(3) الفشتالي ، مناهل ، ص 25

(4) عبد الكريم بن المجذوب ، تذكرة المحبين ، وفيات سنة 1037 هـ .

الكتّاب :

اعتمد أغلب الملوك السعديين على كتاب ذوي أسلوب جيد وثقافة واسعة متينة ، وكان فيهم من يجيد الشعر والنثر معاً ، ولعل أهمية الكتاب الخاصين لم تكن تقل أهمية عن غيرهم من الوزراء والحجاب . فقـد كان الأكفاء من هؤلاء الملوك يعلقون أهمية بالغة على الأسلوب الرصين الذي لا بد منه في مراسلة ملوك وأمراء الخارج فضلاً عن الإدارة المركزية والإقليمية . ومن ثم كان اختيـار الكتاب يقوم على سعة أفقهم الأدبي وقدرتهم الإنشائية لدى الملوك المقتدرين خاصة.

ومن بين كتاب أحمد الأعرج : سعيد بن علي الحامدي . ومن كتاب عبد الله الغالب : محمد بن عبد الرحمن السجلماسي ومحمد بن أحمد بن عيسى[1]. كما استكتب عبد الملك المعتصم : أبا محمد السرغيني[2] وأبا عبد الله بن عمر الشاوي الذي كتب للمنصور أيضاً [3] .

واستكتب أحمد المنصور ألمع الشخصيات الفكرية التي انجذبت إلى الوظائف الرسمية ، ومن بينها : أبو فارس عبد العزيز الفشتالي ، وأبو عبد الله محمد بن عمر الشاوي ، وأبو الحسن علي بن أحمد الشامي ، وأبو عبد الله محمد بن أحمـد بن عيسى صـاحب « الممدود والمقصور من سنا السلطان أبي العباس المنصور » ، وأبو عبدالله محمد بن علي الفشتالي ، وأبو عبد الله محمد بن يعقوب اليوسي صاحب الفهرست [4] (وهو غـير أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي صاحب الفهرست أيضاً) و « المحاضرات » الذي توفي سنة 1102 هـ (1691) .

ومن كتاب زيدان بن المنصور : عبد العزيز بن محمد التغلبي [5] . أما محمـد الشيخ المامون فأبرز كتابه : ابن الفرديس أحمد بن محمد التغلبي الذي كان كاتباً

---

(1) الافراني ، نزهة ، ص 100 .
(2) م. م. تاريخ الدولة السعدية ، ص 35 .
(3) نزهة ، ص 210 .
(4) ن. م. ص 271 .
(5) استقصا 6 ، 70 .

مؤرخاً نسابة مبرزاً في الإنشاء (1) ، توفي بفاس سنة 1020 هـ « 1610 م » .

واشتهر عن المنصور الذهبي أنه نظم أوقات عمل الكتاب وتشدد في ذلك حتى كان يعاقب المخالفين . وكان للكتاب رئيس يرجعون إليه . وممن شغل منصب رئاسة الكتاب في بلاط المنصور أبو فارس عبد العزيز الفشتالي ، وأبو عبد الله محمد بن يعقوب اليوسي (2) . وفي فاس كان رئيس الكتاب أيام محمد المامون هو ابن الفرديس التغلبي (3) .

وقد اخترع المنصور حروفاً خاصة أو ما نسميه اليوم بالشيفرة ، وكان يمزجها بالحروف العادية ولا يطلع عليها إلا أبناءه أو كبار المسؤولين الذين يزودهم بنسخة منها متى كلف أحدهم بمهمة ، ويراسلونه بنفس الطريقة ، حتى إذا ضاع الخطاب لسبب ما لم يعرف ما فيه (4) . كما أن العناوين نفسها تكتب بالشيفرة . وكان المنصور مع ذلك يتقن الخط المشرقي . ونلاحظ أن إدخال تعليم الخط وتخصيصه بمدرسين متخصصين كان له شأن في هذا العهد بالمؤسسات التعليمية .

وكانت هناك تقاليد خاصة بالمراسلات الملكية ، من ذلك أن أكثر ملوك السعديين لم يكونوا يوقعون الرسائل بأيديهم ، باستثناء عبد الملك المعتصم الذي كان يتقن الإسبانية والايطالية ، فضلاً عن العربية (5) ، ويمضي الرسائل بخط يده . ومن الوثائق الأوروبية رسالة وجهها هذا العاهل بالايطالية ، وبإمضائه اللاتيني إلى شارل التاسع ، من بلاد الجزائر ، حيث كان لاجئاً سنة 1574 م ، كما وجه رسالة بالايطالية سنة 1576 م إلى القناصل الموجودين بمرسيليا ، وثالثة بالاسبانية إلى فيليب الثاني حول مشروع معاهدة (6) ، سنة 1577 م .

---

(1) نزهة ، ص 324 . القادري ، نشر المثاني ، ج 1 . الاستقصا ، 6 ، 23 . المراكشي ، اعلام ، 2 ، 78 .

(2) افرني ، نزهة ، ص 273 .

(3) ن. م. ص 324 . استقصا ، 6 ، 23 .

(4) نزهة ، ص 202 . استقصا ، 5 ، 188 .

(5) De Castries, les signes de validation, p. 3

(6) Ibid.

وكان ملوك الاسبان يعتبرون عدم إمضاء الرسائل من قِبل السعديين نوعاً من الإهانة ، حتى لقد كانوا يكتبون أحياناً أسفل جوابهم أو مراسلاتهم : Yo el Rey (أنا الملك !) [1] .

وكان من علامات المصادقة على صحة الرسائل الملكية إلى الخارج ، عبارة : صحح ذلك ، وكذا الحمدَلة التي تمتاز بسعتها وتعقدها ، وهي أشبه ما تكون بالطغراء .

وكانت كتابة الحمدلة (الحمد لله) العادية عرفاً جارياً منذ العهد الموحدي في أول الرسائل . وقد كان يعقوب المنصور الموحدي أول من استعمل هذه العبارة في مقدمة الرسائل ، ثم شاع هذا الاستعمال في الدول الاسلامية [2] . كما استخدم السعديون علامة الحمدلة في عُملتهم أيضاً . وكانوا كثيراً ما يختمون رسائلهم بعبارة « توكلت على الله وحده » [3] .

ومن مخلفات السلطان زيدان رسالة كتبها إلى هولندا في 24 شوال 1025 م (4 نونبر 1616) وفيها يتبرأ من وكيله بلياش الذي زور علامته . ومما جاء فيها :

« ... مما نعرفكم أن الذمي بلياش قد استعمل علامتنا في براءتين وقعتا بأيدينا هنا ، ولما اتصلنا بالبراءتين وعلمنا خيانته خشينا أن يكون استعمل أيضاً ، علامتنا في كُتب هنالك ببلادكم ، ولأجل ذلك ، عرفناكم لتمعنوا النظر فيما عسى أن يستظهر هناك علامتنا ، وتميزوا علامتنا التي هي علـمْنا ، وما هو مستعمل عندنا ... »

ونلاحظ أن أسلوب المراسلات في جملته جيد [4] ، وإن كان يسوده بعض الزخرف وخصوصاً السجع ، مع شيء من طول الجمل [5] . ونفس الأمر يقال

---

(1) Ibid. p. 6

(2) Op. Cit. pp. 10 - 11 واستعمل الزيريون الحمدلة من قبل ولكن لم تشع أيامهم .

(3) Op. Cit. p. 8

(4) الناصري ، استقصا ، 5 ، 66

(5) ن. م. ص 147 و 170

عن نصوص البيعة الملكية [1]. أما المراسلات الدبلوماسية فتمثل في جملتها أروع نماذج الأسلوب السعدي إذا صح هـــذا الوصف ، وهي على الرغم من أسجاعها لا تستثقل ، كما أنهـا تمتاز بإيجازها وترابط معانيها مع تأدبها في المخاطبـــة والعرض [2]. ومن مزايا الظهائر جودة أسلوبها واختصارها ، حيث تدل كل فقرة أو جملة على معنى محدد [3].

ولما كان بعض الأمراء والملوك لا يتوفرون على كتاب مقتدرين ، فقد تجلت الركاكة والأسلوب العامي في خطاباتهم . ومن ذلك مثلاً ، ما ورد في كتاب من محمد الشيخ المامون إلى فيليب الثاني ملك اسبانيا : « ... ورجع لنا من غـــير قضيان الغرض » وقوله : « ... وأما نحن ما نحتاجو فيكم شيء ... » [4]

وورد في بعض رسائـــل الناصر كلمات دارجة لا زلنا نستعملها ، مثل : « نخلّيو » (أي نترك) و « باش » و « أنا بداتي نخدمه » ، كما نجد عبارات وألفاظاً دارجة أصبحت نادرة أو مهملة مثل : « التجاير » عوض « التجار » ، وقوله : « لا يعمل فينا لوم [5] » .

وقد أطلق على بعض رؤساء الكتاب لقب « وزير القلم الأعلى » نظراً للمكانة الحقيقية التي حظوا بها لدى الملوك السعديين ، ومن بينهم :

1) محمد بن علي بن إبراهيم الفشتالي الذي انتدبه المنصور سفيراً بالقسطنطينية .

2) أبو فارس عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم الفشتالي مؤرخ الدولة السعدية وصاحب « مناهل الصفا » و « ديوان المتنبي » الذي رتبـه على حروف المعجم بأمر المنصور .

---

(1) عبد الله كنون ، النبوغ المغربي ، ص 370

(2) أنظر نماذج منهـــا في مجلة تطوان ، ع 2 ، 3 ، ص 54 ، لمحمد بن تاويت ، كما أورد De Castries في مجموعته عدداً كبيراً منها .

(3) محمد البشير الفاسي ، قبيلة بني زروال ، ص 67

(4) De Castries, les signes de validation, p. 18

(5) Robert Ricard et Ch. De la Véronne, Sources, Espagne, 1, 192, 194, 196, 230, 231 .

3) محمد بن أحمد بن عيسى الذي توفي بالسجن سنة 990 هـ ، وكل هؤلاء ناظم ناثر [1] .

وقـــد استخدم السعديون في مراسلاتهم عدة لغات كالعربية والفرنسية والاسبانية والايطالية . وإن استعمال اللغات الأجنبية في خطابات ملكية يدل على أن اعتبار اللغة كعامل في الوعي القومي وتقدير المسؤولية الوطنية لم يكن يدخل في التقاليد الملكية لهذا العهد . ومن جهة أخرى ، فقد استخدم السعديون في أواخر دولتهم ، الطابع عوض الإمضاء باليد على رسائلهم .

القضـــاة :

لعب القضاة دوراً بالغ الأهمية في عهد الدولة السعدية ، حيث كان اختيارهم يقع في الغالب على أساس ثقافة فقهية واسعة ، وكان لهم إلى جانب ذلك مواقف سياسية برهنوا فيها عن شجاعتهم ، وأكثرهم كانوا مثال الاستقامة والنزاهة ، وتقدم المراجع أسماء وتفاصيل عن عدد كبير منهم ، كدرة الحجال ، وصفوة من انتشر ، ونزهة الحادي ، وحتى بعض كتب التراجم الحديثة كالإعلام لعباس ابن إبراهيم المراكشي ، وتاريخ تطوان لمحمد داود ، وإتحاف أشراف الملا لابن علي الدكالي .

وظل منصب قاضي الجماعة بالمدن الكبرى خصوصاً فاس ومراكش،من أهم الرتب القضائية إذا لم يكن أهمها من حيث سعة نفوذ صاحبه وحظوته . ومن أبرز من تولوا هذا المنصب في عهد عبد الله الغالب بمراكش أبو القاسم بن علي الشاطبي ، وبفاس عبد الواحد بن أحمد الحامدي ؛ وفي عهد المهدي أبو الحسن علي بن أحمد الاخصاصي بفاس ، والحسن بن أبي بكر بمراكش .

وفي عهد أحمد المنصور عاد إلى هذا المنصب أو أُقِرّ فيه بعض قضاة الجماعة السابقين كالشاطبي بمراكش والحامدي بفاس. وخلف الشاطبي بفاس أبو عبدالله محمد الركراكي 1022 هـ « 1613 م » .

(1) ابن القاضي،درة الحجال،أرقام 630 ، 656 ، 1056 . المقري ، نفح الطيب ، 9 ، 277

وفيما يلي ترجمـــة موجزة لكل من الحامدي والشاطبي بوصفهما أشهر قضاة الجماعة في هذا العهد وأطولهم مدة في تقلد هذا المنصب :

1) أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدي أو الحامدي [1] من أسرة مثقفة بفاس ، وكان على اطلاع واسع في الفقه المالكي حتى كان يرجع اليه في مسائله ، وهو من تلاميذ أحمد الونشريسي وعبد الوهاب الزقاق، كما أنه أستاذ أبي المحاسن الفاسي والقاضي ابن أبي نعيم ، وقيل إنه اشتغل بتجارة الثياب الخلقة مدة قبل أن يستكمل دراسته ، وقـــد اطلع اليفرني على مخطوط « جذوة الاقتباس » لابن القاضي الذي كتب فيه ترجمة الحامدي ثم شطب بالحمرة على قوله : « كان حافظاً لمذهب مالك ، إلا أنه نبذ الشريعة المحمدية وراء ظهره ، وكان يحكم بموافقة شهوته مع علمه بالفقه ، إلا أنه لا يبالي بما فعل ، حتى إنــه اكتسب هو وأولاده شهرة جليلة » .

على أن آخرين وصفوه بأنه أعدل قضاة المغرب ، وقد استقضي بفاس منذ عهد المتوكل سنة 970 هـ ، واستمر في منصب قضاء الجماعة إلى وفاته سنة 1003 هـ « 1594 م » حيث دفن بروضة أبي زيد الهزميري بباب الفتوح بفاس ، وهو من أطول القضاة ولاية . وقد حضر جنازته محمد الشيخ المامون ، وعدد كبير من سكان فاس وبينهم النساء والأطفال « وكان الناس يقتتلون من شدة الازدحام » كما يقول صاحب « سلوة الأنفاس » .

2) أبو القاسم علي بن مسعود الشاطبي قاضي الجماعة بمراكش [2] ، ولد سنة 933 هـ « 1526 م » جمع بـــين الخطابة والقضاء والتدريس ، وسمع صحيح البخاري من المنصور الذهبي وكان يحفظه من كثرة تكراره . وهو أستاذ أحمد المنجور .

---

(1) الافرني ، صفوة من انتشر ، ورقـــة 98 . ابن القاضي ، جذوة . الكتاني ، سلوة الأنفاس 2 ، 60 . عباس المراكشي ، اعلام ، 4 ، 171 .

(2) الافرني ، صفوة ما انتشر ، ورقة 50 . نزهة ، ص 276 . ابن القاضي ، درة الحجال رقم 1338 . القادري ، نشر المثاني ، 1 ، 24 .

وقد عمل الشاطبي سنوات طويلة في القضاء قبل أن يتوفى سنة 1002 هـ « 1593 م » .

أما السودان فكان يعين بها قاضي القضاة الذي يستقر بتومبوكتو ، ويشرف على سائر قضاة المنطقة [1] . وأول من تولى هذا المنصب بعد الفتح أبو جعفر عمر بن العاقب الصنهاجي . وجل سكان تومبوكتو لهذا العهد وما قبله من صنهاجة ، وكثير من القضاة الذين كانوا يعينون بالسودان ينتمون إلى مناطق المغرب الجنوبية كأحمد الفيلالي وأحمد بن سعدون الشاظمي [2] ، وذلك ليألفوا بسهولة طقس السودان وطبيعة الحياة فيه ، وهي تتقارب مع شكل الحياة في الأقاليم الجنوبية .

ومن قضاة الأقاليم عبد الله بن عمر المطغري قاضي درعة في عهد محمد المهدي الشيخ ، وأبو مهدي عيسى بن عبد الرحمن السكتاني قاضي تارودانت في عهد زيدان ، وأبو زيد عبد الرحمن الغنامي الشاوي المعروف بسيدي رحو قاضي تامسنا في عهد محمد الشيخ بن زيدان [3] ، وعبد الواحد الصديقي التازغدري بتازروالت أيام أحمد المنصور [4] ، وأبو العباس أحمد بن العربي الغماري الكومي بمكناس أيام المهدي [5] .

ومن كبار قضاة الأقاليم في عهد المنصور محمد بن الحسن بن عرضون بشفشاون ، وهو فقيه نحوي أديب [6] ، والحسن بن مسعود الحاجي فقيه نوازلي بأغمات [7] ، وأبو القاسم بن محمد الغساني بأزمور وهو تلميذ المنجور وعبدالواحد الحامدي ويحيى السراج [8] .

---

(1) الافرني ، نزهة ، ص 279 .
(2) عبد الرحمن السعدي ، تاريخ السودان ، ص 308 .
(3) الاستقصا ، 6 ، 61 ، و 86 .
(4) محمد البشير الفاسي . قبيلة بني زروال . ص 11 .
(5) عبد الرحمن بن زيدان . اتحاف . 1 . 304 .
(6) ابن القاضي . درة الحجال . رقم 679 .
(7) درة الحجال . رقم 375 .
(8) درة الحجال . رقم 1340 .

ومن الملاحظ أن أكثر هؤلاء القضاة جمعوا بين الفقه والأدب ، أو بين الروح القضائية والأدبية حتى لقد كان أشهرهم كالشاطبي والحامدي وابن عرضون وغيرهم يقرضون الشعر ويتذوقونه ، بل وقد يسفون فيه [1] ، وهذا مما لم تعرفه الأسرة القضائية على العموم في دول المغرب الماضية ، ذلك أن ملوك الدولة السعدية كانوا أكثر تحرراً من سابقيهم ، وهم مع ذلك مثقفون ، بل متضلعون في عدد من فنون المعرفة ، كالمنصور وزيدان والمهدي وغيرهم ، أضف إلى ذلك كثرة احتكاك المغاربة بعناصر أجنبية من أتراك واسبان وغيرهم ، فضلاً عن العناصر الأندلسية الإسلامية التي كانت تمثل أكثر الفئات الإسلامية تحرراً .

وفي المراكز الكثيرة السكان يوجد أيضاً نائب للقاضي كما في سلا [2] ومكناس [3] وتطوان [4] وتامنارت [5] .

على أن أهم تجديد أدخله السعديون في ميدان القضاء هو إحداث منصب خاص بصاحب المظالم يباشر اختصاصاته بصفة دائمة ، وإليه ترد أحكام القضاة والولاة على اختلافهم ، فقد كان ملوك المغرب فيما سبق يتولون النظر في المظالم بأنفسهم ولا ينيبون عنهم فيها أحداً إلا بصفة مؤقتة كما في عهد بني مرين . أما ملوك السعديين فقد أحدثوا هذا المنصب لتقبل الشكايات واستئناف الأحكام ، وإن كان يبدو أن صاحبه كان عمله إدارياً أكثر منه قضائياً ، إذ كان على الملك أو نائبه أن يبت في المظالم بنفسه كما هو معروف عن المنصور مثلاً .

وممن ولي المظالم في عهد هذا السلطان : علي بن سليمان التاملي الجزولي [6] ، وفي عهد نائبه بفاس (محمد المامون) : ابن الغرديس التغلبي [7] .

---

(1) نزهة ، ص 276 .
(2) ابن القاضي ، درة الحجال ، رقم 377 .
(3) ن. م. رقم 1271 .
(4) محمد داود ، تاريخ تطوان ، 1 ، 278 .
(5) درة الحجال ، رقم 1488 .
(6) ن. م. رقم 1275 .
(7) عباس المراكشي ، اعلام ، 2 ، 78 .

وكان هناك كتاب مساعدون لصاحب المظالم الذي يعد منصبه من أرفع الرتب ، إذ هو كالوزير والحاجب ، من أقرب المساعدين للملك ، وبذلك أخذ قسماً من اختصاصات قاضي الجماعة بالعاصمة الذي كانت له درجة مماثلة فيما سبق ، ومع ذلك ظل كل من قاضي الجماعة بمراكش ، وزميله بفاس يحتلان الصدارة بالنسبة إلى من دونهما من سائر القضاة ، وكانا يشتركان في المجالس الاستشارية والمناقشة في القضايا الهامة .

أما مجلس المظالم الذي يترأسه السلطان فهو يشكل أعلى سلطة قضائية حيث يشترك فيه عدد من الفقهاء والقضاة والمفتين . ومتى خرج الخليفة من العاصمة إلى مدينة فاس ، اشترك في مجلس المظالم عدد من هؤلاء من كلتا المدينتين [1] .

وقد كان المنصور مع هذا ينظر في المظالم بصفة يومية تقريباً : يجلس بمقصورة مسجد القصبة بمراكش ، وتارة في الضريح المجاور لجامع القصبة ،وينظر في الشكايات والقضايا ويحكم فيها ، ولا يتخلى عن ذلك حتى أيام الديوان . وإلى ذلك ينتدب سنوياً ، مفتشين لتفقد أحوال السكان في الأقاليم [2] ويقدمون إليه التقارير بذلك ، حتى يكون اطلاعه أكمل ، على مجرى العدالة والإدارة في نواحي البلاد .

وكان تعيين المفتين من اختصاصات الملك [3] ويشمل نفوذهم منطقة واسعة ، وممن تولى منصب الفتوى في ناحية الهبط ، أبو القاسم علي بن خجو الحساني [4] ، وفي فاس يحيى بن محمد السراج النفزي [5] ، تلميذ عبد الوهاب الزقاق ، وعبد الواحد الونشريسي ، ومحمد بن عبد الرحمن بن جلال ؛ وفي مراكش محمد شقرون ابن هبة الوجديجي التلمساني [6] ، وأبو مالك عبد الواحد الشريف [7] .

(1) ن. م. ج 4 ، 265 .
(2) ابن القاضي ، المنتقى والمقصور ، ورقة 62 .
(3) الافراني ، صفوة ، ورقة 9 .
(4) ابن القاضي ، درة الحجال ، رقم 1441 .
(5) درة الحجال ، رقم 647 .
(6) ابن القاضي ، لقط الفرائد ، ص 177 .
(7) الافراني ، نزهة ، ص 204 . الناصري ، الاستقصا ، 5 ، 152 .

ولعل أشهر المفتين في هـذا العهد وأغزرهم علماً ، مفتي فاس محمد القصار القيسي [1] الغرناطي أصلاً وأباً ، وهو تلميذ أبي نعيم رضوان ، وجار الله محمد خروف الأنصاري وغيرهما . وبلغ من سعة اطلاعه فيما قيل ، أن المغاربة لم يكونوا يمتنون في هذا العهد بما عدا النحو والفقه والقرآن ، حتى انتفعوا بالقصار والمنجور في فنون كثيرة . وبديهي أن الأدب والرياضيات والتاريخ قد نفق سوقها في هـذا العهد أكثر من أي وقت مضى على يد مثقفين كثيرين . ويظهر أن تجهيل المغاربة عن طريق هذه الرواية إنما هو من عمل العناصر الأندلسية ، خصوصاً وأن كلا من المنجور والقصار من أصل أندلسي .

ومع غزارة معلومات القصار ، لم يكن يشتغل بالتأليف ، كما لاحظ ذلـك الافرني في « صفوة من انتشر » . غير أن تقاييده كانت في بطاقات ، حتى بيعت تركته منها بالأرطال كما قيل . وكانت وفاته سنة 1012 هـ 1603 م بمراكش ، حيث دفن إلى جانب أبي العباس السبتي .

وكان كثير من المفتين يجمعون بـين الخطابة والفتوى ، كيحيى السراج ، وابن جلال ، وكان كلاهما خطيباً بجامع القرويين . ومهمة المفتي أن ينظر في حـل القضايا المستعصية التي لا يتسع وقت القاضي لتخريجها . وكان كثير من ملوك الدولة السعدية على درجة عالية من المعرفة القضائية والفقهية ، حتى لقد كانوا هم أنفسهم يصححون أخطـاء القضاة ، كما عرف عن المهدي والمنصور وغيرهما [2] .

أما العدول ، فنجد أنفسنا أمام رأيين متناقضين عن تصرفاتهم ، فبينما نوه مرمول بنزاهتهم ، وقـد عاش كما يقول ، عشر سنوات بين المغاربة [3] نرى كاتباً قديراً من كتاب أحمد المنصور ، وهو محمد بن عمر الشاوي ، يصفهم في

---

(1) المحبي ، خلاصة الأثر ، 4 ، 121 ، الأفرني ، صفوة ، ورقة 9 ، عبد الكريم الفاسي ، تذكرة المحبين ، ص 315 ، القادري ، نشر 1 ، 62 .

(2) الأفرني ، نزهة ، ص 221 ، الناصري ، الاستقصا ، 5 ، 35 .

(3) Marmol, Histoire des Chérifs, p, 142

شعر له بالخلو من الكفاءة والعلم بالتوثيق ، كما يصفهم بحداثة السن [1] وعدم النزاهة ، ورأي الشاوي قد يكون موضوعاً للنقـــد أكثر من رأي مرمول . فمع ما نعلمه من كفاءة معظم القضاة وغزارة معارفهم الفقهية بوجه عام، لانرى أن هؤلاء يسمحون بالتعاون مع موثقين كالذين وصفهم الكاتب الشاعر .

وفي هذا العهد ، بـــل قبله بكثير ، نجد نظار الأحباس ، قد استقلوا كلياً أو كادوا عن القضاة فهم أصبحوا موظفين إداريين ، يساعدهم عدولهم الخاصون، وجباة أو قابضون [2] .

ويمكن القول ان اختصاص القضاة لم يتجاوز الميدان الشرعي ، وبالتالي ، اختصاصات قضاة العهد الوطاسي ، ذلك أن الولاة الإداريين (الباشا ، العامل، القائد) ظلوا يبتون فيما نسميه اليوم بالجنح والقضايا المدنية [3] . غير أن بعض القضاة قد توكل إليهم مهام استثنائية كما في الميدان السياسي مثلاً [4] .

وكلمة القضاء في جل الحالات محترمة بقوة الظهير السلطاني [5] ، إذ كان الملوك وحتى رؤساء الأقاليم المستقلة يحمون كلمــة القضاء . وكثيراً ما يحملون القضــاة على التزام جانب العدالة والنزاهة [6] ، وندر أن يتحدوا السلطـة القضائية [7] .

ويمتاز قضاة العهد السعدي بشجاعتهم ، وكونهم لا يخافون في الحق لومـــة لائم [8]. وقد روي أن الحامدي انتقد أمام المنصور السعدي مشهد امرأة وسط

(1) الافرني ، نزهة ، ص 270 .

(2) عبد الكريم الفاسي ، (ابن المجذوب) ، تذكرة ، ص 317 ، 398 .
Milliot, Démembrement des Habous, p. 45.

(3) محمد داود ، تاريخ تطوان 1 , 337 .

(4) الناصري ، الاستقصا ، 6 ، 98 ، الأفرني ، نزهة ، ص 408 .

(5) محمد البشير الفاسي ، قبيلة بني زروال ، ص 67 ، 68 .

(6) الزياني ، قصة المهاجرين البلديين ، ص 478 .

(7) ن. م. ص 477 .

(8) ابن القاضي . درة الحجال ، رقم 1341، الأفرني، نزهة ، ص 258.

جماعة من الرجال والنساء ، وكلهم مغلولون ، وهي بينهم على هذه الصفة تتألم من المخاض ، فلفت العاهل نظره إلى وجوب أخذ الناس بالشدة ...

وكان في القضاة من لا يحيد عن مبدئه مهما كان الثمن ، كالقصار الذي تمسك بدعوة أحمد المنصور وهو لما يتول الفتيا والخطبة (1) ، كما تمسك بدعوة زيدان بعده حتى كاد يكون فيها حتفه ؛ وقد هلك فعلاً وهو في الطريق إلى مراكش ، حيث كانت تنتظر محاكمته من لدن أبي فارس (2) ؛ وكأبي مهدي السكتاني قاضي تارودانت الذي رفض التخلي عن بيعة زيدان ، حتى كاد زعيم سوس أبو زكرياء الحاحي يبطش به (3) .

العمال والولاة :

كان على رأس الأقاليم عمال أو نواب عن السلطان يطلق عليهم لقب الخليفة ، وكان تحت إشراف العامل جماعة من القيادات على رأس كل منها قائد أو باشا ، وقد تحدد استعمال لفظ « القائد » أو « الباشا » على الصعيد الإداري منذ عهد الوطاسيين ، ولو أن لقب الباشا لم يشع إلا أيام السعديين ، وهو استعمال تركي يعطي لحامله صلاحيات إدارية وقضائية ومالية . وكان الباشا أو الداي من الألقاب التي استعملها الأتراك في تونس والجزائر ، وكلاهما يعني الحاكم العام الذي كان تحت إمرته ، القواد في الأقاليم ، وهؤلاء يليهم شيوخ القبائل (4) .

ويمكن القول بتعبير أدق ، أن الفرق بين القائد والباشا لم يتحدد لدى السعديين على الصفة المذكورة ، بيد أن لقب الباشا كان يعني امتيازات خاصة في الميدان العسكري ، وممن حمل هذا اللقب ، جؤذر باشا ، ومحمود بن زرقون قائد حملة السودان .

---

(1) استقصا ، 5 ، 145 .

(2) الأفوني ، صفوة من انتشر ، ورقة 9 ، الاستقصا ، 6 ص 4 و 6 .

(3) استقصا ، 6 ، 61 .

(4) Pellegrin, Histoire de la Tunisie, p, 146

وأول مبادرة لجأ إليها السعديون فيما يخص التنظيم الإداري للأقاليم ، أن أسندوا إدارتها إلى أشخاص من الأسرة الحاكمة . فعبد الله الغالب مثلاً ، أسند إقليم فاس إلى أخيه عبد المومن [1] . وفي سنة 969 هـ 1562 م عين مكانه محمد المتوكل ابنه ، كما عين على مكناس نجله أبا النصر ، وعلى تادلا ابنه الناصر ، ثم نقل أبا النصر إلى تادلا [2] .

وفي عهد المنصور قسمت عمالات المغرب كما يلي بين أبنائه : أبو فارس : سوس . أبو الحسن علي : عمالة مكناس ونواحيها . زيدان : تادلا . ثم نقل زيدان إلى مكناس وأبا الحسن إلى تادلا [3] . أما فاس فقد ميز بها ولي عهده محمد المامون حيث كان نائباً حقيقياً عنه بها ، ثم أقصاه عنها بعد أن ظهر فساد سيرته . وفي أواخر حياته عين أبا فارس خليفة عنه بمراكش [4] .

وظلت فاس غالباً تحت السلطة المباشرة للأمراء السعديين الذين كانوا يعينون بها عمالاً أو خلفاء ، وعلى العموم فقد كان المرشحون لهذه العمالة الهامة مرشحين في ذات الوقت لتولي السلطة الملكية . وهكذا تولى الغالب عمالة فاس أيام والده محمد المهدي الشيخ ، وتولاها محمد المتوكل أيام والده الغالب ، وتولاها أحمد المنصور أيام أخيه عبد الملك ، كما تولاها محمد الشيخ المامون في عهد والده المنصور .

أما مراكش فلم تكن ولايتها تسند دائماً إلى الأمراء ، فكثيراً ما استعمل عليها غيرهم ، مثل علي بن أبي بكر أزناك أيام محمد المهدي الشيخ وعبد الله أعراس الذي ولاه هذه المدينة ، عبد الله بن المامون أحد الأمراء الثائرين من أحفاد أحمد المنصور [5] .

---

(1) Mercier, l'Afrique Septentrionale, 3, 86

(2) الزياني ، الترجمان المعرب ، ص 350.

(3) الافراني ، نزهة الحادي ، ص 175 .

(4) الناصري ، استقصا ، 5 ، 176 .

(5) الاستقصا ، 5 ، 34 ، و 6 ، 8 . نزهة ، ص 314 .

غير أن المناطق الإدارية التي كانت تسند إلى الأمراء تبلغ درجة كبيرة من الامتداد ، فقد كانت منطقة فاس في عهد المعتصم مثلاً ،تشمل شمال المغرب حتى العرائش وما والاها [1] ، وكان عليها في هذا الوقت أحمد المنصور ، على أنها كانت مقسمة إدارياً بين عمال تابعين لسلطته . وقد شهدت هذه المنطقة أحداثاً أليمة في عهد الخليفة محمد المامون وابنه عبد الله ، وكان كلاهما سيىء الإدارة ، فقد حدثت مظالم كثيرة في عهدهما ، وكان المامون لا يصلي ، كما كان يعتدي على الأعراض ويتعاطى التبغ والحشيش ويغتصب أموال السكان ويصادر أموال ضباطه وحاشيته [2] . وعندما وجه إليه المنصور قائده إبراهيم السفياني لمحاولة نصحه وإرجاعه إلى رشده تخلص منه بتسميمه [3] .

أما القواد فمهامهم كذلك إدارية وعسكرية ، وتتوفر مراجع التاريخ السياسي على أسماء الكثيرين منهم ، كالقائد بركة بسلا [4] ، وأحمد بن موسى بالعرائش [5] وعبد المولى بن عيسى بتكاوست (كوليمين) ووادي نول .

وبلغت مملكة المغرب أوج اتساعها في عهد المنصور الذهبي ، حيث تاخمت من جهة الجنوب الشرقي بلاد مصر ، لأن العثمانيين لم يكن لهم اهتمام بالأقاليم الصحراوية . وهكذا اقتضى تضخم مساحة المملكة توظيف عدد كبير من الولاة والقواد ، ومنذ أيام محمد المهدي الشيخ ظهرت رغبة السعديين في التوسع شرقاً على حساب الباب العالي الذي بادر بإرسال سفير إلى هذا الملك يطلب منه وضع تخطيط مشترك للحدود بين المغرب وإيالة الجزائر [6] . والظاهر أن هذا السفير لم ينجح في مهمته ، حيث تم اغتيال محمد المهدي بعد قليل من وفادته .

أما إدارة إقليم السودان فقد كلفت السعديين غالياً لبعدها السحيق ، على أن

---

(1) نزهة ، ص 139 . استقصا ، 5 ، 67 .

(2) Fagnan, Extraits inédits, p. 419

(3) Op, Cit. p. 422

(4) نزهة ، ص 288 .

(5) الاستقصا ، 5 ، 83 .

(6) نزهة ص 78 .

السودانيين لم يرحبوا بهذه الإدارة على الدوام ، فقد ثاروا أكثر من مرة ضد السعديين [1]. غير أن حسن إدارة بعض القواد العامين ضمن احتفاظ هذا الاقليم بولائه لهذه الدولة [2] ، على الرغم من الحروب الأهلية التي نشأت داخل المغرب بسبب التناحر بين الأمراء على العرش . فالسودان والحالة هذه لم تشهد دائما فترات سيئة من الحكم السعدي ، وممن عرفوا بحسن القيادة يوسف القصري ، وحدو بن يوسف الأجناسي [3] .

وقد احتفظ السعديون مع هذا بأمراء السودانيين يباشرون سلطة رمزية على مواطنيهم بإشراف القواد المنتدبين من المغرب[4]، على أن الجيش بدأ يعين قواده مباشرة ابتداء من 1021 هـ 1612 م .

أما الرباط وسلا فقد احتفظتا باستقلال ذاتي منذ عهد السلطان زيدان سنة 1023 هـ 1614 م ، غير أن السلطان ظل يباشر سلطته الرمزية عليهما ، وكان السكان ينتخبون قائدهم لمدة سنة كما ينتخبون ديوانهم (المجلس الاستشاري) الذي يستقر بالقصبة ،ومن القواد سنة 1038 هـ 1629 م محمد بن عبد القادر صيرون. وفي سنة 1039 هـ 1630 م أحمد بن علي البشير . وكان الانتخاب مقصوراً على سكان القصبة ، ثم سمح للأندلسيين سنة 1630 م باختيار ممثل عنهم إلى جانب العامل ، وبانتخاب الديوان مناصفة بين الفريقين [5]. وكان سكان القصبة منالموريسكيين، وهم الأندلسيون الذين خضعوا مدة لحكم الاسبان قبل طردهم . أما القضاة فكان يعينهم السلطان .

غير أن النزاع استمر مع ذلك بين سكان القصبة والأندلسيين بالرباط من جهة، وبين سلا والرباط من جهة أخرى ، حتى تدخل المجاهد العياشي الذي أخضع

---

(1) عبد الرحمن السعدي ، تاريخ السودان ، ص 181 .
(2) ن. م. ص 223 .
(3) ن. م. ص 223 و 226 .
(4) عبد الرحمن السعدي ، تاريخ السودان ، ص 303 و 310 .
(5) Mission Scientifique, Villes et tribus... Rabat, 1, 67

المدينتين معاً لسلطته قبل سنة من وفاته ، أي عام 1051 هـ 1640 م ، فخلفه ابنه عبد الله الذي انتصر عليه الدلائيون [1] سنة 1054 هـ 1643 م .

وعندما استولى الدلائيون على الرباط وسلا عين أبو عبد الله محمد الحاج رئيسهم ولده البكر عبد الله قائداً عسكرياً وإدارياً عليهما ، فاستقر بالقصبة ، ونوب عنه بسلا الحاج الجنوي ، وهو علج من جنوة . وقد مارس الدلائيون نفوذهم على الرباط وسلا مدة عشرين سنة لم يحدث فيها نزاع بين المدينتين [2] .

ولنأخذ صورة حقيقية عن مدى نفوذ السعديين على مناطق المغرب منذ عهد السلطان زيدان إلى نهاية دولتهم ، ينبغي أن نذكر الأقاليم والجهات التي خرجت عن سلطتهم كلياً أو جزئياً :

1) سبتة ومليلية (إسبانيا) ، والجديدة (البرتغال) .

2) سوس وسجلماسة ودرعة : أبو حسون السملالي ، ثم ابنه أبو عبد الله الذي احتفظ بسوس .

3) الغرب والمناطق الممتدة من تازا إلى تامسنا : العياشي .

4) الرباط وسلا : العياشي ثم الدلائيون .

5) تطوان : أولاد النقسيس .

6) نفوذ الدلائيين شمل فاس والقصر الصغير وتطوان شمالاً ، وتامسنا غرباً ، وامتد إلى ملوية شرقاً ، متجهاً في الجنوب نحو ناحية سجلماسة ودرعة (وهاتان تحت نفوذ أبي حسون السملالي ، ثم العلويين) .

وشهدت فاس ظهور عدد من الثوار المحليين الذين حكموها في أوقات مختلفة :

1) أبو الربيع سليمان الزرهوني سنة 1020 — 1026 هـ .

2) عبد الرحمن الخنادقي سنة 1027 هـ .

3) محمد بن سليمان اللمطي وعلي بن عبد الرحمن وآخرون سنة 1032 هـ .

---

(1) Op. Git, p. 69-76

(2) Op. Cit, p. 78

وفيما بين ذلك كانت فاس تتأرجح بين ثوار الأسرة المالكة ، ثم موالاتها للعياشي فالدلائيين

وأكثر ملوك الدولة السعدية اهتماماً بحالة الأقاليم ونشاط الولاة والعمال ، هو أحمد المنصور الذهبي الذي كان لا يقبل من كتابه تأخراً في الرد على مراسلات الولاة ، وكان يقول : كل شيء يقبل التأخير ، إلا أن يجاب العمال على رسائلهم[1]. وكان لا يتردد في عزل ومعاقبة الطغاة منهم[2] . وإذا كان خلفاؤه قد اشتهروا بضعف السياسة وسوء التدبير ، فإن الزعماء الشعبيين كان فيهم من وفق إلى إدارة المناطق الموالية له عن جدارة ، وعلى الخصوص العياشي والدلائيون ، فقد كانت لهم مواقف نبيلة في معاملة السكان بالعدل واللين[3] ، مع الشدة على المائلين للأعداء الدخلاء . ذلك أن كثيراً من العناصر ، أمراء وموظفين وغيرهم ، كانوا يتعاونون مع العدو لأسباب سياسية أو مادية ليست من مصلحة الوطن في شيء[4] .

ومن أهم المناصب الإقليمية والمحلية ، منصب صاحب الشرطة وصاحب الأشغال ، وقد سبق ذكر اختصاصاتهما ، ويبدو أنه لم يلحقهما تغيير في عهد السعديين .

الجيش :

انضم إلى عناصر الجيش السعدي منذ البداية ، عنصر الأتراك في عهد محمد المهدي الشيخ ، وقد كانوا من قبل في خدمة الوطاسيين . وكان قائد هذه الفرقة هو صالح باي ، ثم تعاقب بعده قواد آخرون . غير أن أهم عنصر استعانت به الدولة في بدايتها من حيث العدد والولاء للدولة ، هو عنصر المصامدة ، وعلى الخصوص عنصر المصامدة الذين نشأت الدولة بين ظهرانيهم .

(1) الأفرني ، نزهة ، ص 202 .
(2) الفشتالي ، المناهل ، ص 43 ، 44 ، 143 .
(3) أبو أملاق، الخبر عن ظهور العياشي، ص 50، الزياني، قصة المهاجرين البلديين، ص480.
(4) Robert Ricard, Sources inédites, Espagne, 191, 204, 452

أما عبد الله الغالب ، فقد جمع من أهل الأندلس طوعاً أو كرهاً نحو أربعة عشر ألفاً ، وسجلهم في الديوان بقيادة سعيـــد بن فرج الدغالي أحد مجاهدي تطوان ، وهو من أصل غرناطي[1] ، ثم أسكنهم بالجانب الغربي بمراكش وسماهم جيش النار .

وقام أبو مروان عبد الملك المعتصم من جهتـه بإعادة تجميع عناصر الجيش حسبما ساقه الزياني في الترجمان المعرب [2] :

1) العناصر التي قدمت معه من الجزائر أو في طريقه إلى مراكش ، وتتركب من علوج وصعاليك من الأتراك تخلفوا عن الحملة التركيـــة التي ساعدته على تبوإ العرش مكان أخيه ، ومنهم اتخذ موظفي القصر الخاصين من خدم وحجـاب وطباخين وغيرهم . وكان العلوج ينتمون إلى بلاد مختلفة كإسبانيا والبرتغال [3] ، وكان المسيحيون يسمونهم بالمرتدين ، لأنهم غالباً ما يعتنقون الإسلام .

2) عسكر الأندلس بفاس ومراكش « 14 ألفاً » .

3) بربر الشمال وغيرهم كزواوة ووطاصة ومديونة وبني يزناسن وأهـــل الريف ، الخ ... « خمسة آلاف » وقد سماهم عسكر العجم « ! » .

4) عرب الشراقة من حشم وبني عامر وغيرهم « خمسة آلاف » . والشراقة أو الشراكة « بالكاف المثلثة » هم أعراب بادية تلمسان ، سموا بذلك ، لأنهم قدموا من النواحي المتاخمة لشرقي المغرب .

5) عسكر الغرب : سفيان ومالك والخلط « خمسة آلاف » .

6) عسكر الحوز : الشبانات وأولاد جرار ومطاع « خمسة آلاف » .

أما أحمد المنصور فقد أعاد تنظيم الجيش على أسس جديدة تتفق وأحـدث

---

(1) الزياني ، الترجمان المعرب ، ص 350 .

(2) الترجمان المعرب ، ص 353 .

(3) Champion. Le Maroc et ses villes d'art, p. 109. Deverdun, Marrakech, 1, 444.

التنظيمات العسكرية ، ويقـــدم الفشتالي [1] وصفاً شيقاً لتوزيع فرق الجيش والحرس الخاص وعناصره ومهامه، وقد نقل هذا الوصف عنه كل من «الأفرني» في نزهة الحادي و « الناصري » في الاستقصا وغيرهما ، فلا طائل في نقله هنـا برمته ، ونجتزىء منه بما يلي :

كان حرس المنصور يتألف من مجموعتين رئيسيتين : الترك من جهة ، والعلوج ومن انضاف إليهم من جهة أخرى،وهاتان المجموعتان تكونان الجيش النظامي، ومن قسم منهما تشكلت ست فرق :

1) البياك ، وهم حراس القبة والفسطاط .
2) السلاق « بضم فشد » ، ويقفون خلف هؤلاء .
3) بَلَنْبَـردوش ، وهم مسلحون برماح قصيرة ركبت عليها أسنة عظـام ويقفون خلف السلاق .
4) الشنشرية ، لشؤون المطبخ .
5) القبجية « بفتح القاف » لحراسـة الأبواب والمشور وتمهـد المجلس الملكي بالتنظيف .
6) الشواش ، لترتيب صفوف الجيش وتبليغ الأوامر السلطانية .

ومن جهة أخرى ، فهناك ثلاث فرق تشارك في الحرب ، وثلاث لخدمـــة السلطان الخاصة [2] . ولكل من هذه الفرق زي خاص على النمط التركي .

وتمثل حملة السودان مدى أهمية الجيش السعدي، فقد قيل إن المنصور استمر يهيىء لهذه الحرب مدة ثلاث سنوات ، وأنه أمر بخروج المضارب والمباني إلى وادي تانسيفت حيث وزعت الأعمـال والأثقال وقسمت الفرق بحيث يكون تحت كل قائد ألف من الفرسان والرجالة ، ومجموعهم عشرون ألفاً يضاف إليهم من المعلمين والبحرية والطبجية ألفان [3] . وكان إقلاعهم عن العاصمة سنة 999 ھ .

(1) الفشتالي ، مناهل ، ص 162 .
(2) Terrasse, Histoire du Maroc, 2, 193
(3) الزياني ، الترجمان ، ص 354 .

والظاهر أن محمود باشا الذي تابع فتح السودان قد صحب معه قوات احتياطية هامة ، إذ نرى السعديين قد فقدوا آلافاً من رجالهم لأسباب أكثرها غير عسكري [1] . وقد صرح المنصور أثناء استشارته لرجال الدولة بصدد الحملة ، أن القصد منها هو البحث عن موارد ثمينة لتقوية جيشه ، وقد كان طموحاً إلى أن يبسط نفوذه على ما وراء المغرب ، خصوصاً الأندلس ، بل كان يتمنى أن يعيد إلى الإسلام وحدته [2] .

وكان من عادة الملوك السعديين قبل شن الحرب ، أن يلجأوا إلى أسلوب المفاوضة أولاً ، والنصح ثانياً ، وأخيراً إلى الإنذار الذي يشفعونه بإجراءات الحرب العادية [3] .

وكانت الدولة تلجأ إلى إلزام السكان بنفقات الحاميات التي تستقر بأرضهم ، ولكن التنظيم الذي أحدثه المنصور جعل أرزاق الجند منتظمة من مال الدولة ، الذي نما بفضل ازدهار صناعة السكر من جهة ومناجم الذهب التي أصبحت تحت تصرف الدولة من جهة أخرى ، مع العلم أن حملة السودان قد ساهم الشعب في نفقاتها الخاصة .

أما زي الجيش الذي تم توحيده حسب التنظيمات السابق ذكرها ، فيتألف أساساً من كساوي الملف بسراويلها الفضفاضة التي لا يزال يمثلها إلى حد ما ، زي الحرس الملكي الحالي ، بالإضافة إلى شعارات خاصة بفرق الحرس .

ولما كان من الضروري تحصين المراكز الرئيسية ضد الهجمات التركية والاسبانية ، فقد أعيد بناء الحصون على أساس صلاحيتها لاستخدام المدافع ، وهكذا بنى أحمد المنصور حصن تازا وأبراج فاس بالشمال والجنوب ، والأبراج الركنية عند أسوار فاس الجديد ، كما أعيد بناء تحصينات قصبة مراكش ،

---

(1) باذل دافيدسن ، إفريقيا تحت أضواء جديدة ، ص 180 .

(2) نزهة ، ص 159 و 170 .

(3) ن. م. ص 152 و 154 . G. Pianel, Hespéris, 1, 2-1953

بحيث تحتمل أبراجها المدفعية الخفيفة (1) . وإلى جانب تجهيزات دفاعية في عدد من الموانىء والمراكز الداخلية ، استخدم السعديون التحصينات البرتغالية التي ظلت سليمة في جملتها .

والواقع أن السعديين لم يفتروا عن الاهتمام بالجيش حتى وفاة المنصور . وقد ظلت بعض الأسلحة العتيقة كالسيوف تستعمل إلى جانب الأسلحة الحديثة ، من بارود وبنادق ورصاص ومدافع وقنابل ، غير أن الأسلحة العتيقة فقدت أهميتها بطبيعة الحال ، حتى لقد كادت تترك مكانها كلياً للآلات والأدوات الحربيـــة الحديثة في أواخر الدولة .

وكان الجيش يتوفر أثناء الحملة على كل ما يلزمه من جراحين وأدوية وضمادات فضلاً عن عدد من الحلاقين والنجارين والتقنيين على اختلافهم (2) .

واستعملت كل المصطلحات العسكرية التركية تقريباً ، ومنها :

1 ـ الأودباشي « ملازم » . ولا يزال في مراكش حي رئيسي يدعى بدرب ضباشي وهو تحريف للاصطلاح المذكور كما لاحظ ذلـــك دوفردان (3) . 2 ـ بُلكباشي « قبطان » . 3 ـ كاهية « كولونيل » ، ولا تزال بالمغرب عائلة تدعى ببلكاهية . 4 ـ شاوش ، وقد تقدم معناه ، مع العلم بأن هـــذا المصطلح ظل يستعمل حتى الآن مع تغيير في مدلوله . 5 ـ الباي ، بمعنى قائد القواد . 6 ـ الطوبجي « المدفعي » .

وهناك مصطلحات تقدم ذكرها كالباشا والقائد(4) ، بالإضافة إلى مصطلحات أخرى عربية الأصل ، ومنهـــا : المحلة التي كانت لدى الأتراك بمعنى الحملة أو

(1) Terrasse, Op. Cit. p: 194

(2) م. م. تاريخ الدولة السعدية ، ص 51 .

(3) Deverdun, Marrakech, 1, 441

(4) عبد الرحمن السعدي ، تاريخ السودان ، ص 138 .
Mercier, L'Afrique Septentrionale, 3, 131-34

الغزوة ، ولكن المغاربة استعملوها بمعنى الحامية أو فريق من الجيش ، بينما استخدموا عوض « الغزوة » لفظ (الحركة ، بجزم الراء) .

وتسند قيادة الجيش إلى عناصر كثيرة . وبعض الملوك يكلونها إلى أبنائهم ، فمحمد الحران قاد جميع العمليات العسكرية حتى وفاته في عهد والده محمد المهدي الشيخ [1] . وقد تكون قيادة ابن الملك رمزية ، ويتولى الإشراف الفعلي على العمليات الحربية شخص من غير الأسرة المالكة في هذه الحالة [2] .

وكان قائد قواد الغالب هو علي بن مسعود بن شقرة [3] (ت 984 هـ 1575 م) ، وقائد جند الأندلس في أيامه ثم في عهد المعتصم هو سعيد بن فرج الدغالي ، ومن قواد المعتصم الذين قادوا حملة وادي المخازن : أبو علي القوري ، والحسين العلج الجنوي وعلي بن موسى وأحمد بن موسى ومحمد أبو طيبة [4] ورضوان العلج .

أما أحمد المنصور فأبرز قواده من الترك والعلوج ، ومنهم جؤذر باشا ، ومحمود باشا ، والأول كان قائد جيش الأندلس في أيام المنصور قبل أن يقود حملة السودان ، وعمار الفتى وكان قائد جيش السوس ، وشارك أيضاً في حملة السودان ، كما مثل كلاً من المنصور وزيدان كقائد بها سنة 1599 و 1618 م ، وعمار هذا من أصل برتغالي [5] ، وعلوج قائد جيش العلوج ، وبختيار وبغا وهما تركيان . ومن قادة الجيش المشهورين في عهد المنصور ، أيضاً محمد بن إبراهيم بن بجة ، ومحمد بن بركة .

أما حملة المنصور إلى توات وتيكوراراين، فقادها كل من أحمد بن بركة وأحمد الحداد العمري المعقلي [6] .

---

(1) نزهة ، ص 69 .

(2) الاستقصا ، 5 ، 42 .

(3) ابن القاضي ، درة الحجال ، رقم 1280 .

(4) الاستقصا ، 5 ، 83 .

(5) Caillé, La petite histoire du Maroc, 1, 133

(6) نزهة ، ص 154 .

ومن قواد زيدان ، القائد عبد الصمد ومحمد السنوسي ، ويونس الأيسي ، وأخوه عبد الله بن المنصور ، والعلج مصطفى باشا . كما اعتمد عدد من ملوك فاس كعبد الله بن المامون على قواد من العلوج كمامي الذي قاد جيوش هـذا الأمـير .

وعلى العموم فالقواد من أصل بربري أو عربي قلما تسند إليهم قيادة حملات هامة ، وهكذا فإن جل ملوك السعديين قد اطمأنوا في أهم العمليات العسكرية إلى الأتراك والعلوج خاصة .

وكانت المراكز التي تساند بعض الثوار يؤخذ أهلها بمنتهى الشـدة ، حتى لتستباح أموالهم ودماؤهم جزاء على خروجهم عن طاعة السلطة المركزية [1] .

ولم تهمل الدولة أمر الأسطول حتى أوائل فترة انهيارها . وبقطع النظر عن جهود محمد المهدي في إنشاء القطع الأولى لهذا الأسطول ، فقد عززها عبد الملك بمزيـــد من الوحدات في كل من العرائش وسلا [2] حيث استصلحت الترسانة الموحدية لتواصل أداء مهمتها .

وقد شارك الأسطول الحربي في حملة السودان ، ومهمته كانت حمـل سكان الجزر الصغيرة المنبثة في حوض النيجير الذي طالما توهمه القدامى يكوّن جزءاً من النيل [3] ، على الدخول في طاعـــة الدولة . وكان عدد البحرية والطبجية لا يتجاوز بضعة آلاف ساهم في غزو السودان منها ألفان [4] ، وربما كان زيدان آخر عاهل سعدي اهتم بإنشاء قطع إضافيـة للأسطول ، ومن جملة مشترياته أربع وحدات حربية صنعت في هولندا [5] .

(1) نزهة ، ص 173 ، استقصا ، 6 ، 51 .
(2) م. مجهول ، تاريخ الدولة السعدية ، ص 53 .
(3) ابن القاضي ، درة الحجال رقم 858 .
(4) الزياني ، ترجمان ، ص 354 .
(5) De Castries. Hollande, T, 1

وللأسطول الملكي قائد عام من أصل أندلسي أو من العلوج غالباً . ومن قواده في عهد المتوكل ، القائد علي بن عبد الله [1] ، وفي عهـــد المنصور ، محمود بن علي زرقون [2] ، وهو أيضاً ، القائد العام في حملة السودان، والرايس شعبان والرايس إبراهيم الشط [3] .

واذا كانت العناية بأمر الأسطول بدأت تضعف أيام زيدان نفسه ، فقد تولى مهمة إنشاء القطـــع الجهادية ، الموريسكيون في كل من الرباط وسلا وتطوان . ولعب العلوج دوراً فعالاً في قيادة أساطيل المجاهدين والسهر على الأشغال التقنية الخاصة بها ، فقـــد كان أغلب الرؤساء منهم ، وعدد العلوج لدى الموريسكيين بالرباط لا يقل عن 300 حسب تقدير أحد المسيحيين سنة 1635 م . ومن أشهرهم الرئيس مراد [4] . وقد كانت الرباط والعرائش أهم مراكز الأسطول السعدي أيضـاً .

ووصفت بواخر حركة الجهاد البحري الشعبي بأنهـــا أسرع من البواخر الأوروبية ، سواء منها التجارية أو العسكرية، وأغلب المحاربين على ظهرها كانوا من الأندلسيين ، ومعهم الأسرى المسيحيون [5] .

وكانت هذه البواخر تصنع غالباً في هولندا وإنجلترا ، وفي معظم الأحيان لم يكن أصحابها يتجاوزون سواحل المحيط القريبة ، ولا يدخلون البحر الأبيض المتوسط ، ولا يبادرون إلى القتال ، بل يوهمون مراكب المسيحيين أنهم إخوان لهم فيرفعون راية دولة صديقة ، حتى لقد عرفت صواري سفنهم مختلف رايات الدول الأوروبية ، وبذلك تنخـــدع المراكب المسيحية فلا تشتغل بالاستعداد

---

(1) محمد بن تاويت ، مجلة تطوان ، 1 ، 53 .

(2) درة الحجال ، رقم 858 .

(3) Mission scientifique, Villes et tribus.·. Rabat, 1, 133

(4) الفشتالي ، مناهل ، ص 244 .

(5) ن. م. ص 134 .

للمقاومة حتى يفاجئها المجاهدون ويصمدوا على متنها [1].

وظلت ترسانة أبي رقراق تواصل عملها بفضل مساعدة الفنيين الأندلسيين والأجانب، وفيها تتم عملية الترميم والتركيب، وأحياناً تصنع فيها قطع كاملة.

أما مجموع جيش الدولة فمن الصعب تحديده في أي وقت، فهناك الجيش النظامي الذي يتكون من عدة عناصر كما سلف، والمتطوعة الذين يزداد عددهم أو ينقص حسب الحاجة والولاء للدولة. وهكذا استطاع السعديون أن يتوفروا أثناء حصار آسفي على ما يربو على مائة ألف مقاتل فيهم فرسان ومشاة ومدفعيون، وهذا تقدير رواية مسيحية ينبغي أن يؤخذ ببعض التحفظ [2].

وحسب تقدير شاهد عيان أجنبي أيضاً، فإن مجموع الجيش النظامي يحتوي على أربعين ألف مقاتل، بما فيهم أربعة آلاف من العلوج، ومثلها من جند الأندلس، و 1500 من زواوة. أما عدد المتطوعة والجيش الاحتياطي فقد يصل إلى مائتي ألف [3]، وحتى حملة السودان على غزارة ما كتب عنها نسبياً، فلا يعرف على التحقيق عدد الجيش الذي إشترك فيها، فقد أورد الزياني 22 ألفاً، وطيراس 8500، وجوليان 3000.

وذكر صاحب «تاريخ الدولة السعدية» [4] أن قوات محمد المامون ولي عهد المنصور، بلغت 22 ألفاً من النظاميين، فكم يكون مجموع جيش الدولة والحالة هذه ؟. وقدر مرمول الحرس الخاص بخمسين ألفاً، وهو تقدير مبالغ فيه.

ومن البديهي أن ينحط عدد القوات الملكية في مرحلة انهيار الدولة، فإن

---

(1) ن. م. ص 135 - 136. ومن المراجع عن حركة الجهاد البحري:
Coindreau, Les corsaires de Salé. Caillé, La petite histoire du Maroc. De Castries, Sources inedites,
وانظر عن رايات المجاهدين البحريين: Bernard Dubreuil, Héspèris, 3-1960

(2) R. Ricard, Hespéris, 4-1937

(3) Terrasse, Histoire du Maroc, 2, 193

(4) م. م. تاريخ الدولة السعدية، ص 73.

عدد جيش زيدان لم يتجاوز 1500 عام وفاته (1) ، في الوقت الذي كان يتوفر فيه بعض الزعماء المحليين على قوات كبيرة العدد ، فابن عيسى النقسيس حاكم تطوان مثلاً كان يتوفر على عدة قبائل تناصره وهي مسلحة باستمرار : 400 فارس و 3000 راجل في قبيلة أنجرة . أما في جبل الحبيب فتحت تصرفه 2000 فارس و 8000 من المشاة أغلبهم بالاسلحة النارية ، وفي نواحي أصيلا 10000 من المشاة و 3000 فارس أغلبهم بالاسلحة النارية ، وفي نواحي القصر الكبير 60000 فارس، وعدد لا يحصى من المشاة معظمهم بالاسلحة النارية أيضاً (2) . ولو صدقنا عشر مجموع هذه الاعداد لكان شيئاً كثيراً يفوق جيش السلطان المغلوب على أمره !

وكان علم الدولة الاكبر يدعى باللواء المنصور ، وهو أبيض اللون يرفع على رأس الملك من خلف ، ويكون دليلاً للجيش يتوجه باتجاهه . وقد استعمل منذ عهد الملوك الأولين . وهناك رايات أخرى مختلفة الالوان يختص كل فريق من الجيش ببعضها (3) . وبياض العلم الاكبر سبق اختياره من لدن الدولة الموحدية كما مر .

وقد اعتاد كبار ملوك الدولة أن يخبروا بانتصاراتهم في المعارك والفتوح الكبرى ولاة الأقاليم وملوك الدول ، ويكون ذلك مجالاً لاحتفالات شعبية ورسمية حيث تزين الشوارع والأزقة ، ويستقبل الملك تهانىء السفراء وكبار رجال دولته كما حدث بعد معركة وادي المخازن وحملة السودان (4) .

النظام المالي :

لجأ أبو عبد الله القائم بأمر الله إلى طريقة طريفة في إحصاء السكان الذين

---

(1) ناصري ، استقصا ، 6 ، 70 .

(2) R. Ricard, Hespéris, 4- 1937

(3) الافراني ، نزهة ، ص 198- 199 . الفشتالي مناهل ، ص 166 ، الناصري ، استقصا ، 5 ، 43 ، الجزائري ، الغاية من رفع الراية ، ص 14 .

(4) نزهة ، ص 145 ، 167 ، 178 ،
R. Ricard, Sources inédites, Espagne, 2, 449.

ساندوا دولته ، حتى يتمكن من فرض ضريبة مخففة عليهم لتزويد جيشه بما يلزمه من عتاد وغيره . وهكذا فرض على كل أسرة بيضة ، حتى إذا جمع من البيض على قدر الأسر طالب كلا منهم بأداء درهم ، وسمى ذلك نائبة . وظل هذا النظام معمولاً به في عهد خلفائه إلى أيام أحمد المنصور الذي ارتفعت الضرائب في أيامه ، ثم تفاحشت بعده من غير طائل [1] .

وقد تقدم في سياسة المهدي الداخلية أنه جعل مبلغ النائبة صحفة شعير وعشرين مداً من القمح عن كل دار ، وصاع سمن وكبشاً عن كل أربع نوائب أو أسر ، ويبدو أن خلفاءه عادوا إلى النظام الذي أحدثه القائم ، بينما أحدث المنصور ضرائب إضافية غير النائبة . وكانت في أول دولته عينية ثم حولها إلى ضريبة نقدية تعادل قيمتها .

ومن موارد الدولة في عهد المنصور، الخراج وأموال الفدا عن أسارى وادي المخازن ، ودخل السودان الذي عاد على الدولة بثروة طائلة،بالإضافة إلى مستفاد مصانع السكر والتجارة الخارجية والجمرك ، بما في ذلك جمرك سبتة الذي كان له جابٍ خاص يقيم عند مدخل المدينة [3]. كذلك كانت تفرض الغرامات الباهظة على الثوار الذين تتغلب عليهم الدولة [4] .

وفي هذا العهد كان الجباة يعينون مباشرة من لدن الملك، من غير أن تشملهم سلطة العمال ،وكانوا يُختارون من ذوي الثراء حتى لا يطمعوا في مال الدولة[5]. وبينهم من اشتهروا بالكفاءة الإدارية والعسكرية .

أما أمانة بيت المال فتسند غالباً إلى أشخاص من ذوي العلم بالفقه والفرائض

---

(1) نزهة ، ص 74 .
(2) ابراهيم الحساني ، ديوان قبائل سوس ، ص 169 .
(3) التمكروتي ، النفحة المسكية ، ص 196 .
(4) نزهة ، ص 173 .
(5) التمكروتي ، م. س. ص 196 . الفشتالي ، مناهل ، ص 18 . الناصري ، استقصا ، 5 ، 181 .

والحساب ، فضلاً عما يقتضيه منصبهم من نزاهة وحسن تدبير . وممن تولى هذا المنصب ، عبد العزيز بن عبد الله الدمناتي أحـــد أساتذة الأسرة المالكة [1] ، وسليمان بن إبراهيم ، وكلاهما كان أستاذاً لأحمد المنصور [2] .

وكانت عملة السعديين في أواسط القرن 10 هـ 16 م من الذهب والفضـــة ، ووحدتها الأساسية هي الريال الذهبي . على أنه توجد ثلاث وحدات : المثقال ، وهو عشرة ريالات ، ونصف المثقال وهو خمسة ريالات ، وربع مثقال وهو ريال وربع . كما كانت العملة تتألف أيضاً من ثلاث وحدات ، ويستعمل الميزان لوزن هذه الوحدات بواسطة معايير خشبية صغيرة [3] .

واكتشفت بُعَيْد الاستقلال بناحية أبي الجعد في قبيلة أولاد يوسف 35 قطعة فضية ، و 84 ذهبية ، ومن هذه القطع دنانير يزن أحدها 3,80 غ من عهـد محمد المسلوخ « المتوكل » ، وأثقلها دينار يبلغ 4,91 غ من عهد زيدان . وهذا يدل على أن قطع العهد السعدي لم تكن دائماً من نفس الوزن . ومن بـين هذه القطع 39 من ضرب أحمد الذهبي و 31 من ضرب زيدان ابنه ، و 5 لأبي فارس ، وأخرى باسم أبي حسون وأبي محلي [4] .

ومن مراكز ضرب السكة ، مراكش وفاس وكتاوة « من إقليم درعة » ، وسجلماسة ودرعة وسوس والمحمدية .

وقد ارتفعت قيمة العملة الذهبية المغربية في عهد السعديين ، إلى درجة أن التجار المسيحيين بالمغرب كانوا يعملون على تهريبها إلى الخارج [5] ، وعلى الرغم مما تذكره كل المصادر تقريباً ، من أن لقب « الذهبي » قـد أضيف إلى المنصور

(1) ابن القاضي ، درة الحجال ، رقم 1057 .

(2) ن. م. رقم 1384 .

(3) Marmol, Histoire des Chèrifs, p. 47, 48

(4) Deverdun. Hespéris, 3, 4 - 1958 تقابل هذه المعلومات بما جاء في: « مظاهر الحضارة المغربية » 1 ، 76 ، للاستاذ عبد العزيز بنعبد الله .

(5) درة الحجال،2،ص 451، Julien, Histoire de l'Afrique du Nord 2,215

على إثر انتشار عملة الذهب ، نتيجة لحملة السودان ، فمن المرجح أنه حمل هذا اللقب قبل غزو البلاد المذكورة [1] ، خصوصاً بعد معركة وادي المخازن التي درت على الخزينة أموالاً ضخمة من الفداء وإن كانت موارد الذهب فيما بعد أضخم منها .

ومن نماذج العملة السعدية قطع ترجع إلى عهد عبد الله الغالب ، نقشت كما يلي [2] :

– في الوجه الأول : نقش بين الإطار والمربع الداخلي :

عمل بمدينة مراكش

وفي وسط المربع :

بسم الله الرحمن الرحيم
عن أمر الله الغالب
بالله أمير المؤمنين

– في الوجه الثاني بين المحيط والمربع :

سبعة وستين بعد تسعمائة

وبداخل المربع :

أبو عبد الله بن أمير
المؤمنين أبي عبد الله
محمد الشريف الحسني

وفي العملة التي سكها أبو محلي سمى نفسه أبا العباس المهدي خليفة الله ، ومع هذا كانت تروج عملات أجنبية كالبرتغالية والإسبانية ، ولكن قيمتها كانت منخفضة عن السكة الوطنية .

ومن المؤكد أن حملة السودان ساعدت المنصور على أن يسك هذه المقادير

(1) ابراهيم الحساني ، ديوان قبائل سوس ، ص 166 ، و 215 . Julien, Ibid.

(2) La voix, Catalogue des monnaies, p. 480

الضخمة من العملة الذهبية على ارتفاع قيمتها . فقـد ذكر تاجر إنجليزي سنة 1594 م 1003 هـ ، أن جؤذر باشا عاد من السودان بثلاثين جملا محملة كلها تبراً . ولم تجف مناجم الذهب إلا بعد سنين طويلة من مقام السعديين بالسودان [1] ، خلافاً لما ذكره جوليان من أن المنصور اكتسب موارده الضخمـة من مفاداة الأسرى في حرب وادي المخازن فحسب ، وأنه لم يجد بالسودان ذهباً يستحق الذكر ، وأهم من ذلك ، فقد عدّد مرمول في وصفه لإفريقيا أسماء المدن التي كان السعديون يستخرجون منها الذهب بالسودان [2] .

★★★

---

(1) Walckenaer, Recherches géographiques, p. 43 باذل دافيد، افريقيا تحت أضواء جديدة ، ص 180 ـ 181 .

(2) Walckenaer, Op. Cit. p. 40

2 _ الحيـاة الاجتماعية

السكان :

ما كادت تمر سنوات قلائل على وفاة أحمد المنصور،حتى تقاطرت على المغرب وأقطـــار إسلامية أخرى أفواج عظيمة من الموريسكيين ، وحظيت تطوان والرباط وسلا بعناصر نشيطة وثرية منهم ، وقد زاول كثير منها أعمــال الجهاد البحري ، كما ساهم الموريسكيون بوفير حظ في الإنعـاش الاقتصادي لإفريقيا الشمالية ، خصوصاً المغرب وتونس . وهكذا استقبل هذا القطر حوالي 60 إلى 80 ألفاً منهم سنة 1018 هـ 1609 م حيث انبثوا في أجزاء كثيرة من البلاد التونسية كسهل مجردة وكرمبالية والسلوكية وناحية تونس وغيرها ، فشقوا الطرق ، وأنشأوا البساتين ، وأدخلوا زراعات وصناعات جديدة [1] ، كما عملوا سواء بالمغرب أو تونس على تنشيط التجارة مع الدول ، عن طريق البواخر التي كانت في ملكهم الخاص ، غير أن نشاط حركة الجهاد البحري كان أكثر أهمية بالنسبة لأي قطر إسلامي آخر في هذا العصر .

أما في مراكش ، فقــد حلت فئات من العلوج من مختلف الأجناس ، وهم نصارى يدخلون في الاسلام طواعية أو عن طريق الإغراء ، ليتمكنوا من العمل في خدمة الدولة ، وكان تأثير الاسبان منهم بالغاً ، حتى لقــد ساهموا في تقرير غزو السودان ، وانتشرت اللغة الاسبانية بمراكش إلى درجة أنهـا ظلت حتى أواخر القرن 11 هـ 17 م تداني العربية في انتشارها [2] .

على أن الرماة الأربعـة آلاف من هؤلاء العلوج في حملة السودان لم يلبث أن

(1) J. pignon, Initiation à la Tunisie, p. 103

(2) Deverdun, Marrakech, 1, 442

اعتنق الكثير منهم الاسلام تلقائياً وأحياناً بضغط من السعديين، وكانت أجورهم جيدة ، بل كانوا يتمتعون بوضعية استثنائية بالعاصمة ، مما أدى إلى أن يكرههم المغاربة وحتى اليهود والنصارى ، وكان يمنع عليهم أن يتجاوزوا ما وراء أربعة فراسخ من العاصمة ، إذ يعرضون أنفسهم في حالة المخالفة إلى العقاب الشديد بما في ذلك الإعدام ، وكانت لهم بمراكش مقبرة خاصة [1] ، وعلى العموم فقد كانت لهم يد طولى في إقرار الأمن بمراكش .

ويعتبر الأسرى المسيحيون أيضاً ، من العناصر التي ساكنت المغاربة تحت مراقبة الدولة أو الحكام المتمتعين باستقلال ذاتي . وكان مقام الكثيرين منهم يطول سنوات عديدة في انتظار مفاداتهم عن طريق قناصل بلادهم، وقسم كبير منهم يضطر إلى اعتناق الاسلام ليتخلص من الأسر ، وإلا احتفظ بوضعيته كأسير . وتنبغي الإشارة هنا إلى أن طريقة معاملة المغاربة للأسارى تختلف عن معاملة الأوروبيين لهم لأن هؤلاء كانوا يعاملونهم في الغالب بكيفية خالية من الروح الانسانية .

وكان عدد الاسرى المسيحيين يبلغ حوالي ثلاثة آلاف في مراكش وحدها في أواسط القرن 16 م (أوائل القرن 10 هـ) ، وهم الذين أحدثوا كما هو معلوم ، انفجار حي القصبة سنة 978 هـ 1569 م الذي انشقت له جدران المسجد والصومعة ، وقد ظلت آثار الانفجار ظاهرة إلى وقت قريب من فجر الاستقلال .

وكان للأسرى المتزوجين العاملين في خدمة القصر حي خاص قريب من الترسانة داخل القصبة [2] . ويروي بعض التجار الفرنسيين الذين أقاموا طويلا في مراكش في أوائل القرن 17 م أن هذه المدينة تداني في عظمتها باريس [3] . وقدّر جان موكي سكانها حينئذ بنحو ثلاثمائة إلى أربعمائة ألف ، وهو أول سائح

Op. Cit, pp. 444-445 (1)

Op. Cit, p. 449 (2)

Caillé, La petite histoire du Maroc, I, 136 (3)

فرنسي دخل المغرب [1] ، ومن رأيه أن مراكش أكبر من العاصمة الفرنسية ، وكانت زيارته لها سنة 1015 هـ 1606 م .

وكانت قبيلة الرحامنة ، وهي من بني معقل تستقر قرب مراكش وساهم مع الشبانات في تعريبها ، وكان أغلب السكان بمراكش من أصل بربري أو ممن يتحدثون بالبربرية إلى جانب بعض القبائل العربية ، كما كان يعيش في درعة بين المغاربة عدد من السودان المجلوبين والمهاجرين [2] .

ووصف موكي هذا حالة الأسرى بمراكش، حيث لاحظ جماعة منهم مقيدين، وهم إنجليز يقطنون قريباً من الملاح والديوانة ، حيث يسكن النصارى، بما فيهم مبعوثو الدول الأوروبية وسفراؤها .

وكانت منازل السكان واطئة مبنية بالطين غير محكمة البناء . أما مساكن القواد فمن الحجر ، وتعلو سطوحها أبراج ، وهي واسعة الفناء ، كما أعجب هذا السائح بقصر البديع ذي الأعمدة الرخامية ، ولاحظ بإعجاب قنوات الماء التي تجتذب مياه الأطلس إلى البساتين والسقايات ، كما لفت نظره كثرة الفواكه وجودة اللحم والصيد بالبلد [3] . غير أن الأزقة لم تكن مبلطـــة ، إذ يرتفع غبارها صيفاً ، وتصير موحلة في الشتاء .

أما فاس ، فقـــد زارها رحالة إنجليزي اسمه وليام ليتكو (كاف مثلثة) سنة 1609 م ،فأعجب بروعة فنادقها ولاحظ بها دور البغاء ، أما مساجدها فقد قدّرها بنحو 460 غير القرويين ، كما قدر سكانها بنحو المليون ، ودورها بمائة وعشرين ألفاً [4] . ولا خفاء في مبالغة تقدير الدور والسكان كما نبــه إلى ذلك بعض الكتاب الأجانب أيضاً .

---

(1) Op. Cit, p. 119

(2) Deverdun, Marrakech, 1, 440

(3) Champion, Le Maroc et ses villes d'art, p. 110 وقد تحدث عـــن تعاطي أهل مراكش للصيد : Marmol, Histoire des chérifs, p. 49

(4) Champion, Op. Cit, p. 277

وفي تارودانت استقر عـــدد كبير من اليهود قدرهم مرمول بنحو ألف ، وكان بهذه المدينة أيضاً « ديوانة » أو فندق جمركي يقطن به النصارى ، وكان في الأصل مقراً لسكنى السعديين وهو أول ما بدوه بها (1)

أما في تطوان فقد استقرت عائلات أندلسية كثيرة لا يزال هناك أعقابها حتى الآن ، وكثير منها يحمـــل أسماء أفرنجية تسمى بهـا عائلات مسيحية بإسبانيا (2) ، ونجد نفس الظاهرة بالنسبة لأعقاب الموريسكيين بالرباط .

وهكذا فإن أهم العناصر التي انضافت إلى المغرب في هـــذا العهد هم : 1 — الموريسكيون. 2 — العلوج . 3 — عناصر سودانية وقليل من الأتراك .

وعرف المغرب خلال القرنين العاشر والحادي عشر 16 /17 م كوارث عديدة حيث تسلط على المدن والقرى مجاعات وأوبئة وكوارث طبيعية . وعلى سبيل المثال فقد انتشر الوباء سنتي 964 و 965 هـ في عامة أرجاء المغرب ومات منـــه خلق كثير ضمنهم شخصيات مثقفة كالشيخ علي الفحل وقاضي تطوان أبي عبد الله الكراسي (3) ، ومفتي مراكش أبي عبد الله الحساني (4) وغيرهم .

وفي سنة 987 هـ 1579 م ، ارتفعت أثمان المعيشة وحدثت مجاعة عظيمة حتى أكل الناس الحشائش وانتشر زكام وبائي يسميه المغاربة بـ « الكحيحة » وهلك منه كثيرون (5) .

وحوالي 1004 هـ 1595 م تسلط الوباء على المغرب فكان يخرج من الموتى يومياً نحو ألف من فاس وألفين من مراكش (6) .

---

(1) Marmol, Histoire des Chérifs, p. 154

(2) محمد داود ، تاريخ تطوان ، 1 ، 429 .

(3) ن. م. ص 124 .

(4) عباس المراكشي ، اعلام ، 4 ، 171 .

(5) محمد العربي الفاسي ، مرآة المحاسن ، ص 160 ، الافراني ، نزهة ، ص 263 .
Fagnan Entraits inédits, p. 448

(6) Fagnan, Op. Cit.

انتشر الوباء مرة أخرى ابتداء من 1007 إلى 1016 هـ ، وساعد على انتشاره بفاس فيضان عظيم خرب المنازل والقناطر والأسواق حتى وصل الماء إلى باب البرادعيين [1] . وجاء ذكر الوباء في رسالة وجهها أحمد المنصور إلى ابنه أبي فارس [2] سنة 1011 هـ . وبهذا الوباء الجارف توفي المنصور سنة 1012 هـ 1603 م ، ثم صاحب هذا الوباء مجاعة عظيمة حدثت سنة 1014 هـ 1605 م .

وفي أيام الثورة الأهليـة الداخلية بفاس ارتفعت أثمان المعيشة إلى درجة مهولة حدثت معها مجاعة سنة 1022 هـ ، وهلك من أجلها آلاف عديدون وكثر النهب وخربت أطراف البلد وخلت المداشر من أهلها [3] . وقد أحصى صاحب مارستان فاس نحو 4600 ميت في ظرف أربعة أشهر .

وعاد الوباء يجتاح هذه المرة أوروبا متجهـاً نحو المغرب ، بينما كانت الدولة السعدية تلقى مصيرها المحتوم . وأهلك هذا الوباء بضعة ملايين في المغرب وحده إذ لم ينقطع أثره إلا سنة 1681 م [4] .

والواقع أن الوسائل الصحية من وقاية وعلاج كانت معدومة في جل أنحـاء البلاد ويكاد يقتصر الاهتمام على مراكش وفاس ، حتى إن أهم عمل قام بـه السعديون في الميدان الصحي هو بناء مستشفى كبير بمراكش بالطالعة ، في عهد عبد الله الغالب ، ووقف عليه أوقافاً ينفق منها على المرضى والأطباء والقومة ، ثم خصص بعد ذلك للمجانين ، وصار سجناً للنساء بعد السعديين [5] . ولا يزال موقعه معروفاً ، وقد خرب كلياً منذ سنوات كثيرة .

كما بنى عبد الملك المعتصم للأسرى المسيحيين مستشفى خاصـاً لعلاجهم وتغذيتهم الصحية ، حتى لقد كانت هذه المبرة موضع قصيدة مدح من لدن

(1) Ibid. نزهة الحادي ، ص 305 .
(2) نزهة ، ص 300 .
(3) الاستقصا ، 6 ، 54 .
(4) عبد العزيز بنعبد الله ، مظاهر الحضارة ، 1 ، 106 .
(5) الكانوني ، مجلة المغرب ، ربيع ، جمادى ، 1355 هـ .

أحـــد الرهبان [1] .

وكانت الأوقـاف التي بلغت أوجهـا في هـذا العهـد [2] بعـــد أن تراجعت في أواخر العهد المريني وأيام الوطاسيين تمثل أهم مورد للدولة في ميدان النشاط الإجتماعي ، غير أنه لم تكن توجد مؤسسة مركزية لإدارة الأحباس على الصعيد الوطني ، فلكل مجموعة من الأملاك ناظر خاص [3]. وأهم نظارة بالنسبة للطبقة الفقيرة هي نظارة احباس الضعفاء والمساكين في المدن الكبرى كفاس ، حيث كان لا يولاها إلا الفقهاء المشهود لهم بالنزاهة [4] ، مثل يحيى بن محمـــد السراج الخطيب المفتي (ت ، 1008 هـ) ومحمـد بن قاسم القصار الخطيب المفتي (ت ، 1012 هـ) .

وكما استقبل المغرب هجرات الوافدين عليه من مختلف الأجناس والبلاد فقد عرف أهله أيضاً بحب المغامرة والتنقل بين أقطار العالم . فبالإضافـة إلى وجود العنصر المغربي في أقطار إفريقيا الغربية ، بما في ذلك غانا [5] وصل المغاربة إلى الهند كتجار فنالوا هنالك ثراء وحسن ذكر [6] . وهذا التكيف الاجتماعي هو الذي جعلهم يتقبلون بترحاب وحسن معاشرة وجود اليهود بين ظهرانيهم حتى في الجهات الصحراوية من المغرب ، حيث كان هؤلاء يتوفرون في قرية تكاوست على مصاغات يزاولون فيها صناعتهم بكل حرية .

ولما كان للصحراء من أهمية اقتصادية داخلية وكمعبر إلى السودان فضلاً عن غنى شواطئها الغربية بالسمك ، فقد بدأت أطماع الاسبان تتجلى في الصحراء الغربية في وقت مبكر حيث كان المغامرون منهم يقومون برحلات واتصالات استطلاعية في الساقية الحمراء [7] .

---

(1) Deverdun, Marrakech, 1, 447.

(2) Milliot, Démembrement des habous, p. 39.

(3) Op, Cit, p. 46

(4) عبد الله كنون ، النبوغ المغربي ، ص 247 ـ 248 .

(5) باذل دافيد ، افريقيا ، ص 190 .

(6) ن. م. ص 275 .

(7) Robert Ricard, Hespéris, 1, 2-1935, p. 90.

ويعتبر جزء كبير من سكان جزر الخالدات من أصل مغربي ، فقد كان الاسبان يجلبون إليها كثيراً من أسراهم المغاربة الذين كان بعضهم من الأغنياء ، فيعتبرون بذلك مورداً ضخماً للإسبان بهذه الجزر ، وسائر الأسرى يجبرون على التنصر . وقد عدهم مهندس إسباني بحوالي 1500 سنة 1595 م .

ومع ذلك فقد وصل المجاهدون المغاربة إلى سواحل هذه الجزر التي اهتزت مراراً لهجماتهم ، ابتداء من سنة 1565 م ، وكان المغاربة الذين يكرهون على التنصر يمدون إليهم يد المساعدة . وقد استمر إزعاج المجاهدين لجزر الخالدات مدة ثلاثين سنة (1) .

اللبـــاس :

احتفظ السعديون في رسمياتهم بالبياض شعاراً ، وهو تقليد تبناه المغاربة عن أهل الأندلس منذ قديم ، خلافاً للدولة العباسية ذات الشعار الأسود الذي نقله عنها المرابطون ، ولا يزال كثير من سكان الصحراء حتى يومنا هذا يرتدون ثياباً زرقاء أو سوداء .

ومن جهة أخرى فقد استعمل اللون الأزرق في البرانس حتى أصبح هـــذا اللون من الثياب الوطنية يستعمل إلى جانب البياض كما مر (2) .

وعلى الرغم من أن الدولة تبنت الزي التركي كلباس للجيش ، وأن عبدالملك المعتصم كان يرتدي لباساً على الطريقة التركية ، فإن خلفـــه المنصور اتخذ زياً خاصاً أدخل فيه القفطان والمنصورية التي نسبت إليه (3) . وصار هذا الزي يتخذه بعده الملوك والفقهاء ، كذلك اتخذ الخاصة الحرير في لباسهم ، كما كانوا يغطون رؤوسهم بطواقي حمراء أو قلانس ، وكانت نعالهم عالية .

ويرتدي العامة قميصاً من الثوب مـــع سراويل وأردية متينة تنزل إلى

---

(1) Op, Cit, pp. 95- 102.

(2) Caillé, La petite histoire du Maroc, 1, 76.

(3) Op, Cit. الحساني ، ديوان قبائل سوس ، ص 169 . المقري ، نفح ، 9 ، 286 .

أقدامهم [1] . أما النساء فلهن أقمصـــة فضفاضة تنزل إلى ما دون الركبتين ، وسراويل واسعة تنزل إلى وسط الساق . وفي الصيف يرتدين فساتين من الحرير . أما في الشتاء فيتخذنها من القرمز أو الملف الرقيق ، وفوق الفستان ثوب طويل من الحرير أو الصوف يلقين به على جيدهن ، ويعقدنه على الصـــدر بحلقات من ذهب أو فضة أو معدن آخر ، كما يتخــذن حلي الذهب والفضة ، والأقراط والقلائد ، ويعلقن عليهـا الريال الاسباني ، والأساور التي قـد يستعملنها في أرجلهن [2] .

وكانت هناك أزياء محلية كما هو الأمر اليوم ، وقد تحدث مصدر برتغالي عن نساء بني حسن ، فأتى بمعلومات غريبة في الموضوع ، حيث ذكر أنهن يرتدين زي الغاليسيات (إسبانيا) ، وأن هذا الزي يرجع إلى عهد الغوط ، وأن سكان هذه المنطقة يعرفون عند أهـــل تطوان بالغاليسيين أيضاً (؟) . وزعم نفس المصدر أنهن يحتفلن كل سنة بعيد مولد القديسة جان بابتيست Jeaune Baptiste حيث يغتسلن في البحر ويرقصن في شوارع تطوان بلباسهن المذكور . وذكر هذا المصدر أن الغاليسيين المشار إليهم لا يشاركون في الحرب ضـد برتغال سبتـة [3] .

المـــرأة :

ظلت نظرة المجتمع المغربي إلى المرأة في هذا العهد محافظة بكل معنى الكلمة ، فهي على العموم لا تغادر بيتها إلا لضرورة ملحة ، وعلى الخصوص إلى الحمـام . ونظراً لاختلاط العناصر في هذا العهد وتوارد الأجانب بكثرة من الخارج ، فإن الرجال المحافظين كانت لهم غيرة شديدة على نسائهم ، حتى لاحظ مرمول بهذا الصدد ، أن للمرأة في المنزل خصياً يحرسها [4] (!) . ورفض أهل سلا مساكنة

Marmol, Histoire des chérifs, p. 49. (1)
Op, Cit. (2)
R. Ricard, Hespéris, 1937 (3)
Marmol, Op, Cit, p. 50 (4)

الموريسكيين حتى لم يقبل كثير منهم إكراءهم منزلاً أو أرضاً فلاحية ، لأن نساءهم كن سافرات (1) .

ومع ذلك فقد ظهر في هذا العهد عدد من العالمات الصالحات كعائشة بلت أم أحمد بن عبد الله الإدريسية والدة ابن عسكر ، وقد تلقت عن أبي محمد الغزواني وأبي محمد الهبطي وأبي الحسن بن عثمان الشاوي وغيرهم (2) ، وتوفيت سنة 969 هـ ، وزهرة بنت عبد الله الكوش ، وهي أيضاً من ذوات الثقافة والصلاح ،ولم تتزوج قط ،وقد دفنت بمراكش في حومة الكتبيين بعد 1020 هـ (3) .

على أن المرأة استطاعت في إطار هذا المجتمع المحافظ على تقاليده أن تساهم أحياناً بدور مرموق سواء في الميدان السياسي أو غيره من ميادين الحياة. وتقدم في الحديث عن أنظمة الدولة أن العريفة بنت خجو قامت بدور رئيسي في تغيير وتنظيم عوائد الملوك الداخلية بالقصر . كذلك فإن سحابة الرحمانية أم عبد الملك المعتصم كان لتدخلها لدى السلطان سليم العثماني أثر حقيقي في استرجاع الملك المغربي لعرشه ، حيث وفدت عليه مع ابنها هذا وربيبها أحمد المنصور . وكانت أول من بشر السلطان العثماني بفتح تونس من لدن الجيش التركي .

وفي قصبة مراكش اعتصمت مريم أخت عبد الملك مع ثلاثة آلاف رام من جيش عبد الملك ، بينما تمكن ابن أخيه المتوكل من الاستيلاء على المدينة لأمد وجيز حتى استرجعها عبد الملك ،وأظهرت مريم في اعتصامها هذا ثباتاً عظيماً ، حيث لم تتمكن المتوكل من القصبة .

وقامت عودة (مسعودة) الوزكيتية والدة المنصور بجهد عظيم في العمران والإحسان ، ولا تزال بعض مبراتها قائمة كجامع باب دكالة ومدرسته ، وكانت وفاتها سنة 1000 هـ . وكانت عابدة ناسكة ، عنيت كثيراً ببناء ديار لمبيت

(1) Mission Scientifique, Villes et tribus, Rabat, 1, 62.

(2) ابن عسكر ، دوحة الناشر . مخطوط خزانة عامة د 560 ، الرباط ، ورقة 23 .

(3) الافراني ، صفوة من انتشر ، ورقة 80 .

القوافل في الطرق ، وشيدت أو رممت عدداً من القناطر وغيرها من المباني العمومية [1] .

وفي هذا العهد بدأ صنع الزرابي التركية على يد الطبقة الشعبية من النساء [2].

الغنـــاء :

عُني السعديون بالمحافظة على أصول الطرب الأندلسي ، حتى لقد كان أثرهم مباشراً في تشجيع ونشر هذا النوع من الموسيقى العربية ، مع تنميته وتحسينه ، وهكذا استنبط الحاج علي البطلة (بفتح الطاء) من أهل فاس طبع الاستهلال في عهد عبد الله الغالب [3] .

وفي الواقع طلع نجم المغنين في هـذا العصر بشكل لم يسبق له مثيل ، وعلى الخصوص رجال الملحون الذي كان أحمد المنصور يتذوق منه على الخصوص قصائد عبد العزيز المغراوي [4] .

ويروي القاضي أبو مالك عبد الواحد الحامدي أنه « وفـد على المنصور في بعض المواسم مع الفقهاء ، فلما انصرفوا من الحضرة ، جمعتهم الطريق بأرباب الموسيقى وأصحاب الأغاني من أهل فاس ، وقد كانوا وفدوا أيضاً على المنصور على سبيل العادة ، فأخرج بعضهم شبابة من الإبريز مرصعة أعطاه إياها المنصور ، وبعضهم قال : أعطاني كذا ، وقال الآخر : أجازني بكذا ، ممـــا لم يعط مثله للقاضي وشيعته من الفقهاء ، فقال القاضي : لئن بلغت فاساً لأردن أولادي إلى صنعـــة الموسيقى ، فإن صنعة العلم كاسدة ، ولولا أن الموسيقى هي العلم الغزير ما رجعنا مخفقين ، ورجع المغني بشبابة الإبريز » [5] .

وذكر الفشتالي في « مدد الجيش » أزيد من ثلثمائة موشح أنشأها المنصور

---

(1) ابن القاضي ، درة الحجال ، رقم 1141 .

(2) Marmol, Histoire des Chérifs, p. 50

(3) عبد الله كنون ، النبوغ المغربي ، ص 244 .

(4) Deverdun, Marrakech, 1, 434.

(5) نزهة ، ص 258 . استقصا ، 5 ، 189 .

أو قيلت في مدحه . وقد نقل المقري بعضها في « نفح الطيب »[1] .

وإذا كان الملحون والآلة أو الطرب الأندلسي تحظى به المدن التي حلت بها جاليات أندلسية أو التي يوجد بها هواة لهذا الفن ، فإن البوادي ظلت تحتفظ كذي قبل ، بالطابع الأصيل للبيئة المحلية ليس فقط في الغناء أو الزي ، بل في كل ما يندرج في الفولكلور الذي ليست بعض الرقصات الحالية كأحواش وحيدوس إلا نماذج قديمة منه .

الحفلات والأعياد :

أهم الاحتفالات ذات الطابع الشعبي والرسمي معاً هو الاحتفال بعيد المولد الذي احتفل به لأول مرة بالمغرب بنو العزفي بسبتة ، ثم عممه المرينيون . ولكن السعديين خصوه بمظاهر وتقاليد معينة ظل بعضها معمولاً بـه بعدهم . ووصف الأفراني وغيره ، الطريقة التي تمر عليها احتفالات عيد المولد والتي أعدت تنظيماتها على يد أحمد الذهبي[2] . وهكذا كان العاهل يوجه استدعاءاته إلى فقراء الصوفية من المؤذنين من سائر أنحاء البلاد منذ فاتح ربيع الأول ، بينما يعهد إلى الشماعين بصنع الشموع والعناية بترصيعها مثلما نرى ذلك في هذه المناسبة حتى الآن . وفي ليلة عيد المولد عند قرب الغروب يحملها الصحافون على رؤوسهم على مشهد من آلاف المتفرجين ، ثم يذهبون بها إلى القصر الملكي فينصبونها على منصات خاصة ، حتى إذا طلع الفجر صلى السلطان بالمؤمنين ، وقعد على مشهد من المدعوين وحوله الشموع المذكورة . ويضيف صاحب « النفحة المسكية[3] » في وصف إحدى الحفلات :

« لما استوفى الناس بالدخول من معروف ومجهول ، وامتلأت بالازدحام الساحة والعتبة ، واجتمع الأجناد والطلبة ، وسكنت بعد حين الجلبة ، وركزت

(1) المقرى ، نفح ، 9 ، 278 .

(2) الفشتالي ، مناهل ، 221 ـ 241 . الافراني ، نزهة ، ص 237 .
Caillé, La petite histoire, 1, 105.

(3) التمكروتي ، النفحة المسكية ، ص 168 .

ضخام الشمع المزوق ، وامتلأت القبة والساحة بأخلاط الناس وأصناف القبائل على أجناس ، أتي بأنواع الطعام في القصاع المالقية والبلنسية المذهبة والأواني التركية والهندية، فأكل الناس مختلف أنواع الأطعمة والفواكه والحلواء ، ثم أتي بالطسوت والأباريق ، ونشفت الأيدي بالمناشف المطرزة ، ونصبت في المجلس مباخر الجاوي والعنبر والعود ، ورش على القوم ماء الورد وماء الزهر ، ثم أنشد الناس قصائد في مدح النبي (ﷺ) ، مع ذكر أمير المؤمنين الذي يختم الحفل بالدعاء له » .

ويضيف صاحب « مناهل الصفا » من جهته ، أن المنصور يرتدي البياض في هذه المناسبة شعاراً للدولة ، كما يذكر أن أول من يفتح المجلس هو الواعظ الذي يعدّد جملة من شمائل النبي (ﷺ) ، وأخيراً ، يأتي دور أهل الذكر من الصوفية المادحين ويتخلل ذلك نوبة المنشدين للبيتين ، ثم يأتي دور كبار الشعراء الرسميين فينشدون قصائدهم ، وهم القاضي الشاطبي، والمفتي أبو مالك عبدالواحد الشريف، والوزير أبو الحسن علي بن منصور، فأبو فارس الفشتالي ومحمد الفشتالي، فالأديب محمد الهوزالي، فالفقيه علي المسفيوي [1] . وأخيراً ، تقام وليمة يحضرها القوم من مختلف الانتماءات الإجتماعية .

وفي سابع عيد المولد يقام احتفال فخم أيضاً، إذ هو يوم عقيقة النبي (ﷺ) ، كما كان المنصور ينظم الاحتفال بعيد عاشوراء ، حيث يختتن عدد كبير من أطفال الطبقة الشعبية ، وتوزع عليهم بعض الملابس والمواد الغذائية ، ومبلغ من النقود .

ويعتبر الاحتفال بالشموع المزخرفة في عيد المولد من التقاليد العثمانية التي نقلها أحمد المنصور إلى المغرب وكان قد أقام بتركيا مدة [2] .

---

(1) اورد صاحب مناهل الصفا ، والمقرى في « روضة الآس » عدداً من هذه القصائد .

(2) ويلاحظ معاصر أن الاحتفال الرسمي بعيد المولد في تونس تأخر الى القرن 13ـ19، بعد أن مضى على سنه بالجزائر والمغرب عدة قرون

(Hady Roger Idriss, Initiation à la Tuuisie, p. 163).

لكن الحقيقة أن الحفصيين نقلوا الاحتفال بالمولد عن بني مرين .

وفي شهر رمضان كان أحد كبار القضاة يسرد صحيح البخاري بتتابع حتى يختمه يوم سابع العيد مع مناقشته مع الحاضرين ، ولا تزال عادة الاحتفال بيوم العيد وسابعه جارية في الأوساط الشعبية القروية إلى يومنا هذا .

الطعام والمسليات :

شاع استعمال العصيدة على الخصوص يوم عيد المولد ، وإن كان لا يعرف على التحقيق متى وأين بدأ اتخاذ هذا الطعام المخصص لمناسبة دينية معينة [1]. كذلك نجد القريشلات (أو القراشل) في هذا العهد ، بل قبله بكثير [2] ، وهي حلوى من العجين والسمن والسكر تعجن على شكل خبزات صغيرة .

وقد دخل التبغ لأول مرة إلى المغرب سنة 1001 هـ 1592 م على يد جماعة من السودان قدموا بفيل إلى المنصور ، وكان لدخوله إلى المغرب وعرضه بمراكش وفاس احتفالات رائعة . وقد صحب هؤلاء السودان معهم هذه المادة التي كانوا كانوا يتعاطونها تدخيناً ، فانتشرت عن طريقهم بكل من درعة ومراكش وغيرهما ، وكانت مثار سخط شديد من الجهات المحافظة ، وعلى الخصوص الفقهاء والمفتين الذين أفتى كثير منهم بتحريمها [3] ، وفيهم من اتخذ موقفاً وسطاً . أما « الكيف » أو الحشيش فكان معروفاً قبل هذا العهد ، بينما قد يكون « السبسي » أو الغليون البلدي المغربي من ابتكار هذا العصر إذا صح أن يعد ابتكاراً .

كذلك ابتدأ المغاربة أو بعض أوساطهم بتعاطي لعبة « الكارطة » عن طريق بعض العلوج أو الأندلسيين على ما يرجح ، فقد لاحظ السائح «جان موكي» حراس باب القصر الملكي بمراكش يلعبون « الكارطة » بمهارة فائقة ، وكان

---

(1) Op. Cit.

(2) الاستقصا ، 5 ، 11 .

(3) الافرني ، نزهة ، ص 264 ، محمد المكي الناصري ، الدرر المرصعة ، ص 127 ، عباس المراكشي ، اعلام ، 2 ، 105 . Deverdun Marrakech, 1, 438.

ذلك في أوائل القرن 17 م[1] . ولا يعرف مصدر هذه اللعبة ، ولكن يرجح أن أصلها من الشرق (الصين أو الهند أو إيران) ، وقد دخلت إلى الغرب عن طريق عرب إسبانيا [2]. وعلى العموم فقد انتشرت في أوائل القرن 15 م في أوروبا بعد أن مر على ظهورها في الشرق زمن طويل .

وقد بدأ الخمر ينتشر تعاطيه بسبب كثرة اليهود والأجانب المسيحيين ، وكان يصنع ببعض جهات المغرب حيث نجد « جان موكي » يتذوق الخمر المغربي بصفة خاصة [3] !.

★★★

(1) Caillé, La petite histoire, 1, 122

(2) Charles pellat, Recueil de textes, p. 24

(3) Champion. Le Maroc et ses villes d'art, p. 110. Caillé, Op, Cit, p. 123

3 ـ الحيـاة الاقتصادية

إن أهم عنصر يميز الحياة الاقتصادية خلال القرن 10 هـ 16 م هو رواج التجارة مع الخارج بشكل لم يعرف المغرب له نظيراً من قبل . وعلى العموم فيعد هـــذا القرن أحسن فترات الإزدهـار الاقتصادي بالمغرب على الرغـم من الأزمات والكوارث التي تخللته كما سبق .

وفي أواخر العهد السعدي تأثرت منـاطق الجنوب بالثورات المستمرة التي نشبت بهـــا ، وضعفت الحركة التجارية تبعاً لذلك . فسكان أقا لم يكن لهم من مورد غير التمر ، وفي درعة كان كثير من السكان لا يجدون غير دقيق الشعير مادة لغذائهم [1] . لكن منطقة تارودانت ظلت غنية بحكم مركزها الرئيسي في منطقة سوس ، وبقيت تستقبل خيرات النواحي المجاورة ، من خرفان ودجاج وصوف وزيت وزيتون ، فضلاً عن العنبر وريش النعام [2] الذي كانت تجارته رائجة مع الخارج [3] ، وكان سكان الجنوب يربونه قطعاناً كالماشية .

وعلى العموم ، فقد لاحظ الأجانب من سواح وتجار وغيرهم ، رخاء المعيشة بالمغرب ، وذكر مرمول أثمان رؤوس الماشية والدواجن ، فالثور مثلاً ، كان يساوي حوالي 6 مثاقيل ، والبقرة 4 ، والخروف 6 ريالات ، والدجاجة نصف ريال . ولاحظ مرمول أيضاً ، كثرة الفواكه الطرية والجافة ، وغزارة السمك والزيت والزيتون .

---

(1) Marmol, L'afrique, pp. 9-10. وكانت ناحيـة درعة آهلة بالسكان كثيرة القرى كما ذكر الفشتالي (مناهل ، ص 68) .

(2) Marmol. Histoire des Cherifs, p. 155

(3) Rousseau, le Mausolée des Saâdiens, p. IV

الفـــلاحة :

كانت عدة مناطق تنعم بالخصب وجودة الإنتـــاج ، بالرغم من الثورات العابرة أو المستمرة التي حدثت بعد وفاة أحمد المنصور . وهكذا ظلت منطقـة زرهون من أخصب بقـاع المغرب منذ عهد سابق للغزو الروماني ، وسجـل مرمول أن هذه المنطقة لم يكن يوجد بهـا في عهد قيد أنملة غير مغروس أو أو مزروع (1) .

واستغرب السيد « برتيي » كيف سلمت هذه المنطقة من الخراب والنهب من بين مناطق المغرب الذي وصفه بأنه بلد فوضى . ثم اهتدى إلى أن لبركة أولياء الناحية فضلاً في هذه النعمة (2) !

والواقع أن منطقة زرهون لم تعرف وحدها هذا الخصب في الفترة التي نحن بصددها ، فقد كانت ضواحي فاس كلها تدر الخيرات على اختلافها حتى لقـــد اعتبرها مرمول من أخصب بلاد العالم (3) .

وكانت ناحية تارودانت تنعم بمغروساتها المختلفة من كروم وزيتون وفواكه وخضر ، فضلاً عن مراعيها الكثيرة المخصصة للخيل والإبل ، وكذا معادنها من فضة ونحاس ، وحيواناتها الوحشية من أسد وخنازير و « حلاليف » (4) .

وكان نهر تانسيفت الذي تعلوه قناطر ضخمة ، قـد مدت منه القنوات إلى مراكش لتدير المطاحن وتسقي البساتين، وتصل إلى القصور الملكية والدور الشعبية (5)

وكان سكان تافيلالت أغنياء بمواشيهم العديدة، حيث لا تكثر الماشية إلا مع الخصب ، وكانت لهم تجارة مـع الخارج ، حتى إن التمر الذي كان يروج في إسبانيا لا يجلب إلا من هذه المنطقة (6) .

---

(1) Berthier, Histoire du Massif de Moulay Idriss, p. 153
(2) Op. Cit, p. 154
(3) Marmol, Histoire Des Chérifs, p. 131.
(4) Op. Cit, p, 155.
(5) Op. Cit, p. 48
(6) Marmol, L'afrique, p. 22.

وتحدث رحالة إنجليزي زار المغرب سنة 1018 هـ 1609 م عن المغرب الشرقي الذي قال إنه لم يصادف فيه إلا قطعاناً من الضأن والمعز [1] . وهذا الرحالة هو ليتكو Leitgou .

الصناعـــة :

أهم صناعة ازدهرت بالمغرب في هذا العصر هي صناعة السكر التي لهـــا ارتباط بالميدان الفلاحي . وبقطع النظر عن المعلومات القيمة التي عرفناها عن زراعة قصب السكر وصناعته في القرون الماضيـة من خلال ما كتبه البكري والعمري وغيرهما ، فإن لبول بيرتيي دراســة وافية في الموضوع ، أي فيما يهم القرن 10 هـ 16 م . وهكذا فإن السيد بيرتيي اكتشف أخيراً أن « المغرب القديم كان يتوفر على قطاعات قوية بقيت مجهولة إلى الآن ، ويمكن أن ندرك من خلالها نفوذه السياسي في (بعض) مراحل تاريخه [2] » .

وكانت أهم مزارع السكر في الجهات التالية :

1 — وادي القصوب قرب الصويرة .

2 — وادي تانسفت قرب « زاوية سيدي الشيكر » بناحية شيشاوة .

3 — في سهل سوس : وادي تامري ، ماســة ، ناحية تارودانت ، بالإضافة إلى ناحية القصابي .

4 — في الشمال : طنجة وسبتة .

أما المصانع ، فقد عثر منها على أربعة عشر مصنعاً ، أربعة منها بالصويرة القديمة وسيدي الشيكر وشيشاوة ،وعشرة بسوس قرب تارودانت وأولاد تايمة ، وقد وصف الفشتالي في « مناهل الصفا » بعض هذه المصانع وصفاً جيداً .

ويعثر الزائر اليوم على بقايا قوالب السكر قطعاً متناثرة من الفخار ،وأحجامها ضخمة في الغالب ، وتوجد في منطقة المصانع القديمة .

---

(1) R. Lebel, Hesperis, 4-1922, p. 276

(2) بول بيرتيي ، مجلة البحث العلمي ، الرباط ، عدد 1-1383هـ 1964م . وانظر ايضـــاً :
P. Berthier, Les Anciennes surcreries du Maroc, Rabat, 1966.

وانتقلت زراعة قصب السكر وصناعته إلى بلدان أخرى ، خصوصاً القارة الأمريكية بعـــد اكتشافها ، كما انتقلت إلى جزر الخالدات عن طريق بعض المغاربة القاطنين هناك ، وعلى يد بعض الغينيين الذين عاشوا من قبل بالمغرب(1).

وبدأت عناية السعديين بصناعة السكر وإحداث منشآته الأولى في عهدهم ، على يد محمد الشيخ المهدي بحاحا وشيشاوة ، وأتم المنصور بناء هـــذه المنشآت بعده (2) ، كما عمـل على تنمية زراعة قصب السكر حتى رخص ثمنه وتوقف تصديره بسبب مزاحمة البرازيل وجزر الأنتي ، أيام انهيار الدولة السعدية .

ومن أهم الصناعات اليدوية التي راجت في هــذه الفترة ، صناعة الزرابي التركية ، وإن كانت النماذج المحلية معروفة منذ قديم ، كما كانت تنسج الثياب والأغطية في كثير من أنحاء المغرب .

وفي ميدان الصناعات الثقيلة ، كان جل اعتماد البلاد على الخارج ، بما في ذلك صناعة السفن الحربية التي كان يعهد بها لمؤسسات في بلاد هولندا غالباً ، كما كان المغرب يستورد كمية من الأسلحة الأجنبية .

وإذا كانت صناعة البناء قـد نفق سوقها أيضاً ، فإن كل ما تبقى من آثار هذا العهد ذو طابع عمراني أو ديني بوجه عام ، ودون أن يحدث في الفن المعماري ابتكار أو تغيير يستحق الذكر .

وفي هذا العهد بدأ المغرب يصنع مدافعه لأول مرة في ترسانة مراكش التي كانت توجد بالقصبة (3) ، ويرجع إنشاؤها الى أيام الموحدين . وكان يعمل بها في ظل الحكم السعدي عدد كبير من الأسرى المسيحيين تحت إمرة أتراك وعلوج . وفيها يذوب النحاس لصنع المدافع ، وقد اكتشف معدن النحاس المخصص لهذا الغرض سنة 946 هـ 1539 م بجبل تنزارا . وأول من قام بصنع المدافع من البرونز بمراكش علج من مدريد دخل الإسلام . وفي ذات الوقت اكتشف سوسي من

---

(1) R. Ricard, Hespéris, 1, 2-1935, p. 82,

(2) الافرني ، نزهة ، ص 264 .

(3) الفشتالي ، مناهل ، ص 246 ، Deverdun, Marrakech, 1, 386.

جزولة ، سر صناعة القنابل ، وهو ما لم يكن أحد من قبل يستطيع أن يفعله، كما يقول مرمول . وقد تخلف من هذا العهد مدفع نقشت عليه كتابة بالعربية .

ولأحمد المنصور مؤلف في الشؤون السياسية والعسكرية ضمّنه أسرار صناعة المدافع وطرائقها [1] ، ولا يزال هذا المؤلف في حكم المفقود .

ومما صنع للمنصور خصيصاً ، قصر متنقل وصفه كل من صاحب النفحة المسكية ، ومناهل الصفا ، ونزهة الحادي ، وكان القصر يدعى بالسياج ، وهو من خشب يمكن طيه ، ويحيط به سرادق من نسيج الكتان المزخرف،وبداخل القصر قباب منقوشة وملونة وينفذ من السرادق إلى القصر من أبواب وتعاريج ودهاليز ، وكان للوطاسيين قصر مشابه من النسيج .

التجارة :

سيطر اليهود على التجارة المغربية، واحتكروا موارد الجمرك وتجارة السكر والحشيش وملح البارود والتبغ ، وكانوا موضع حقد التجار الأوروبيين فضلاً عن المسلمين المغاربة ، ولم يكن ينافسهم إلا الإنجليز الذين أسسوا بمراكش مركزاً لشركتهم Barbary Company (الشركة البربرية ، أو المغربية).

وأهم ما كان يروق الأجانب من منتجات المغرب : السكر والتمر والنحاس الأحمر والذهب مسكوكاً أو مصوغاً ، ويتم تصديره مهرباً أو مباحاً ، ثم الصمغ والعنبر والشمع والخيل والجلود والمواشي . أما حاجيات المغرب من الخارج فالأسلحة والرماح والملف وبعض قطع السفن الرئيسية والقصدير .

وقبل أن يحتل الإسبان والبرتغال المعمورة ، كان التجار الأوروبيون يشحنون السلع من هذا المركز بأثمان زهيدة، وخاصة الماشية [2] التي كان المغرب يتوفر على أعداد وافرة منها . وكان المغرب يروج أعظم حركة تجارية بالشمال الإفريقي ، فقد كانت الجزائر قليلة الموارد [3] ، وكانت تونس لا تزال تعاني من

---

(1) الفشتالي ، ن. م. ص 215 .

Masson, Histoire des etablissements... p. 67 (2)

Op. Cit, p. 84. (3)

نكسة الاقتصاد الذي أثرت فيه غارات البدو والغزوات الأجنبية .

ومن أكثر الدول تعاملاً مع المغرب في هذه الفترة، إنجلترا التي كانت تصدر إليه العلف وبعض الثياب الحريرية والزعفران وبعض المصنوعات النحاسية، فضلاً عن بعض البضائع السرية المهربة، نظراً للموقف العدائي الذي كانت تتخذه حيالها بعض الدول الأوروبية، خصوصاً إسبانيا والبرتغال. ومن هذه السلع المهربة، المدافع والبنادق وأشفار السيوف والبارود والرصاص والقنابل. وتستورد إنجلترا من المغرب السكر بمعدل ألفي صندوق سنوياً، وملح البارود والذهب والجلود والشمع والنحاس والتمر واللوز وريش النعام والنيلة، وغير ذلك (1) .

وقد فتنت الثروات المغربية الأوروبيين الذين تقاطروا عليه تجاراً وصناعاً وسماسرة وجواسيس ومجندين ومغامرين يبحثون جميعاً عن الكسب، وطلبت كل من هولندا وهنري الثالث سلفات ضخمة، بينما حاول فيليب الثاني الاسباني المتعصب للمسيحية، أن يتودد إلى المنصور عن طريق الهدايا الفاخرة (2) . وكانت الموانىء التجارية التي تحط فيها البضائع الاسبانية أو تشحن منها المنتجات المغربية إلى اسبانيا هي بليونش وتطوان وسبتة وأكادير وآسفي. وقدر مبلغ الصادرات سنوياً بثمانين ألف دوقة (3) .

أما سلا فكانت قد فقدت نشاطها الاقتصادي وذهب كثير من عمرانها في ظل الحكم الوطاسي حتى القرن 10 هـ 16 م، ثم استرجعت نشاطها في القرن التالي وبدأت تستقبل سفن البندقية وجنوة وإنجلترا محملة بالثياب وغيرها من منتجات أوروبا كما تشحن منها الحبوب والجلود وغير ذلك (4) . وإنما عادت هذه الحركة بتعاون مع الموريسيكيين الذين استقر معظمهم بالرباط وقسم منهم بسلا .

Caillé, La petite histoire du Maroc, 1, 76. (1)
Rousseau, Mausolée des Saâdiens, p. IV .(2)
R. Ricard, Sources inédites, Espagne, 2, 54 (3)
(4) محمد بن علي الدكالي، اتحاف اشراف الملا، ورقة 8 .

وكان ميناء آسفي منفـــذاً لمراكش ، تحمل إليه السفن الأوروبية الثوب والملف والذخائر الحربية وحتى « الكمنجات » للجوق الملكي والتوراة لليهود، والساعات والعطور والسوائل الكحولية [1] .

وشهدت مراكش أعظم مظاهر نشاطها الاقتصادي في تاريخها حتى هـــذه الفترة . فقد كان بها مقر أهم « ديوانة » بالمغرب، وهي عبارة عن جمرك ومستودع لبضائع التجار الأوروبيين ، مع مصرف مالي . وكان يجري عليها تفتيش قبل أن تستخلص عنهـا حقوق الجمرك التي هي 10 في المائة عند الدخول ، وتتفاوت نسبتها التي قد تبلغ 30 في المائة عند الخروج . وكان مقر هذا الجمرك بالقصبة ، بينما كانت هناك ديوانة أخرى أكبر منها بساحة جامع الفنا ، هـذه الساحة التي كانت أوسع جداً مما هي اليوم. والديوانة الكبرى من بناء محمد المهدي الشيخ سنة 1547 م ، ولا يعرف لها أثر اليوم . وكانت تحتوي على 23 حجرة في الطابق السفلي ومثلها في الطابق العلوي ، ويحرسها بواب مسلم ، ومعه جابٍ لاستخلاص الحقوق . ثم اتخذ التجار الأوروبيون منهـــا فندقاً سنة 1034 هـ 1624 م ، حيث كانوا يمارسون بـه طقوسهم الدينية أيضـاً . وما كادت الدولة السعدية تلفظ أنفاسهـــا حتى انتقلت الديوانة إلى آسفي سنة 1064 هـ 1653 م حيث تستخلص الأعشار في عين المكان [2] .

وبالنسبة للسودان فيبدو أنها لم تستفد شيئاً يذكر في الميدان الاقتصادي من التدخـل السعدي بالنظر لأزمة الحكم داخـــل المغرب وبعد الشقة . كما أن تومبوكتو فقدت أهميتها الثقافيه ، إلى جانب كاو وجن [3] ، وربمـا بدأ ذلك قبيل التدخل السعدي مباشرة . ومنذ سنة 997 هـ 1588 بدأت تظهر طلائـع المغامرين الإنجليز في سائر إفريقيا الغربية والوسطى [4] كما بدأت طلائع الاسبان **تظهر في الصحراء الغربية . وينبغي أن يؤخـــذ هذا العامل بعين الاعتبار في مبادرة المنصور إلى فتح السوادن .**

(1) Deverdun, Marrakech, 1, 439.

(2) Op, Cit, pp. 451-452.

(3) باذل دافيد ، افريقيا تحت أضواء جديدة ، ص 161 .

(4) Walkenaer, Recherhes géographiques, p. 44

وفيما يرجع إلى موارد حركة الجهاد البحري فقد كانت تقتسم كما يلي :

– عشرة في المائة لديوان سلا والرباط .

– خمسة وأربعون في المائة لصاحب المركب .

– خمسة وأربعون في المائة للبحارة والضباط والربان وقائد المدفعية والجراح.

وفي الأحوال التي يخضع فيها المجاهدون للرقابة المباشرة للسلطان يأخذ العاهل الخمس ثم نصف الباقي بوصفه صاحب المركب ، أما النصف الباقي فيتقاسمه الضباط والبحارة. أما الملابس فيسمح للبحارة بنهبها ، إلا ملابس الربان فيأخذها الرئيس[1].

ومن مظاهر نشاط الملاحة التجارية بالمغرب ، أن فاس كانت فيما مضى ميناء تجارياً نهرياً . فمنذ عهد الموحدين كانت تصنع بها مراكب نقل تعبر وادي فاس وسبو لتصل إلى المحيط . وكانت ترسانة فاس بـ « الحبالة » قريباً من ملتقى وادي سبو بوادي فاس . وقد أمر أبو عنان بصنع مركبين بقرية خولان (سيدي حرازم) ، أحدهما ذو شراعين لمائة وعشرين مقاتلاً ، والثاني لستين جندياً . وقد أبحر المركبان إلى المهدية سنة 756 هـ 1355 م .

وفي سنة 968 هـ 1560 م وفدت بعثة من نافاريا فوصلت إلى فاس من أكادير براً ، ورجع رئيسها عن طريق ميناء فاس . وفي الوقت ذاته ، قدمت سفينة تجارية إلى هذا الميناء رأساً من مرسيليا .

ومما كان يساعد على إنشاء السفن هناك ، غابات بني يازغة والبهاليل حيث يتوفر خشب البلوط والأرز ، كما تقدم مادة الزفت . وكان بفاس ، كثير من صناع الخشب والحديد ، وعملهم أساسي في صناعة السفن . وكانت قبيلة بني يازغة تتعاطى زراعة القنب[2] ، إذ لا تخفى ضرورة الحبال للسفن حتى العصرية منها .

(1) Coindreau, Les corsaires de Salé, p. 64

(2) Charles Pellat, Recueil de texes... p. 54 ، نقلا عن جريدة السعادة، بالرباط .

4 ـ العمران وهندسة البناء

نظرة عامـــة :

يمكن اعتبار الفن المعماري في القرن الحادي عشر، والعاشر قبله(15 ـ 16 م) استمراراً للفن المعماري في العصر المريني، سيما في نقش الخشب والجبس وشكل المباني الدينية، وإن تميز الفن السعدي بأن فيـه مزيداً من الهرب من الفراغ، كما يقتبس من الفن الغرناطي في مراحله الأخيرة، حيث تأخذ الآيات الكريمـة وقصائد برمتها أو أبيـات مختلفة، مكاناً بارزاً في النقش، كما نعرف ذلك من بقايا نقوش قصر البديع، ومن الضريح السعدي.

وعلى الرغم من المآخذ التي يمكن أن تلاحظ على فن البناء السعدي، وخصوصاً التحجر وقلة الذوق في بعض مظاهره [1]، فإن من التجني على هـذا الفن أن نحكم عليه بصورة قطعية في وقت لا نتوفر فيه من الوجهة الفنية إلا على أمثلة محدودة لا تتجاوز خصة القرويين بالإضافة إلى ما سبق ذكره.

كذلك كان أثر الموريسكيين قوياً في البناء والفنون، ولا أدل على ذلك من الأبواب المنقوشة في دور سلا والرباط، وهي في الغالب على شكـــل عقود أو أقواس موتورة، تمثل الفن الأندلسي في عصر النهضة [2]. أما التأثير التركي فلا يمكن تحديد مداه إلا من خلال هندسة ضريح مراكش التي تستمد تعدد العقود في القبة الرئيسية من هذا التأثير، كما يمكن أن تكون بعض قباب قصر البديـع

---

(1) Terrasse, Histoire du Maroc, 2, 234

(2) Op, Cit, p. 222. ومن جهة أخرى ظهر التأثير الموريسكي في فـــن التطريز التقليدي الذي لا تزال بقاياه في الرباط وســلا والشاون وأزمور وتطوان (Op. Cit, p. 223)

قد أخذت عن الهندسة التركية البيزنطية، خصوصاً وأن هذا القصر لم يتم بناؤه إلا بعد زيارة المنصور للقسطنطينية ، وقبل أن يتولى العرش [1] .

وفيما يرجع إلى الحصون والأبراج ، فالأثر البرتغالي فيها ملحوظ ، إذ تغيرت هندستها كلياً منذ أواخر القرن التاسع 15 م بسبب استعمال المدفعية والأسلحة الثقيلة التي تتطلب مزيداً من الحذر عن طريق الاستكثار من الاهراء للذخيرة مع تخصيص سطوحها للمدافع ، كما صار من اللازم تمتين البناء الذي تدخل الآجر في سقوفه بكثرة ، ولو أننا لا نلمس جهداً يذكر ، في كل تاريخ المغرب الوطني من حيث العدول عن الأحجار الصغيرة والاستكثار من الطين في بناء الأسوار والحصون والمباني الرئيسية ،لصالح الأحجار الضخمة والمنحوتة ، التي تخلد المباني قروناً متطاولة كما نلمسه في البناء الروماني والقوطي والحلي الموروث عن هذين في أوروبا ، وإن كان للفن الإسلامي عموماً ميزاته الخاصة .

المـدن :

جل المدن والقرى الرئيسية والقصبات التي شادها السعديون تتركز في منطقة السوس والجهات المجاورة . وقد بنيت في الغالب لأسباب دفاعية أو سياسية ، أو لوقوعها في المناطق التي يوجد بها أهم أنصار الدولة ، وبعضها شيد لأغراض صناعية . ولم يبذل أي جهد لإعادة بناء المدن التي هجرها السكان خلال العهد الوطاسي بسبب الزحف البرتغالي أو هدمها البرتغال كالشرقية والغربيه وتيط (وهذه تخربت قبل العهد المذكور) .

تارودانت [2] :

من أقدم مدن المغرب ، بناها بربر جزولة وهشتوكة قبل الإسلام ، وقـد لعبت دوراً بارزاً في تاريخ المغرب الإسلامي ، غير أنها فقدت كثيراً من أهميتها

(1) الزياني ، الترجمان المعرب ، ص 356 .

(2) الحساني ، ديوان قبائل سوس ، ص 183 ، الفشتالي ، مناهل ، ص 182 ، الكانوني ، آسفي وما اليه ، ص 56 ،

أيام بني مرين وبني وطاس ، إذ كان ازدهارها يرتبط بازدهار مراكش ، والقصبة أعاد محمد المهدي الشيخ بناءها وسمح للسكان الأولين في المدينة المجددة بتملك الأراضي التي شادوا عليها بناءاتهم ، ومن المؤكد أنها كانت تحتوي على عدد من المباني الرائعة ، وكان بها عدد كبير من البساتين ، بدليل سورها الذي يبلغ محيطه 7 كيلو مترات ، وحولها تمتد جنات من الزيتون والزرع والخضر والفواكه ، وكانت مركزاً لصناعات كثيرة ، كالأسلحة وماعون المنزل والحلي وغير ذلك ، سماها محمد المهدي السعدي بالمحمدية (نسبة إليه) ، ولكن هذا الاسم سرعان ما تُنوسي عند ضعف الدولة ، وكان اختطاطها سنة 945 هـ ، وقد اتبع فيها نظام محكم للري ، ولكن من المؤسف أن معظم آثار هذه البلدة قد اندثرت .

أكادير [1] :

بنى رؤساء حاحة قبل الإسلام قلعة أكادير التي احتلها البرتغال في عهد الوطاسيين سنة 911 هـ 1505 م ، ثم شادوا مكانها على ما يبدو حصن فونتي الذي طردهم منه محمد المهدي نهائياً بعد أقل من أربعين سنة ، وترك المهدي الحصن قائماً مكانه ، بينما شاد ميناء على مقربة منه ، وقد لعب دوراً تجارياً وحربياً عظيماً في عهد السعديين ، ولم يبق شيء من بناءات المهدي التي شملت المدينة وقصبتها فضلاً عن الميناء ، على أن القصبة ظلت آهلة بالسكان إلى أن خربها زلزال أكادير سنة 1960 م ، ولم يبق قائماً منها غير السور والباب المرمم .

وقد فقدت أكادير أهميتها كلياً منذ اختطاط الصويرة في عهد محمد الثالث ، إلى أن كان عهد الحماية الفرنسية ، فاهتم بها الحكام الفرنسيون خصوصاً قبل الاستقلال بسنوات ، وقد أعيد اختطاطها كلياً بعد الزلزال المذكور .

أمسكرود [2] :

قرية بدائرة انزكان (منطقة أكادير) ، حيث أقام المنصور الذهبي

(1) الأفراني ، نزهة ، ص 76 ، الكانوني ، ن. م. ص.

(2) الحساني ، م. س. ص 183 .

في صباه مدة . اختطها السعديون سنة 948 هـ 1541 م ، وأهميتها فلاحية قبـل كل شيء .

الصويرة القديمة [1] :

تبعد عن الصويرة الحديثة بـ 17 كم ، وهي قصبة مربعة ، بدأ بناءها محمـد المهدي الشيخ ، وقد خلفت قصبة حاحية بنيت قبـــل الاسلام ، وأكمل بناء القصبة بعد المهدي ابنه المنصور ، وكانت من المراكز الرئيسية لزراعة السكر وصناعته ، وتقع شمال وادي حاحا الذي يوجـد مصبه قرب الصويرة الحالية .

قصبة مراكش [2] :

عرفت القصبة قبل حدودها الحالية تطوراً عظيماً ، فقـــد بنى المنصور الموحدي مدينة خاصة به وبحاشيته خارج مراكش ، سماها تمراكشت ، وموقعها جنوب العاصمة حيث لا تزال أطلالها قائمة ، وقيل إنها كانت أجمل مدينة عرفها المغرب في تاريخه ، وإنما ضاهتها فاس المرينية فيما بعد . وكانت تحتوي زيادة على القصر الملكي ، على ترسانة وحدائق وثكنات للجيش وسائر المرافق . وفي القصر نزل أبو العباس أحمد الأعرج سنة 928 هـ 1521 م ، وظل مقراً ملكياً إلى أن بنى المنصور السعدي قصبته الشهيرة ، وكان موقعـه وراء جامع المنصور تحيط به الحدائق ويمتد إلى جدار الملاح ، وفي هذه الحدائق ، وعلى أنقاض القصر القديم بني قصر البديـع .

وعثر هنري كوهلر على تصميم كامـل للقصبة السعدية ، بالإسكوريال ، وهو في حالة جيدة ، إذ يمثل جميع المباني الرئيسية ، بـــل وحتى المسافات بينها بالمقياس البرتغالي. وقد وضع هذا التصميم شاهد عيان برتغالي سنة 993 هـ 1584 م ، ويعد من أنفس المراجع ، وكان القصد منه كما يقول دوفردان أن يبيّن بدقة ، الأماكن التي يرقد فيها رفات شهداء البرتغال في السنة المذكورة .

---

(1) الكانوني ، م. س. ص 55 .

(2) Henry Koehler, Hespéris, 1940. Deverdun, Marrakech, 1, 384.

ويمتد سور القصبة شمالاً نحو 660 م ، وشرقاً إلى 550 م . ومدخـــل القصبة الرئيسي هو باب « أكناو » الذي كان يسمى باب السقيف أو باب القصر، ويطل على ساحة باب الرّب الحالية ، ويقابله باب الطبول . ويفصل بين المدخلين، زقاق طويل بقي على حاله خلال الحكم السعدي كما تركه الموحدون ، ومسافته 180 م تقريباً ، كما تبقى السور الموحدي أيضاً .

وكان بجنوب القصبة بستان المسرة ، وهو تجديد للبستان الذي غرسه عبد المومن وأبو يعقوب يوسف الموحديان، ولا يعرف موقعه ولا امتداده على التحقيق، وكان به قصر قد يكون هو خرائب « دار الهنا » حسب استنتاج دوفردان ، أو مكان المستشفى الأكبر حسب دوكاستري .

وكان من بقايا آثار الموحدين أيام السعديين ، السجن القـــديم الذي لا تزال آثاره قائمة غربي جامع المنصور ، وكذا الكنيسة الموحدية والدير، وقد أدخلت على الكنيسة تحسينات كثيرة في العهد السعدي ، ثم خربت المنشأتان معاً في عهد كروم الحاج سنة 1071 هـ 1660 م . وقد اختفت كل الدور والمرافق التي تعود إلى العهد السعدي في القصبة ، ما عـــدا الضريح الملكي وبقايا قصر البديع . وعلى العموم فإن السعديين لم يسلكوا سياســة الموحدين في تخريب مباني سابقيهم والبناء على أنقاضها ، بل حافظوا على بقايا قصبة مراكش التي رمموها وأضافوا إليها مباني أخرى .

القصبة الوليدية [1] :

كانت توجــد مكانها قصبة قديمة ، ذكر الزياني في الترجمان المعرب أن ابن قنفذ القسنطيني سبق أن زارها سنة 763 هـ ، وكانت فيما بعد ، من المراكز التي احتلها البرتغال .

وعندما أقصي السلطان زيدان عن مراكش سنة 1022 هـ 1613 م بسبب ثورة ابن أبي محلي التجـــأ إلى آسفي . وبينما كان جيشه يقيم بناحية دكالة ، اكتشف

(1) الكانوني، آسفي وما اليه، ص41 .Caillé, La petite histoire du Maroc, T1

جندي أندلسي موقع الوليدية وأخبر به الفرنسي « سان ماندريّي » الذي حث زيدان على أن يجعل منها ميناء بحْرياً بعد تعبيد لسانها الصخري ، وأثناء ذلك رغبت شركة فرنسية بباريز في استغلال المكان باتفاق مع السلطان بعد أن أخبرها الدبلوماسي الفرنسي « كلود دوماس » بجودة الموقع للصيد والملاحة ، ولكن المشروع لم يتم ، لأن مبعوث الشركة لم يصل إلى المغرب . وعن طريق اليهودي بالاش وجه زيدان إلى هولندا يطلب دراسة مشروع إنشاء الميناء،فجاء الهولندي « ألبرت رويل » إلى المغرب من غير طائل ، إذ لم يُسمح إلا لعاملين صحباه بزيارة المكان ، كما أن « بالاش » كان يكيد لرويل،وحينئذ بدأ السلطان يستعد بوسائله الخاصة لبناء الميناء ، فوضع مشروع بناء القصبة أولاً ، ولم ينجز إلا في عهد ابنه الوليد سنة 1044 هـ 1634 م ، أما الميناء نفسه فلم ينجز منه شيء يذكر .

وكان يسكن بالمنطقة عائلة سوسية من سملالة ، وبينهم عدد من المثقفين ، وبخارج القصبة زاوية عبدالسلام الغواص اليمني . وكان بكل من الزاوية والقصبة مدرسة ومسجد من أهم المراكز الثقافية بالمغرب .

الحصون :

من بناءات المنصور الذهبي بفاس حصنان ، أحدهما خارج باب عجيسة والآخر بواجهة باب الفتوح ، وبتازا قلعة حصينة ، وبالعرائش حصنان دعي أحدهما حصن الفتح ، أما قصبة مراكش فقد حصنت بالأبراج الضخمة لتتحمل المدافع الخفيفة ، كما كانت الأسوار عالية ولكنها من طين على طريقة الفن الإسباني الموريسكي الذي يرجع إلى القرون الوسطى كما يقول طيراس، وكانت المواقع الساحلية أكثر المراكز حاجة إلى التحصين بسبب خطر العدو الخارجي الذي كان مع ذلك يرابض في عين المكان كما في سبتة والجديدة . وكان محمد الشيخ أول من قام ببناء حصون جديدة بين سلاطين السعديين، وذلك بتشييده حصن أكادير .

وبنى المجاهد العياشي برجين على شاطىء سلا لا يزالان قائمين .

كذلك تبقى من تحصينات البرتغال آثار كثيرة كما في آسفي والجديدة والمهدية .

القناطر :

شيدت القناطر في معظمها على وادي سبو وفروعه ، ووادي أم الربيع وفروعه ، وذلك لتسهيل تنقلات الجيوش والقوافل والأفراد ، وهكذا بنى محمد الشيخ المهدي قنطرة على وادي سبو وجسراً عظيماً على وادي أم الربيع[1] ، وبنت مسعودة بنت أحمد الوزكيتي والدة المنصور قنطرة وادي أم الربيع بطريق مراكش ، وتدعى قنطرة حواتة ، كما رممت أخرى بوادي فاس بطريق زواغة[2] . وأسهم الدلائيون في بناء القناطر ، فبنى محمد الحاج الدلائي ثلاثة جسور على وادي أم الربيع[3] . وساهم الخواص في هذا العمل أيضاً ، ومنهم عمر الشاوي أحد الصلحاء وقد بنى قنطرة ابن طاطو خارج فاس .

قصر البديع[4] :

يقول الزياني في الترجمان المعرب : إن المنصور سما أمله إلى ما شاهده بالقسطنطينية من التأنق في مبانيهم ، فأمر بتأسيس « البديع » وجمع له أهل الهندسة والصناع من أقطار المغرب ، وجلب له الرخام من بلاد الروم ، ورسمه للمعلمين على شكل لم يتقدم .

كذلك يفهم من كلام الفشتالي في المناهل أن المنصور رغب أن يخلد أثراً ممتازاً خاصاً بالدولة يفوق أروع ما خلده سابقوه ، وقد استغرق العمل فيه 16 سنة

---

(1) ابن القاضي ، المنتقى المقصور ، ورقة 16 .

(2) ابن القاضي ، لقط الفرائد ، ودرة الحجال ، رقم 1141 .

(3) عبد الودود التازي ، نزهة الأخيار ، ص 103 .

(4) الفشتالي ، مناهل ، ص 168 ، المقري ، نفح ، 8 ، 157 ، الزياني ، الترجمان المعرب ، ص 356 ، الناصري ، الاستقصا ، 5 ، 134 . الأفراني ، نزهة ، ص 179 .
Champion, Le Maroc et ses villes d'art, p. 91. H. Koeler, Hesperis, 1940. Deverdun, Marrakech, 1, 392.

دون توقف من 986 إلى 1002 هـ (1578 — 1594 م) ، وشارك في بنائه إلى جانب الفنيين والعمال المغاربة ، صناع من أوروبا خصوصاً من إيطاليا ، ويستمد القصر هندسته من قصر الحمراء ، وهو على هيئة مربعة ، وتوجد به أربع قباب رئيسية متقابلة سطحها بالقرميد ، ويحيط بوسط الدار أروقة بأعمدة رخامية ، وأجمل هذه القباب ، الشمالية منها ، وفي كل زاوية صهريج مرخم ، بالإضافة إلى الصهريج الأوسط ، وهو أكبرها ، وتتوسطه قبة من المرمر .

ويتنوع الرخام ما بين أسود وأبيض ومجزع ، وقد استعمل إلى جانب الزليج الملون في تفريش الأرض ، كما استعمل الجبس منقوشاً في السقوف والجدران ، مموهاً بخالص الذهب ، ويتخلل ذلك قصائد وأبيات وآيات كريمة . وذكر من ذلك نماذج كثيرة في المناهل والمنتقى وروضة الآس والنفح وغيرها .

والقصر يقع بقصبة مراكش ، وتحيط به حديقة وساحة عظيمة ، وكانت توجد أمامه المدرسة الملكية التي تفصلها عنه ثكنة حرس السقيف .

وكانت القبة الكبيرة مسوّرة بالحائطي الرائع ، وهو قماش مزخرف على شكل عقود ابتكره أحمد المنصور . ويبلغ طول القبة خمسين ذراعاً بالقياس المعاصر ، وكان حول كل من القباب الكبرى المذكورة قباب أخرى أصغر ، إلى جانب قصور ومساكن ملحقة ، وكانت تيجان الأعمدة مغطاة بالذهب مذوباً أو صفائح دقيقة .

وقد خرب مولاي إسمعيل العلوي هذا القصر العظيم الذي طالما استقبل كبار السفراء والمبعوثين ، وكان موضوع وصف رائع من لدن كبار الشعراء ، وكان تخريبه سنة 1119 هـ 1710 م ، لأسباب وصفها الأفرني بأنه يطول شرحها ، ولكنه لم يذكر منها شيئاً ، وقد نالت عدة مراكز من المغرب قطعاً من هذا الأثر المعظم .

وكما يتجلى الأثر الموريسكي الأندلسي في بناء القصر ، وهو العنصر البارز ، كذلك يلاحظ تأثير جزئي لبعض فنون الشرق ، كما في أشكال التوريق الصينية ،

بمـــا في ذلك الأوراق الطويلة والمسننة والقرنفل ، إلى جانب بعض الزخارف المستمدة من الفن السوري [1] .

وتملأ الأشكال الهندسية ، الفن الأندلسي على العموم ، أكثر من الزخارف النباتية ، ومع ذلك لم يكن قصر البديع بملحقاته السكنية يشغل حيزاً كبيراً ، وإنما الذي يميزه كأثر عظيم ، هو روعة فنه وحسن ذوق بانيه .

وتطلب بناء القصر أموالاً باهظة أداهـــا الشعب ضرائب . وكان المنصور يؤدي للعاملين فيه أجوراً حسنة ، ويهتم شخصياً برعاية أولادهم حتى يتفرغوا كلياً لأعمالهم في بناء القصر .

المدارس :

يظهر أن السعديين لم يستكثروا من بنـــاء المدارس لسببين : أولاً ، لوفرة المدارس المرينية التي واصلت مهمتها في هذا العهد مع بعض الفوارق . ثانياً : لأن عدداً كبيراً من الخواص في مراكز كثيرة كسوس والقصر الكبير ودكالة أقبلوا على بناء المدارس والزوايا لأغراض تثقيفية . لكن مراكش حظيت ببناء المدرسة الملحقة بمسجد علي بن يوسف[2] ، والتي لم تكن ترميماً لمدرسة أبي الحسن المريني ، بل هي إعادة بناء شاملة من عهد عبد الله الغالب ، سنة 972 هـ 1564 م .

وتستمد هذه المدرسة خطوطها الهندسية من المدرسة البوعنانية الفاسية ، وفناؤها رحب وأرضها مبلطة بالرخام الأبيض ، يتوسطها صهريج مستطيـل ، شأن أكثر المدارس المرينية ، ويكسو أعمدتها الزليج الملون ، وتعلوها سواكف من خشب الأرز الذي نقشت عليه كتابة رائعة . والمسجد الملحق بالمدرســة يحتوي على أسكوبين تزينهما أعمدة رخامية ، أما المحراب فتكثر زخارفه النباتية والنوافذ التي تعلوه بين النقوش .

ومن مدارس مراكش ، المدرسة الملكية بالقصبة ، والمدرسة الملحقة بجامع

---

(1) Terrasse, Histoire du Maroc, 1, 196.

(2) Champion, OP, Cit, p. 87. Deverdun, Op, Cit, p. 373.

باب دكالة ، وأخرى بحومة ابن صالح ، وفي تارودانت : المدرسة الملحقة بالجامع الأعظم .

أما المدارس الخاصة فتمتاز ببساطتها وعدم تأثرها بغير الطابع المحلي ، وقد شيدت أساساً للدراسة ، على عكس مدارس الدولة التي تخصص لسكنى الطلبة أيضاً .

ومن المدارس الخاصة بسوس (1) :

1 – مدرسة آقا ، وقد أسست قبل السعديين ولكنها نشطت أيامهم .

2 – مدرسة الحسن بن عثمان التاملي بتيوت (تارودانت) وهو تلميذ الونشريسي وابن غازي .

3 – مدرسة بعقيلة ، من بناء آل عمرو .

ومن الشروط التي تتوفر في طالب المدرسة كما أثبتها الونشريسي في «المعيار» ، أن لا يسكن بالمدرسة إلا من بلغ عشرين سنة على الأقل ، وأن يشتغل بالدراسة أو التدريس وحضور الحزب صباحاً ومساء ، ودروس القرآن باستمرار على الأستاذ المختص ، وكل طالب لم يظهر نبوغه العلمي بعد مقامه عشر سنوات يطرد ، حتى لا يضر بقاؤه في المدرسة بالوقف المخصص للطلبة . ومن جهة أخرى فإن ساكن البيت لا يضع به من المواد الغذائية إلا مؤونته الخاصة .

المساجد :

1 – الجامع الأكبر بتارودانت من بناء محمد المهدي . مساحته 2500 $م^2$ ، ومساحة فنائه 1160 $م^2$ ، ويشتمل بيت الصلاة على خمسة أساكيب ، والصومعة ذات معينات بارزة ومزينة بالفسيفساء ، وارتفاعها 27 م ، كما أن النقوش في سقف المسجد والتي تعود إلى عهد أحمد المنصور ، تضفي عليه روعة وجمالاً ، ويعد من أعظم جوامع المغرب . وكان قد وصل إلى درجة يرثى لها من الإهمال ، إذ كانت نقوشه الخشبية قد امحت كلياً أو كادت . وقد وقع ترميم هذا الجامع

---

(1) محمد المختار السوسي ، سوس العالمة ، ص 156 .

خلال مدة تجاوزت عشر سنوات حتى عام 1959 م حيث أعيد إليه رونقـه .

2 – جامع المواسين بمراكش[1] ، من بناء عبدالله الغالب سنة 970 هـ 1562 م وكان يدعى جامع الأشراف ، إذ بقربه كانت تسكن عائلة من الأشراف تحمل لقب المواسين الذي أطلق على الجامع والحي المجاور . ولاحظ « دوفردان » أن الجامع يتوفر على مجموعة بنائية لا تشبه في شيء ، المنشآت الدينية السابقة ، وإلى جانب المسجد والمنار ، هناك سقاية وميضأة وحمام وكُتاب ومساكن للقومة . وحسب هذا الباحث ، فإن الفكرة استقاها الغالب من مماليك مصر عن طريق الحجاج المغاربة . والحقيقة أنه لا يوجد في هـذه الفكرة جديد بالنسبة للمغرب من حيث المبدأ ، إذ لا يخلو جامع كبير في تاريخه من هذا التجميع الذي يمثل وحدة متكاملة تستجيب للحاجة ولتعاليم الإسلام في وقت واحد . أما السقاية ، فقد كانت من الأهمية بحيث تتزود منها أحياء المدينة [2] .

ويتألف الجامع من سبع بلاطات ، والبلاطة الوسطى أعرضها ، وله ثلاثة أبواب غير مدخل المنبر والإمام . أما المحراب ،فنسخة من محراب جامع القصبة ، بما في ذلك نقوشه وحروفه الكوفية ، وأقواسه جميلة ذات شكل حدوي ، وكان يحتوي على خزانة عظيمة ذكر دوفردان أن بقاياها نقلت على يده إلى خزانة ابن يوسف [3] .

3 – جامع باب دكالة [4] :

من إنشاء مسعودة بنت أحمـد الوزكيتي الورزازي والدة المنصور الذهبي ، وكان إنشاؤه سنة 965 هـ 1557 م بباب دكالة أحـد الأحياء الرئيسية بمراكش . ويحتوي بيت الصلاة على سبع بلاطات ، والصحن غير مربع تمامـاً ،

---

(2) الأفرني ، نزهة ، ص 93 . Deverdun, Marrakech, 1, 376 .

(1) عبد الحفيظ الفاسي ، مجلة المغرب ، ربيع ـ جمادي ، 1355 هـ .

(2) دوفردان باحث ومستشرق فرنسي له اطلاع واسع على آثار مراكش وتاريخها ، وهو من اساتذه صاحب هذه الدراسة .

(3) Champion, Op, Cit, p. 88, Deverdun, Op, Cit, p. 413

ومساحته 38 × 36 م . والبلاطات تفصل بينها أعمــدة ضخمة ، وتنتهي بعقود حذوية ، ويمتاز الجامع بقبتين تعلوان طرفي بلاطتين محاذيتين للصحن من جهة بيت الصلاة . ويستمد المنار هندســة من منار جامع القصبة ، وهو من الآجر الأصفر الرائق .

4 – جامع الفنا [1] :

كان المنصور قد شرع في بناء هذا الجامع باسم جامع الهنا بمراكش . وكان الوباء في هذا الوقت يفتك بالسكان فتكاً ذريعاً ، ومات المنصور والمسجد لمـا يكمل ، فأطلق عليه جامع الفنا بسبب الوباء المذكور [1] . وقد حملت الساحة التي يوجد بها هذا الاسم أيضاً .

5 – جامع أبي العباس السبتي [2] .

نسب إلى عبد الله الغالب وأبي فارس أيضاً . وقد بني الجامع بجوار ضريح أبي العباس السبتي ، وألحقت به خزانة كبيرة .

ومن الجوامع الرئيسية بمراكش أيضاً ، جامـع حومة ابن صالح ، ومناره مزخرف بالزليج الأخضر المركب بالمسامير ، ويمكن فكه .

ومن أهم الجوامع التي وسعت بمساهمة ميزانية الدولة ، جامع شفشاون الذي كان أصلاً من بناء أبي عبد الله محمد بن راشد في أواسط القرن العاشر / 16 م . وكانت الزيادة فيه على يد القاضي بشفشاون أحمد بن الشريف العلمي سنة 1012 هـ . وتشكل الزيادة أربع بلاطات تزيد طولاً عن البلاطات القديمة . كما أن العقود أوسع وأكثر ارتفاعاً ، وقد ألحقت بالجامع خزانة ومدرسة لعبت دوراً هاماً في حقل التعليم [3] .

ومن الإضافات بالقرويين قبــة الخصة الموجودة أسفل المنارة بوسطة

---

(1) عبد الرحمن السعدي ، تاريخ السودان ، ص 205 .
(2) عبد الحفيظ الفاسي . م. س. الناصري ، استقصا ، 6 ، 5 .
(3) انظر عن جامع شفشاون ومرافقه ، دراسة للسيد سعيد اعراب، بمجلة « دعوة الحق »، أكتوبر 1962 .

الصحن [1] ، وهي من بناء عبد الله بن الشيخ المامون بن المنصور ، أما الخصة (الفسقية) نفسها فشيدت في عهد أحمد المنصور سنة 996 هـ ، ولها كرسي من المرمر يدعى (بيلة) ، وقد بلغ وزنها معاً مائة قنطار [2] . وبنى السعديون أيضاً ، جناحين بجامع القرويين ، وجناحاً هاماً بخزانته .

وساهم الدلائيون وغيرهم في بناء المساجد،لا سيما مساجد الزاوية الدلائية [3].

الزوايا :

الزوايا في هذا العهد أكثر من أن تحصى،ودورها يختلف من ديني إلى سياسي أو علمي ، وقد تجمع بين الثلاثة كزاوية الدلاء . وتعد المناطق التي تواجه الخطر الأجنبي من أكثر جهات البلاد زوايا فيها يخص ذات الدور السياسي والحربي الذي لعبته الرباطات فيما مضى. ومن زوايا القرنين : العاشر – الحادي عشر هـ :

1) زاوية الشيخ عبد الوارث اليالصوتي (ت 971 هـ) أسسها ببني زروال على وادي أوضور .

2) زاوية أولاد خزاز ، بنيت على يد أحمد الشريف العلوي ببني زروال أيضاً [4] .

3) زاوية تمكروت ، أسسها الشيخ عمر بن أحمد الأنصاري (ت 983 هـ)، وجدد بناءها الشيخ محمد بن ناصر فنسبت إليه ، وصارت منذ أواخر القرن العاشر من أكثر الزوايا أنصاراً وأنشطها في الميدان التثقيفي،وبلغت مخطوطاتها المتبقية بعد الاستقلال نحو عشرة آلاف ، معظمها من الكتب النفيسة .

4) زاوية الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي ، بتطوان،بنيت سنة 1003 هـ [5].

---

(1) الاستقصا ، 6 ، 59 .

(2) نزهة الحادي ، ص 261 .

(3) عبد الودود التازي ، نزهة الأخيار ، ص 104 .

(4) محمد البشير الفاسي ، قبيلة بني زروال ، ص 19.

(5) محمد داود ، تاريخ تطوان ، 1 ، 307 .

5) زاوية الشيخ السعيدي بتطوان ، من بناء الشيخ قاسم الحاج ، أوائل القرن 11 هـ 17 م [1] .

6) الزاوية الدلائية ، وقد مر الحديث عنها في فصل سابق .

وتتوفر الزوايا عادة على أوقافها الخاصة ، كما تعتمد على تبرعات وهبات المريدين والعاطفين ، وكثير منها تابع لزوايا رئيسية ، وتحتوي على مساكن القومة ، بالإضافة إلى حجرات لاستقبال الغرباء والوافدين ، كما تشتمل على قاعة للصلاة ، وقد تكون مجرد فناء بالزاوية .

وقد تتوفر الزاوية على مقبرتها الخاصة ، ويدفن فيها عادة ، أفراد عائلة شيخ الطريقة وغيرهم . ولعبت الزوايا دوراً بالغ الأهمية في نشر الحركات الصوفية وإنشاء الحركات السياسية، سواء منها المناوئة للدولة والتي تتبنى حركة المقاومة ضد الاحتلال الأجنبي .

ضريح السعديين [2] :

أروع أثر بقي سليماً من عهد السعديين ، ويقع بقصبة مراكش . وقد بدأ بناؤه في عهد عبد الله الغالب ، وتم في عهد أحمد المنصور . ويتألف من ثلاث قاعات تتصل إحداها بالأخرى ، وأكبرها ترتكز على اثني عشر عموداً من الرخام ، والثانية خصصت للصلاة ، ولها محراب جميل ، أما الثالثة فتستند إلى جامع القصبة .

وكان الضريح قبل بنائه مقبرة لأسر ملكية سابقة ، بالإضافة إلى أمراء

(1) ن. م. ص 322 .

(2) المقرى ، روضة الآس ، ص 153 .

Marçais, L'architecture musulmane, p. 393. Champion, Op, Cit,p 100. Rousseau, Le mausolee des princes saâdiens, pp. 65-68. Benoît, L'Afrique Mediterranéenne, p. 73. Marçais, Manuel d'arts musulmans, pp. 751-7551. Terrasse, Les arts decoratifs, p. 85. Deverdun, Marrakech, 1, 360.

هنتاتة وغيرهم ، كما دفن به أفراد من الأسرة العلوية ، كقبر زوجة السلطان محمد الثالث وخمسة من أبنائه،فضلاً عن قبر تنسبه العامة إلى السلطان الأكحل .

وجدار القبة الكبرى مزخرف بالزليج إلى نحو مترين علواً ، وما بين السقف والزليج نقشت به أشكال رائعة وآيات قرآنية . وفي هذه القبة يرقد أحمد المنصور وابناه زيدان ومحمد الشيخ . وحول هذه القبور الثلاثة قبر زوجة المنصور وعبد الملك بن زيدان وأمه وعدد من أولاد محمد الشيخ وقائد أندلسي غرناطي ، وقبر الوليد بن زيدان الذي يقع في ركن منعزل . أما قبر عبد الله بن محمد الشيخ ، فيوجد في القبة الثانية .

وفي خارج القاعات تحطمت النقوش إلا من بعض القبور . وهناك قبر الغالب والمهدي وأم المنصور وقبر أحد أنجال أبي يعقوب الموحدي .

وكثير من القبور كتبت عليها آيات وأشعار ، وقد كتب على قبر المنصور :

« وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ، الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ... إن للمتقين مفازاً حدائق وأعناباً وكأساً دهاقاً لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً ، جزاء من ربك عطاء حساباً ... جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون ، كذلك يجزي الله المتقين الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ، يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً ، إن الله عنده أجر عظيم ...

هذا ضريح من غدت به المعالي تفتخر — أحمد منصور اللواء لكل مجد مبتكر
يا رحمة الله أسرعي بكل نعمى تستمر — وباكر الرمس بما من رضاه منهمر
طيبي ثراه من نـد كذكره المطر — وافق تاريخ الوفاة دون تفنيده ذكر
مقعد صدق داره عند مليك مقتدر

أما المحراب في القبة الثانية ، فيزينه باب حذوي ، وقاعته مهدمة تحتوي

على أربعة أعمدة وفناء لا سقف له . ويزين المحراب أيضاً ستة أعمـــدة صغيرة مطعمة بحجر اليصب الأخضر المزخرف ، وبجداره كتابة كوفية جميلة . أما سقفه فقد طعمت خلاياه المنقوشة بألوان ذهبية وزرقاء وخضراء . أما القبـة الثالثة التي تضيئها فتحتان مربعتان في السقف ، فهي أصغر القبـاب الثلاث ، وبها تخاريم على الجبس الذي تصطف فيه النقوش على درجتين .

ومما تمتاز به هذه القباب دقة نقشها وتمويهها بالذهب وتعـدد الألوان في زخارفها ، وتجمع بين الإيحاء بالوحشة والتأمل والعظمة في آن واحد .

★★★

5 ـ الحركة الفكرية

بالرغم من المآخذ التي اتسم بها العمل السياسي للدولة السعدية بوجه عام ، وبقطع النظر عن إخلاص الكثيرين منهم للقضايا الوطنية والدينية ، فإن نشاطهم الثقافي وتكوينهم الدراسي كثيراً ما أفادهم في فرض شخصيتهم السياسية والمذهبية بصورة مباشرة . فمحمد المهدي مثلاً كان معروفاً بقدرته على إقناع الفقهاء والمستشارين لديه ، بوجهة نظره . وأحمد المنصور خدم الحركة الفكرية لا بفضل نفوذه كملك ، ولكن بفضل ثقافته الواسعة أيضاً . وزيدان عرف في النهاية كيف يقنع الزعيم الشعبي المثقف يحيى بن عبد المنعم بضرورة تخليصه من مجابهة ابن أبي محلي . وللحجج الدينية والفكرية التي أبداها زيدان أثر في العون المباشر الذي أسداه إليه الزعيم المذكور .

وللملوك السعديين عامة ولع بفنون الأدب . فكان محمد المهدي الشيخ يحفظ ديوان المتنبي عن ظهر قلب [1] . وكان أحمد المنصور مشاركاً في معارف عصره ، وله شعر غزير تميز بالأصالة والرقة . أما محمد المامون ففضلاً عن ثقافته الأدبية والفقهية كان ذا معرفة بالطب أيضاً [2] .

ورغبة في إدراك مزيد من بعد الصيت في المشرق ، استجاز أحمد المنصور بعض أساتذة مصر كبدر الدين القرافي وأبي عبد الله محمد البكري . وشملت دراسات المنصور الحديث والفقه والنحو واللغة والفرائض والهندسة والجبر وغير ذلك [3] . أما شيوخه فكثيرون ، منهم : محمد بن يوسف الدرعي ، وأحمد

---

(1) محمد المختار السوسي ، ص 60 .

(2) الاستقصا ، 6 ، 23 .

(3) نزهة الحادى ، ص 218 .

المنجور ، وأحمد القدومي النحوي ، والمفتي شقرون بن هبة الله الوهراني، والمفتي يحيى السراج ، والفقيه إبراهيم الدمناتي . وكان المنصور يستشيره كبار القضاة ويصحح أخطاءهم ، كما لم يكن يجد غضاضة في أن يصحح معلوماته باستشارة المختصين [1] . ألف كتاباً في الشؤون السياسية والعسكرية، ووضع عدة تعاليق على كتب مختلفة في الحديث والتفسير وغير ذلك . وكان في نيته وضع مصنف أو ديوان جامع لقصائد الشعراء من أهل البيت[2] ، وقد كلف ثلة من المثقفين بوضع كتب عديدة منها شرح للألفية في مجلدين كبيرين ، أمر المنصور ، أحمد المنجور بأن يلخص فيه بتركيز مختلف الشروح المتداولة للاستغناء عنها [3] .

وكان لكثير من ملوك السعديين عطف خاص على المثقفين [4] ، وقد يحضر بعضهم جنازة من يتوفى من النابهين من ذوي الفكر ، فمحمد المتوكل مثلاً ، حضر جنازة أبي القاسم الدكالي ، ومحمد المامون بن المنصور حضر جنازة عبد الواحد الحميدي قاضي فاس [5] .

واشتهر المنصور بجمع الكتب وتحبيسها ، ولا تزال القرويين تتوفر على عشرات من المخطوطات المحبسة باسمه ، وتعد خزانة زيدان الشهيرة التي سطا عليها الإسبان وضمتها قاعات الإسكوريال حتى اليوم ، من بعض ما تخلف من كتب والده. وكان زيدان قد كلف الراهب الإيرلندي «أنطوان دوسانت ماري» بترجمة كتبها اللاتينية إلى الإسبانية التي كان يتقنها معظم ملوك السعديين ، ثم ترجمها أحد العلوج إلى العربية [6] .

---

(1) ن. م. ص 220 .

(2) انظر حول ثقافة المنصور وشيوخه: ابو فارس الفشتالي ، مناهل، ص 188. ابن القاضي، درة الحجال ، ج 1 . الافراني ، نزهة ، ص 216 و 224 . القادري، نشر المثاني، ج1. محمد بن عثمان ، مجلة المغرب ، ربيع ، جمادى 1 1355 هـ .

(3) نزهة ، ص 225 .

(4) نزهة ، ص 212 . استقصا ، 6 ، 82 .

(5) الكتاني ، سلوة الأنفاس ، 2 ، ص 60 ، و 129 .

(6) Deverdun, Marracech, 1, 434.

وكانت توجد خزانات طافحة بالكتب ألحقت بالجوامع الرئيسية كجامع للاعودة (باب دكالة) وجامع أبي العباس السبتي ، وجامع المواسين [1] .

وشهدت مراكش مقام عدد كبير من شخصيات الفكر بهـا كأبي فارس الفشتالي وابن القاضي ومحمد شقرون مفتي مراكش والشيظمي من الأدباء المقربين إلى البلاط . وفي هذه المدينة أيضاً ، كان يتركز نشاط الأجانب من تجار وفنيين ودبلوماسيين وغيرهم ، وكان بعضهم يقيم بها سنين طويلة ، فيخالط أهلها ويتعلم لهجة البلاد،حتى إن أول مستعرب في نظر بعض المستشرقين،يعد من معاصري السعديين ؛ وقـد درس العربية بمراكش سنة 1598 م ، واسمه إتيان هوبير [2] Etienne Hubert ، وكان أول أستاذ للغة العربية بكلية الطب بباريس حيث كانت لا تزال تدوي شهرة ابن سينا وابن رشد .

كذلك كانت منطقة سوس مقراً لعديد من الأسر القائمة على تنشيط المعرفة بفضل المدارس والخزائن التي تتوفر عليها [3] . وقد كانت سوس منطلقاً للدولة السعدية في عصرها الأول ، وبها كانت حاضرتها لفترة معينة ، وهي تارودانت ، كما أن بعض الزعماء المحليين كانوا من أرباب الفكر والمشجعين لنشره، بل كانت الزعامة في هذه المنطقة لا يكاد يظفر بهـا إلا فقيه أو صوفي . وهكذا كانت الحركـة الثقافية نشيطـة في إيليغ وتارودانت وتامنارت وأكلو وتازروالت وتازمورت وغيرها . واعتنى أهل سوس خاصة بالفرائض والفقه والأدب،وكان لهم فيها مجـال السبق في هذه الفترة ، وإذا كانت الفتن والثورات التي شهدتها الحقبة الأخيرة من الحكم السعدي قد أثرت سياسياً على إقليم سوس، فإن الحركة الفكرية ظلت دائبة في سيرها تجد إقبالاً واسعاً في الزوايا والمساجد والمدارس المتواضعة .

---

(1) Op, Cit.

(2) Op, Cit, p. 436

(3) محمد المختار السوسي ، سوس العالمة ، ص 168 . ولهذا المؤلف كتب كثيرة تعالج نشاط الأصقاع السوسية في الميدان الفكري عبر التاريخ ، كموسوعته : المعسول ، وخلال جزولة ، الخ ..

وقـــد أصبح التعليم في القرنين العاشر والحادي عشر هـ 16 ـ 17 م أقرب ما يكون إلى الديموقراطية حيث عم عدة مدن صغرى ومراكز قروية في شتى جهات البلاد . وكان بنو مرين قد بذلوا من قبل جهداً طيباً في هذا الميدان . ومن المراكز الثقافية غمارة وسجلماسة وتادلا ودرعة والقصر الكبير[1] والزاوية الدلائية [2] الخ . . .

ولربما كانت الزاوية الدلائية قد قامت في ميدان الإشعاع الفكري بجهـــد يفوق في مردوده ما قامت به الدولة السعدية التي اهتمت بالعمل السياسي بصورة خاصة ، وتمثل كتب التراجم والفهارس التي صنفت في هذا العهد أصدق تمثيل ما كان للمراكز المذكورة وغيرها من إسهام في نشر المعرفـة وتكوين الأطر والعناصر المثقفة .

الأدب :

كانت كل العوامل والظروف تشجع على ازدهار الحركة الأدبية فهناك مراكز ثقافية متعددة ، وظروف المقاومة والاستنفار التي كان يعيشها سكان الشواطىء المغربية ، بالإضافة إلى وجود أدب شعبي متنوع يعد الملحون من أبدع فنونه ، كما أن كثيراً من الملوك والأمراء كان لهم ذوق أدبي من شأنه أن يشجع الشعراء والكتاب على الإبداع ولو في إطار المدح والمناسبات الدينية والانتصارات .

وظل المدح أخصب فنون الشعر ، يتقرب به إلى الملوك وكبار رجال الدولة ويحصلون به على عطاياهم وصلاتهم . وفي الواقع لم يشذ الفن عما عرف في التنويه

(1) كان يعرف أيضاً بقصر كتامة أو قصر عبد الكريم . أما القصر الكبير ، فتمييزاً له عن القصر الصغير الذي يعرف أيضاً بقصر مصمودة ، أو قصر الجواز . وكانت الناحية التي بها القصر الكبير لكتامة فسميت بها. وكان عبد الكريم من رؤسائهم ولعله عبد الكريم ابن عبدالرحمن بن العجوز الكتامي من فقهائهم ، وكان معاصراً لظهور دولة المرابطين ، (انظر : مرآة المحاسن ، لمحمد العربي الفاسي ، ص 138) .

(2) عالج الاستاذ محمد حجي نشاط الزاوية الدلائية في دراسة قيمة لـــه بعنوان : الزاوية الدلائية (وقد سبقت الإشارة إلى هذه الدراسة) .

بمزايا خلفاء الإسلام الماضين ووصفهم بحماة الإسلام والقائمين على الشريعة وما إلى ذلك مما لا يكون مطابقاً للحقيقة أحياناً .

ومهما يكن من أمر ، فلم تكن أوصاف الممدوح في جملتها تبلغ حد الإفراط كما شاهدنا غالباً في عهد الانحطاط بالمشرق . وتعد انتصارات الملوك من أخصب موضوعات المدح التي برز فيها أبو فارس عبد العزيز الفشتالي ، ومحمد الهوزالي وأبو محمد عبد الواحد الشريف وغيرهم (1) . ومن النماذج الرائعة في هذا الباب قصيدة لسعيد بن علي الجزولي أحد شعراء الدولة الأولين . ومما جاء فيها (2) :

إذا اشتكى الجفن مني وحشة السهر	شكا الفؤاد بما جنى من النظر
لقد أرتنا الليالي كنه عزتها	وعرفتنا حباً أيامها الأخر
لا تسألني عن البيض العتاق وسل	عن العتاق وبيض الهند والسمر
فتلك سحب عميد الدين عامدة	روضاً من النصر بين الفتح والظفر

• • •

وذات خدر كبدر بالقنا برزت	لضيفم من ليوث الغيل منحدر
ظلت تساجل أتراباً لها قذفت	من الجفون عيوناً من دم هدر

وفي المولوديات يجمع بين مديح الرسول ومدح الخليفة (3) . وعلى العموم فقد خلا المديح من التملق المفرط والأوصاف الزائفة ، وساهم شعراء الملحون بوفير حظ في المديح النبوي (4) . وكان أطولهم باعاً عبد العزيز المغراوي الذي كان يقول عنه مثل دارج لا ريب أنه من صنع هواة الملحون: كل طويل خاوي، غير النخلة والمغراوي (5) ؟

وكان لزعماء الكفاح ضد الاحتلال الأجنبي كالعياشي وزعماء الإمارات

---

(1) مناهل الصفا ، ص 225 . والمجموعة الشعرية الملحقة به ، ص 263 .

(2) م. م. المجموعة الشعرية ، ص 283 (ملحق بمناهل الصفا) .

(3) المناهل ، ص 263 .

(4) محمد الفاسي ، مجلة البحث العلمي ، 1 ص 57 سنة 1383 ـ 1964 .

(5) ن. م. ص .

المستقلة كالدلائيين حظ كبير من إعجاب الشعراء وتقديرهم ، ومما جاء في قصيده لأحمد الدغوغي بعد انتصار العياشي على الشراقة وهم طائفة اتهمت بالانحراف في العقيدة [1] :

واقطع حبال كل معارض ومعاند للحق غير ملائم
وليبشر الإسلام منك وأهله بحماية ورعاية ومغانم

ولما كانت الدولة السعدية قد قضت فترة هامة من نشاطها في الصراع ضد الاحتلال الأجنبي ومقاومة حركات التمرد في الداخل . فقد كان لها شعراؤها الخاصون الذين يتغنون بأنصارها ويشيدون بكفاحها [2] .

أما شعر الرثاء فتسوده مسحة من الرقة وصدق العاطفة ، كما نرى الملوك والأمراء يعنون بتسجيل أبيات على قبور موتاهم تستغفر الخالق لهم وتذكر الأحياء بدار البقاء .

وامتاز الفن الأدبي في هذه الفترة بالتراسل بالشعر والنثر الفني، وهي ظاهرة لم تكن جارية من قبل [3] .

أما الغزل والنسيب فلا ريب أن أرق ما قيل فيه كان من نظم بعض الملوك والأمراء لتوفر أسبابه ومناخه كما في بعض قصائد المتوكل والمنصور وزيدان [4] . وللمنصور موشحات بعضها في الغزل تدل على أصالة ورقة شعور [5] .

ووجد الوصف مجالاً واسعاً في المباني الفاخرة المقصورة على طبقة محدودة من الحكام والأغنياء ، والبساتين الرائعة التي أنشأها هؤلاء وأولئك . ولا جرم

---

(1) أبو املاق ، الخبر عن ظهور الفقيه العياشي ، ورقة 7 .

(2) الفشتالي ، مناهل ، ص 103 ، عباس المراكشي ، اعلام ، 4 ، 172 . محمد المختار السوسي ، سوس العالمة ، ص 68 . عبد الله كنون ، النبوغ المغربي ، ص 698 .

(3) انظر نماذج في الاستقصا ، 5 ، 56 . ابن تاويت ، الأدب المغربي ، ص 368 .

(4) الفشتالي ، مناهل ، ص 207 . المقري ،نفح، 9 ، 282 . المحبي ، خلاصة الأثر، 1، 223. كنون ، النبوغ ، ص 743 .

(5) نفح ، 9 ، 280 .

أن قصر البديع قد حظي بأوفر سهم من هذا الفن الشعري ، كذلك نقشت على جدران هذا القصر وغيره من المباني الملكية جملة من القصائد والقطع الشعرية كثير منها نظمه أبو فارس الفشتالي [1] .

وبلغ النثر الفني ذروته في هذه الفترة، بينما كان يشهد بالمشرق أسوأ حقبة مر بها من الركاكة والانحطاط .

أما أسلوب الظهائر والمراسلات الرسمية فعلى الرغم من كونه أسلوباً إدارياً ، فقد كان يحرر بمنتهى العناية من غير تنميق ، ومع الاختصار ، والتزام ما قل ودل [2] .

كذلك نرى أن الجدل يدخل أحياناً أسلوب المراسلات بين الملوك وبعض المخالفين والثائرين ، وقد سجل الناصري بعض مراسلات زيدان في هذا الباب ، وهي تمثل أروع أساليب الاحتجاج والإقناع ، فضلاً عن سلاسة تركيبها وترابط فقرها ومعانيها [3] .

وامتاز أسلوب المؤلفات برصانته ، لا سيما أسلوب ذوي الثقافة الناضجة ، ولعل أبرعهم في هذا المجال أبو فارس الفشتالي الذي يتأثر إلى حد كبير بأسلوب ابن خلدون في « العبر » . وأحسن نماذجه بهذا الصدد كتابه مناهل الصفا [4] .

وقد ولد أبو فارس عبدالعزيز بن إبراهيم الفشتالي سنة 952 — 956 هـ بفشتالة، وهي مكان وقبيلة بناحية فاس ، وإليها ينسب أيضاً ، محمد بن علي الفشتالي من شخصيات البلاط المنصوري وأحد الأدباء البارزين . وكان أبو فارس يلقب بوزير القلم الأعلى بوصفه رئيس ديوان الإنشاء وكاتب الخليفة الخاص ، وكان فقيهاً

(1) نفح ، 8 ، 159 ، استقصا ، 5 ، 136 .

(2) محمد البشير الفاسي ، قبيلة بني زروال ، ص 56 و 68 .

(3) الناصري ، الاستقصا . 5 ، 136 ،

(4) انظر تعليقاً لحركات على جزء « مناهل الصفا » الذي نشره الاستاذ كنون ، في مجلة البحث العلمي ، عدد 8 . الرباط . وقد نشر الدكتور كريم نفس النسخة مع زيادات ومقدمة له .

أديباً ، درس على أحمد المنجور وعبد الواحد الشريف وغيرهما من فقهاء فاس ، ومن إنتاجه :

1 — مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا في بضعة مجلدات. وقد نشر الجزء الثاني منه مختصراً بعض الشيء بتحقيق الأستاذ عبد الله كنون سنة 1384 هـ 1964 م.

2 — مدد الجيش ، ذيل به كتاب جيش التوشيح لابن الخطيب ، وضمنه مجموعة من الموشحات المغربية .

3 — مقدمة في ترتيب ديوان المتنبي على حروف المعجم، ألفه بأمر المنصور.

4 — شرح مقصورة المكودي .

وفي نفح الطيب ومناهل الصفا جملة من رسائله ونثره ، كما نشر السيد كنون بعض ما حرره من مراسلات رسمية ضمن 33 رسالة وظهيراً بعنوان « مجموعة رسائل سعدية » وهو في الأصل مخطوط بالخزانة العامة بالرباط .

وكان أبو فارس مكرماً لدى المنصور الذي كان يقول عنه : نفتخر بـه على الملوك ونباهي به لسان الدين بن الخطيب . وقـد علق المحبي على هذا التنويه بقوله : « ناهيك بمثل هذا القول من مثل هذا الملك ، وهو شاهد بفضل كمال المقول فيه » .

والفشتالي أديب حتى في كتابته للتاريخ ، ويتناول شعره موضوعات كثيرة ، كالوصف والمديح النبوي والملكي والحماسة وغير ذلك ، وفي ترسله يجمع بـين القدرة على السجع من غير مبالغة في الصور البلاغية ، وبين السلاسة والأسلوب المطبوع الذي تسوده الرصانة .

وكانت وفاة أبي فارس الفشتالى أيام السلطان زيدان (1) سنة 1032 هـ 1622 م.

ومن كبار الأدباء أيضاً محمد بن علي الهوزالي المعروف بالنابغة ، وهو أحـد

(1) انظر حول ترجمة ابي فارس وأدبه : ابن القاضي ، درة الحجال . المقرى، نفح الطيب، 8 ، 158 ، المحبي ، خلاصة الأثر ، 2 ، 325 ، الافرني ، نزهة الحادى، ص 267 ، م.م. مجموعة شعرية (ملحق بالمناهل) ، رسائل سعدية ، لعبد الله كنون . عبد العزيز الفشتالي من سلسلة كنون .

ومن كبار الأدباء أيضاً محمد بن علي الهوزالي المعروف بالنابغة ، وهو أحد شعراء الدولة السعدية في بلاط المنصور، وتوفي سنة 1012 هـ ، وقد جمع بين الأدب والفقه ، وكان يتولى قضاء المحمدية [1] ، وله شرح على ديوان المتنبي ، وسعيد الحامدي ، ومحمد بن علي الفشتالي (ت 1021 هـ) ، ومحمد بن عمرو الشاوي ، وكل هؤلاء من رجالات البلاط السعدي ، وعبد الخالق بن محمد بن أبي بكر الدلائي الذي اشتهر بعلم البديع [2] .

ومن كتب الأدب المؤلفة في هذا العهد غير ما تقدم :

1) طلائع اليمن والنجاح لمحمد بن عبد العزيز التاملي (ت 1030 هـ) في مدح المامون السعدي ، ذكر المختار السوسي أن منه نسخة بخزانة العابد الفاسي [3] .

2) شرح مقصورة المكودي لأبي بكر التاملي .

3) ديوان سعيد بن علي الحامدي .

4) مجموع نثر وشعر لمحمد امحاولو .

5) ديوان محمد بن عبد العزيز الرسموكي . وكل هذه المؤلفات أوردها المختار السوسي في « سوس العالمة » .

العلوم الدينية :

بلغ الاهتمام بالعلوم الدينية حداً فائقاً ، حيث أقبل الطلاب على تلقي علم القراءات وتعددت كتب النوازل ، كما صارت دراسة العقائد تتخذ طابعاً إلزامياً ، فمن المؤكد أن مساكنة العناصر الأجنبية للمغاربة ، خاصة في المدن الرئيسية ، بالإضافة إلى حركة المقاومة والصوفية ، جعلت طبقات الشعب تحمل أبناءها على التشبع بالروح الدينية كرد فعل للتدخل المسيحي ، بالإضافة إلى أن

---

(1) انظر حول ترجمته وأدبه : الفشتالي ، مناهل ، ص 236 . م. م. مجموعة شعرية ، ص 301 . عباس المراكشي ، اعلام ، 4 ، 20 عبد الله كنون ، النبوغ ، ص 263 .

(2) عبد الودود التازى ، نزهة الاخيار ، ص 115 .

(3) محمد المختار السوسي ، سوس العالمة ، ص 224 .

دور العلوم الدينية في الحيــــاة الإدارية وشغل المناصب ما فتىء يعظم على قدر تشجيع الدولة وحاجيات الأمة .

وكانت دراسة علم القراءات تساير دراسة الفقه وتلازمها ، وممن برع فيها : محمد بن أبي المحاسن يوسف الفاسي من مواليد القصر الكبير سنة 959 هـ ، وقــد توفي بفاس 998 هـ ودفن بالكغادين [1] . ومحمد بن يوسف التدغي تلميذ أبي نعيم رضوان الجنوي وأبي عبد الله الخروبي [2] . وأبو فارس عبـــد العزيز الزياتي (ت 1055 هـ) . وأحمد بن قاسم القدّومي الغساني [3] (ت 992 هـ) .

ومن الكتب المؤلفة في القراءات :

1) إتقان الصنعة ، في قراءة السبعة ، لأحمد بن شعيب (ت 1015 هـ) .

2) شرح مورد الظمآن في علم رسم القرآن لابن عاشر .

3) تقييد وقف القرآن ، لمحمــد الصماتي (بضم الصاد) الهبطي المتوفى بفاس (930 هـ) ، وعليه جرى أهــــل المغرب في وقف القرآن كما يقول الأستاذ كنون .

كما كانت ميزة العصر ، الاعتناء بتفسير القرآن ، وتعدد المفسرين الذين من بينهم : الحاج محمد الشطيبي (ت 963 هـ) ، صاحب اللباب في حــل مشكلات الكتاب ، وعبد الرحمن العارف (ت 1036 هـ) وله : تفسير الجلالين . وعلي بن عبد الواحد الأنصاري السجلماسي (ت 1054) . وقد نسب إلى المنصور الذهبي حاشية على تفسير الزمخشري

كما يعد من كبار المفسرين أيضاً أبو القاسم بن إبراهيم الدكالي المشترائي (ت 978 هـ) ، وهو من أئمة القراءات السبع [4] .

أما الفقه فيعد المبرزون فيه والمتعاطون له بالمئات ، على أن ميزة الفقهـــاء

---

(1) عبد الرحمن زيدان ، اتحاف اعلام الناس ، 4 ، 34 .
(2) ابن القاضي ، درة الحجال ، رقم 624 .
(3) محمد البشير الفاسي ، قبيلة بني زروال ، ص 64 .
(4) الكتاني ، سلوة ، 2 ، 128 .

المتضلعين في هذا العصر ، هي تصدر عدد منهم للفتوى ووضع كتب في النوازل ، وهي ذات قيمة إجتماعية وقانونية كبيرة ، خصوصاً بالنسبة للأوضاع المحلية .

وبما أن ظاهرة العصر كانت هي الجمع بين عدة معارف في نفس الوقت ، فقد كان في الفقهاء من يجمع بين العلوم الدينية والأدبية ،أو بينها وبين العلوم الرياضية.

ومن أبرز الشخصيات الفقهية غير الذين سبق ذكرهم في موضوع القضاء :

1) أبو العباس أحمد بن علي المنجور [1] (ت 995 هـ) ، وقد وصفه أحمد بابا بأنه آخر الأئمة بالمغرب ومحققيهم ، وهو أستاذ أحمد المنصور الذهبي ، وابن القاضي وأحمد بابا والأفرني ، وكان يجمع بين الفقه والأصول والأدب والتاريخ والبلاغة والقراءة والفرائض والحساب ، وكان حسن الأخلاق متقشفاً في حياته متشدداً في اتباع السنة . ومن مؤلفاته : شرح قواعد الزقاق ، وشرح المنهج المنتخب إلى قواعد المذهب ، وخلاصة لشروح ألفية ابن مالك .

2) عبد الواحد بن أحمد بن علي بن عاشر الأنصاري [2] (ت 1040 هـ) درس على القصار والجنوي وأبي عبد الله الجنان وغيرهم ، وجمع بين الثقافة الدينية والرياضية ، ومن مؤلفاته : نظم المرشد المعين في مبادىء الفقه والتوحيد ، وقد نال شهرة فائقة تداني شهرة الأجرومية في النحو ، وحاشية على شرح مختصر خليل للتتائي ، ومحاذاة مختصر خليل ، وهو أستاذ ميارة الذي شرح له « نظم المرشد » (صغير وكبير) .

وأكثر ما ألف في هذا العصر من كتب الفقه والعقائد حواش وشروح ، ومن أهم كتب النوازل : الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة في نحو 500 صفحة من القطع الكبير لعبد العزيز الزياتي ، وتوجد منه بالمغرب عدة نسخ ، ونوازل المسناوي (ط . حجري ، فاس 1345 هـ) ، والفتاوي لميارة ، وجمع نوازل إبراهيم بن هلال لعلي بن أحمد التامنارتي .

---

(1) ابن القاضي، درة الحجال ، رقم 186 . أحمد بابا ، نيل الابتهاج ، ص 38 . الافرني ، صفوة، ورقة 2، اللكوسي ، مناقب، ورقة 12، عبد الرحمن زيدان، اتحاف،1، 319.

(2) المحبي ، خلاصة الاثر ، 3 ، 96 ، القادري ، نشر المثاني ، ج 1 .

أما علم الكلام ، فأكثره منظومات أو شروح على السنوسية ، وعلى العموم فقد كان تدريس هذه المادة عقيماً في طريقته ونتائجه بسبب الجـــدل الفلسفي الغامض الذي يصطبغ به مع كثرة الشروح والأراجيز .

وقد عني بعض علماء التصوف بوضع كتب ورسائل في التصوف ، على شكل عظات وتوجيهات إلى المريدين ، أو مختصرات أو شروح لبعض المنظومات . وهناك بعض نقاد التصوف كعلي بن ميمون ، وآخرون اشتغلوا بوضـع تراجم الصوفية كالتادلي .

وممن ألفوا في التصوف وما يتصل به من نقد إجتماعي :

1 — عبد الوارث اليالصوتي ، صاحب المسلك القريب الموصل إلى حضرة الحبيب [1] .

2 — أبو العباس أحمد الشعبي التادلي الصومعي (نسبة إلى الصومعة بتادلا) ، وقد توفي سنة 1013 هـ ، ومن مؤلفاته : شرح الحكم العطائية في أربعة مجلدات.

3 — محمد بن أحمد المسناوي : فوائد في التصوف .

4 — محمـد بن علي النيجي الزروالي (1030 هـ) : شرح صلاة القطب عبد السلام بن مشيش .

5 — عبد الله بن محمد الهبطي الطنجي (ت 963 هـ) : ألفية في ذم البـدع المتفشية في أيامه .

أما علوم الحديث فمن المؤلفين فيه :

1 — أبو العز عبد الرحمن بن محمد القصري [2] (ت 1036 هـ) وله حاشية على شرح البخاري .

2 — الشرقي بن أبي بكر الدلائي من شراح الشفا للقاضي عياض ، وهـم يعدون بالعشرات .

3 — محمد اليستيثني (ت 959 هـ) .

---

(1) محمد البشير الفاسي ، قبيلة بني زروال ، ص 54 .
(2) المحبي ، م. س. 2 ، 378 .

علوم اللغـــة :

شهدت هذه العلوم إقبالاً واسعاً سيما في الأوساط البربرية على الرغم من أن طرق التعليم وأدواته لم تتقدم عمـا كانت عليه من قبل ، فقـــد ظلت الألفية والأجرومية بمختلف شروحهما تتصدران بل تستبدان وحدهما تقريبـاً بعناية الطلاب والأساتذة . وفي الواقـــع طغت المنظومات والشروح في سائر المواد بشكل لم يتقدم له نظير ، أما محاولة تقرير كتب معينة للدراسة ومراجعة النظر في شروح الألفية التي أمر بها أحمد المنصور فإنها لم تخلف صدى بعده على الأقل .

وعلى العموم فإن الذين تخصصوا في النحو أو اللغـة وحدها قليلون بالقياس إلى ذوي التخصص المزدوج والمتعدد . ومن أشهر النحاة واللغويين :

1 — محمد بن الحسن بن عرضون قاضي شفشاون وصاحب الوثائق المشهورة[1]

2 — يوسف التدغي [2] .

3 — أبو الحسن الزبير السجلماسي[3] (ت 1035 هـ) .

4 — محمد بن محمد بن أبي بكر الدلائي المعروف بالمرابط وقـــد وصفه اليوسي بأنه كان خاتمة النحاة [4] .

ومن أهم كتب اللغة والنحو :

1 — حديقة الأزهار في شرح ماهية المشوب والعقـار لأبي القاسم الغساني رئيس الأطباء في عهد المنصور ، وقد وضع ملخصاً له بعنوان : كشف الرموز ، وهو يتناول المفردات الطبية وشرحها ، وبذلك يكون كتاب لغة وطب معاً ، وقد أنجز طبعه منذ سنوات .

2 — فتح اللطيف في علم التصريف لمحمد المرابط الدلائي (ط. حجري بفاس)

---

(1) ابن القاضي درة الحجال ، رقم 679 .

(2) ن. م. رقم 624 .

(3) المحبي ، خلاصة ، 1 ، 116 .

(4) اليوسي ، فهرست ، ص 135 .

3 — حاشية على شرح المرادي للقدّومي .

4 — مقصورة في الثاء والذال والظاء في القرآن .

5 — نتائج التحصيل في شرح التسهيل ، لمحمد المرابط .

أما المعاجم فمساهمة المغاربة فيها ضعيفة لأن مصادر الفصحى سواء المباشرة منها أو غير المباشرة هي بالبلاد العربية الشرقية ، ويدخل في هـــذه المصادر القبائل ذات اللغــة الفصيحة والخواص ممن أفادوا العربية بمعلوماتهم الفطرية والمكتسبة إلى غير ذلك. ومن بين المعاجم التي وضعت بالمغرب « كشف الرموز » السابق ذكره ، ومعجم لاتيني عبراني للحسن الوزان الذي عاصر كـــلاً من الوطاسيين والسعديين .

ولما كان الخط من وسائل تعليم اللغة ، فقد خصص له السعديون بعض الكراسي على غرار ما كان معروفاً بالمشرق (1) .

التاريـخ :

بقطع النظر عن عدم مساهمة المغاربة في التاريخ العام مساهمة ذات أثر فإن العناية بالتاريخ المحلي بدأت تبرز أكثر فأكثر من أيام المرابطين ، لكن القرنين العاشر والحادي عشر هـ 16 / 17 م كان الاهتمام بتاريـخ أحداثهما من نصيب مؤرخين أغلبهم ذو حظوة لدى البلاط أو كلفوا رسمياً بوضع تاريخ للدولة ، غير أن « مناهل الصفا » للفشتالي والذي يعد أهم كتـاب عن السعديين حتى نهاية عصر المنصور لم يصلنا منه حتى الآن إلا جزء واحد أو ملخص له ، وعلى العموم فإن تاريخ المغرب في القرنين المذكورين يضم :

1 — تاريخ الحكم السعدي .

2 — تاريخ الدلائيين .

3 — تاريخ جمهورية أبي رقراق .

4 — تاريخ سوس في ظل حكم أبي حسون السملالي .

---

(1) ابن القاضي ، م. س. رقم 1058 .

5 ــ تاريخ حكم الشبانات بمراكش .

6 ــ تاريخ ثورة ابن أبي محلي .

7 ــ تاريخ النشاط الاستعماري .

8 ــ حركة العياشي .

وأما المصادر التي يمكن الاستفادة منها فهي إما كتب تاريخ سياسي أو تراجم أو فهارس شيوخ أو كتب أنساب أو تقارير أجنبية .

ومن بين المؤلفات عن العصر السعدي :

1 ــ مناهل الصفا لأبي فارس عبد العزيز الفشتالي في بضعة مجلدات .

2 ــ الجُمَان في تاريخ الزمان للحاج محمد الشُّطيبي (ت 963 هـ) ومنه نسخة ببني زروال .

3 ــ الممدود والمقصور من سنا أبي العباس المنصور لأبي عبد الله محمد بن عيسى الذي نكبه المنصور ومات في نكبته (990 هـ) .

4 ــ تقييد في أخبار دولة الشرفاء السعديين لأبي زيد عبد الرحمن السعدي (خ. عامه ، الرباط) .

5 ــ تقييد في بعض حوادث الدولة السعدية لإبراهيم الورياغلي[1] (ت 1047 هـ 1637 م) .

6 ــ المنتقى المقصور على مآثر مولانا المنصور لأحمد بن القاضي (خ . ع . الرباط) .

7 ــ تاريخ السودان لعبد الرحمن بن عبد الله السعدي (ت 1066 هـ 1655 م) وقد نشره هوداس وترجمه (1901 م) .

أما عن تاريخ الدلائيين فلم توضع إلا كتب متأخرة ، سيما « البدور الضاوية لسليمان الحوات » وألف محمد المهدي بن سودة كتاباً مطولاً في ستة مجلدات عن الدلائيين ، ولكن لا يعرف مصيره . كذلك إذا استثنينا الوثائق التي جمعها

(1) ابن سودة ، دليل مؤرخ المغرب ، 1 ، 144 .

دوكاستري ومن بعده عن حركة جمهورية أبي رقراق والتي تعود إلى عصر هذه الجمهورية ، فليس هناك تاريخ مستقل لهم أو معاصر على الأقـل ، ونفس الشيء تقريباً عن حركة أبيحسون والشبانات . أما حركة ابن أبي محلي فقد ألف هو نفسه في الدفاع عنها كتباً سبق ذكر بعضها .

وأخيراً فإن تاريخ النشاط الاستعماري المعاصر لكل الحركات المذكورة يوجد في وثائق وكتب وتقارير برتغالية وفرنسية وإنجليزية وغيرها ، بينما وضع كتاب متأخر عن نشاط العياشي لأبي أملاق .

وتتناول كتب التراجم أشخاصاً أو أسراً أو بلداً معيناً ، ومن أهمها :

1 ـ جذوة الاقتباس ، ودرة الحجال ، وكلاهما لابن القاضي .

2 ـ دوحة الناشر لابن عسكر .

3 ـ مرآة المحاسن لمحمد العربي الفاسي .

4 ـ غنية الرائض في طبقات أهل الحساب والفرائض لأحمـد بن القاضي ، وهو من كتب التراجم القليلة التي خصصت للحيسوبيين .

5 ـ الدرر المرصعة في أخبار أعيان درعة ، لمحمد المكي الناصري ومؤلفه من معاصري القرن 12 هـ 18 م ، ولكن كتابه هـــذا تضمن تراجم كثير من رجالات درعة وأحداثها في القرنين السابقين .

ومن كتب الفهارس (فهارس الشيوخ والكتب) :

1 ـ فهرست شيوخ المنصور ، وضعها المنجور أستاذه .

2 ـ الفوائد الجمة لعبدالرحمن التامنارتي ،وهو مطبوع ومترجم إلىالفرنسية .

3 ـ فهرس ابن يعقوب الأيسي من معاصري المنصور .

4 ـ فهرس البوسعيدي ، (ت 1060 هـ) ، واسمه : بذل المناصحة .

5 ـ فهرس عبد الواحد الشريف .

وعلى الرغم من أن بعض المغاربة ظلوا يتوجهون إلىالمشرق لمتابعة دراستهم ، خصوصاً إذا كان هدفهم كذلك أداء مناسك الحج ، فهم قلما عنوا بتدوين رحلاتهم

على غرار ما كان يفعله أسلافهم. بيد أن أبا الحسن التمكروتي الجزولي (ت 1003 هـ 1594 م) سجل في رحلته : « النفحة المسكية في السفارة التركية [1] » وصفاً ممتعاً ومدققاً لمشاهداته بشمالي إفريقيا والبلاد التركية، وقد وصف مسجد أيا صوفيا وصفاً رائعاً ، كما أعجب بالتزام الدولة بالتشريعات المكتوبة ، فقد كانت تركيا أول بلد قنن التشريعات المدنية والدينية . وصحب التمكروتي في هذه السفارة الكاتب محمد بن علي الفشتالي، حيث سلما إلى السلطان مراد سليم هدية من أحمد المنصور. واستغرقت الرحلة سنتين إلى عام 999 هـ ، وتبلغ صفحات الرحلة المدونة حوالي 330 صفحة [1] .

الطب :

أكثر الذين ينتسبون إلى الطب من الشخصيات ذات الثقافة العامة ، كعبد الواحد بن عاشر وأبي القاسم الغول الفشتالي ، وأحمد بن عبد الله بن يعقوب السملالي وابن سعيد المرعيشي . إلا أن مؤلفات هؤلاء في الطب كثيراً ما تكون ذات قيمة . ومع ذلك فقد تراجع الطب التجريبي كثيراً عما كان عليه في العصر المريني الذي تميز أيضاً بنشاط الدولة في بناء المستشفيات وعلاج مختلف الأمراض الشائعة .

غير أن القرنين العاشر والحادي عشر شهدا نشاطاً خاصاً في المؤلفات الطبية ، بالإضافة إلى ظهور بعض الأطباء البارزين على قلتهم ، إذ كان البلاط المغربي يستقدم أطباء أجانب ككيوم بيرار في عهد عبد الملك المعتصم، وقد كان قنصلاً لفرنسا بالمغرب ، وأرنون دوليل في عهد المنصور وزيدان [2] .

ويعد أبو القاسم بن محمد بن إبراهيم الغساني [3] أبرز أطباء العهد السعدي ،

---

(1) التمكروتي ، النفحة المسكية ، مخطوط الرباط ، د 795 .

(2) Caille. La petite histoire du Maroc, 1, 44.

(3) ابن القاضي ، درة الحجال ، رقم 1347 . المقري ، روضة الآس . الكانوني ، مجلة المغرب ، ربيع ـ جمادى 1355 هـ . عبد العزيز بنعبد الله ، الطب والأطباء ، ص 57 . Deverdun, Marrakech, 1, 335.

وهو أندلسي الأصل ، وكان والده طبيباً أيضاً ، ومن مؤلفاته :

1 ـ حديقة الأزهار في شرح ماهية العشوب والعقار. وقد مر ذكره كمعجم طبي وقد ألف سنة 994 هـ ، وهو في تسع كراريس ، ويتناول وصف الأعشاب كما في عنوانه .

2 ـ شرح منظومة ابن عزرون في الحميات، ومنه نسخة بالخزانة العامة بالرباط.

ووصف ابن القاضي هذا الطبيب الذي كان وزيراً أيضاً ، بكونه اختص من بين الأطباء بسلامة الاعتقاد، أي أنه لم يشتغل بالفلسفة شأن الأطباء القدامى، وقد نظم الغساني في الموشحات أيضاً .

ومن أطباء هذا العصر أيضاً :

1 ـ عبد الغني بن مسعود بن الحسن الزموري تلميذ أبي القاسم [1] . وله كتاب بعنوان « القانون المفيد في علاج الحصا بقول سديد » وتتوفر الأوقاف على نسخة منه .

2 ـ أبو القاسم الغول الفشتالي (ت 1059 هـ) ومن مؤلفاته : « حافظ المزاج ، ولافظ الأمشاج بالعلاج » وهي أرجوزة في 1410 بيت ، ومنها نسخة بالخزانة الملكية بالرباط [2] .

3 ـ محمد بن علي البعقيلي، وله مجموعة في الطب بعنوان : « طب البعقيلي [3] » .

وممن برزوا في الطب : أحمد بن عبد المراكشي المعروف بالمريد [4] (ت 1048 هـ) ، وأبو عبد الله محمد الطبيب [5] ، وقد عالج المنصور من مرض خطير سنة 987 هـ .

الرياضيات والهيئة :

كان الإقبال على الرياضيات والهيئة إقبالاً منقطع النظير ، فلم يسبق أن شهد

(1) الكانوني، مجلة المغرب، ربيع ـ جمادى، 1355 هـ . دعوة الحق، يناير ، 1966 ، ص 137.
(2) محمد الفاسي ، البحث العلمي ، 6 ـ 1385 هـ 1965 م ص 31 .
(3) محمد المختار السوسي ، سوس العالمة ، ص 53 ، 184 ، 187 .
(4) عباس المراكشي، اعلام، 2 ، 114. وقد ذكر أن الحضيكي وصاحب الصفوة قد ترجما له.
(5) الأفراني ، نزهة ، ص 146 . الناصري ، الاستقصا ، 5 ، 92 .

المغرب مثل هذا الحماس في دراسة الرياضيات والهيئة ، فالأولى احتاج إليها في المواريث وهندسة المباني خاصة ، وبالنسبة للأخيرة كانت الحاجة إليها في إعداد أطر التوقيت . ويعتبر تأليف ابن القاضي لكتاب في طبقـــات الحيسوبيين والفرضيين دلالة على كثرة الإطارات الرياضية في هذا العهد .

وممن تعاطوا للرياضيات :

1 ـ محمد بن محمد بن أحمـد بن أبي العافية المكناسي [1] (ت 981 هـ) ، وهو والد ابن القاضي مؤلف الجذوة ودرة الحجال وكان هو أيضاً رياضياً قديراً .

2 ـ محمد بن أبي القاسم ، وهو ابن أخي صاحب الجذوة ، وتلميذه ، كما درس على الحـــافظ المقري والعربي الفاسي وغيرهما ، وكان حيسوبياً فرضياً منجماً ومؤقتاً ، ومن مؤلفاته : 1 ـ البرق الوامض ، في الحساب والفرائض . 2 ـ محاذي على قصيدة ابن ليون في التكسير . 3 ـ محاذي على الروضـــة في التوقيت [2] . وقد توفي سنة 1040 هـ .

3 ـ أبو عبد الله محمد بن أحمـــد السالمي أستاذ المنجور ، وقد توفي بين 999 ـ 1002 هـ .

4 ـ الرسموكي محمد بن أحمد الجزولي الذي درس بمراكش ثم تعاطى التدريس بتلمنارت ، وتوفي سنة 1020 هـ .

5 ـ محمد بن سعيد الطنجي [3] (ت 992 هـ) ويعرف بابن سليمان .

6 ـ عمر بن علي بن أحمد الحصيني اللجائي [4] .

7 ـ إبراهيم بن عبد الله الصنهاجي [5] .

ومن علماء الهيئة :

1 ـ أحمد التقليتي ، وكان يجمع بين الرياضيات والتعديل ، حتى كان يعد في

---

(1) ابن القاضي ، درة الحجال ، رقم 698 .
(2) عبد الرحمن زيدان ، اتحاف ، 4 ، 40 .
(3) ابن القاضي ، لقط الفرائد ، ص 180 . درة الحجال ، رقم 659 .
(4) درة الحجال ، رقم 1161 .
(5) محمد المختار السوسي ، سوس العالمة ، ص 180 .

هذه العلوم شيخ الجماعة بمراكش [1] ، وهو معاصر لابن القاضي .

2 ـ أحمد بن محمد الولتي الطاطائي المراكشي (ت 1061 هـ) وهو أستاذ ابن سعيد المرغيتي ، وكان يعتبر إماماً في التعديل والأزياج والحدثان [2] ، وقد درس هو نفسه على والده ، وتولى كلاهما مهمـة التوقيت بجامع الحرة بمراكش .

3 ـ أبو زيد عبد الرحمن البعقيلي الجزولي (ت 1006 هـ) ، صنع الساعـة الرخامية بالجامع الأعظم بتارودانت ، وأخرى بمسجد القصبة ، ومن مؤلفاته : شرح زوضة الأزهار وشرح السيارة [3] ، وكان المنصور يلقبه بالجرادي (نسبة إلى الجراد) ، وقد رويت في ذلك قصـة ذكرها كل من التمنارتي في « الفوائد الجمة » والأفرني في « نزهة الحادي » ، وقد عرف عن المنصور الذهبي أنـه هو نفسه كان مولعاً بالرياضيات إلى درجة أنه قد استطاع أن يدرس كتاب إقليدس ويفك غوامضه بنفسه .

وفي هذه الدراسة عن الحركة الفكرية لم تذكر إلا أمثلة قليلة لرجال الأدب والعلم والتكوين الديني ، الذين ساهموا في تنشيط الحركة الثقافية وكانوا موضع اهتمام مؤلفي التراجم .

كذلك لا تتعرض هذه الدراسة إلا بإشارات للأساتذة الوافدين على المغرب من جهـــات أخرى ، كأحمد بابا الصنهاجي من السودان والخروبي من ليبيا والمقري من المغرب الأوسط ، وقد كان لهم ولأمثالهم تأثير لا ينكر في إشاعة المعرفة بالمغرب ، كما تعرفوا بدورهم على الإمكانيات الثقافية لهذه البلاد .

(1) درة الحجال .
(2) الأفرني ، ورقة 80 .
(3) الأفرني ، نزهة ، ص 221 . محمد المختار السوسي ، سوس العالمة ، ص 51 .

المراجـع

ابن أبي زرع (راجع ابن عبد الحليم صالح) .

ابن الأحمر إسمعيل بن يوسف 761 ﻫ 1360 م :

ـ روضة النسرين في دولة بني مرين . باريز 1917 م .

ابن بطوطة أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي 779 ﻫ 1377 م :

ـ رحلة ابن بطوطة ، القاهرة ، 1377 ﻫ 1958 م .

ابن تاويت محمد (التطواني) :

ـ وثيقة تاريخية عن تطوان ، مجلة تطوان ، 1956 م .

ـ وثائق سعدية لم تنشر ، مجلة تطوان 1958 — 1959 م .

ـ الأدب المغربي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت 1960 م .

ابن الحاج أبو عبد الله محمد العبدري الفاسي 737 ﻫ 1336 م :

ـ المدخل إلى علم التصوف ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، 1348 ﻫ 1929 م .

ابن الخطيب لسان الدين محمد بن عبد الله 776 ﻫ 1374 م :

ـ معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار . م. خ. ع. الرباط . د 9:2 ﻫ .

ـ اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق محب الدين الخطيب . م. السلفية، القاهرة ، 1347 ﻫ 1928 م .

ابن خلدون عبد الرحمن ، 808 ﻫ 1406 م :

ـ المقدمة ، المطبعة البهية بمصر (بدون تاريخ) .

ـ كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر . دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1956 — 1959 م .

ـ التعريف بابن خلدون، ملحق المجلد السابع من كتاب العبر، الطبعة المذكورة.

ابن الزبير أبو جعفر أحمد ، 808 ﻫ 1406 م :

ـ صلة الصلة ، تحقيق ليفي بروفنصال ، الرباط ، 1938 م .

ابن زيدان عبد الرحمن 1365 ﻫ 1946 م :

ـ إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس . م. الوطنية ، الرباط، 1347 — 1352 هـ 1929 — 1933 م .

ابن سودة عبد السلام المُرّي (مُعاصر) :

ـ دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج. 1. دار الكتاب . الدار البيضاء ، 1960 م.

ابن عاشر أحمد الحافي ، 1163 هـ 1750 م :

ـ تحفة الزائر ببعض مناقب الحاج أحمد بن عاشر. م.خ.ع. الرباط ،د 533 .

ابن عبد الحليم صالح :

ـ الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار المغرب ومدينة فاس ، تحقيق محمد الهاشمي الفيلالي ، شركة النشر المغربية ، م الوطنية ، الرباط ، 1355 هـ 1936 م . ـ طبعة فاس (ط. حجري) .

وقد أثبت المحقق كنون الذي راجع مؤلف هذا الكتاب حججه والتفاصيل التي أوردها غيره ، أن مؤلف الأنيس المتداول حتى الآن هو لصالح بن عبد الحليم وليس لابن أبي زرع الذي يرد اسمه في ثنايا الأنيس نفسه .

ابن عسكر أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر 986 هـ 1578 م :

ـ دوحة الناشر . م. خ. ع. الرباط . د 764 .

ابن علي الدكالي محمد 1364 هـ 1945 م :

ـ إتحاف أشراف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا . م. خ. ع. الرباط . د 11

ـ الإتحاف الوجيز بأخبار العدوتين ، م. خ. ع. الرباط ، د 1320 .

ابن العماد أبو الفلاح عبد الحي ، 1089 هـ 1678 م :

ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، مكتبة القدسي، القاهرة، 1351 هـ 1932 م.

ابن عيشون أبو عبد الله محمد بن محمد الشراط ، 1109 هـ 1697 م .

ـ الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس ، م. خ. عامة ، الرباط ، د 1246 .

ابن غازي المكناسي محمد بن أحمد 919 هـ 1513 م :

ـ الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون .

ابن القاضي أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي 1025 هـ 1616 م .

ـ جذوة الاقتباس . م. خ. ع. الرباط ، ك 1242 و ك 589 .

ـ درة الحجال في غرر أسماء الرجال ، تحقيق علوش ، الرباط ، 1934 م .

ـ لقط الفرائد من حقائق الفوائد، م. خ. ع. الرباط ، ك 270 ،ضمن مجموع ، ابتداء من ص 136 .

ـ المنتقى المقصور على مآثر مولانا الخليفة المنصور . م. خ. ع. الرباط، د 764 .

ابن مرزوق التلمساني أبو عبد الله محمد بن أحمد 781 هـ 1380 م :

ـ المسند الصحيح الحسن، في مآثر مولانا أبي الحسن. م.خ.ع. الرباط، ق 111 .

ـ منتخبات من المسند الصحيح لبروفنصال . مجلة هسبريس 1 ، 1925 ،الرباط.

أبو املاق عبد القاهر بن محمد ، قرن 13 هـ 19 م :

ـ الخبر عن ظهور العياشي بهذه البلاد وذكر قيامه بوظيفة الجهاد ، م. خ. ع. الرباط . د 91 .

أحمد بابا الصنهاجي السوداني :

ـ نيل الابتهاج بتطريز الديباج . م. خ. ع. الرباط ، د 766 .

ـ تحفة الفضلا ببعض فضائل العلما . م. خ. ع. الرباط ، د 1641 .

الأفراني (أو اليفرني) محمد الصغير المراكشي 1140 هـ 1728 م .

ـ صفوة من انتشر في أخبار القرن الحادي عشر . م. خ. ع. الرباط، د 671 .

ـ نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ، منشورات إرنست لوروكس ، ترجمة هوداس (إلى الفرنسية) ، أنجز ، 1888 م .

الأنصاري محمد :

ـ اختصار الأخبار عما كان بسبتة من سني الآثار . مجلة هسبريس ، 1931 ، الرباط .

البادسي عبد الحق :

ـ المقصد الشريف في التعريف بصلحاء الريف . م. خ. ع. الرباط ، د 1853 .

باذل دافيدسن :

ـ إفريقيا تحت أضواء جديدة، ترجمه عن الإنجليزية،جمال م. أحمد،بيروت .

بروكلمان كارل 1956 م :
ـ تاريخ الشعوب الإسلامية ، تعريب نبيه أمين ومنير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1953 — 1956 م .
البكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز 487 هـ 1094 م :
ـ المُغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (قطعة من المسالك والممالك) ، مكتبة أمريكا والشرق ، باريز 1965 م .
البناني فتح الله بن أبي بكر :
ـ إتحاف أهل العناية الربانية ،المطبعة العامرية ، القاهرة ، 1324 هـ 1906 م .
بوجندار محمد 1345 هـ 1926 م :
ـ مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح . م. خ. ع. الرباط ، د 1044 .
بيرتيي بول (معاصر) :
ـ صناعة السكر بالمغرب،مجلة البحث العلمي، 1 ، الرباط ، 1383 هـ 1964 م.
التادلي أبو زيد عبد الرحمن الصومعي ، ق 10 هـ 16 م :
ـ التشوف إلى رجال سادات التصوف ، م. خ. ع. د 1103 . الرباط .
التازي عبد الهادي (معاصر) :
ـ ساعة مائية آلية بمدينة فاس ، تعريب وتعليق على بحث لدي صولا برايس الأمريكي ، مجلة المغرب ، الرباط ، عدد 8 / 1966 م .
التازي عبد الودود بن عمر 1247 هـ 1831 م :
ـ نزهة الأخيار المرضيين في مناقب العلماء الدلائيين البكريين ، ألفه سنة 1230 هـ ، م. خ. ع. الرباط ، ك 1264 .
التمكروتي أبو عبد الله محمد بن علي 1003 هـ 1594 م:
ـ النفحة المسكية في السفارة التركية ، م. خ. ع. الرباط ، د 795 .
الجواري عبد الله (معاصر) :
ـ الغاية من رفع الراية ، م. الأمنية ، الرباط ، 1372 هـ 1953 م .
الجزنائي علي :
ـ زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، م. مبتور ، د 773 ، الرباط .

الحجوي محمد المهدي :
ـ حياة الوزان الفاسي وآثاره . م. اقتصادية ، الرباط ، 1354 هـ 1935 م .
حركات إبراهيم :
ـ كتاب العبر كمصدر تاريخي ، مجلة آفاق ، 1 ، الرباط .
الحساني إبراهيم بن علي :
ـ ديوان قبائل سوس ، نشره الكولونيل جوستينار في مجلة الوثائق المغربية ، عدد 29 / 1933 م .
الحسني الشريف محمد بن أحمد 760 هـ 1358 م :
ـ رفـــع الحجب المستورة في محاسن المقصورة . م. السعادة ، القاهرة ، 1344 هـ 1925 م .
الحوات الشفشاوي سليمان بن محمد :
ـ البدور الضاوية ، م. خ. ع. الرباط ، د 261 و د 1454 .
الدباغ محمد بن عبد العزيز (معاصر) :
ـ ابن جزي كاتب رحلة ابن بطوطـــة ، دعوة الحق ، صفر / يوليوز ، 1382 هـ 1962 م .
دعوة الحق : (المخطوطات الحبسية) ، رمضان / يناير ، 1385 هـ 1966 م
الزركشي محمد بن إبراهيم (ت 894 هـ) :
ـ تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور ، تونس 1966 م .
الزياني أبو القاسم 1242 هـ 1833 م :
ـ الترجمان المعرب عن ملوك دول المشرق والمغرب . م. خ. ع. الرباط ، د 658.
ـ الترجمانة الكبرى التي جمعت أخبار العالم براً وبحراً . م. خ. ع. الرباط ، د 659 .
ـ تقييد عن البلديين بفاس (أو قصة المهاجرين البلديين . . .) ، م. خزانة عامة ، الرباط ، د 1115 .
السخاوي شمس الدين محمد بن عبد الرحمن 902 هـ 1497 م :
ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، مكتبة القدسي ، القاهرة ، 1353 هـ 1934 م .

ـ إفادة المرتاد بالتعريف بالشيخ ابن عباد ، م. خ. ع. الرباط ، د 984 .

السعدي عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران 1066 هـ 1656 م :

ـ تاريخ السودان ، نشره هوداس ، باريز 1898 م .

سعيد أعراب (معاصر) :

ـ جامع شفشاون ، دعوة الحق ، أكتوبر 1962 هـ ، الرباط .

السوسي محمد المختار :

ـ سوس العالمة ، م. فضالة ، المحمدية ، 1380 هـ 1960 م .

السيوطي جلال الدين :

ـ حسن المحاضرة ، في أخبار مصر والقاهرة ، مطبعة إدارة الوطن ، القاهرة ، 1299 هـ 1881 م .

الشوكاني محمد بن علي 1250 هـ 1834 م :

ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع . م. السعادة ، القاهرة ، 1348 هـ 1929 م .

الصومعي التادلي عبد الرحمن : (أنظر التادلي) .

عبادي أحمد مختار (د.) :

ـ العلاقات الثقافية بين غرناطة وفاس في القرن الثامن الهجري ، (ضمن كتاب : جامعة القرويين في ذكراها المئوية بعد الألف) . وزارة التربية الوطنية ، الرباط 1379 هـ 1960 م .

العبدري أبو عبد الله (قرن 7 هـ 13 م) :

ـ رحلة العبدري ، م. خ. ع. الرباط ، د 1012 .

عبد العزيز بنعبد الله (معاصر) :

ـ مظاهر الحضارة المغربية ، دار السلمي ، الدار البيضاء ، 1957 — 1958 م .

ـ معطيات الحضارة المغربية ، دار الكتب العربية ، الرباط ، 1963 م .

ـ الطب والأطباء بالمغرب ، م. الاقتصادية ، الرباط ، 1380 هـ 1960 م .

عمار علي سالم :
ــ أبو الحسن الشاذلي ، م. دار التأليف ، القاهرة 1951 م .
الغبريني أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله 714 هـ 1314 م .
ــ عنوان الدراية فيمن عرف من علماء المائة السابعة ببجاية ، م. الثعالبية ، الجزائر ، 1328 هـ 1910 م .
الفاسي العابد (1396 هـ 1976 م :
ــ ابن عبد الملك المراكشي ، دعوة الحق ، يناير ومارس 1959 م ، الرباط .
الفاسي عبد الحفيظ :
ــ العصر الذهبي لمدينـــة مراكش ، مجلة المغرب ، ربيـع ، جمادى ، 1355 هـ 1936 م .
الفاسي عبد الكريم أبو محمد بن المجذوب :
ــ تذكرة المحبين في وفيات الأعيان وحوادث السنين ، م. خ. ع. الرباط ، ك 270 ، ابتداء من ص 185 .
الفاسي محمد (معاصر) :
ــ محاضرة حول الموسيقى المغربية الأندلسية ، جريدة العلم ، 11 و 12 يناير 1962 م ، الرباط .
ــ نظرة عن الأدب الشعبي بالمغرب ، مجلة البينة ، عدد 4 / 1382 هـ 1962 ، الرباط .
ــ الرحلات السفارية المغربية ، مجلة البينة ، عدد 7 / 1382 هـ 1962 م .
ــ الأدب الشعبي المغربي الملحون ، مجلة البحث العلمي ، عدد 1 ، الرباط ، 1384 هـ 1964 م .
ــ الخزانة السلطانية وبعض نفائسها ، مجلة البحث العلمي ، عـــدد 6 ، 1385 هـ 1965 م . ودعوة الحق ، عدد 10 / 1385 هـ 1965 م .
الفاسي محمد البشير :
ــ قبيلة بني زروال ، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ، الرباط ، 1962 م .
الفاسي محمد العربي :
ــ مرآة المحاسن في أخبـــار الشيخ أبي المحاسن ، طبع حجري ، فاس ، 1324 هـ 1906 م .

الفاسي محمد المهدي ، 1109 هـ 1697 م :
– ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع، ط. حجري،فاس 1313 هـ 1895 م.
الفشتالي أبو فارس عبد العزيز بن محمد 1032 هـ 1622 م :
– مناهل الصفا في أخبـــار الملوك الشرفا ، تحقيق عبد الله كنون ، المركز الجامعي للبحث العلمي ، م. المهدية ، تطوان ، 1384 هـ 1964 م .
القادري محمد بن الطيب ، 1187 هـ 1773 م .
– نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني ، ط . فاس 1310 هـ 1892 م. و م. خ. ع. الرباط .
قشطيليو محمد :
– نظرة على تاريخ الموريسكوس ، مجلة تطوان ، 1 / 1956 ، الرباط .
القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي 821 هـ 1418 م :
– صبح الأعشى في صناعة الإنشا ،نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية،القاهرة.
الكانوني محمد العبدي :
– آسفي وما إليه قديماً وحديثاً ، م. مصطفى محمد،القاهرة، 1353 هـ 1934 م.
– الطب وآثاره بعاصمة مراكش،مجلة المغرب،ربيع ـ جمادى،1355هـ،1936 م.
الكتاني محمد بن جعفر بن إدريس 1323 هـ 1906 م :
– سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس ، فيمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس ، ط . ح . فاس 1916 م .
الكراسي محمد :
– منظومة حول الوطاسيين ، تاريخ تطوان لمحمد داود ، ج 1 (أنظر محمد داود) .
كنون (كاف مثلثة) عبد الله (معاصر) :
– مؤلف الذخيرة هو مؤلف القرطاس ، مجلة تطوان ، 1957 .
– النبوغ المغربي في الأدب العربي ،دار الكتاب اللبناني، بيروت ، 1961 م .
– ابن الحاج الفاسي (سلسلة مشاهير المغرب) ، بيروت .
– عبد العزيز الفشتالي (سلسلة مشاهير المغرب) ، بيروت .

اللكوسي محمد الجزولي ، 1269 هـ 1852 :

ـ مناقب الحضيكي (محمد بن أحمد ، ت 1189 هـ 1775 م) ، م. خ. ع. الرباط ، د 1124 .

مؤلف مجهول :

ـ تاريخ الدولة السعدية التاكمادارتية ، نشره ج. كولان . الرباط 1934 .

م. مجهول :

ـ الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، تحقيق محمد بن أبي شنب ، الجزائر ، 1339 هـ 1920 م .

م. مجهول :

ـ ذكر مشاهير أعيان فاس في القديم ، م. خ. ع. الرباط ، د 1394 .

م. مجهول :

ـ مجموعة شعرية لأدباء مغاربة من عهد السعديين (ملحق بمناهل الصفا للفشتالي ، أنظر : الفشتالي) .

المحبي محمد 1111 هـ 1700 م :

ـ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، م. الوهبية ، القاهرة ، 1284 هـ 1867 م .

محمد داود (معاصر) :

ـ تاريخ تطوان ، معهد مولاي الحسن ، تطوان ، 1379 هـ 1959 م .

مخلوف محمد بن محمد :

ـ شجرة النور الزكية ، في طبقات المالكية ، م. السلفية ، القاهرة ، 1349 هـ 1930 .

المسناوي الدلائي محمد بن محمد بن أبي بكر :

ـ نتيجة التحقيق في بعض أهل الشرف الوثيق ، ط . ج . فاس .

المقري أحمد بن محمد التلمساني ، 1041 هـ 1632 م :

ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، م. التجارية ، القاهرة ، 1369 هـ 1949 م .

المنوني محمد (معاصر) :
ـ نظم الدولة المرينية، مجلة البحث العلمي، عدد 2 ، 3 ، 4 ، 1384 هـ 1964 م ، الرباط .
ـ علاقات المغرب بالشرق في العصر المريني ، مجلة دعوة الحق ، ابريـــل ، مايو ، 1965 م ، الرباط .
ـ كراسي الأساتذة بجامعة القرويين، دعوة الحق ، عدد 4 ، 1385 هـ 1966 م ، الرباط .
الناصري أحمد بن خالد ، 1315 هـ 1897 م :
ـ الاستقصا ، لأخبار دول المغرب الأقصى ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، 1954 — 1956 م .
الناصري محمد المكي الدرعي (قرن 12 هـ 18 م) :
ـ الدرر المرصعة ، بأخبار أعيان درعة ، م. خ. ع. د 265 ، الرباط .
النيفر محمد الشاذلي :
ـ مساهمة القرويين في اللقاح العلمي بين المغرب وتونس (كتاب جامعـــة القرويين ، أنظر : عبادي) .
الهلالي محمد العربي :
ـ الجامع الأعظم بتطوان ، دعوة الحق ، 1 ، 1382 هـ 1962 م ، الرباط .
الوزان الحسن : (أنظر ليون الإفريقي في المراجع الأجنبية) .
اليفرني = الأفرني .
اليوسي أبو علي الحسن بن مسعود ، 1102 هـ 1690 م :
ـ الفهرست ، م. خ. ع. الرباط ، د 1234 .
ـ المحاضرات ، ط . ح . فاس ، 1317 هـ 1899 م .

الفهرس

L'Abbé (J.J.L) Bargès:
Tlemcen
Et, Benjamen Duprat et Challamel Aïné – Paris 1859
Auguste Cour:
– Le Dynastie Marocaine des B'ni Wattas
Imp. de Braham-Constantine 1920
– L'Etablissement des Dynasties des Chorfa au Maroc
Ed. Ernest Leroux. Paris 1904
Bargès (voir l'Abbé Bargès)
Beaumier (A):
– Raoud Al Qirtas (traduct. francaise)
Paris 1860
Bernard Dubreuil:
– Les pavillons des Etats Masulmans
Hespéris 3 – 1960, Rabat
Berthier (Paul):
– Histoire du Massif de Moulay Idris
Ed. Félix Moncho – Rabat – 1938
Castonnet des Fosses (H):
– Les Portugais au Maroc –
Paris 1937
Caillé (voir Jaques Caillé)
Champion (Pierre):
– Le Maroc et Ses Villes D'Art
Lib. Renouard. Paris 1927
Charles Pellat:
– Recueil de textes de la presse arabe:
Lib. d'Amérique et d'Orient – Paris 1958
Coindreau (voir Roger Coindreau)
Cour (voir Auguste Cour)
De Castries (Henry):
– Sources Inédites de l'Histoire du Maroc
(plusieurs volumes), Paris
– Les signes de validation des Chérifs saâdiens
L. Larose – Paris 1921
De Cenival (voir Pierre de Ceaival)
De Chénier (M):
– Recherches historiques sur les Maures
T. 2 – Paris, 1787
De Cossé Brissac (P.H):
– Robert Blake et la Barbary company
Hespéris 1,2 – 1946 – Rabat

Delafosse (M):
- Les relations du Maroc avec le Soudan à travers les âges
  Hespris 2 - 1924 - Rabat
Deverdun (Gaston):
- Marrakech des origines à 1912
  Ed. Techniques Nord-Africaines - Rabat 1959
- Découverte d'un trésor (Hespéris)
Encyclopédie de l'Islam:
  Première édit. Paris
Fagnan (E):
- Extraits inédits relatifs au Maghreb
  Im. Jules Carbonel - Alger 1924
Georges Marcais:
- Tlemcen
  Lib. Renouard - Paris 1950
Georges Pianel:
- Les préliminaires de la Conquête du Soudan par Moulay Ahmed al-Mansour
  Hespéris 1,2 - 1953
Hady Roger Idris
- Initiation à la Tunisie
  Lib. d'Amérique et d'Orient - Paris 1950
Henri Basset et Lévi Provencal:
- Chella
  Ed. Emile Larose - Paris 1922
Henry Koeler:
- La Casba Laadenne de Marrakech d'après un plan mannscrit
  llespéris 1940 - Rabat
Hoeffer (M.F):
- L'Univers (Afrique Australe + Le Maroc):
  Ed. Firmin Didot Frères - Paris 1848
Houdas (voir al. Yefrani en Arabe)
Jaques Caillé:
- La Petite Histoire du Maroc
  Ed. Casablanca
- Hespéris, 1953
Julien Ch. André):
- Histoire de l'Afrique du Nord
  Payot - Paris 1952
La Nation Africaine
  Quotidien de Rabat - 3 Oct. 1963
Lavoix (Henri):
- Catalogue des monnaies musulmanes
  (Espagne et Afrique) - Imp. Nationale, Paris, 1891

Le bel (Roland):
- Les voyageurs Francais du Maroc
  Lib. Coloniale et orientale Larose – Paris 1936
- Le Maroc dans les relations des voyageurs anglais
  Hespéris 4/1929

Léon l'Afrique (Jean):
- Description de l'Afrique
  Traduit de l'Italien par A. Epaulard
  Lib. d'Amérique et d'Orient – Paris 1956

Léon Paliacov:
- Du Chist aux Juifs
  Ed. Calmann – Lévy – Paris 1961

Le Tourneau (Roger):
- Notes sur les lettres latines de Nicolas Clénard relatant son séjour dans le Royaume de Fès
  Hespéris – Rabat 1934

Manuel L. Ortega:
- Los Hebreos en Marruecos:
  Editorial Hispano Africaina – Madrid 1919

Marcais (voir Georges Marcais)

Marino Arrbas Palau:
- Cartas de recomendacion cursadas al Sultan Abµ
  Saîd Utman III
  Hespéris 3 – 1960 – Rabat

Marmol:
- L'Afrique
  Paris 1657
- Histoire des Chérifs et des Royaumes du Maroc
  traduct. du Duc d'Angloutisme – Paris

Masson (voir Paul Masson)

Mercier Ernest:
- Histoire de l'Afrique septentrionale
  Edit. Ernest Leroux, Paris 1891

Milliot (Louis):
- Démembrements des Habous
  Edit. Ernest Leroux – Paris 1918

Mission Scientifique du Maroc:
- Villes et Tribus du Maroc
  Rabat et sa région – Tanger – Ernest Leroux – Paris 1915
  Paul Masson:
- Histoire des établissements du Commerce Francais dans l'Afrique
  Barbaresque – 1560 - 1793
  Lib. Hachette, 1903

Pellegrin (A):
- Histoire de la Tunisie
  Ed. Lib Namura - Tunis 1948

Pérès (Henri):
- La Poésie andalouse en arabe au XIe siècle
  Lib. d'Amérique et d'Orient - Paris, 1953

Pierre de Cenival:
- L'Eglise Chrétienne de Marrakech au XIIIe siècle
  Hespéris 1/1927 Rabat

Pignon (J):
- Initiation à la Tunisie (voir Hady Roger)

Raymond Mauny:
- Notes sur les grands voyages de Léon l'Africain
  Hespéris 3 et/4 - 1954 Rabat

Robert Ricard:
- Recherches sur les relations des iles Canaries et de la Berbérie au XVI siècle - Herpéris 1 et 2/1935 - Rabat
  Hespéris 4/1936
- Les Portugais et l'Afrique du Nord sous le régime de Jean III
  Hespéris 4/1937
  La relation portugaise de la bataille de Salado
  Hespéris 1-2/1956
- Le Maroc a la fin du XVIe siècle
  Hespéris 3-4/1957

Robert Ricard et Chantal De La Véronne :
- Sources Inédites de L'Histoire du Maro
  (Espagne - Tome II) - Paris

Robert Ricard et Jaques Caillé:
- Salé-Le-Vieux et Salé Le Ne
  Hespéris 4/1947

Roger Coindreau:
- Les Corsaires de Salé 1948 - Paris
- Antoine de Sallettes
  Hespéris 3-4/1947

Rousseau Gabriel:
- Le Mausolée des Princes Saâdiens à Marrakech
  Librairie Orientaliste - Paris 1925

Terrasse (Henri):
- Histoire du Maroc
  Edit. Atlantides - Casablanca 1949

Walckenaer (C.A):
- Recherches Gépgraphiques sur l'intérieur de l'Afrique Septentrionale
  Imp. de Firmin Didot - Paris 1821